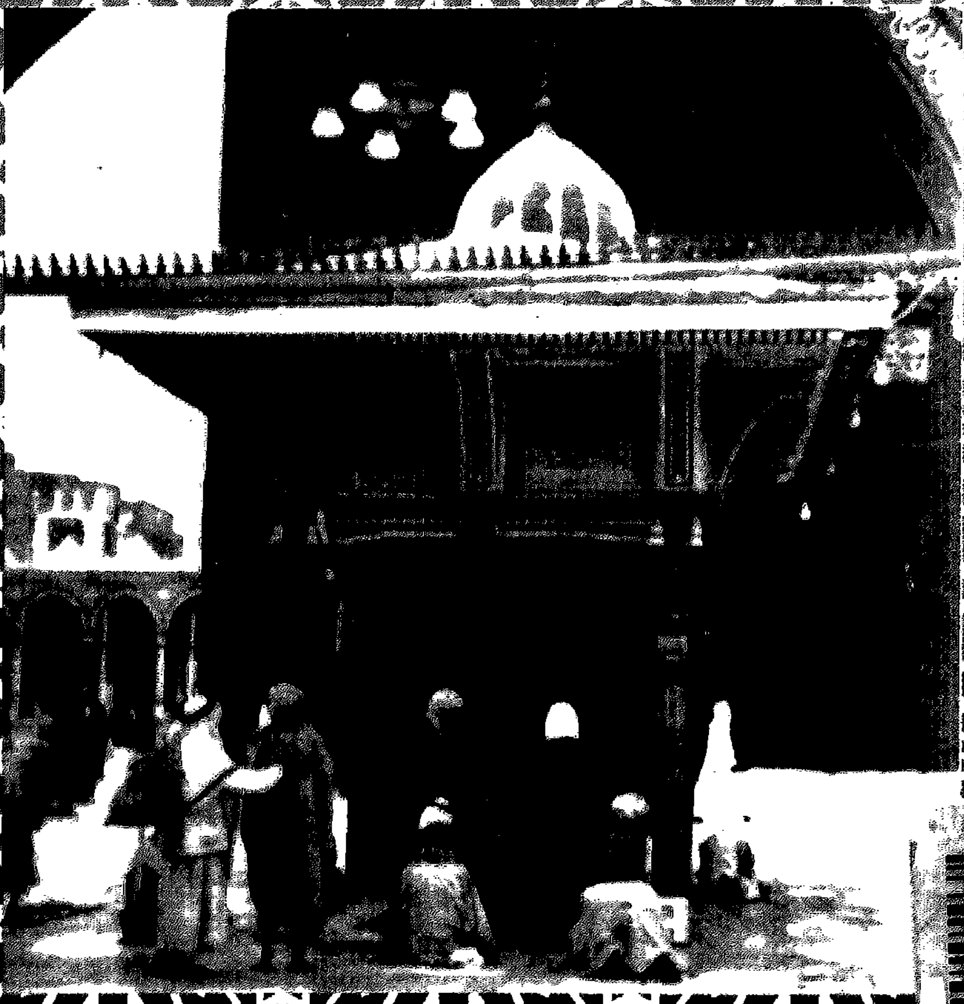
مطبوعات
مكتبة الملك فهد الوطنية

الرحلات المغربية والأندلسية

مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين
-دراسة تحليلية مقارنة-

عواطف محمد يوسف نواب



الرياض
١٤١٧هـ/١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

○ الإهداء ○

إلى من أفنيا شبابهما
وأرهقا أيامهما
وركبا الصعاب
وبذلا الكثير من أجلي
بالجهد والوقت والمال
إلى من لهما الفضل كل الفضل
بعد الله سبحانه وتعالى
بخروج هذا العمل المتواضع
إلى النور
إلى أبي وأمي .. مع التقدير
وإلى ابني محمد الذي عانى
طيلة فترة البحث من بعدي
وانشغالي عنه فإليه
وإلى كل من يقرأ رسالتي
أرجو منه أن يدعو لوالدي
بالصحة وطول العمر ولابني
بالصلاح والهداية

الرحلات المغربية والأندلسية

مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين

- دراسة تحليلية مقارنة -

عواطف محمد يوسف نواب

الرياض

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

نواب ، عواطف محمد يوسف

الرحلات المغربية والاندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين : دراسة تحليلية نقدية مقارنة .ـ الرياض.

٥٠٢ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك ٠-٧١-٠٠-٩٩٦٠

١- الرحالة العرب ٢ - الرحلات والأسفار ٣ - الحجاز - تاريخ

أ - العنوان

ديوي ٩٥٣،١٢ ١٦/٣٦٨٥

رقم الإيداع : ١٦/٣٦٨٥

ردمك : ٠-٧١-٠٠-٩٩٦٠

قائمة المحتويات

الموضوع — **الصفحة**

الموضوع	**الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	**الصفحة**

التقديم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على سنته واتبع هديه... وبعد :

يسعدني أن أقدم لكتاب «الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين» لمؤلفته الأستاذة الفاضلة/عواطف محمد يوسف نواب ومصدر سعادتي هذه تكمن في كون مؤلفته إحدى طالباتي منذ مرحلة البكالوريوس وفي الماجستير وقد تميزت عن قريناتها بجدها وعشقها للبحث والدرس وحب المناقشة واستقلالية الرأي.

وقد تابعت عملها هذا منذ أن كان فكرة للنقاش حتى تم وضع الإطار العام له في ظل خطة بحثية ثم خطا خطواته الأولى في مسوداته حتى أصبح رسالة جامعية قدمت للمناقشة ونالت صاحبتها عليها درجة الماجستير بتقدير امتياز بعد أن أشادت لجنة المناقشة بها وأوصت بطباعتها.

لعل شهادتي للأستاذة المؤلفة مجروحة ولكن هي الحقيقة فقد كانت من خيرة المجموعة التي أشرفت عليها في مرحلة الدراسات العليا، حيث امتازت بالدقة في نقل النصوص التاريخية والتقصي في جمع مادتها العلمية من مظانها المتنوعة. ولم تكتف بما أتيح لها من مصادر ومراجع في مكتبات الجامعات السعودية؛ بل شدت الرحال تبحث وتنقب وإن أعياها الترحال اتخذت من المراسلة والهاتف وسيلة أخرى لنيل مبتغاها من الاستشارات والمقالات والبحوث.

لذلك كله جاء مؤلفها هذا ممتعاً في أسلوبه شاملاً في موضوعه جديداً في طرحه حيث رصدت المؤلفة الأحداث التاريخية في كتب ثمانية من الرحالة المغاربة والأندلسيين فتناولت الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي في تاريخ

الحجاز مع مقارنة النصوص ببعض ما أوردته المصادر التاريخية المعاصرة لكتب الرحلات لتثبت في النهاية أن كتب الرحالة هؤلاء تعد من أهم المصادر التاريخية لرصد تاريخ الحجاز سياسياً واجتماعياً في هذه الحقبة من الزمن.

إن مما يلحظه المتابع للدراسات التاريخية هو مدى الإقبال الشديد على دراسة الموضوعات العامة التي تتناول الجانب السياسي في تاريخنا الإسلامي، ولعل مرد ذلك إلى سهولة تناولها وبحثها وتوفر مصادرها بدرجة كبيرة إلى جانب وضوح منهجها.

أما دراسة مناهج المؤرخين خاصة الرحالة منهم فإنها لا تلقى ذلك الاهتمام والإقبال لاسيما وإن دراستها قائمة على الاستقراء المتأني، والتحليل العلمي الدقيق، والاستنتاج والمقارنة؛ وكلها أمور تحتاج إلى صبر وجلد ودراية وخلفية علمية للتعامل معها. فجاء هذا الجانب من الدراسات قليلاً ويحتاج إلى مزيد من التشجيع والعناية.

وإذا كان الباحثون والدارسون في مجال الدراسات التاريخية لم يولوا هذا الجانب حقه فنرجوا أن يسهم هذا الكتاب إلى جانب الدراسات الأخرى مع قلتها في إلقاء الضوء على أهمية دراسة كتب الرحلات وأسلوب ومنهج هؤلاء الرحالة الذين أبدعوا في تدوين رحلاتهم وتسجيل انطباعاتهم، لاسيما وإن كتب الرحلات عموماً تعد من أصدق المصادر التاريخية وأكثرها عناية بما يتعلق بالحجاز سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وجغرافياً مما تفتقر إليه المصادر الأخرى. إذ اتصف الرحالة ولو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة والوصف والتقصي وتسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق كما حرص أغلب الرحالة على التفرقة بين المشاهدة والرواية عند تسجيل معلوماتهم.

فلقد كان من بين الرحالة رجال علم ودين قامت رحلتهم على أساس التزود بالعلم والالتقاء بالعلماء في مراكز الحضارة الإسلامية كما كان من بينهم رجال شغفوا بالتطواف والسفر وكانت المغامرة واستكشاف المجهول دافعاً لرحلاتهم.

إلى جانب الرحلة في طلب العلم والاستفادة من علماء الحجاز كان الحج من أهم العوامل التي دفعت بهؤلاء وغيرهم من المسلمين لشد الرحال إلى مدنه لزيارة البيت الحرام والسلام على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأداء الركن الخامس من أركان الإسلام ما لم يعقه عائق يحول دون تحقيقه سواء كان عائقًا بدنيًا أو ماليًا أو أمنيًا.

لقد كانت الرحلة عونًا للمؤرخ والجغرافي على حد سواء. إذ أن أغلب الجغرافيين المسلمين كانوا رحالة سجلوا مشاهداتهم ومعايناتهم للأقاليم المختلفة التي وطئوها. فقد كان للرحلة دور في صقل منهج هؤلاء وتأكيد الوقائع والأحداث بالمشاهدة والملاحظة وأدت بالتالي إلى اتساع أفق صاحبها لكثرة ما زار من البلدان واختلط بالعلماء وأصحاب المعرفة فجاء ت بذلك في أسلوب أدبي رفيع.

ولعل هذا الكتاب يكشف لنا القيمة العلمية لكتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين بوصفه مصدرًا مهمًا - ومعولاً عليه - من مصادر تاريخ الحجاز.

والله أسأل أن يوفق الجميع لخدمة تاريخ أقدس البقع وأحبها إلى الله .

د/ فواز علي بن جنيدب الدهاس
أستاذ تاريخ الجزيرة العربية بقسم التاريخ
الإسلامي
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من لا نبيًّ بعده سيدنا ونبينا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد.

لقد شهد إقليم الحجاز حدثاً فريداً غيَّر وجهةَ التاريخ، وهو مبعث النبي عليه أفضل الصلاة والسلام من مكة المكرمة بيت الله الحرام أطهر بقاع الأرض حيث ولد وعاش جُل عمره ﷺ ومن ثم هاجر وأصحابه الغر الميامين رضوان الله عليهم أجمعين إلى المدينة المنورة، وفيها تنزل عليه مابقي من القرآن الكريم وبها ثوى جسده الطاهر.

بالإضافة إلى كثير من الأماكن المختلفة في منطقة الحجاز والتى شهدت مواقع خاضها النبي ﷺ . كانت الفيصل بين الحق والباطل ؛ ولذلك فقد ضم الحجاز مناطق تاريخية تهفو نفس كل مسلم لمعرفتها والإلمام بها.

فالحجاز كان ولا يزال وسيظل إن شاء الله مركزاً لتجمع المسلمين من مختلف أقطار المعمورة يتجهون إليه بأنظارهم وأفئدتهم ؛ لهذا عُد من أقوى مراكز نشر الثقافة الإسلامية بين الأقطار المختلفة ومحط رحال العلماء والمتعلمين.

ولكن مع انتقال مركز الخلافة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية، انصرف اهتمام الدارسين إلى حيث يكون المُلك والسلطان. وظل الحجاز محتفظاً بأهميته التى تمثلت في كونه مركزاً من مراكز الثقافة ومجمع العلماء كل عام يفد إليه منهم مالا يشهده قُطر آخر.

وإذا كان الدارسون ولَّوْا وجهتهم إلى العناية والتاريخ للملوك والأمراء وأغفلوا التاريخ للحجاز وشعبه ؛ فهناك من المصادر التاريخية التى تعد مصدراً

أساساً من مصادر التاريخ تحتوي على معلومات ذات قدر كبير من الأهمية، وهي كتب الرحلات والتي لم تنل ماتستحقه من الدراسة على اعتبار أنها من أوفى المصادر وأوثقها ؛ بل وأشملها فيما يتعلق بالحجاز من النواحي التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والجغرافية. حيث ينفرد هذا النوع من المصادر بأهمية خاصة، فإلى جانب أن مصنفي هذا النوع من الكتب اتسمت منهجيتهم بتسجيل ارتساماتهم عن مشاهداتهم في مسارهم الطويل جيئة وذهاباً فوصفوا البلاد ومعالمها، والعباد وعاداتهم في قالب أدبي قد يطول أو يقصر حسب ميلهم ومارسموه لأنفسهم. فنراهم ينوهون بأسماء شيوخهم مع تراجم مطولة أو موجزة مسجلين إجازاتهم ذاكرين أسماء نفيس المصنفات التي اطلعوا عليها، إضافة إلى وصف المسجدين الشريفين المكي والمدني والمشاهد الإسلامية المقدسة.

ولهذا تنفرد كتب الرحلات بأهمية خاصة. فإلى جانب ماسبق، فإن مصنفي هذا النوع من المصادر قد شهدوا ما دونوه في أغلب الأحيان ؛ لذا اشتملت مصنفاتهم على بعض المعلومات التي تلقي الضوء على الجوانب المختلفة من تاريخ الحجاز.

ولا يغرب عن بالنا : أن الحجاز قد دخل دائرة النسيان بعد القرن الثالث الهجري بمجرد وفاة مؤرخي الحجاز، الأزرقي المتوفى سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م، والفاكهي المتوفى سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م.(١)

وكان تاريخ الحجاز خلال الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري إلى الثامن الهجري مبعثراً بين طيات المصادر التاريخية ؛ إضافة إلى أن ما كتب عن تاريخه لا يوضح ما وقع فيه من أحداث ولا يتناول إلا الجانب السياسي في

(١) عبدالله عقيل عنقاوي : المؤرخ تقي الدين الفاسي وكتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. بحث ألقي في الندوة الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ضمن مجموعة أبحاث مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ج٢ ، ص٦٣.

أغلب الأحيان ؛ مما أوجد فراغاً تاريخياً في النواحي الأخرى.

وفي القرن الثامن الهجري ظهر المؤرخ المكي تقي الدين الفاسي الذي أخذ على عاتقه سد هذا الفراغ التاريخي للحجاز، وذلك بتأليفه كُتباً عن أحوالها أهمها : العقد الثمين في أخبار البلد الأمين، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. وقد أشار إلى باعثين جعلاه يقدم على تأليف تاريخه، وهما :

١ ـ افتقاره لمصادر متخصصة في تاريخ مكة المكرمة بعد الأزرقي والفاكهي.

٢ ـ رغبته في كتابة تاريخ لبلده خلال الفترة التي أعقبت وفاة الأزرقي إلى وقته (١)

وقد أورد أخباراً عن الفترة التي انقطع فيها التاريخ للحجاز فيما بين القرنين الثالث والثامن الهجريين. ومع هذا فمؤلفاته لاتفي بالغرض خاصة وإنها مدة طويلة لم يشهد أحداثها.

وفي هذه الفترة المنسية من تاريخ الحجاز قيض الله للحجاز من تتبع تاريخها من معظم جوانبه بصدق وعفوية وهم الرحالة المغاربة والأندلسيون ومن هنا كان سبب اختيارى لموضوع " الرحلات المغربية والاندلسية مصدر من مصادر تأريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين دراسة تحليلية نقدية مقارنة " مع الأخذ في الحسبان النقد والتحليل للمعلومات التي أوردتها كتب الرحالة ومقارنتها وتوثيقها مع ما جاء في بعض مصادر التاريخ العامة إلى جانب إلقاء الضوء الكافي على منهجية هؤلاء الرحالة من كتاباتهم وأسلوب معالجتهم للقضايا التي طرحوها.

إضافة إلى أنني لم أجد على حد علمي من تطرق لمثل هذا الموضوع وبالأخص كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين خلال القرنين السابع والثامن الهجريين واعتمادهما مصدراً من مصادر تاريخ الحجاز، وعليه فأحسب أن هذا الموضوع من المواضيع الجديدة التي لم تنل ما تستحقه من البحث والدراسة. كما أن هؤلاء الرحالة عرف عنهم تمسكهم بالدين وتقوى الله فمنهم من كان قاضياً وعالماً وكاتباً، فبحكم مكانتهم الدينية والعلمية جاءت كتاباتهم

(١) الفاسي : شفاء الغرام، ج١، ص١٢، ١٥.

متسمة بالصدق والصراحة لأحداث تلك الفترة حيث ألقت الضوء على تاريخ الحجاز وكشفت عن معالمه وأحداثه بعكس المؤرخين المسلمين الذين دونوا تاريخ الحجاز، فهم بطبيعة الحال عندما تناولوا تاريخه لم يشاهدوا الحدث حتى ولو كانوا معاصرين له لأنه وصل إليهم بالسماع وربما من نقل إليهم الحدث قد حرفه أو أنقص منه أو زاد عليه وبهذا فلا يأتي الحدث بالصورة التي وقع فيها.

لذا وجدت في نفسي ميلاً لبحث هذا الموضوع، خاصة بعد اطلاعي على بعض كتب الرحلات في تلك الفترة وما وجدته من معلومات غزيرة تنتظر الإخراج والبحث. وكلي أمل أن أكون قد توصلت إلى نتائج مرضية تظهر أهمية كتب الرحلات واعتمادها مصدراً مهمًا من مصادر تاريخ الحجاز.

أما أهم الصعوبات التي واجهتني فهي : مقارنة بعض ماجاء في كتب الرحلات وخاصة المواقع الجغرافية ببعض كتب المعاجم والمصادر التاريخية الأخرى وخاصة المؤلفة من قبل أبناء الحجاز. ولا يخفى علينا أن الرحالة المغاربة والأندلسيين ليسوا من أبناء الحجاز. فوجدت أن بعض ما كتبوه لا وجود له إما بسبب إندثاره أو تغير المسميات أو إطلاق الرحالة على هذه الأماكن أسماء من قبل أنفسهم استناداً على ما وجد فيها من معالم ربما تكون قد تغيرت أو إندثرت. فكان لزاماً عليَّ الاطلاع على كتب المعاجم والتراجم والتاريخ العام لعلّي أخرج ببصيص نور يوضح ماغمض عند مقارنته. ولكني استطعت بحمد الله تعالى اجتياز هذا الأمر واستأنفت صياغة موضوعي وفق الشروط والقواعد المتبعة في كتابة البحوث والدراسات العلمية والتي أرشدني إليها أستاذي الفاضل. فأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وستة فصول وخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث. أما الفصول فقسمتها على النحو الآتي :

المقدمة : بينت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياره بالإضافة إلى عرض موجز لأهم المصادر التي أفادت البحث.

التمهيد : واشتمل على تحديد الحجاز، ومفهوم الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومفهوم الرحلة في اللغة، وبداية الرحلات في الإسلام وأشهرها، سواء ما كان منها بالمشرق أو المغرب مع بيان أنواع الرحلات.

الفصل الأول : تناول فن الرحلة عند المغاربة والأندلسيين. وتندرج تحته عدة مباحث فرعية تحدثت فيها عن أنواع الرحلات سواء منها البرامج أو الرحلات الوصفية. ثم تكلمت عن خصائص الرحلات المغربية والأندلسية التي منها ما هو عام يشمل كتابات جميع الرحالة، وخاص انفرد كل واحد منهم بشيء منها. وختمت هذا الفصل بأهمية الرحلات المغربية والأندلسية، وإعادة النظر في وجوب الاعتماد عليها بوصفها مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الحجاز.

أما الفصل الثاني : فقد سلط الضوء فيه على الرحالة الثمانية الذين كان الاعتماد عليهم وهم ابن جبير ـ الرعيني ـ ابن رشيد ـ العبدري ـ التجيبي السبتي ـ ابن جابر الوادى آش ـ ابن بطوطه ـ البلوى. وقد تناولت فيه مقتطفات عن حياتهم ومكانتهم الاجتماعية والعلمية ومؤلفاتهم ثم خصائص ومميزات رحلتهم. وقد سرت في ترتيبهم على حسب قدومهم للحجاز الأقدم فالأحدث.

وقد تم استبعاد رحلة ابن خلدون بالرغم من أنها كانت في القرن الثامن لأنه لم يورد ما يفيد عن أحوال الحجاز ووصفه(1).

أما الفصل الثالث : فقد أفردته للحديث عن الأحوال السياسية حسب ما جاءت في كتب الرحلات. فهذا الجانب أخذ حيزاً من البحث لا بأس به وقد سردت فيه العلاقات السياسية لأمراء الحجاز سواء منها الداخلية أو الخارجية . ثم تطرقت إلى نظم الحكم والإدارة بالحجاز.

وقد شمل الجانب السياسي الأحوال الداخلية لبلاد الحجاز، وأسماء بعض الأمراء الأشراف المعاصرين لتلك الفترة، وانطباعات الرحالة عنهم

(1) ابن خلدون : العبر ، ج ٧ ، ص ٤٥٥ .

ومقارنة ذلك كله بما ورد في بعض المصادر التاريخية، سواء منها المعاصر أو اللاحق. أما نظم الحكم فكان الحديث فيها عن أهم الوظائف القيادية التي وجدت في ذلك الوقت من وزراء وقواد وغير ذلك.

أما الفصل الرابع : فقد أفردت الحديث فيه للناحية الاجتماعية والتي اشتملت على الحياة الاجتماعية بالحجاز. وقد تناولت فيه عناصر المجتمع وطبقاته والعادات والتقاليد السائدة في تلك الفترة والاحتفالات والمواكب والملابس والأطعمة والأشربة. وقد قمت ببعض المقارنات بما ورد في بعض كتب المصادر التاريخية وإن كان هذا الفصل أقل الفصول مقارنة لإغفال المؤرخين لهذا الجانب، فاقتصرت في كثير من الأحيان على ماورد في كتب الرحلات. ثم أتبعته بإلقاء الضوء على الحالة الاقتصادية في بلاد الحجاز من خلال كتب الرحالة.

أما الفصل الخامس : فقد تناولت فيه الحياة العلمية في بلاد الحجاز حسب ما وردت في كتب الرحلات، واشتمل على المذاهب الموجودة وأهم مراكز العلم بالحجاز وهما : المسجدان المكي والنبوي ؛ إضافة إلى المدارس الموجودة في ذلك الوقت بمكة المكرمة أو المدينة المنورة، وسردت أسماء أشهر العلماء وأهم العلوم والكتب المتداولة في ذلك الوقت.

أما الفصل السادس : فقد اشتمل على المشاهدات الجغرافية والعمرانية من خلال كتب الرحلات، فالمشاهدات الجغرافية شملت الطرق التي سلكها الرحالة داخل الحجاز للوصول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.ثم المشاهدات العمرانية وشملت العمارة الدينية من المساجد والمسجدين المكي والمدني، كما شملت أيضاً العمارة المدنية من الدور، والعمارة الحربية من الأسوار والقلاع والحصون سواء منها الجديد أو الخرب، ثم النقوش والزخارف ومشاريع المياه.

أما الخاتمة : فقد اشتملت على أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، تلاه ثبت للمصادر والمراجع والفهارس .

وفيما يلي عرض مختصر لأهم المصادر التى استخدمت في البحث :

لقد قمت بالاستعانة ببعض المصادر التاريخية التي كتبت عن تاريخ الحجاز بخلاف كتب الرحلات والتي أفردت لها فصلين هما الأول وجزء من الفصل الثاني تكلمت فيهما عن خصائصها ومميزاتها وما جاء فيها من معلومات وأهميتها ؛ لذا لا لزوم لإعادة القول عنها. ونكتفي بذكر أهم المصادر المساندة لتلك الرحلات والتي اعتمدت عليها في المقارنة والتوثيق والتي أمدتني في الوقت نفسه بمعلومات لم يذكرها الرحالة توضح ما غمض في بعض المواضيع، أو تحدث الرحالة عن طرف معين منها مما يجعل الغموض يكتنفها، وبمساندة هذه المصادر استطعنا إزالة الغموض وتوضيح ما خفي على الرحالة إظهاره. فمن هذه المصادر التي استفدت منها في المعلومات عن مكة المكرمة :

١- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لتقي الدين الفاسي.

فالكتابان من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في البحث لوفرة المعلومات بهما. فالكتاب الأول تناول أخبار مكة المكرمة منذ عهد الإسلام الأول أعقبها بتراجم لأهم الشخصيات من الأمراء والعلماء والقضاة سواء منهم المجاورين أو من أبناء مكة المكرمة. كما تناول أهم أعمال الأمراء، والأحداث الجارية في عهدهم. وقد رتب كتابه على حسب الحروف الأبجدية ما عدا المحمدين والأحمدين إذ قدمهما لفضل الاسمين. فكتابه هذا يعد موسوعة تحوي معلومات علمية وأدبية وسياسية واجتماعية مبثوثة خلال التراجم. وقد أسند ووثق في إيراده لبعض هذه المعلومات إلى مانقله من شواهد القبور وواجهات المساجد والدور. أما الكتاب الثاني : فقد تناول فيه الحديث عن أهم أحداث مكة المكرمة منذ عهد الرسول ﷺ إلى عصره مرتبة بتسلسل السنوات وقد استفدت منه الكثير من المعلومات العلمية والسياسية والاجتماعية الوفيره، فضلاً عن العمرانية.

٢ ـ إتحاف الورى بأخبار أم القرى لنجم الدين عمر بن محمد بن فهد.
وهذا الكتاب لايقل أهمية عن كتابي الفاسي. وقد قام بترتيبه بحسب السنوات وما وقع فيها من أحداث بمكة المكرمة متخللاً ذلك تراجم لأشهر العلماء والأمراء مبتدئًا بالعصر النبوي وحتى وفاة المؤلف. وقد أفادني بالكثير من المعلومات السياسية.

٣ـ الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة لعبدالقادر ابن محمد الجزيرى.
وقد استفدت مما أورده من معلومات سياسية، وما ذكره عن طريق الحج المصرى، وما تم فيه من إصلاح وإنشاء.

أما أهم المصادر التي استفدت منها في المدينة المنورة :

١ـ أخبار مدينة الرسول المسمى الدرة الثمينة لمحمد بن محمود ابن النجار.
وهو مصدر مهم امتاز بمعلومات عمرانية، وخاصة عن المسجد النبوي ومشاهد المدينة. وهو من المصادر التي رجعت إليها ؛ خاصة وأنه عاش في القرن السابع الهجري فجاءت أقواله مطابقة لأقوال الرحالة في كثير من الأمور.

٢ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لنور الدين علي السمهودى.
يعد كتابه من الكتب المهمة في تاريخ المدينة المنورة لأنه قد اعتمد على كتب قديمة لم يصلنا منها شيء، وقد استفدت منه في النواحي : العمرانية والاجتماعية والسياسية والدينية.

٣ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة لشمس الدين السخاوي :
يعد كتابه من الكتب المهمة الزاخرة بالتراجم التي يبرز من ثناياها النشاط العلمي الذي حفلت به المدينة المنورة والذي استفدت منه كثيراً وقد أمدني هذا الكتاب بالكثير من المعلومات التي أثرت البحث.

ومن الكتب المساندة التي استرعت انتباهي في المقارنات العمرانية كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول من القرن السادس الهجرى(١).

---

(١) مؤلف مجهول من كتاب القرن السادس الهجري : الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبدالحميد .

وعلى هذا فإن مؤلف هذا الكتاب عاصر ابن جبير[1] ؛ إلا أن ما أورده من أوصاف لبعض المعالم التاريخية بمكة المكرمة والمدينة المنورة يختلف تماماً عما أورده ابن جبير. ولعل ذلك يرجع إلى ما قيل عن مؤلف الاستبصار ما ذكره محقق كتاب الاستبصار حول مؤلفه ؛ إذ يفترض أن للكتاب مؤلفين أحدهما مجهول والآخر هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر ابن تميم القيسى المعروف بابن محشرة أحد كتاب الموحدين الذي أعاد ترتيب الكتاب وأضاف إليه من الأحداث المعاصرة له. أما الدكتور/ محمد المنوني فـأكـد أن الكتـاب لمؤلفين، وأضـاف أن الثـاني كـان يعـيش في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. كما أشارت الدكتورة / ليلى نجار أن المؤلف الثاني لهذا الكتاب قد قام بإهدائه إلى أبي عمر ابن أبي يحيى بن وقتين وهو أحد كبار رجال الدولة الموحديه، بعد أن قام بترتيبه وتنقيحه ووضع المقدمة له. وقد أيدت ما ذهب إليه الدكتور/ المنوني من أن من قام بهذا العمل أحد كتاب المنصور الموحدي[2].

وهو ما نميل إليه أيضاً خاصة وأن التجيبي ينقل نصوصاً ظهر لنا من مقارنتها إنها من كتاب الاستبصار لا سيما وإننا قد وجدنا تطابقاً فيما وصفه التجيبي وصاحب الاستبصار في بعض الأماكن أشرت إليها في مواضعها[3]. وفي نقله يصرح أحياناً بأنه ناقلٌ عن شخص نعته بالأديب الكاتب أبي العباس ابن عبدالرؤوف، وأحياناً لا يصرح بذلك وفي كلا الحالتين وجدت تطابقاً في

---

(١) المصدر السابق : المقدمة ، ص ب ، ث .

(٢) مؤلف مجهول : الاستبصار ، المقدمة ، ص ب ، ث ؛ محمد المنوني : الاستبصار في عجائب الأمصار ، الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها . مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج٢ ، ص ٣٠٨ ؛ ليلى أحمد نجار : المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ، رسالة دكتوراه .

(٣) انظر التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ١٢ ـ ١٣ ، ٢٤٣.

الوصف لفظاً ومعنى مما يرجح أن أبا العباس بن عبدالرؤوف هذا هو صاحب كتاب الاستبصار.

كما أن التجيبي أشار إلى أنه كان يحمل كتاب رحلة لرحالة أندلسي تشير الدلائل السابقة إلى أنه كتاب الاستبصار. ولكن للأسف لم أعثر على ترجمة لهذه الشخصية. ربما لأنه لم يصرح باسمه كاملاً مما زاد في غموض الموضوع، ولكن أرجو أن أكون في بداية الطريق الصحيح لمعرفة مؤلف الاستبصار. خاصة وإنني قد عرفت جزءاً من اسمه والذي سيقودني ومن يأتي بعدي إن شاء الله إلى معرفته ومن ثم الاطلاع على ترجمة لحياته وماتركه من مؤلفات.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أتوجه إلى المولى عز وجل بالدعاء أن أكون قد وفقت فيما قدمت.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين فهو نعم المولى ونعم المعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

أولاً - تحديد الحجاز.

ثانيًا - مفهوم الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ثالثًا - الرحلة في مفهوم اللغة.

رابعًا - بداية الرحلات في الإسلام وأشهرها.

أولاً : تحديد الحجاز

الحجاز أحد أقاليم شبه الجزيرة العربية القديمة. معروف موقعه غير واضحة حدوده. ومعنى الحجاز : الحد أو الفصل أو الحجز[1]. ولفظ الحجاز عرف قديماً منذ كان سكان شبه الجزيرة العربية يعيشون أشتاتاً يعمهم التفكك السياسي ولاتجمعهم دولة. فهم مجموعة من القبائل استقرت في مناطق معينة غير واضحة الحدود وغير ثابتة ولا متطابقة مع الأقسام الجغرافية ، مع ملاحظة تمتع بعض مدنه بالاستقلال وفق نظم خاصة. مثل مكة والمدينة وبعض إمارات اتسعت رقعتها على حساب غيرها.

وبعد ظهور الإسلام أصبح الحجاز جزءاً من الدولة الإسلامية. فأوجد المسلمون تقسيمات إدارية متلائمة مع مستجدات الظروف دون الالتزام بالتقسيمات الجغرافية. فنتج عن ذلك عدم ثبوت تلك التقسيمات مما جعل لكل من المدينة ومكة والطائف والياً قائماً بذاته ، امتدت في بعض الأحيان سيطرته السياسية إلى أطراف العراق [2].

وقد أطلق على البقعة الممتدة من اليمن جنوباً إلى أطراف الشام شمالاً الحجاز لحجزه بين نجد وتهامة وروي هذا التحديد عن ابن عباس رضي الله عنهما إذ يعد أول من تطرق لحدوده[3] وهو كما نلاحظ تحديد واسع غير دقيق.

وحدد الهمداني الحجاز شمالاً بأرض طيء وجنوباً بتثليث [4] وماحولها[5]. وورد تحديد آخر للحجاز لدى الأصفهاني : بأنه يمتد من صنعاء جنوباً إلى أطراف الشام شمالاً وسمي حجازاً لحجزه بين نجد وتهامة وعليه

---

(١) انظر : ابن منظور : لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٣٣١.

(٢) صالح العلي : تحديد الحجاز عند المتقدمين ، مجلة العرب ، الرياض ، العدد الأول ، السنة الثالثة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م. ص ١ ـ ٢.

(٣) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٤) (تثليث) بكسر اللام موضع بالحجاز قرب مكة. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٥ ـ ١٦.

(٥) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ٥٧ ـ ٥٨.

فمكة من تهامة والمدينة والطائف من الحجاز. وما انحدر من ذات عرق[١] غرباً فهو من الحجاز. وما انحدر من ذات عرق شرقاً فهو من نجد [٢].

وذكر عرام ابن الأصبغ حد الحجاز الشرقي والغربي ، وأغفل حده الشمالي والجنوبي. فالحجاز لديه : المنطقة الواقعة بين المدينة ومعدن النقرة[٣] فالمدينة نصفها حجازي ونصفها تهامي [٤]. أما الحربي فجعل حد الحجاز من الشمال تبوك وفلسطين ومن الجنوب يلملم [٥] ومن الشرق الربذة [٦] وبطن نخل ومن الغرب العرج [٧]. فجعل الطائف والمدينة من نجد [٨].

أما ابن حوقل فحدده جنوباً بالسرين [٩] وشمالاً بمدين والحجر، وشرقاً باليمامة وجبلي طيء[١٠]. وذكر ياقوت أن الحجاز ما حجز بين تهامة ونجد وبين الشام وتهامة والبادية كما نقل عن الأصمعي قوله : أن مكة تهامية والمدينة والطائف حجازية [١١]. بينما يذكر البكري أن تبوك وفلسطين والرّمّة من الحجاز. ومن البصرة إلى بطن نخل حجازي فمكة وجدة من تهامة.[١٢]

---

(١) (ذات عرق) ميقات أهل العراق وهو الحد بين نجد وتهامة فما ارتفع من بطن الرمّة فهو نجد إلى ثنايا ذات عرق ويذكر أهلها إنهم من تهامة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٠٧ـ١٠٨.

(٢) الأصفهاني : بلاد العرب ، ص ١٤ ــ ١٥.

(٣) (معدن النقرة) : بطريق مكة وهي منازل حجاج الكوفة وهي حد نجد. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩.

(٤) عرام ابن الأصبغ : أسماء جبال تهامة ، ص ٤٢٤.

(٥) (يلملم) موضع على ليلتين من مكة وهي ميقات أهل اليمن. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٤٤١.

(٦) (الربذة) من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز وبها قبر أبي ذر الغفاري. انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٤ ــ ٢٥.

(٧) (العرج) : قرية في وادٍ من نواحي الطائف. انظر المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٨ ــ ٩٩.

(٨) الحربي : المناسك وأماكن طرق الحج ، ص ٥٣٣ ــ ٥٣٧.

(٩) (السرين) بلدة قرب مكة على ساحل البحر تبعد عن مكة أربعة أو خمسة أيام قرب جده. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٢١٩.

(١٠) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٢٩ – ٣٠ .

(١١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(١٢) البكري : معجم ما استعجم ، ج١ ، ص ١٢.

وشارك الجغرافيون المحدثون في تحديد الحجاز حيث ذكر القثامي : أن العقبة والبتراء ضمن الحجاز مدخلاً فيه خيبر وتيماء وتبوك والعلا [1]. بينما يرى البلادي : أن حدود الحجاز غير معروفة [2]. أما العلي فيميل إلى أن الحجاز هو الحد الفاصل بين تهامة ونجد مع التسليم بالاختلاف في تحديد الأماكن من الجهتين الشرقية والغربية [3].

ويظهر من استعراض بعض أقوال الجغرافيين المسلمين عدم اتفاقهم على حدود جغرافية واضحة المعالم للحجاز ، وما ورد من أقوالهم لا يحدد موقعه بدقة ، وإنما يشير إلى موقعه بصورة عامة.

لذا نقتصر على المنطقة التي يعتقد أنها من الحجاز. والتي تبدأ من تبوك شمالاً إلى أطراف اليمن جنوباً ومن ساحل البحر الأحمر غرباً إلى أطراف نجد شرقاً.

ثانياً : مفهوم الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة :

لم يدع الإسلام وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان إلا وحثه على فعلها ، ومنها الرحلة. سواء أكانت للعلم أو الهجرة بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام أو الحج أو التجارة.

وفي بداية الحديث عن الرحلة لابد من التطرق إلى أولى الرحلات الثابتة لدينا والمستقاة من أوثق وأصدق مصادرنا الإسلامية وهو القرآن الكريم. فقد حفل القرآن الكريم بالأمثلة العديدة لكل نوع منها على الرغم من عدم ورود لفظ رحلة فيه إلا مرة واحدة في سورة قريش. قال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف ﴾ [4].

---

(١) القثامي : الآثار في شمال الحجاز ، ج١ ، ص ١٨.

(٢) البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص ٨.

(٣) صالح العلي : تحديد الحجاز عند المتقدمين ، مجلة العرب ، الرياض ، ج١ ، السنة الثالثة ، رجب ١٣٨٨هـ / تشرين الأول ١٩٦٨م ، ص ٩.

(٤) القرآن الكريم : سورة قريش ، ١٠٦ /١ ـ ٤.

وقد أفردت هذه السورة بكاملها للحديث عن الرحلة. وهي رحلة قريش التجارية. فكما هو معلوم أن أهل مكة المكرمة اتجهت أنظارهم إلى التجارة بحكم موقع مكة ﴿ بواد غير ذي زرع ﴾ كما قال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (١).

فهذا الموقع جعلها منطلق التجارة. وأظهرت سورة قريش بوضوح رحلتيها إلى الشام واليمن ، والتي جنت منهما أرباحاً طائلة انعكست آثارها على أوضاعها الاقتصادية. وغدت ذات مركز مالي خطير في الحجاز ، وسوقاً لتبادل السلع. ولم يكن هدفها من الاستيراد الاكتفاء الذاتي فقط ؛ بل قامت بتصدير الفائض عن حاجتها إلى أطراف السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والشام واليمن والسواحل الإفريقية المقابلة. حيث بلغت أحمال كل قافلة لتلك الجهات أكثر من ألف بعير (٢). إلى جانب أن أكثر تجارها هم من سَدَنَة وأهل بيت الله الحرام والذي زادت مهابته في نفوس الناس عقب حادثة الفيل ، فلم يجرؤ أحد بالتطاول على تجار مكة ؛ إذ أن الله تعالى منّ عليهم بهذا الأمان كما جاء في سور قريش.

وعلى ضوء ذلك تمتعت مكة المكرمة بمكانة عظيمة وتقاطر الناس عليها استجابة لدعوة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام. هذا فيما يتعلق بالرحلات الخارجية. أما الرحلات الداخلية فكانت :

أولاً : لأداء فريضة الحج بدافع ديني وكانوا يستفيدون من رحلتهم تلك في التبادل التجاري حيث كانت تعقد الأسواق قبل الحج وبعده.

---

(١) القرآن الكريم : سورة إبراهيم ، ١٤/٣٧.

(٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٧ ، ص ٢٩٠ ــ ٢٩١.

ثانياً : الرحلات إلى أسواق العرب التي أقاموها في نواحٍ متعددة من جزيرتهم واشتهر منها سوق عكاظ [1] وذي مجاز [2] ومجنة[3] ودومة الجندل[4] وعمان[5] وهجر[6] والمشقر[7] وصنعاء[8]

---

(١) (عكاظ) اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية كانت قبائل العرب تجتمع به كل سنة ويتفاخرون فيه ويحضرها شعراؤهم لإلقاء قصائدهم الشعرية ثم يتفرقون. وهو أعظم أسواق قريش والعرب ويستمر طوال شوال ، وعكاظ نخل من وادٍ بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليالٍ وهو أرض واسعة شرق الطائف بميل نحو الشمال خارج سلسلة الجبال المطيفه به وتبعد تلك الأرض عن الطائف مسافة ٣٥كم تقريباً. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ١٤٢ ؛ جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٧ ، ص ٣٧٨ ؛ حمد الجاسر :موقع عكاظ ، مجلة العرب ، رمضان ١٣٨٨هـ / كانون الأول ديسمبر ١٩٦٨م ، ج٣ ، ص ١١٣٨ ــ ١١١٥٨.

(٢) (ذى مجاز) : موضع سوق بعرفة على ناحية كبكب عن يمين الإمام على فرسخ من عرفة وتقيم فيه العرب في الجاهلية ثمانية أيام من ذى الحجة بعد انصرافهم من سوق مجنه. أنظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٥٤ ؛ جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٧ ، ص٣٩٠.

(٣) (مجنة) اسم سوق للعرب كان في الجاهلية وهو بمر الظهران قرب مكة يقال له الأصفر وهو بأسفل مكة على قدر بريد منها وكان العرب يقيمون فيه عشرين يوماً من ذى القعدة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٥٨ ــ ٥٩ ؛ جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٧ ، ص ٣٨٠.

(٤) (دومة الجندل) : حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء ودومة الجندل من القريات من وادي القرى ويكون سوقها خلال شهر ربيع الأول. انظر اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ٢٧٠ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٨٧ ؛ جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م ، ج٨ ، ص ١٥٩.

(٥) (عمان) اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند من شرقي هجر تشمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزرع. انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ١٥٠ ؛ جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م ، ج ٨ ، ص ١٥٩.

(٦) (هجر) مدينة وهي قاعدة البحرين وقيل ناحية البحرين كلها هجر. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٣٩٣.

(٧) (المشقر) : حصن بين نجران والبحرين وهي على تل عالٍ ويقابلها حصن بني سدوس وقيل حصن بالبحرين عظيم ويقوم سوق المشقرفي جمادى الأولى. انظر اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص٢٧٠ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٣٤ ؛ جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م ، ج٨ ، ص ١٥٩.

(٨) (صنعاء) مدينة قديمة باليمن بينها وبين عدن ٦٨ ميلاً وهي قصبة اليمن وأحسن بلادها ويقوم بها السوق في النصف من شهر رمضان. انظر اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ٢٧١ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤٢٦ ؛ جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م ، ج٨ ، ص ١٥٩.

وحضرموت[1] وحباشة[2] وبدر[3] وبني قينقاع[4] وغيرها.

لقد حرص العرب على إقامة هذه الأسواق سنوياً، وتميزت بتنافس الشعراء في إظهار عبقريتهم الشعرية، إلى جانب استغلال هذه الأسواق أيضاً لتبادل السلع التجارية المختلفة، والترويج للأفكار والديانات الجديدة. فقد عرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على العرب في هذه المواسم، ودعاهم إلى الإسلام والدفاع عنه [5].

ثالثاً: الانتقال سعياً وراء العشب والماء؛ لأنهما قوام حياة العربي في ذلك الوقت. فهذه الرحلات الثلاث داخلية. يقومون بها سنوياً وبانتظام داخل بلادهم.

ولقد لفت القرآن الكريم الانتباه إلى فوائد وأنواع الرحلات. ويمكن إدماجها في الآتي:

---

(١) (حضرموت) ناحية واسعة من شرقي عدن بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف وبها قبر هود عليه السلام وهي مخلاف من اليمن بينه وبين البحر رمال. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ٢٧٠؛ جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، ج٨، ص ١٥٩.

(٢) (حُباشة): سوق من أسواق العرب في الجاهلية وهو سوق بتهامة وهو سوق لقينقاع. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٣) (بدر): ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار ساحل البحر ليلة وكان بها الواقعة المباركة التي أظهر الله بها الإسلام في شهر رمضان في السنة ٢هـ/٦٢٣م وبين بدر والمدينة سبعة بُرد. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٣٥٧؛ جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، ج٨، ص ١٥٩.

(٤) (بني قينقاع): اسم شعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة أضيف إليهم سوق كان بها يقال له: سوق بني قينقاع. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص ٤٢٤؛ جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، ج٨، ص ١٥٩.

(٥) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص ٢٤٥؛ وأخرج ابن ماجه عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في المواسم فيقول: الا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي " ابن ماجه: السنن، ج١، ص ٧٣.

١ ـ الرحلة فراراً بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام.
٢ ـ الرحلة في طلب العلم.
٣ ـ الرحلة للحج.
٤ ـ الرحلة للتجارة.

١ ـ الرحلة فراراً بالدين من أرض الشرك إلى أرض الإسلام :

وأشهرها هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة فراراً من إضطهاد وظلم قريش ثم هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة فراراً بالدين وخوفاً من الفتنة ورغبة بما وعد الله من التوسعة في الرزق وثبوت الأجر في حالة الوفاة قبل بلوغ البلاد المنتقل إليها[1] قال تعالى : ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعه ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[2] . وروي عنه صلى الله عليه وسلم قوله : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" [3] .

٢ ـ الرحلة في طلب العلم :

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة ، تبين هذا النوع من الرحلة . وأشهر رحلة علم وردت فيه . هي رحلة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام ليتعلم منه قال تعالى : ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً . فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا. فلما جاوزا قال لفتاه ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٥ ، ص ٣٤٧ ـ ٣٥١ ؛ سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج٢ ، ص ٧٤٥ ـ ٧٤٦.
(٢) القرآن الكريم : سورة النساء ، ١٠٠/٤.
(٣) البخارى : صحيح البخارى بحاشية السندى ، ج١ ، ص ٦ ؛ مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ، ج١٣ ، ص ٥٣ ـ ٥٤.

الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا. قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على ءاثارهما قصصًا. فوجدا عبداً من عبادنا ءاتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمًا. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلمت رُشداً . قال إنك لن تستطيع معي صبرًا. وكيف تصبر على مالم تحط به خُبرًا. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرًا. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا. قال إن سألتك عن شيء بعدهافلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرًا. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لوشئت لتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرًا. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكوٰة وأقرب رُحمًا. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً ﴾ (١).

فهذه الآيات مثال واضح ضربه الله تعالى لطلب العلم وبيان وجوبه . وقد فهم المسلمون معنى ذلك مبكراً ، فسعوا لطلبه من مكان إلى آخر، مع الحرص على لقاء العلماء والأخذ عنهم.

فموسى عليه السلام بالرغم من بلوغه تلك المرتبة العالية عند الله تعالى واختصاصه بكلامه يرحل إصراراً على لقاء العبد الصالح بغض النظر عن

(١) القرآن الكريم : سورة الكهف ، ١٨/ ٦٠ ـ ٨٢.

المسافة والمشقة[1]. وطالباً بأدب[2] وسائلاً إياه أن يعلمه مما علمه الله تعالى واشتراطه بعدم الاستفسار مما يراه مخالفاً لشريعته[3] مقابل ذلك يفسر له ما غمض عليه ويمضي السرد القرآني إلى أن يفترقا[4]. ومن الآيات السابقة نستنتج أن الاستزادة من العلم واجبة على الإنسان ووجوب السعي والرحلة لأخذ المزيد منه فكليم الله تعالى رحل لتحصيل علم لايعرفه . وقد كان بمقدوره تعالى إحضار العبد الصالح إلى موسى عليه السلام لتعليمه ، ولكنه سبحانه وتعالى أراد توضيح أن العلم يتطلب البحث والانتقال لطلبه.

وقد اختلف القول في شخصية العبد الصالح أهو الخضر أم غيره ، ولكن ثبت في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه ابن عباس أنه الخضر[5].

إن الله تعالى خالق كل شيء ومدبره ومسخره للإنسان وبالتالي وضع في الإنسان الدافع لاستكشاف كل ما حوله والاستفادة منه في معرفة عظمة الخالق[6] ، قال تعالى : ﴿ وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[7].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة للتفكر والتدبر :أولاً في خلق الله تعالى ثم السعى لرؤية المزيد ترسيخاً لإيمان الإنسان ومنعاً من المعاصي الموجبة للسخط والعذاب[8].

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج٤ ، ص ٢٢٧٨.

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج١١ ، ص ١٧ ؛ سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج٤ ، ص ٢٢٧٩.

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج٣ ، ص ٩٥.

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج١١ ، ص ٩ ــ ٢٣ ؛ سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج٤ ، ص ٢٢٧٩.

(٥) البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندى ، ج١ ، ص ٢٥.

(٦) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج١٦ ، ص١٦ ؛ سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج٥ ، ص ٣٢٢٦ ــ ٣٢٢٧.

(٧) القرآن الكريم : سورة الجاثيه ، ٤٥/١٣.

(٨) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج٤ ، ص ٢٠٢٥.

٣ ـ الرحلة للحج :

قال تعالى : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق ﴾[١]. فالدعوة لحج بيت الله الحرام قديمة منذ أيام خليل الرحمن عليه السلام، فهو معروف في الجاهلية ومشهور، وكان مما يرغبهم إلى ذلك الأسواق التى تقام فيه، فلما جاء الإسلام ألزمهم به مرة في العمر للقادر على ذلك ، قال تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾[٢].

وأصبح الحج أحد قواعد الإسلام مقروناً بالاستطاعة ، وأُجيب نداء الله تعالى للمرة الثانية ؛ ولكن المسلمين كرهوا التجارة وإقامة الأسواق في موسم الحج كما ، هي حالهم في السابق على اعتبار أن أيام الحج أيام ذكر وعبادة[٣]. فأنزل الله تعالى آية قرنت الحج بالتجارة ومحت إحساسهم بالتحرج من ذلك، فجمعوا رضى الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾[٤].

٤ ـ الرحلة للتجارة :

لقد مهر العرب في التجارة ، وإن كان ذلك داخل نطاق محدود في الجاهلية، فهم يرحلون رحلتين في الصيف والشتاء إلى الشام واليمن، ولكن بعد إسلامهم اتسع نطاق تجارتهم تبعاً لاتساع دولتهم ؛ بل لقد تعداه إلى أماكن لم يصلها غيرهم ولم يكتفوا بالرحلة براً ؛ بل ركبوا البحر أيضاً خاصة بعد أن وجه الله تعالى أنظارهم لذلك[٥] ، قال تعالى : (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً)[٦]. لم يكن القرآن الكريم وحده الحاث على

---

(١) القرآن الكريم : سورة الحج ، ٢٢/٢٧.
(٢) القرآن الكريم : سورة آل عمران ، ٣/٩٧.
(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٢ ، ص ٤١٤ ـ ٤١٥.
(٤) القرآن الكريم : سورة البقرة ، ٢/١٩٨.
(٥) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ،ج١٠ ، ص ٢٩١.
(٦) القرآن الكريم : سورة الإسراء ، ١٧/٦٦.

الرحلة في طلب العلم ، بل إن أحاديث الرسول ﷺ فيها الشيء الكثير الدال على فضل العلم وطلبه والحث على ذلك . ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال "... ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده "(١).

وأما عن الأحاديث الدالة على الرحلة في سبيل العلم ، فقد أشرنا إلى قصة موسى عليه السلام ، فهي أصدق مادلت عليه . فالصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم التابعون والعلماء وبعض خلفاء المسلمين ، يستشهدون بأحاديث الرسول ﷺ الحاضة على العلم وفضله(٢).

وقد حرص صحابة رسول ﷺ على المعرفة والاستيضاح لكل ما سنه ﷺ من أمور دينهم ودنياهم ، فأبو هريرة رضي الله عنه يعد من أحرصهم عليه مبادراً بالسؤال . وكان الرسول ﷺ يعلم فيه هذا ويحثه عليه فالعلم يؤخذ بالاستفسار والتقصي(٣).

كما حث الرسول ﷺ على الترحيب بطلبة العلم الذين يقدمون على مسجده ليعلموهم فقد روي : عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : سيأتيكم أقوام يطلبون العلم فإذا رأيتموهم فقولوا لهم مرحباً بوصية رسول الله ﷺ واقنوهم "(٤).

ويعدّ مسجد رسول الله ﷺ بمثابة كبرى الجامعات في العالم الإسلامي يقبل إليه طلبة العلم للتزود منه فمما روي عنه ﷺ حاثاً على زيارتــه للعلم ما

---

(١) مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ، ج١٧ ، ص٢١ ؛ ابن ماجه : السنن ، ج١ ، ص ٨٢.

(٢) البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندي ، ج١ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ؛ الترمذي : السنن ، ج٤ ، ص ١٣٧ ؛ ابن ماجه : السنن ، ج١ ، ص ٨٠.

(٣) البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندي ، ج١ ، ص ٣٠.

(٤) ابن ماجه : السنن ، ج١ ، ص ٩٠ ـ ٩١.

رواه أبوهريرة قال " سمعت رسول الله ﷺ يقول : من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره "(١).

كما بين عليه السلام مكانة طالب العلم إذا توفي وهو على حاله ، فعن " عبدالله بن عباس قال : " قال رسول الله ﷺ " من جاءه أجله وهو يطلب علماً ليحيي به الإسلام لم يفضله النبيون إلا بدرجة "(٢) ، وما رواه أيضاً أبو هريرة وأبو ذر جميعاً سمعا رسول الله ﷺ يقول :« إذا جاء الموت طالب العلم وهو على تلك الحال مات شهيداً »" (٣).

فالرسولﷺ يحبذ العلم على العبادة لأن من فقه في العلم أتقن العبادة " فعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ " يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ولأن تغدو فتعلم بابا من العلم عُمل به أو لم يعمل خير من أن تصلي ألف ركعة "(٤).

وعندما فهم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم التابعون فضل ذلك، أكبوا على العلم ينهلون منه ، ورحلوا للأخذ من المدارس المنتشرة في الأقطار الإسلامية والتي يمثلها العلماء الموجودون بها بعد أن استقروا بها. فهذا ذر ابن حبيش يخرج للقاء صفوان بن عسال المرادي ليأخذ عنه فيسأله صفوان " ما جاء بك قال انبط العلم قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة اجنحتها رضاً بما يصنع " (٥). كما خرج جابر بن عبدالله لعبدالله بن أنيس في طلب حديث المظالم فرحل إليه حتى قدم عليه الشام وسمع منه ثم انثنى عائداً "(٦).

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ، ص ١١٥.

(٣) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٤) ابن ماجه : السنن ، ج١ ، ص ٧٩.

(٥) المصدر السابق والجزء ، ص ٨٢.

(٦) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم وفضله ، ج١ ، ص ١١١ ـ ١١٢.

كما كان عليه السلام يحث صحابته على التبليغ عنه لمن لم يسمعه . فعن ابن عمر قال :" إن رسول الله ﷺ قال ليبلغ شاهدكم غائبكم "(١). فالرسول ﷺ عالم بطبائع البشر فربما كان من يحمل العلم يستفيد منه غيره إذا أبلغه فورد في هذا المعنى ما رواه أنس بن مالك قال " قال رسول الله ﷺ نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها عني فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه "(٢).

وجعل الرسول ﷺ تبليغ العلم أفضل الصدقات . فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم "(٣). وفي المقابل حذر عليه السلام من مغبة كتمان العلم وعدم نشره . فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلا أتي به يوم القيامة ملجماً بلجام من النار "(٤).

ومما لاشك فيه أن الرسول ﷺ ابتغى من وراء أحاديثه الحث على العلم النافع المحمود فمن دعاء رسول الله ﷺ ما رواه أبوهريرة قال " كان رسول الله ﷺ يقول اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ماينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال "(٥).

ونجد أن أحاديث رسول الله ﷺ عن العلم والحث عليه متممة لما جاء في القرآن الكريم خاصة وأن أول آية نزلت من كتاب الله تعالى هي : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾(٦) أمرٌ للرسول ﷺ ينطبق على أمته من بعده خاصة وأنه أمر بالاستزادة من العلم في قوله تعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾(٧) وهذا أيضاً يشمل أمته عليه السلام.

---

(١) ابن ماجه : السنن ، ج١ ، ص ٨٦.
(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة.
(٣) المصدر السابق والجزء ، ص ٨٩.
(٤) المصدر السابق والجزء ، ص ٩٦.
(٥) المصدر السابق والجزء ، ص ٩٢.
(٦) القرآن الكريم : سورة العلق ، ١/٩٦.
(٧) القرآن الكريم : سورة طه ، ١١٤/٢٠.

فهذا مفهوم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم ؛ لذا كثرت الرحلات في سبيل طلب العلم سواء أثناء وجود الرسول ﷺ قبل هجرته أو بعد هجرته إلى المدينة ، وأيضاً بعد انتقاله عليه السلام إلى جوار ربه . فكثرت الرحلات في طلب الحديث وقطعت المسافات الطويلة لسماعه من العلماء المنتشرين آنذاك في الأقطار الإسلامية.

ثالثاً : الرحلة في مفهوم اللغة :

الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال بمعنى الإشخاص والإزعاج . يقال رحل الرجل إذا سار [1]. فالرحلة هنا بمعنى السير والضرب في الأرض وجاءت الرحلة بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر " والترحل والارتحال الانتقال وهو الرحلة والرحلة اسم للارتحال ".

وجاءت الرحلة أيضاً بمعنى الجهة التي يقصدها الإنسان " الرحلة الارتحال . والرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده ؛ تقول أنتم رحلتي أي الذين أرتحل إليهم ". كما تطلق الرحلة أيضاً على السفرة الواحدة " الرحلة السفرة الواحدة " [2].

ومما سبق في معنى الرحلة نجد أنها جاءت بمعنى السير والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه . وبمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه . أو اقتراب وقت الرحيل ؛ ولهذه المعاني كلها كان لفظ رحلة يطلق على من انتقل من مكان لآخر . ومنه أخذ لفظ رحّال : وهو الشخص المتنقل من مكان لآخر.

فالشخص الذي قام بالرحلة ، قد ترك موطنه ، وانتقل إلى مكان آخر، وسافر من موطنه وقصد جهة أخرى غير موطنه وسار إليها ؛ لذا كان لفظ رحلة أعم

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، ج١١ ، ص ٢٧٦ ؛ الفيروزأبادي: القاموس المحيط ، ج٣ ، ص ٣٩٤ ؛ الفيومي : المصباح المنير ، ج١ ، ص ٢٦٤.

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج١١ ، ص ٢٧٩ ؛ الفيروزأبادي: القاموس المحيط ، ج٣ ، ص ٣٩٤ ؛ الفيومي : المصباح المنير ، ج١ ، ص ٢٦٤.

وأشمل ما يطلق على المسافر من مكان إلى آخر ، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة.

ورحلات المسلمين منذ بدايتها كانت كاملة . متوفر بها جميع الأسباب والوسائل . فمنهم من رحل لأخذ العلم ، ومنهم من رحل لاكتشاف الأقطار المراد فتحها وهناك رحلات منتظمة ربطت أقطار الدولة الإسلامية بعضها ببعض ، مثل البريد المعروف في الدولة الإسلامية.

وعرفت الدولة الإسلامية نظام الجواسيس لمعرفة خطط المشركين ضدها. وأول من أوكل له القيام بهذا العمل هو عبدالله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، فقد أمره أبوبكر بالتحري عن أقوال قريش فيه وفي رسول الله ﷺ نهاراً ويأتيه بالأخبار ليلاً في غار ثور عند هجرتهما إلى المدينة [١].

وكانت الناحية الاقتصادية ذات أهمية في الدولة الإسلامية فرافق نشوءها تنظيمات إدارية تتطلب الرحلة لوصف البلدان المفتوحة ، وتقدير الأموال المفروضة على أهلها من جزية أو خراج[٢] ، ويضاف أيضاً رحلات المسلمين التجارية ووصولهم لأماكن لم تكن معروفة لهم سابقاً [٣] إلى جانب الرحلة لأداء فريضة الحج وزيارة المسجد النبوي في المدينة المنورة.

ومن خلال رحلات الحج لمعت أسماء بعض من قام بها لتسجيلهم مشاهداتهم بأسلوب جميل وسهل الوضوح لكل مامر بهم منذ خروجهم من مدنهم إلى وصولهم لمكة المكرمة والمدينة المنورة . وشمل الوصف الطرق التي قطعها الرحالة ، والحياة الاجتماعية والعمرانية لكل المدن التي وصلوا إليها. ومن أمثلة هؤلاء الرحالة ابن جبير ، والقاسم بن يوسف التجيبي السبتي، وابن بطوطة ، وخالد بن عيسى البلوي.

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٢ ، ص ٤٨٥.

(٢) أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ١١.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣.

رابعاً : بداية الرحلات في الإسلام وأشهرها :

١ ـ رحلة الإسراء والمعراج :

قال تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾(١).
وأسرى بعبده معناه سير عبده ، وأسريت إذا سرت ليلاً (٢).

إن حادثة الإسراء ثابتة متواترة منذ حدوثها . فقد سيره سبحانه وتعالى، ليلاً إلى المسجد الأقصى . وسمي الأقصى لبعده عن المسجد الحرام ، فهو لايبلغ إلاّ برحلة وراحلة. وقال المفسرون إنما قال ليلاً بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء ؛ وإنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزء من الليل . وكانت مسيرة أربعين ليلة (٣) . وهذه رحلة كما في سياق الآية لرؤية آيات الله تعالى والوقوف عليها.

٢ ـ رحلة أبي ذر الغفاري لفهم تعاليم وقواعد الإسلام :

من أولى الرحلات في عهد الرسول ﷺ أثناء وجوده بمكة المكرمة أول مبعثه ، وغرضها معرفة مبادىء الدعوة الإسلامية . وهي رحلة أبي ذر الغفاري إلى مكة المكرمة إبان مبعثه ﷺ للتثبيت مما يدعو إليه (٤).

٣ ـ رحلات لتعليم مبادىء الإسلام وهجرة الصحابة من أرض الشرك:

وهذه الرحلات حدثت في وقت مبكر من الدعوة ، فمنها رحلة مصعب ابن عمير عقب بيعة العقبة الأولى إلى المدينة المنورة مع وفد العقبة ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين(٥).

---

(١) القرآن الكريم : سورة الإسراء ، ١/١٧.

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج١٤ ، ص ٣٨٢.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج١ ، ص ٢٠٤ ـ ٢١٢ ؛ الصابوني : صفوة التفاسير ، ج٢ ، ص ١٥١.

(٤) مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٦ ، ص ٢٧ ـ ٣١ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٥ ، ص١٠٠ ـ ١٠١ ؛ ابن حجر : الإصابة ، ج ٤ ، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٤٣٤.

وكانت رحلات الصحابة بأمر من الرسول ﷺ بترك أرض الشرك عقب معاناتهم من أذى المشركين . فأشار عليهم بالتوجه إلى الحبشة فاستجابوا لذلك فراراً بالدين وخوفاً على أنفسهم من الفتنة . وتتابعت هجرة المسلمين إلى الحبشة ؛ فمنهم من خرج بأهله ومنهم من خرج وحيداً . ثم تلتها هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، وقد سبقه إليها بعض أصحابه (١) . ثم تتابعت البقية لحاقاً به.

٤ ـ رحلات تجسس :

وجد هذا النوع من الرحلات منذ بدء الإسلام ، وتنوعت أغراضها أثناء حياة الرسول ﷺ فمنها ما كان بغرض التجسس على الأعداء مثلما حدث في غزوة بدر حين " بعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر "(٢) . واستمر هذا النوع من الرحلات الاستكشافية في عهد الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من الخلفاء ومثال ذلك. ماحدث في معركة القادسية حيث بعث سعد كاشفاً إلى الحيرة(٣) ، فأتاه الخبر بأن الملك قد أمَّر على الحرب رستم ابن الفرخزاد الأرمني وأمده بالعسكر(٤).

٥ ـ رحلات الوفود لاعتناق الإسلام :

بعد استقرار الرسول ﷺ بالمدينة المنورة وانتشار دعوته بين القبائل العربية ، قدمت عليه الوفود راغبة في اعتناق الإسلام . ومنها وفد عبدالقيس حيث أرشدهم لتعاليم الدين الإسلامي الصحيح وكانوا يجدون المشقة في القدوم

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج١ ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ، ٤٦٨ ، ٤٨٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦١٦.

(٣) (الحيرة) مدينة تبعد ثلاثة أميال عن الكوفة على موضع يقال له النجف وبالحيرة الخورنق بقرب منها مما يلي الشرق على نحو ميل والسدير وسط البرية التي بينها وبين الشام وكانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم من لخم النعمان وآبائه. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٢٨.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٣٧.

عليه لحيلولة قوم من الكفار بين ديارهم والمدينة ، فأجابهم إلى ما سألوه في الشئون الدينية ليكونوا دعاة الدين الإسلامي لقبيلتهم والقبائل المجاورة لهم .(١) ومنهم من يأتي وحيداً ويكون سبباً في إسلام قومه مثل ضمام بن ثعلبة(٢).

٦ ـ رحلات الرسل لتبليغ الدعوة الإسلامية :

بعد إرساء قواعد الدولة الإسلامية وقع عبء تبليغ الدعوة للجهات النائية على الرسل الذين انطلقوا لنشر تعاليم الإسلام . ومنهم معاذ بن جبل الذي توجه بأمر الرسول ﷺ إلى اليمن (٣).

وقد أحسن الرسل أداء مهمتهم على أكمل وجه ، وخاصة أن الرسول ﷺ أرشدهم إلى الطرق الصحيحة لذلك.

٧ ـ رحلات لفهم أحكام الشريعة :

بعد فتح مكة المكرمة وجد نوع جديد من الرحلات للاستعلام عن بعض أحكام الشريعة الإسلامية ومراجعة الرسول ﷺ في ذلك مثل رحيل عقبة ابن الحارث إلى المدينة للاستعلام عن حكم الرضاعة (٤) ، ونُلاحظ من أمثلة الرحلات التي قامت في حياة الرسول ﷺ : إما لتبليغ دعوة الإسلام إلى مناطق لم يصلها ، وإما لمعرفة تعاليم الدين الجديد ، أو للتجسس ، وإما لمعرفة حكمٍ من أحكام الإسلام.

٨ ـ الرحلة لمراجعة الأحاديث النبوية :

عقب وفاة الرسول ﷺ لم تنقطع الرحلات نظراً لتفرق الصحابة في البلدان المفتوحة واستقرارهم بها. فكثرت أسفار بعضهم للبعض الآخر لمراجعة الأحاديث النبوية خشية نسيانها وحفاظاً عليها. ومن أمثلة هذه الرحلات رحلة

---

(١) مسلم : صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندي ، ج ١ ، ص ٢٢ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ ؛ ابن حجر : الإصابة ، ج٢ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٤ ، ص٥٩٠.

(٤) البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندي ، ج١ ، ص ٢٨.

جابر بن عبدالله لعبد الله بن أنيس ، ورحلة أبي أيوب لعقبة بن عامر(١) . ويمكننا أن نعزو كثرة الرحلات العلمية في ذلك الوقت إلى عدم تدوين الحديث الذي لم يتم تدوينه بصورة رسمية في مصنفاته إلا في النصف الأول من القرن الثاني الهجري(٢).

وقد رحل التابعيون أيضاً لطلب الحديث الواحد ؛ بل وحتى لضبط حرفٍ منه(٣).

ومن فوائد رحلات طلاب الحديث وتنقلاتهم بين الأقطار الإسلامية الاطلاع على الروايات المتعددة أحياناً للحديث الواحد . ومن هذا ما حدث عندما قدم البخاري للبصرة فطلبوا منه أن يعقد لهم مجلساً للإملاء فأجابهم وحدد لهم موعد المجلس الذي حضره جمع غفير من الفقهاء والمحدثين والحفاظ والنظار . حدثهم فيه بأحاديث ليست عندهم بالأسانيد التي ذكرها(٤).

ومن فوائد الرحلات ما يقام من مناظرات . والامتحانات التي تعقد لاختبار كفاءة وعلم العلماء . ومنها على سبيل المثال ما حدث للإمام البخاري في بغداد حيث اجتمع العلماء لامتحان علمه وحفظه ، وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسنادٍ آخر وإسناد هذا المتن لآخر ودفعوها لعشرة أشخاص لإلقائها على البخاري . وبعد إلقاء كل شخص بما عهد إليه من أحاديث ، وهو لايزيد على قوله بعد سماع كل حديث لا أعرفه. وكان العلماء الذين حضروا المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون فهم الرجل ومن لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ وبعد انتهاء إلقاء الأحاديث المائة ،أعاد البخاري تصحيحها . فأقر له الناس

---

(١) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ، ج١ ، ص١١١ ـ ١١٢ ؛ محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ١٧٧.

(٢) محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ص ٣٣٧.

(٣) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم ، ج ١ ، ص ١١٣.

(٤) البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٢ ، ص ١٥ ـ ١٦ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج١٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠؛ ابن حجر : هدية الساري ، ص ٤٨٧ ، المقدمة.

بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل ، خاصة وأنه صححها على الترتيب الذي سمعه(١).

وأدى انتشار العلماء إلى تعدد المراكز العلمية ، والتي أسهمت بدورها في النشاط العلمي على أيدي العلماء الموجودين بها أو العلماء المتنقلين بينها الحريصين على الاستزادة ونشر العلم بين الناس . ومثال ذلك تنقلات البخاري بين الأمصار الإسلامية فكانت أولى رحلاته سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م لطلب الحديث والحج (٢). وقال البخاري عن نفسه معبراً عن رحلاته الكثيرة قائلاً : " دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين ، وإلى البصرة أربع مرات ، وأقمت بالحجاز ستة أعوام ، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين "(٣).

٩ ـ رحلات التجار :

لم تكن رحلات المسلمين مقتصرة على الناحية العلمية التي حظيت بالنصيب الوافر ؛ بل كان للتجارة دور كبير، وخاصة أن أساطيل المسلمين التجارية أخذت تجوب جميع البحار، فليست رحلاتها قاصرة على المناطق الإسلامية ؛ بل وصلت إلى مناطق شاسعة في الهند والصين والبلدان الأوربية وغدا المسلمون بفضل نشاطهم البحري ذوي شهرة كبيرة وأصحاب ثروات هائلة (٤).

وقد أسهمت رحلات التجار إلى تلك المناطق النائية في معرفة الكثير من أحوالها . ومن أشهر التجار في هذا المجال سليمان السيرافي ، وابن وهب القرشي . وقد أفاض المسعودي في سرد رحلة ابن وهب القرشي التي نقلها عن أبي زيد الحسن السيرافي (٥).

---

(١) البغدادي : تاريخ بغداد ، ج٢ ، ص٢٠ ـ ٢١ ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ،١٢، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٢) ابن حجر : هداية الساري ، ص ٤٨٦ ، المقدمة.

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٧٨ ، المقدمة.

(٤) محمد محمود الصياد : رحلة ابن بطوطة ، ص ٧ ـ ٨.

(٥) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٤٤ .

ومع الأسف لم يكن شائعاً في ذلك الوقت تدوين تلك المعلومات في كتب معروفة ؛ بل عرفت عن طريق أصدقاء الرحالة من معاصريه ، أو من خلال الأجيال التي تناقلتها بعد ذلك . وقد شكلت تلك المعلومات مادة علمية غزيرة استطاع المؤرخون الأوائل الاستفادة منها في كتاباتهم عن تلك البلدان سواء في النواحي السياسية أو الحضارية . وللدلالة على ذلك ما أورده المسعودي من خبر رحلة أحد تجار سمرقند إلى الصين ، وما لحقه من ظلم في مدينة خانقوا[1] من جابي الضرائب فما كان منه إلا أن رفع مظلمته إلى ملك الصين فأنصفه [2].

تبع تلك الخطوة من قبل التجار، قيام نوع جديد من الرحلات . وهي الرحلات الجغرافية لوصف الطرق المؤدية إلى البلدان المفتوحة . ووصف أحوالها حيث اقتضت مصلحة الدولة ذلك[3]. فقدموا وصفاً جغرافياً دقيقاً لها. ومن أمثلة هؤلاء ابن خرداذبه الذي تولى منصب صاحب البريد في الدولة العباسية[4].

وقد اعتمد الجغرافيون في تصانيفهم على الوصف والمشاهدة والملاحظة. فنمت معارفهم الجغرافية ، وأصبحت مؤلفاتهم ذات أهمية كبيرة ؛ مما حدا بالخلفاء تكليف عمال اقتصرت مهمتهم على كتابة التقارير الجغرافية عن الأمصار المفتوحة[5].

---

(١) (خانقوا) مدينة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب في بحر الصين . وتبعد هذه المدينة عن البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة . ويدخل إلى هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك ؛ بالأمتعة والجهاز . وبالمدينة خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وغير ذلك من أهل الصين. انظر المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٣٨.

(٢) المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ ــ ١٤٢.

(٣) عبدالرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، ص ٤١.

(٤) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج١ ، ص ١٥٦.

(٥) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٨٦.

بالإضافة إلى ما سبق يبدو أنه قد توفرت لدى المسلمين الكثير من المعلومات عن الأقطار المراد فتحها . ومثال ذلك ما رواه اليعقوبي عن طلب عمرو بن العاص فتح مصر من الخليفة عمر بن الخطاب وترغيبه في ذلك بقوله: «يا أمير المؤمنين تأذن لي أن أصير إلى مصر فإنا إن فتحناها كانت للمسلمين وهي من أكثر الأرض أموالاً ، وأعجزه عن القتال» [1].

ونرى هنا أن عمراً بن العاص كان يعرف الشيء الكثير عن مصر وربما كان هذا بسبب اشتغاله بالتجارة قبل الإسلام ؛ ولذلك شجع الخليفة على فتحها وضمها لبلاد الإسلام.

بالإضافة إلى علم حكام الدولة الإسلامية بالبلدان المراد فتحها . فقد أرسل عمر بن الخطاب رسالة إلى سعد بن أبي وقاص يأمره فيها أن يصف له منازل المسلمين قبل معركة القادسية كأنه ينظر إلى أرض المعركة "[2].

وربما يمكننا إرجاع العناية بالأقاليم ووصفها إلى بداية التأليف لأخبار الفتح والمغازي . يضاف إليه أن اتساع الدولة الإسلامية تطلب الوصف والدراسة ؛ تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة ؛ وتسهيلاً لمهمة الولاة[3].

ومما سبق يتضح لنا اختلاف أغراض الرحلة والارتحال . والتي في جملتها أفرزت لنا أدباً مميزاً يمكن أن نطلق عليه أدب الرحلة . ولاشك أن أمتع كتب الرحلات وأرفعها قيمة علمية وأدبية : هي تلك التي قام أصحابها بتأليفها بسبب خروجهم للحج أو طلب العلم أو الاثنين معاً. " فكانت حواضر العالم الإسلامي مراكز علم وإشعاع ، خاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة . فكان العلماء يقصدونهما بغية التزود بالعلم والمعرفة يفد إليهما الوافد من أقصى المشرق أو المغرب فيلتقي بعالم آخر من بلاد بعيدة عن بلاده فيحصل من هذا الالتقاء

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٤ ، ص٩.

(٣) أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص١٠ ـ ١١.

تقارب وتفاهم واستزادة علم وامتداد المعرفة وانتشار الأفكار بين مختلف الأقطار الإسلامية "[1].

ولقد كان للخلفاء دور كبير في بروز رحلات لها طابع خاص ؛ ولعل أشهرها رحلة سلام الترجمان[2].

رحلة سلام الترجمان :

نالت رحلة سلام الترجمان انتشاراً وشهرةً واسعة . حيث نجد الجغرافيين المسلمين يصفونها بالأخبار المشهورة [3] أو مشهور الأخبار[4] مما يدل على انتشارها ولكن ؛ بالرغم من شهرتها إلا أنها عرضة للشك المتركز على ما ورد فيها من أخبار حتى أن من تطرق لذكرها من المؤرخين الجغرافيين كانوا على حذر شديد في الإشارة إليها حتى أن ابن خرداذبه معاصر سلام الترجمان في حديثه عن الرحلة قال : إنه سمعها أولاً من سلام ثم نقلها من الكتاب الذي كتبه سلام للواثق بالله[5] زيادة في الاستيثاق مما ورد فيها.

وقد نقل ابن رستة قول ابن خرداذبه حول الرحلة فقال " : فحدثني سلام الترجمان بجملة هذا الخبر ثم أملاه علي من كتاب كان كتبه بذلك إلى الواثق وكتبناه نحن لنقف على ما فيه من التخليط والتزييد لأن مثل هذا لايقبل صحته فوجدته موافقاً " [6].

---

(١) الدرعي : ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي ، ص ١١ ــ ١٢.

(٢) سلام الترجمان يجيد عدة لغات وربما كان يعمل في ديوان الترجمة. انظر ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٦٣.

(٣) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٩٧.

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ١٩٩.

(٥) هارون الواثق بالله ابن محمد المعتصم بالله ابن هارون الرشيد العباسي أبوجعفر من خلفاء الدولة العباسية بالعراق ولد ببغداد وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة. انظر ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٦٢ ــ ١٧٠ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١٤ ، ص ١٥ ــ ٢٠.

(٦) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ج٧ ، ص ١٤٩.

كما أن ياقوت الحموي بعد أن سرد رحلة سلام قال ": قد كتبت من خبر السد ما وجدته في الكتب ولست أقطع بصحة ما أوردته لاختلاف الروايات فيه والله أعلم بصحته فليس من صحة أمر السد ريب وقد جاء ذكره في الكتاب العزيز "(1).

ولاريب أن كثرة الروايات واختلافها جعلها مثار شك لدى ياقوت ، وإن كان ما أورده عن رحلة سلام موافقاً في معظمه لما ذكره ابن خرداذبه.

ومجمل الرحلة كما أوردها ابن خرداذبه أن الخليفة الواثق رأى في منامه كأنّ السد الذي يحجز يأجوج ومأجوج قد انفتح ، ووقع اختياره على سلام الترجمان كرجل يصلح لمهمة الاستطلاع فهو كما يقال :" يتكلم بثلاثين لساناً " فجهزه بكل ما يحتاجه وأمره بالخروج بعد أن زوده بكتب توصية لكل الملوك والأمراء الذين تقع ممالكهم في طريقه لتسهيل مهمته ، وقد وصف سلام جميع ما مر به في رحلته إلى أن وصل إلى مكان السد وأتم مهمته وتأكد أن السد لايزال سليماً، فعاد إلى سر من رأى ، وكان من وقت خروجه إلى وقت عودته ثمانية عشر شهراً(2).

وقد حفل وصف سلام بالكثير من الغرائب التي اختلط بها الكثير من الأساطير المنتشرة هناك ، وأوردها على أنها حقيقة مما جعلها مثار شك كبير لدى من تعرض لذكرها ، ولكن مجيء ذكر الرحلة بألفاظ سلام في كتاب ابن خرداذبه يوحي بأن الرحلة قد حصلت فعلاً لاعتماده على ما ورد في الكتاب المقدم للواثق بالله.

---

(1) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٢٠٠.

(2) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٦٢ ـ ١٦٩ ؛ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٩٧ ـ ٥٩٩ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ١٥ ـ ١٨ ؛ على محسن عيسى مال الله : أدب الرحالة عند العرب في المشرق ، ص٣١ ـ ٣٤ ؛ أحمد رمضان أحمد :الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٣٨ ـ ٤٠.

وكما كان للمؤرخين وجهة نظر في هذه الرحلة ، فقد حفلت كتابات المؤلفين المحدثين أيضاً بالعديد من الآراء حولها . فمن ذلك ما أورده كراتشكوفسكي KRACHOVSKI من آراء : منها المعارض في حدوثها أصلاً، ومنها المؤيد لحدوثها . فمن المعترضين اشبرنجر SPRENGER الذي اعتبرها عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م أنها تضليل مقصود. وايده في موقفه غريفوريف GRIGORIEV وميتورسكى MINORSKY فيما بعد ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م . وأضاف الأخير أنها مجموعة حكايات خرافية انتثرت فيها بضع أسماء جغرافية.

أما من أيد حدوثها فهو دي خويه DEGEJE عام ١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م وتوماشك TOMASCHEK [(١)]. ولا يستبعد أن يكون السبب الحقيقي للرحلة ليس الحلم كما زعم الرواة وإنما اتخذ الحلم ذريعة لغرض سياسي دل عليه اهتمام ملوك وأمراء تلك المناطق بكتب التوصية التي كان يحملها سلام من قبل الخليفة لتسهيل مهمته[(٢)]. والتي دلت على مدى اتساع سلطة الخليفة.

ولاشك أن وجود السد حقيقة مسلم بها لورود ذكره بالقرآن الكريم سواء وصل سلام فعلاً إلى السد أم لم يصل ، فالذى يعنينا هنا اهتمام خلفاء المسلمين بأمر الرحلات لاكتشاف المناطق المجهولة من العالم ؛ وخاصة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وصرف الأموال اللازمة في سبيل المعرفة.

كما أن قيام مثل هذه الرحلات يدل على ارتفاع شأن الخليفة العباسي، واتساع سلطته وهيمنته على الأماكن التي مر بها سلام وتعاون الملوك والأمراء على تسهيل مهمته.

وهناك نوع آخر من الرحلات تم تحت رعاية الخلفاء . وهي رحلات البعوث ، ومنها رحلة ابن فضلان[(٣)].

---

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج١ ، ص ١٤١.

(٢) على محسن عيسى مال الله : أدب الرحلة عند العرب في المشرق ، ص ٣١.

(٣) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله إلى مالك الصقالبة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٨٦.

رحلة ابن فضلان :

ويبدو أن سبب هذه الرحلة هو رغبة ملك الصقالبة [1] وقومه في فهم التعاليم الإسلامية الصحيحة . فبعث إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله [2] طالباً انتداب بعضٍ من رجاله لتلك المهمة إلى جانب العناية بتشييد مسجد ومنبر وحصن يمتنع به ضد أعدائه المشركين [3]. فلبى الخليفة العباسي دعوته وبعث إليه بعثة عباسية كان من ضمنها ابن فضلان الذى أحسن القيام بالمهمة الموكلة إليه على أكمل وجه[4].

ومما يدل على ما للخليفة من مكانة روحية لدى الملوك ، طلب ملك الصقالبة منه بناء مسجد وإقامة منبر للدعوة وتشييد حصن لحمايته من أعدائه مع تزويده ببعض الأدوية[5].

ولم تسعفنا المصادر بالكثير من المعلومات عن الأحوال السياسية لتلك المملكة ، وإن كان ابن فضلان قد أشار إلى طرفٍ من ذلك ذاكراً أن اليهود كانوا يشكلون خطراً عليهم ويثقلون كاهل الشعب بالضرائب الباهظة مع إلزام الأمراء والملوك المسلمين بتزويج بناتهم لأبناء اليهود[6].

---

(١) (الصقالبة) بلاد بين البلغار والقسطنطينية وهم أجناس مختلفة ولهم ملوك فمنهم من ينقاد إلى دين النصرانية اليعقوبية ومنهم من لا كتاب له ولا شريعة وهم جاهلون وفي بلاد الخزر صنف كثير منهم ومن ملوك الصقالبة ملك الفرنج ويليه في المكانة ملك الترك وكانوا قبلا ينقادون جميعاً لملك واحد وعندما اختلفت كلمتهم صار كل ملك برأيه. انظر المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤١٦.

(٢) جعفر بن أحمد بن طلحه أبوالفضل المقتدر بالله ابن المعتضد ابن الموفق خليفة عباسي ولد ببغداد سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٤م وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م فأستصغره الناس وخلعوه سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ونصبوا عبدالله بن المعتز ثم قتلوه وأعادوا المقتدر بعد يومين وطالت أيامه وكثرت فيها الفتن وخلع مرة ثانية وبايعوا القاهر ثم أعادوه وكان ضعيفاً مبذراً أستولى على الملك في عهده خدمه ونساؤه وخاصته وفي أيامه خلع أبوطاهر القرمطي الحجر الأسود وقتل المقتدر في ثورة سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م. انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص ١٦٦ ـ ١٧٢.

(٣) أحمد بن فضلان : رحلة ابن فضلان في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٨٦.

(٤) ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٥) المصدر السابق والصفحة.

(٦) المصدر السابق ، ص ١٤٥ ؛ عبدالرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص ١٩٩.

«وكان خروج هذه البعثة من بغداد يوم الخميس إحدى عشر من شهر صفر / واحد وعشرين حزيران سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م ووصلت إلى بلغار في ثمانية عشر محرم / أثنا عشر أيار سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م» (١).

ومنذ خروج الرحلة نجد أن ابن فضلان كان يسجل انطباعاته ومشاهداته ساعة بساعة ، في أسلوب سهل مفهوم تطرق فيها إلى الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية . ولم يقتصر وصفه على مملكة الصقالبة ؛ بل تعداه إلى جميع مامر به . فمن ذلك وصفه لأهل خوارزم(٢) حيث وصفهم بأنهم أوحش الناس كلاماً ، وشبهه بنقيق الضفادع . واستنكر تبرأهم من علي ابن أبي طالب مع ملاحظته لظاهرة النقود المزيفة فيها(٣).

وقد صادف وقت رحلة ابن فضلان فصل الشتاء في تلك الأماكن . حيث أشار إلى ما تميزت به من برودة شديدة وريح قوية . بالإضافة إلى تجمد الأنهار ومنها نهر جيحون(٤) . وقيام أهل خوارزم بالحفر فيه لاستخراج حاجتهم من الماء (٥).

---

(١) ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، ص ٢٥ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٨٦ ؛ عبدالرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٢٠٠ ؛ علي محسن مال الله : أدب الرحلة عند العرب في المشرق ، ص ٨٤ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطي ، ص ٢٧ ؛ أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٤٥.

(٢) (خوارزم) اسم للناحية بجملتها وقصبتها جرجانية وهي ولاية عامرة تميزت بشتاء شديد البرودة يؤدى إلى تجمد نهر جيحون وصف أهلها بعدم اهتمامهم بالنظافة وابنيتها مشيدة من الخشب واللبن ومن صفات أهلها الجسمية الطول والضخامة وعرض الرأس وإتساع الجبهة مدحهم ياقوت بالذكاء والعلم والغنى ورخاء المعيشة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٨.

(٣) كان رئيس البعثة سوسن الرسي مولى نذير الحرمي بالإضافة إلى أعضاء أخرين منهم تكين التركي ويبدو من اسمه أنه كان دليلهم في أرض الترك لمعرفته باللسان التركي ومعهم أيضاً بارس الصقلاب ويبدو أن أصله من بلاد الصقالبة أما من أوصل رسالة ملك الصقالبة إلى المقتدر بالله فهو عبدالله ابن باشتو الخزرجي. أنظر ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ، ٨٢.

(٤) (جيحون) أصل الاسم بالفارسية هرون وهو اسم وادي خراسان الواقع في وسط مدينة جيهان فنسب إليها وقيل جيجون وينبع من ريوساران جبل بناحية السند والهند وكابل. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٥) ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، ص ٨٣ ـ ٨٥.

وتطرق ابن فضلان لوصف عادات أهل خوارزم في الكرم وحسن الضيافة وإيواء الأغراب ،خصوصاً في أوقات الشتاء ومساعدة المحتاجين بايوائهم وتدفئتهم وإطعامهم . وهو أمر شائع في القرى . كما تميزت طرقاتها بتجمدها شتاءً وعقب انتهائه يصيبها الوحل ويتعذر السير فيها(١).

وتناولت الرحلة أيضاً وصف قطر آخر من بلاد الترك وهي باشغرد(٢) فقال :بأنهم شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداماً على القتل مما يستوجب الحذر منهم . كما تميزوا بأكلهم القمل . وأما آلهتهم فمتعددة : منها الحيات والأسماك والكراكي (٣) . وقد استغرب ابن فضلان من عبادتهم له ، فلما استفسر عن ذلك قيل أن هذا الطائر كان سبباً في انتصارهم ضد أعدائهم في إحدى المعارك مما جعله موضع التقدير والعبادة لديهم.

وحرص ابن فضلان في رحلته هذه على تدوين كل مامر به ، وخاصة استقبال البعثة العباسية والنواب المكلفين بذلك . في حين قام ملك الصقالبة بلقائهم خارج المدينة على بعد فرسخين(٤) منها(٥).

وقد نقل إلينا ابن فضلان صورة لما كان عليه مجلس ملك الصقالبة ،حيث كان الملك يتصدر المجلس وإلى جواره زوجته ثم الملوك والأمراء عن يمينه وأولاده بين يديه. وعندما حانت ساعة الطعام خصت مائدة لكل شخص احتوت على اللحم المشوي . أما شرابهم عقب الأكل فهو العسل. ومن عادة حضور مجلس الملك خلع قلنسواتهم من فوق رؤوسهم ، كما امتدت هذه العادة إلى العامة أيضاً عند مشاهدتهم له.

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٣ ـ ٨٥.

(٢) (باشغرد) تنطق بالغين والقاف وهي بين القسطنطينية وبلغار وقد ذكر رجل من أهلها لياقوت عندما سأله عن المسافة بين بغداد وبينها قال من هنا إلى القسطنطينية شهرين ونصف ومن القسطنطينية نحو ذلك وهم يعبدون آلهة شتى. أنظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٣) (الكركي) نوع من الطيور والجمع كراكي. انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١٠ ، ص ٤٨١.

(٤) (الفرسخ) : يساوى ثلاثة أميال = ١٨٤٠ متراً والميل ٦١٥ متراً. انظر أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص٦٠ ـ ٦١ ، هامش ١.

(٥) ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ١١٣.

وقد أسهم ابن فضلان في حث أهل تلك المناطق على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ؛ وتمثل ذلك في محاولته القضاء على عادة اختلاط العامة من رجال ونساء عند الاستحمام في الأنهار ، كما نهى عن إقامة الدعوة على المنابر للملك بقولهم " اللهم أصلح الملك بلطوار ملك البلغار " إذ الملك هو الله ولايجوز الدعوة به لأحد على المنابر فانصاع حاكم البلغار لذلك وأطلق على نفسه اسم جعفر تيمناً باسم الخليفة العباسي المقتدر بالله(1).

ويدل تسمي ملك البلغار بجعفر تقليداً لاسم الخليفة المقتدر بالله على نظرة الإكبار والإجلال للخليفة العباسي وتأكيد على اعتناقه الإسلام عن اقتناع وفهم لكل ما يتعلق به . ومما يدل على ذلك ما رواه ابن فضلان عن لسان ملك الصقالبة عند سؤاله عن سبب طلباته من الخليفة العباسي مع ما عليه مملكته من الاتساع وكثرة الأموال فقال " رأيت دولة الإسلام مقبلة وأموالهم يؤخذ من حلها فالتمست ذلك لهذه العلة ولو أني نويت أن أبني حصناً من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك علي وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين فسألته ذلك "(2) .ومن مميزات الحياة الاجتماعية في بلاد البلغار عدم وجود ظاهرة الزنى أو السرقة ففاعلها عقابه الموت(3). أما عاداتهم في الزواج فالمشهور عندهم هو خروج البنات الأبكار حاسرات الرأس ومن كانت له رغبة في إحداهن ألقى على رأسها خماراً ولايمنع منها ، وقد يتزوج الشخص الواحد أكثر من عشرين امرأة (4).

وقد حفلت الرحلة بوصف دقيق لمظاهر الدفن ومنها مراسيم دفن زعيم روسي ، وعلى ضوء ذلك استطاع أحد رسامي القرن التاسع عشر رسم صورة حية لتلك المظاهر اعتماداً على وصف ابن فضلان (5) كما تطرق أيضاً للناحية

---

(1) المصدر السابق ، ص ١١٥ ـ ١١٨ ، ١٣١ ، ١٣٤.

(2) ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، ص ١٤٦.

(3) المصدر السابق ، ص ١٥٥.

(4) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٦١٦.

(5) ابن فضلان: رحلة ابن فضلان ، ص١٥٧ ـ ١٦٣ ؛ أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص٣٠ ـ ٣١.

الاقصادية هناك وقال : إن قوام تجارتهم جلد السمور (١) وإن لديهم الكثير منه وهو يعيش في النهر. كما اشتهرت بلادهم بكثرة نوع معين من الزواحف وهو الحيات (٢).

وتميزت بلاد البلغار بكثرة الصواعق ، فأدت لوجود بعض الخرافات تتمثل في أنه إذا وقعت صاعقة على منزل أحدهم تركوا المنزل ولم يقربوا منه حتى يتلف مع الزمن . ويعللون ذلك بأنه موضع مغضوب عليه(٣).

إن رحلة ابن فضلان كانت تسجيلاً حياً لما كان عليه أهل تلك المملكة في جميع نواحي حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية . وهي بذلك وصفٌ متكاملٌ ولم يعتمد فيه على الذاكرة.

بالإضافة إلى أن أسلوبه في الوصف مترابطٌ سهلٌ مفهومٌ ويمكن أن يعد من النثر العلمي. ويمكن أن يقال عنها أيضاً رسالة رائدة في أدب الرحلات(٤). وهي بهذا تقرب من خصائص كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين في نواحٍ كثيرة.

وهناك نوع آخر من الرحلات كان الدافع لها شخصي . وهو حب الترحال مثل رحلة ابن وهب القرشي.

رحلة ابن وهب القرشي إلى الصين :

كل مانعرفه عن ابن وهب القرشي أنه من أصحاب الجاه والثروة .من ولد

---

(١) (السمور) دابه معروفة تصنع من جلودها فراء غالية الثمن وهو حيوان يكثر في بلاد الروس وراء الترك يشبه النمس ومنه أسود لامع وأشقر. أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٤ ، ص٣٨٠.

(٢) ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، ص ١٢٧ ؛ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٦١٦ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٨٨.

(٣) ابن فضلان : رحلة ابن فضلان ، ص ١٢٧ ، ١٣٢.

(٤) على محسن عيسى مال الله : أدب الرحلة عند العرب في المشرق ، ص ١٠٧.

هبار بن الأسود[1] . وكان خروجه إلى الصين في أيام ثورة صاحب الزنج [2] بالبصرة.

ومما ورد في فحوى رحلة ابن وهب القرشي إلى الصين وجود المسلمين بها وحسن معاملتهم وسعة علم ملك الصين بأحوال الممالك والبلدان الأخرى في ذلك الوقت. وقد وصلت إلينا رحلة ابن وهب القرشي عن طريق قصاص هو أبوزيد حسن ويظهر أنه كان مغرماً بجمع القصص والحكايات الغريبة من المسافرين ؛ فابن وهب لم يدون رحلته وإنما حفظت لنا برواية أبي زيد حسن التي رواها عنه المسعودي [3]. وقد ذكر المسعودي اتصال ابن وهب بملك الصين وإنعامه عليه ورؤيته لصور الأنبياء السابقين وخاصة " صورة نبينا محمد ﷺ على جمل وأصحابه محدقون به في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل وفي أوساطهم الحبال قد علقوا فيها المساويك "[4].

والواقع أن هذا الأمر غير مقبول من الناحية العلمية . ويمكن تعليل ذلك بأن تكون هذه الرقاع مكتوب عليها صفات الأنبياء ، وصفة أقوامهم ، ولمن أرسلوا ، فزيدت عليها بعض الروايات ، خاصة وأن صاحب الرحلة لم يدون رحلته.

كما نجد أن الأمر كان موضع شك لدى المسعودي نفسه . فقد ذكر في بدايه كلامه عن مشاهدة ابن وهب لصور الأنبياء بقوله :" ويزعم هذا القرشي "

---

(١) هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبدالعزي بن قصي القرشي أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه وصحب النبي ﷺ. انظر ابن الأثير : أسد الغابة ، ج٤ ، ص ٦٠٨.

(٢) يدعى صاحب الزنج إنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب وهو نسب غير صحيح استمال قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها فاجتمع إليه منهم خلق كثير وعظم شأنه فعاث فساداً بالبلاد العراقية والبحرين وهجر ودامت الحرب بينه وبين الدولة العباسية سنين كثيرة إلى أن تغلب عليه الجيش العباسي حيث أبيد جيش صاحب الزنج وقتل وحمل رأسه إلى بغداد. انظر ابن الطقطقا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٥٠ ــ ٢٥١.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص١٤٢ ــ ١٤٥ ؛ أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٤٢ ــ ٤٣ ؛ علي محسن عيسى مال الله : أدب الرحلة عند العرب في المشرق ، ص ٥٠ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ١٩ ــ ٢٠.

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٤٤.

ولكن لا يمنع هذا من أن رحلة ابن وهب ذات أهمية من وصف الصين . وليس أدل على ذلك من نقل المسعودي عنه في معرض كلامه عن وصف الصين، وخاصة مدينة خانقوا.

ومن الملاحظ أن الدينوري أشار إلى أحداث القصة السابقة ونسبها إلى عبادة ابن الصامت [١] وأنها وقعت في القسطنطينية [٢].

فهذه القصة اختلفت تفاصيلها ورواياتها وأماكن حدوثها . فقصة عبادة وهي الأقدم حدثت في القسطنطينية . أما قصة ابن وهب وهي الأحدث حدثت في الصين ؛ مما يضعنا في شك من حدوث هذه الواقعة المتعلقة برواية صور الأنبياء . أماما عداها فلانستبعد حدوثها ، خاصة وأنها قد شملت وصفاً للصين وأهله وهذا يدفعنا إلى القول :أن روايات الرحالة الأوائل تقترن غالباً بالأساطير والخيالات التي لاترقى إلى درجة اليقين.

وعلى كل فعبادة بن الصامت لم يحدث أن ذهب إلى القسطنطينية ؛لأن هرقل لم يكن موجوداً آنذاك بها؛ بل كان يقيم بسوريا ولم يرحل عنها إلا بعد فتح قنسرين ؛ وذلك في سنة ١٥هـ / ٦٣٦م أو ١٦هـ / ٦٣٧م في خلافة عمر ابن الخطاب حيث غادرها وقال مقولته المشهورة " السلام عليك ياسورية سلام لا اجتماع بعده " [٣] . وأبوبكر كما هو معروف توفي قبل ذلك.

ومن الرحلات التى انطلقت من غرب العالم الإسلامي ومن أفريقيا خاصة رحلة سلطان مملكة مالي السلطان محمد بن قو وقد أخذت رحلته طابعها

(١) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن قوقل واسمه غنم بن عوف بن عمرو ابن عوف بن الخزرج الأنصاري الخزرجي شهد العقبة الأولى والثانية وبدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ استعمله رسول الله ﷺ على بعض الصدقات وجمع القرآن في زمن النبي ﷺ وكان يعلم أهل الصفة القرآن وأرسله عمر بن الخطاب بعد فتح الشام لتعليم الناس القرآن وتفقيههم الدين وهو أول من ولي قضاء فلسطين توفي سنة ٣٤هـ / ٦٥٤م. بالرملة وقيل في بيت المقدس وهو ابن اثنتين وسبعين سنه. انظر ابن الأثير : أسد الغابة ، ج٣ ، ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٨ ـ ١٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج٢ ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

الشخصي من السلطان نفسه للاستكشاف والاتجاه غرباً في المحيط الأطلسي ، إلا أنها تظل من الرحلات المجهولة ؛لأن روادها لم يعودوا . وبهذا انقطعت أخبارهم وربما هلكوا أثناء رحلتهم.

رحلة سلطان مالي محمد بن قو :

حدث أثناء حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون [1] سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م لمصر أن زارها سلطان مملكة مالي [2] منساموسي [3] في طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وقد أفاض القلقشندي في ذكر أخبار مملكة مالي وما بها من خيرات اعتماداً على ما ذكره السلطان منساموسي ومن جملة ما ذكره هذا السلطان كيفية انتقال الملك إليه فأشار إلى رحلة لم تعرف تفاصيلها وما حدث لروادها لأنهم فقدوا ولم يعودوا ثانية إلى وطنهم وبالتالي ظلت أخبار رحلتهم مجهولة بالنسبة لنا . ولكن مجيء هذا السلطان وسؤاله عن كيفية

---

(١) محمد بن قلاوون بن عبدالله الصالحي أبوالفتح من كبار ملوك الدولة القلاوونية له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال ولد سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م. ولي السلطنة وهو صبي سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م وخلع سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وأعيد إلى السلطنة سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م وكان كالمحجور عليه قرابة عشرين سنة وكان يدبر أمر السلطنة الأستادار الأمير بيبرس الجاشنكير ونائب السلطنة الأمير سلار عزم على الحج وعرج على الكرنك فأعلن الإقامة فيها وترك السلطنة فنودي بالأمير بيبرس سلطاناً ولقب بالمظفر سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م ولكن الناصر لم يلبث أن وثب على دمشق بعد ذلك بسنة. ودخل مصر واستعاد السلطنة وقتل بيبرس سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م واستمر في الحكم ٣٢سنة وشهرين و٢٥ يوماً وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤١هـ /.١٣٤٠م. انظرابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج٢ ، ص ١١٤ ــ ١١٧ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٧ ، ص ١١.

(٢) (مملكة مالي) بفتح الميم المعروفة عند العامة ببلاد التكرور وهي جنوب المغرب متصلة بالبحر المحيط يحدها من الغرب البحر المحيط ومن الشرق بلاد البرنو وفي الشمال جبال البربر وفي الجنوب الهمج أهلها طوال في غاية السواد مجعدي الشعر وهي مملكة مربعة طولها أربعة أشهر أو أزيد وعرضها مثل ذلك وجميعها مسكونة إلا ماقل وهي من أعظم ممالك السودان المسلمين وتشمل خمس أقاليم كل أقليم مملكة بذاتها وهي مالي وصوصو وبلاد غانه وبلاد كوكو وبلاد تكرور وأكبرها مالى وقد دخل ملوك مالي في الإسلام منذ القدم. انظر إبن خلدون : العبر ، ج ١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، ج٥ ، ص ٢٧١ ــ ٢٨١.

(٣) منساموسي بن أبي بكر كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً له أخبار في العدل تؤثر عنه عظمت المملكة في أيامه إلى الغاية وافتتح الكثير من البلاد. انظر المصدر السابق والجزء ، ص٢٨٣.

انتقال الملك إليه جعلنا نعرف القليل من المعلومات عن هذه الرحلة . وهي كما ذكرها السلطان منساموسي " إن الذى قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مائتي سفينة وشحنها بالرجال والازواد التي تكفيهم سنين وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزوادهم فغابوا مدة طويلة ثم عادت منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها فسأله عن أمرهم فقال : سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة وادٍ له جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتي فلم يصدقه فجهزألفي سفينة ألفاً للرجال وألفاً للأزواد واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك فكان آخر العهد به ويمن معه "(١).

فهذا السلطان آثر الترحال والتنقل مضحياً بسلطانه في سبيل الاستكشاف. ويرى أهل المغرب أن الإبحار غرباً مخاطرة غير محمودة العواقب حيث ساد الاعتقاد أن الساحل الغربي للمغرب والأندلس هو نهاية الأرض المعمورة ويدلل على ذلك ما أشار إليه سلطان مملكة مالي منسا موسي في قوله " إن الذى قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ". ويفهم مما سبق عدم اقتناعه باعتقادات السلطان السابق.

ونلاحظ أنه من بين المؤيدين لهذه الفكرة المؤرخ المسعودي .إذ أشار إليها في كتابه مروج الذهب . أما تفاصيل ذلك فقد أوردها في كتابه أخبار الزمان ولكن لم يصلنا . وقد وصف المسعودي القائمين بتلك الرحلات في البحر المحيط قائلاً :" من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه " (٢).

وعقب المسعودي بعد هذا بإضافات مقتضبة مفادها هلاك بعض الرحالة فيه ونجاة آخرين استطاعوا وصف ما شاهدوه ومنهم :

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص٢٠٠ ، ٥ ، ص ٤٣٤ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٨٣

(٢) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص ١١٩.

رحلة خشخاش في البحر المحيط :

ذكر المسعودي " أن رجلاً من أهل الأندلس يدعى خشخاش من فتيان قرطبة وأحداثها جمع جماعة من أحداثها وركب بهم مراكب استعدها في هذا البحر فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة وقال إن خبره مشهور عند أهل الأندلس " (١).

ولم يتم تدوين هذه الرحلة وإنما انتشرت شفوياً بين أهل الأندلس ،ودونت فيما بعد في كتب الجغرافيين المسلمين ؛ لذا لانعرف عنها الشيء الكثير سوى ما أورده هؤلاء الجغرافيون. وممن ذهب في البحر المحيط وعاد ليقص علينا مشاهداته الفتية المغرورون أو المغررون وأغلب الظن تسميتهم بالمغرورين أو المغررين نسبة للاعتقاد السائد في ذلك الوقت فيمن يبحر في البحر المحيط بأنه يغرر بنفسه إذ لاتوجد أرض بعد البحر المحيط فسموا المغررين أو المغرورين لتغريرهم بأنفسهم.

وقد ذكر كراتشكوفسكي رأي METZ متز في أنه يجب قراءة اسمهم بالمغربين أي الضاربين غرباً وقد رفض كراتشكوفسكى هذا الرأى لوروده في الكتب السابقة بلفظ المغررين أو المغرورين (٢).

وهذا مما يدعم القول في أن الاسم إنما أطلق عليهم بسبب اعتقادهم بوجود الأرض عقب البحر المحيط وقد لاقت هذه القصة انتشاراً واسعاً وحمل أحد طرق لشبونة (٣) اسم درب المغررين (٤). تأكيداً لشهرتها.

وتقودنا الرحلة إلى القول :بأنه على الرغم من الاعتقاد السائد من أن البحر المحيط لا أرض بعده، وبالرغم من تسميته ببحر الظلمات تحذيراً من

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ج١ ، ص ١١٩ ؛ الحميري : الروض المعطار ، ص ٥٠٩.

(٢) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج١ ، ص ١٣٧.

(٣) (اشبونه أو لشبونه) بالأندلس مدينة قديمة بغربي باجه على ساحل المحيط الأطلسي وهي عاصمة البرتغال الآن وكان اسمها قديماً قوديه. أنظر الحميري : الروض المعطار ، ص ٦١.

(٤) المصدر السابق والصفحة ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطي ، ص ٤٧.

الإبحار فيه ، إلاأن الرغبة في الكشف عن المجهول كانت أقوى لدى بعض الأفراد فقامت بعض المحاولات في سبيل ذلك . فمن هذه الرحلات ما وصلنا معلومات عنها ومنها مالم يصلنا [1]. مما يقودنا إلى الافتراض ، أنه ربما عن طريقه وصل المسلمون إلى أمريكا وعرفوها قبل كولومبس . ولكن نظراً لعدم وجود إثباتات تدعم هذا الافتراض اللهم إلا أخباراً شفوية متواترة بين الناس [2] تناقلها الجغرافيون المسلمون وربما خالطها الكثير من الأساطير.

وما يهمنا هنا رحلة الفتية المغررين وإبحارهم في البحر المحيط وعودتهم ومع عدم تدوينهم للرحلة إلا أنه وصلتنا أخبارها.

رحلة الفتية المغررين أو المغرورين :

ومجمل رحلتهم إنهم ثمانية رجال كلهم أبناء عم خرجوا من مدينة لشبونة وأبحروا في بحر الظلمات ، غايتهم التعرف على ما فيه وإلى اين منتهاه ، فانتظروا موسم هبوب الريح وتزودوا بمؤن تكفيهم أشهراً وساروا غرباً في خط مستقيم نحو أحد عشر يوماً ، لم يكن في مقدورهم السير في هذا الطريق لكثرة الصخور وارتفاع الأمواج وعدم نقاء الهواء ، فاتجهوا جنوباً خوفاً على أنفسهم . وقد ذكر شكيب أرسلان أنهم لو استطاعوا مواصلة ذلك الطريق لأصبح في إمكانهم الوصول إلى ساحل أمريكا الشمالية [3].

واستمروا في الإبحار جنوباً اثني عشر يوماً فوصلوا إلى ساحل جزيرة أطلقوا عليها اسم جزيرة الغنم لكثرتها هناك والتي تميزت بمرارة لحومها.

وقد ذهب بعض العلماء الأوربيين إلى أنها إحدى جزر أزور والتي ينبت بها نوع من الأعشاب تقتات به الماعز أدى إلى مرارة لحومها [4]. بينما ذكر كراتشكوفسكي إنها إحدى جزر الأنطيل أو ما ديره. [5]

---

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج١ ، ص ١٣٦.

(٢) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج١ ، ص ٩٣.

(٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص ٩٤.

(٤) زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٥٠.

(٥) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج١ ، ص ٩٤ ؛ كراتشكوفسكي :تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج١ ، ص ١٣٧.

وتزود الرحالة بجلود الأغنام من هذه الجزيرة وغادروها متجهين ناحية الجنوب مع الإنحراف قليلاً جهة الشرق واستمروا في الإبحار اثني عشر يوماً فلاحت لهم جزيرة آهلة فاتجهوا إليها وعند اقترابهم منها أحاطت بهم زوارق سكانها وحملوهم في مراكبهم أسرى إلى المدينة . وظلوا كذلك لمدة ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع قدم عليهم ترجمان الملك فسألهم عن سبب قدومهم الجزيرة ووجهتهم . وعقب سماعه إجاباتهم وعدهم خيراً . وفي اليوم التالي ساروا للقاء حاكم الجزيرة فأعاد عليهم السؤال فأجابوه بمثل ما أجابوا الترجمان، فضحك وأخبرهم أن أباه قد بعث برجال لمعرفة نهاية المحيط فلم يصلوا إلى نتيجة حاسمة ؛ حيث استمروا مبحرين لمدة شهر حتى انقطع الضوء عنهم فعادوا من غير فائدة.

ظل الفتية في حجزهم إلى أن هبت الريح الغربية وعند ذلك أمر الملك بوضعهم في قارب بعد أن عصبت أعينهم . وأبحروا بهم مدة ثلاثة أيام إلى أن وصلوا البر فأخرجوهم وأوثقوهم وتركوهم وعادوا إلى جزيرتهم. وبينما هم على ذلك الحال سمعوا أصواتاً وضوضاء فقاموا بالاستغاثة لإطلاق سراحهم. وكان مصدر ذلك الصوت بعض البربر الذين سارعوا بحل وثاقهم وسألوهم عن خبرهم فلما أخبروهم بقصتهم قالوا لهم " أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين " فقال زعيم الفتية وأسفى فسمي المكان إلى اليوم أسفى وهو أحد مراسي المغرب الأقصى [(١)].

وقد قيل إن الجزيرة التي بلغها الفتية :هي إحدى الجزر الخالدات أو أزور[(٢)] أو إحدى جزر كناري [(٣)]. والواقع إن المعلومات الواردة عن هذه الرحلة

---

(١) الحميري : الروض المعطار ، ص ٦١ ؛ شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج١ ، ص ٩٢ ــ ٩٨ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ، ص ٤٩ .

(٢) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج١ ، ص ٩٤ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ، ص٥٠ .

(٣) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب ، ج١ ، ص ١٣٧.

لا نستطيع القطع بصحتها ،حيث إنها لم تدون بل تناقلتها الألسن ، وستظل احتمالاً حتى نعثر على ما يؤكدها، وأغلب الظن أنها حدثت في القرن الرابع الهجري [١].

ومن الملاحظ أن أهل الجزيرة التي وصلها الفتية على علم بالطريق إلى بلاد المغرب، بدليل إعادتهم إليه ، بالإضافة إلى إلمامهم باللغة العربية، وبالرغم أن رحلات المسلمين في المغرب والأندلس اتجهت إلى البحر المحيط لاكتشافه إلا أنه لم تتوفر لدينا المعلومات الكافية عن تلك الرحلات وربما لو وصلنا كتاب المسعودي أخبار الزمان ؛لأصبح من السهل علينا معرفة بعض تلك الرحلات .

وعلى العكس من ذلك ، نجد الرحالة المشارقة على علم بالبلدان الواقعة إلى الشرق منذ وقت مبكر [٢]. بالإضافة إلى أن هذه الرحلات كانت للتجارة أو السياحة أو لمبعوثين من قبل الدولة الإسلامية إلى حكامها .

لقد كانت لأهل المغرب والأندلس رحلات مهمة إلى جانب ما سبق أسهمت في إضافة معلومات جغرافية واقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية عن الأماكن التي ساروا إليها. ومثال ذلك رحلة يحيى بن الحكم إلى القسطنطينية.

رحلة يحيى بن الحكم البكري :

يحيى بن الحكم البكري الجياني الملقب بالغزال لجماله . من بني بكر ابن وائل [٣] كان شاعراً مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل جليلاً في نفسه وعلمه وله منزلة كبيرة عند أمراء الأندلس [٤].

---

(١) زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ، ص ٤٩.

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٨ ، ص١٠٠ ـ ١٠١.

(٣) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٢٥٤.

(٤) الضبي : بغية الملتمس ، ص٥٠٠.

وقد عمر الغزال طويلاً حيث إنه عاصر خمسة من أمراء الأندلس . وكانت ولادته في سنة ١٥٦هـ / ٧٧٢م في إمارة عبدالرحمن بن معاوية (١). وتوفي في إمارة محمد بن عبدالرحمن (٢) وهو ابن أربع وتسعين سنه (٣).

خرج الغزال إلى المشرق قاصداً القسطنطينية على رأس بعثة من قبل الأمير عبدالرحمن بن الحكم (٤) وقد أورد المقري سبب الرحلة .أن ملك القسطنطينية توفلس بعث إلى الأمير عبدالرحمن سنة ٢٢٥هـ /٨٤٠م بهدية طالباً مودته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق حفاظاً عليه من تحركات المأمون والمعتصم فكافأه الأمير عبدالرحمن على الهدية بهدية مماثلة وبعث إليه يحيى

---

(١) عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان الملقب بصقر قريش ويعرف بالداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ولد سنة ١١٣هـ / ٧٣١م وتوفي سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م بقرطبة .كان حازماً سريع النهضة في طلب الخارجين عليه لايخلد إلى راحة ولايكل الأمور لغيره ولاينفرد برأيه ، شجاعاً مقداماً شديد الحذر سخياً لسناً شاعراً عالماً بنى الرصافة بقرطبة تشبهاً بجده هشام باني رصافة الشام. انظر الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٢ ـ ١٣ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٣ ، ص ٣٣٨.

(٢) محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام الأموى أبوعبدالله من ملوك الدولة الأموية في الأندلس مولده بقرطبة سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٢م توفي بقرطبة سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦م تولى بعد وفاة أبيه سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٢م كان كثير الإحسان للرعية عاقلاً عادلاً أحبه أهل البلدان المستقلة في عصره حتى كانوا لايقطعون أمراً دون الأخذ برأيه مثل بني مدرار بسجلماسه كان كثير المغازى والغزوات على الفرنج كان أيمن الخلفاء بالأندلس ملكاً وأسراهم نفساً وأكرمهم تثبتاً وأناة يجمع إلى هذه الخلال الشريفة البلاغة والأدب خلف اثنين وخمسين ولداً كان له وزير اسمه هاشم بن عبدالعزيز أساء السيرة فضاعت هيبة الدولة في أواخر أيامه. انظرالضبي : بغية الملتمس ، ص ١٥ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٦ ، ص ١٨٩.

(٣) الضبي : بغية الملتمس ، ص ٥٠١.

(٤) عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الأموي أبوالمطرف رابع ملوك بني أمية في الأندلس ولد بطليطلة سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م بويع بقرطبة بعد وفاة أبيه بيوم واحد سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م شيد القصور وبنى المساجد في الأندلس وأقام سور أشبيلة وجلب الماء العذب إلى قرطبة اتخذ السكة بقرطبة وضرب الدراهم باسمه ونظم الجيش وأكثر من الأسلحة والعُدد احتجب قبل وفاته مدة ثلاث سنوات لعله أضعف قواه وكانت أيامه أيام سكون وعافية كثرت عنده الأموال كان عالي الهمة له غزوات كثيرة كان أد يباً ناظماً للشعر مطلعاً على علوم الشريعة وبعض فنون الفلسفة مدة ولايته ٣١ سنه و٣ أشهر ووفاته بقرطبة سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٢م. انظر الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٤ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٣ ، ص ٣٠٥.

الغزال من كبار أهل دولته . وكان مشهوراً بالشعر والحكمة ، فأحسن أداء سفارته فأصبح لعبدالرحمن مكانة كبيرة لدى منازعيه من بني العباس ؛دلالة على نجاح سفارة الغزال.

وكان عمر الغزال وقت رحلته إلى القسطنطينية قد شارف الخمسين من العمر[1]. واختلفت المصادر القديمة فيما يتعلق بسفارة الغزال أكانت للقسطنطينية في المشرق أم إلى بلاد المجوس (ما يعرف بالدنمارك الآن) في الشمال[2].

فمن المؤرخين من يرى أن رحلة الغزال موجهة إلى القسطنطينية برسالة لملك الروم[3] ومنهم من أوردها إلى القسطنطينية وبلاد المجوس [4] ، ومنهم من نظر إليها بشك كبير[5] ، في حين أيدها فريق آخر[6]. وسواء كانت إلى القسطنطينية بالمشرق أو إلى بلاد المجوس في الشمال فقد قام الغزال فيها بتسجيل مشاهداته لكل ما يمر به. وربما تكون له سفارتان بسبب اختلاف المصادر حولها . ولكن أخبار سفارته إلى القسطنطينية واضحة المعالم.

أما الثانية فرواياتها مضطربة ومختلطة بأخبار سفارته الأولى . ولعل السبب في ذلك ناتج من أن سفارته الثانية لبلاد المجوس ، هي جزء من

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣٤٦ ، ج٢ ، ص ٢٥٧.

(٢) عبدالرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص ١٣٨ ؛ حكمه على الأوسي : يحيى بن الحكم الغزال ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج٢١ ، سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ، العراق.

(٣) الحميدي : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، ج٢ ، ص ٥٩٧ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص٥٠٠.

(٤) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣٤٦ ، ج٢ ، ص ٢٥٧ ؛ الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ؛ محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ، ص ٣٠٢.

(٥) أحمد مختار العبادي : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٥٢ ـ ١٥٤ ؛ أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلس ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٦) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

السفارة الأولى . إذا أخذنا في الحسبان مروره ببلاد المجوس في طريقه إلى القسطنطينية [1].

وما يهمنا هنا :أن المسلمين على اختلاف أجناسهم ومراتبهم ، شغفهم حب الترحال ، وليست كل رحلات الرحالة المسلمين معروفة أخبارها لدينا . فما نعرفه أقل القليل . وحتى هذا القليل داخله الكثير من الأساطير ، بالإضافة إلى أن هناك رحالة لانعلم من أمرهم شيئاً :إما لانهم لم يدونوا رحلاتهم أو لأنهم لم يوفقوا فيها سواء في الذهاب أو العودة ولم يعرف مصيرهم . ومثال ذلك سلطان مالي محمد بن قو.

وهكذا نجد أنه كانت لمسلمي المشرق أو ، المغرب والأندلس رحلات إلى خارج أقطارهم منذ وقت مبكر وإن تنوعت أقطارها وجهاتها وبهذا تكون الرحلة ليست جديدة على المسلمين في مختلف أقطارهم . وإن كانت بدايتها في كلا الجهتين للعلم.

(١) احمد مختار العبادي : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٥٢ ـ ١٥٤ ؛ أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

الفصل الأول

فن الرحلة عند المغاربة والأندلسيين

١ - أنواع الرحلات والبرامج.

٢ - خصائص الرحلات المغربية والأندلسية :

أ - خصائص عامـــة.

ب- خصائص خاصة.

٣ - أهمية الرحلات المغربية والأندلسية.

فن الرحلة عند المغاربة والأندلسيين

الرحلة فن من فنون الأدب العربي . تخصص وبرع فيه الرحالة المسلمون وخاصة المغاربة والأندلسيين لكثرة دوافعهم في القيام بمثل هذه الرحلات .

ومن أهمها :

١ـ أداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة.

٢ـ طلب العلم من منابعه الأصلية مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ومن المراكز الأخرى في الدولة الإسلامية كبغداد ودمشق والقاهرة وغيرها والتى أصبحت محط أنظار طلبة العلم . فسعوا للقاء العلماء فيها والاستفادة منهم [١].

وعلى ضوء ما سبق نستطيع القول : بأن السببين السابقين كانا نقطة انطلاق للرحلات المغربية والأندلسية ، والتي لم تحظ بعناية المؤرخين بالمعلومات عنها إلا أسماء بعضٍ ممن رحلوا إلى المشرق ، ومن أبرز هذه المؤلفات التي عنيت بذلك نفح الطيب ، إذ حفل بالعديد من التراجم والتي بلغت ثلاثمائة ترجمة في هذا الصدد[٢].

وهذا النوع من الرحلات شاع في المغرب والمشرق على السواء ، ولم تلبث الرحلات أن تأصلت في المغاربة والأندلسيين وأصبحت فناً قائماً بذاته . من حيث تدوينه بأسلوب مميز في سفر يشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كل مدينة ، مع إعطاء لمحة وافية عنها وقائمة بأسماء مراحل السفر ومراكز الماء إلى الحجاز . كما يشمل وصفاً مفصلاً لمكة المكرمة والمدينة المنورة في جميع النواحي ، ومناسك الحج والعلماء المأخوذ عنهم . وعقب أداء الفريضة يتابعون طريقهم إلى المراكز العلمية المعروفة لتلقي المزيد من العلم فيها مع إعطاء وصف شامل لها.

---

(١) صالح محمد فياض أبودياك : التبادل الفكري بين المغرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية ، مجلة الدارة، العدد الثاني ، السنه ١٣ ، محرم ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م ، ص ٩٨ ـ ١٢٥.

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج٢.

ومن خلال تتبع هـذه الرحلات نجدها تسجيلاً حياً للمجتمع الإسلامي في تلك الفترة من كافة جوانبه.

أولاً : أنـواع الرحلات والبرامـج

كان الرحالة المغاربة والأندلسيون ينتهزون فرصة أدائهم فريضة الحج في التجول بين المراكز العلمية ، مثل الاسكندرية والقاهرة ؛ للقاء العلماء والأخذ عنهم، وتسجيل أسماء مشايخهم وأسانيدهم ومروياتهم وما أخذوه عنهم من كتب وإجازات . فمن هؤلاء الرحالة على سبيل المثال ابن رشيد.

فقد حرص ابن رشيد على لقاء العلماء والأخذ عنهم . وقد سجل ذلك بأوضح صورة تكاد تنطق بما كانت عليه هاتان المدينتان من نشاط علمي؛ خاصة في ميدان رواية الحديث وما يتعلق به.

زار ابن رشيد الإسكندرية والقاهرة في طريقه إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م . وتردد على المجالس العلمية لتلقي العلم إما قراءةً أو سماعاً . وأجاز له عدد من العلماء وحرص ابن رشيد على الإشارة إلى أسماء المؤلفات المعول عليها في التعليم لتلك الفترة.

بالإضافة إلى ترجمته لعدد كبير من أهم العلماء المعروفين في البلدان التي زارها[(١)]. كانت هذه التراجم ذات أثر كبير في إضفاء الصبغة العلمية على رحلته . ونتج عن تدوينه لرحلتــه ظهـور سفـر شامل للعديد من الجوانب التي تعكس الطابع الحضاري ونتائجه العلمية والفكرية التي كانت عليها الديار المصرية في أواخر القرن السابع الهجري.

بالإضافة إلى أنها من أوسع البرامج [(٢)] أو الفهارس العلمية لما اشتملت

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٢ ، ٣ ، ٥ .

(٢) البرنامج يقابل معنى الفهرسة فهو كتاب يجمع فيه الشيخ أسماء شيوخه وأسانيده من مروياته وقراءته على أشياخه والمصنفات ونحو ذلك فلفظ برنامج يستعمله أهل الأندلس كثيراً والبرنامج يرادف الفهرسة والمعجم والثبت والمشيخة. انظر الكتاني : فهرس الفهارس ، ج١ ، ص ٦٧ ــ ٧١.

عليه من تراجم وافية وأسانيد مضبوطة وأسماء مؤلفات وكتب. ويمكننا أن نطلق على هذا النوع من الرحلات الرحلات العلمية . وهي أحد نوعي الرحلات المغربية والأندلسية والتي اتخذت أساساً للخروج للحج وأطلق عليه لفظ البرنامج والغالب فيه الجانب الثقافي ؛ إذ يكاد يخلو من الوصف الجغرافي والتطرق للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اختصت بها الرحلات المغربية والأندلسية الأخرى.

ومن هنا فالبرنامج نوع من الرحلات قائم بذاته .انصب اهتمام مؤلفه على الجانب العلمي فقط.

وهناك رحالة مغاربة وأندلسيون اعتنوا بالجانب العلمي ، وكتبوا برامجهم التى دلت على مكانتهم العلمية في الدين وعلومه ، مثل ابن جابر الوادي آشي.

إذ أن برنامجه يغلب عليه الإكثار من جمع الأحاديث والرواية ولقاء العلماء . فهو سجل علمي جمع فيه الأدبيات وتراجم العلماء وأسماء كتب مشهورة في ذلك الوقت بعضها لم يُعرف إلا من خلال رحلته بسبب فقدها وضياعها[1]. أو لعلها فقدت في المشرق ووجدت بعد عدة قرون في طيات كتب هؤلاء الرحالة. بالإضافة إلى عدم معرفة المشارقة أصلاً بأسماء مؤلفيها مثل الفاكهي وأبي على الهجري والهمداني فمثل هؤلاء الرحالة كان إسهامهم عظيماً في نشر الثقافة ...حيث إنهم حلقة الوصل بين المشرق والمغرب الإسلامي[2].

تجول ابن جابر الوادي آشي في معظم المراكز الإسلامية المعروفة في ذلك الوقت والتي كانت منار إشعاعٍ للعلم والعلماء . فأخذ الوادي آشي عن علماء في الإسكندرية والقاهرة وبيت المقدس والخليل ودمشق ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، وعاد للتدريس بتونس . وقد علا شأنه بفضل ما أخذه وجمعه في رحلته . ولم

---

(١) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة..١٤هـ/١٩٨٠م ، ص ٦.

(٢) أبو علي الهجرى : أبوعلي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع ، ص ١١ ــ ١٢ ؛ الدرعي : ملخص رحلتي ابن عبدالسلام المغربي ، ص ١٧ .

يكتف بذلك ؛ بل رحل أيضاً إلى المغرب والأندلس حيث بلغ عدد شيوخه الذين أخذ عنهم تسعة وسبعين ومائتي شيخ وشيخة[1]. فتمتع بمكانة عظيمة وتمكن في سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م من عقد المجالس العلمية، فجمع فيها بين علماء تونس والمغرب والتي حفلت بالمناقشات والمناظرات العلمية[2].

ومن ضمن الرحالة المغاربة والأندلسيين الذين ألفوا البرامج ؛ الرعيني :

فبرنامجه يخلو تماماً من الوصف الجغرافي ، إذ أورد فيه أسماء شيوخه . وعدد من ذكرهم من المشارقه سبعة علماء ذكرهم باقتضاب ، أما الباقون فلم يورد عنهم شيئاً وسبب ذلك كما قال " لا يعرف طرقهم ولاعمن أخذوا "[3] لسهوه ؛ لذا فرحلته علمية وهدفه أداء مناسك الحج وإن لم يعن بذكر ذلك.

نلاحظ أن رحلة البلوي والتي قام بها في سبيل العلم وأداء الفريضة قد شملت إلى جانب ذلك الوصف الجغرافي وكتبت بأسلوب أدبي جميل ، فاعتنى البلوي بوصف المدن التي مر بها وحلقات العلم الموجودة بالمساجد ، بالإضافة إلى وصف المساجد مع ذكر الدواوين الشعرية الذائعة في عصره وتراجم الأعلام الذين لقيهم في رحلته والقضايا الفكرية السائدة لتلك الفترة وإجازات لكتب حصل عليها.

ولكل ما سبق اشتملت رحلته على أسس ومقومات الرحلة المغربية والأندلسية . ولا يمكننا القول : إنها برنامج وتراجم لشيوخه فقط . فهي مزيج من رحلة علمية ورحلة وصفية . فكان الناتج نوع جديد من الرحلات يعد خليطاً من النوعين السابقين.

أما الرحالة ابن بطوطة فلم تكن رحلته رحلة علمية . وإنما كان ابن بطوطة رحالة بالدرجة الأولى . فسبب رحلته الأساسي ، الحج ومن ثم قام بالسفر والتجوال في أرجاء العالم مع إيراده لأسماء العلماء الذين لقيهم إجلالاً لقدرهم.

---

(١) ابن جابر الوادي آشي : برنامج ابن جابر الوادي آشي ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٥.

(٢) ابن جابر الوادي آشي : برنامج ابن جابر الوادي آشي ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٥.

(٣) الرعيني : برنامج شيوخ الرعيني ، ص ١٧٩.

بينما نجد أن سبب خروج الرحالة ابن جبير الأساسي هو الحج ، مع حرصه الدائم على حضور المجالس العلمية المعقودة في المدن التي مر بها، إلا أنه أغفل الحديث عن هذا الجانب وما كان يجري فيها من مناظرات أو دروس مثلما حدث معه عندما كان في مدينة بغداد(١).

لذا لا يمكننا أن نطلق على رحلة ابن جبير لفظ رحلة علمية على الرغم من أن ابن جبير كان واضع الأسس والمقومات للرحلة وتأليفها . وقد اقتفى نهجه الرحالة المغاربة الذين جاءوا من بعده. أما الرحالة العبدري فسبب رحلته الرئيس الحج ولكنه سعى إلى لقاء العلماء والحصول على الإجازات منهم.

واحتوت رحلة العبدري على شيء من التفصيل والتوسع بخلاف الرحلات السابقة لإيراده بعض القضايا وما قيل في مناقشاتها من آراء ثم أتبع ذلك برأيه استناداً على ما قيل في الكتب السابقة.

أما الرحالة التجيبي السبتي فبالرغم من نقصان رحلته إلا أنها مليئة بتراجم للعلماء الذين لقيهم وأجازوه والكتب التي حصل عليها مع ملاحظة أن رحلته هدفها أداء الفريضة وطلب العلم.

ومن هنا لانستطيع الفصل بين أسباب رحلات الرحالة المغاربة والأندلسيين ، وهي أداء الفريضة والسعي لطلب العلم.

أما النوع الآخرمن الرحلات فهو عن الرحلات الوصفية :

فممن عني بالجانب الوصفي ابن جبير ، حيث إنه يأتي في المقام الأول بين الرحالة ، ويأتي بعده البلوي والتجيبي السبتي وابن بطوطة والعبدري وابن رشيد وإن انصب اهتمام ابن رشيد على الجانب الثقافي ؛ وبهذا يأتي وصفه مكملاً لمضمون رحلته ولكنه ليس الأساس.

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٩٥ ــ ٢٠٠.

(٢) انظر الحديث عنها في الصفحات السابقة.

وتشمل الرحلات الوصفية على الجوانب التاريخية القديمة والمعاصرة للرحلة ، والنواحي الاقتصادية والاجتماعية السياسية. وقد اشترك في هذه النواحي والتطرق لها جميع الرحالة ما عدا الرعيني وابن جابر الوادي آشي[٢] لاختصاصهما بكتابة البرامج . وعلى الرغم من أن هذه الرحلات قد غلب عليها الجانب الوصفي إلا أنها اشتملت على الجانب الثقافي، وهو ما اشترك فيه جميع الرحالة بدون استثناء.

فنجدهم يخرجون أساساً للحج وطلب العلم ، ومن ثم يأتي الوصف بجميع جوانبه وإن طغى جانب على جانب آخر أحياناً . وهو ما نستطيع القول عنه :إنه السمة المميزة لأحدهم دون الآخر في كتاباته.

ثانياً : خصائص الرحلات المغربية والأندلسية

انفردالرحالة المغاربة والأندلسيون في كتابة رحلاتهم بخصائص ميزتهم عن غيرهم من الرحالة المشارقة ، والتي أصبحت سمة بارزة من سمات أدب الرحلات المغربية والأندلسية. كما انفرد كل رحالة ببعض الخصائص في رحلته . ويمكننا أن نقسم هذه الخصائص إلى خصائص عامة وخاصة.

* الخصائص العامة :

أ ـ التجربة والاختبار :

اعتمدت معلومات الرحالة المغاربة والأندلسيين والمدونة في رحلاتهم على التجربة والاختبار في أغلب الأحيان ، لا على الرواية والنقل ؛ فمثلاً ابن جبير قام بقياس طول وعرض المسجد الحرام [١]. أما العبدري والتجيبي السبتي فأثبتا نفس القياس وأرجعا نسبته إلى الأزرقي[٢] . وكذلك ابن بطوطة [٣] وعلى الرغم من بقائه مدة طويلة بمكة المكرمة إلا أنه لم يشر إلى قياسه بنفسه . ولعل الأمر يعود إلى طول غيابه عن وطنه وفقدان أوراقه التي دون فيها ملاحظاته.

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٧.

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٥ ؛ التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٢.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٢.

ب ـ الرحلة للحج وطلب العلم :

تنوعت أسباب رحلات الرحالة إلى المشرق ما بين أداء الفريضة وطلب العلم وربما التجارة [1] ، فابن جبير كان أساس خروجه ورحلته إلى المشرق لأداء فريضة الحج [2] ، وكذلك ابن بطوطة والرعيني وابن جابر الوادي آشي. وإن كان الأخيران لم يتطرقا لكيفية أدائهما الفريضة كما فعل غيرهما من الرحالة.

وأيضاً التجيبي السبتي والبلوي وابن رشيد رحلوا لأداء الفريضة والعلم، ولكنهم ساروا على أسس وخصائص الرحلة المغربية والأندلسية في تسجيل رحلاتهم.

جـ ـ الوصف الجغرافي والعمراني :

إن الوصف الجغرافي هو القاسم المشترك لأغلب الرحالة المغاربة والأندلسيين . فقد اختصت معظم كتاباتهم بالوصف الجغرافي لكل مكان وصلوا إليه وعاينوه بالمشاهدة . فمنهم من أسهب في الوصف كابن جبير، ومنهم المقل كابن رشيد ، ومنهم من لم يتطرق للوصف الجغرافي كالرعيني وابن جابر الوادي آشي اللذين اتسمت كتاباتهما بطابع البرامج. ووصل اهتمام الرحالة المغاربة والأندلسيين بالوصف الجغرافي إلى درجة كبيرة . فنجد أن من لم يتسن له التدقيق في الوصف أو من لم تسعفه الذاكرة عند كتابته لرحلته يعتمد إلى النقل عن سابقيه للشيء الذي اشتركا في رؤيته وشمل الوصف الجغرافي والعمراني لديهم.

١ ـ وصف الأحوال الجوية.

٢ ـ وصف المدن.

٣ ـ وصف المساجد.

٤ ـ وصف المباني.

٥ ـ وصف أماكن وجود الماء والبساتين.

٦ ـ وصف القلاع والحصون.

٧ ـ وصف البحر.

---

(١) مثل العبدري فقد انتهز فرصة خروجه للمشرق للتجارة. انظر العبدري: الرحلة المغربية ، ص ١٨٨.

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٣٨٥.

٨ ـ وصف الجبال والصحراء.

٩ ـ وصف الطرق والقرى.

١٠ـ وصف الآثار التاريخية القديمة.

١١ـ وصف المجتمعات وأخلاقها وطباعها .

١ ـ وصف الأحوال الجوية :

إن اهتمامهم بكل ما يشاهدونه امتد ليشمل الأحوال الجوية التي عانوا منها. فمن ضمن الرحالة الذين تطرقوا لذلك في كتاباتهم الرحالة ابن جبير والبلوي[1].

٢ ـ وصف المدن :

من أهم ما عرف عن الرحالة المغاربة والأندلسيين وصف المدن . وهم لم يكتفوا بذلك ؛ بل اتبعوا ذلك بآرائهم الخاصة مثل ابن جبير والتجيبي السبتي[2] .

٣ ـ وصف المساجد :

أبرز خصائص كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين اعتناؤهم الفائق بوصف المساجد ، وخاصة المسجد الحرام والمسجد النبوي وقد اشترك جميعهم في وصفهما ما عدا أصحاب البرامج.

ولم يقتصر وصفهم للمسجدين على حالتهما أثناء المشاهدة ، ولكن امتد ليشمل الناحية التاريخية لهما، والإصلاحات التي حدثت بهما والقائمين بها وأماكن حلقات العلم والأئمة فيهما وغيرها من الأمور المتعلقة بالمسجدين. فممن أولى عنايته لتاريخ عمارة المسجد الحرام[3] والمسجد النبوي إبن جبير والعبدري

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠٠ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ١ ، ص ٢٩٥.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٣ ـ ٥٤ ؛ التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٩ ، ٨٦ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٠ ـ ١٨٣ ؛ التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٠ ، ٢٣٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٢ ، ١٤١ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٢٩ ، ٣٠٧.

وابن بطوطة والبلوي[1]. أما التجيبي السبتي فكان ممن أسهب في هذه الناحية بالإضافة إلى ذكر الزيادات التي تمت بهما والقائمين بها[2]. إلى جانب ذكر المساجد الموجودة بالأماكن التي زاروها مثل التجيبي السبتي[3].

٤ ـ وصف المباني :

أبرز من توسع في وصف المباني ابن جبير والتجيبي في وصفهما لمباني مدينة جدة ومكة المكرمة[4].

٥ ـ وصف أماكن وجود الماء والبساتين :

تكاد لا تخلو رحلة من الرحلات الوصفية من وصف لأماكن وجود الماء سواء التي كانت في الطريق إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة أو في داخل المدن، وسواء كانت آباراً أو عيوناً مع ذكر أسمائها ومواقعها داخل المدن والقرى وكيفية أخذ الماء منها . وهذا لايتعلق بالمدن والقرى الموجودة في الحجاز فقط ؛ بل تعداه إلى جميع الأماكن في المناطق التي زاروها مثل ابن جبير [5].

إن أكثر البساتين التي لفتت انتباه الرحالة المغاربة والأندلسيين في رحلاتهم ما شاهدوه في مر الظهران [6] وبدر والمدينة والزاهر [7] بمكة المكرمة.

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٩ ــ ٨٦ ، ١٦٨ ــ ١٧٣ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٠ ، ١٨٤، ٢٠٤، ٢٠٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١١٥ ، ١٢٠ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١، ص ٢٩٨ـ٣٠٧.

(٢) التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٠ ــ ٢٣٢.

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٣ ، ١٢٣ ؛ التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٨٦.

(٦) (مر الظهران أو بطن مر) ويعرف الآن بوادي فاطمة وهو وادٍ به عيون كثيرة وهو يعد من ضواحي مكة المكرمة وبين البيت المشرف ومر ستة عشر ميلاً وسميت مر لمرارتها أو لأن في بطن الوادى بين مر ونخله عرق من الأرض أبيض وعند مر الظهران يجتمع وادي النخلتين فيصيران وادياً واحداً. ومر هي القرية والظهران الوادي وفيه عيون ونخيل وجميز. انظر عرام بن الأصبغ : أسماء جبال تهامة ، ص ٤١٥ ؛ الأصفهاني : بلاد العرب ، ص٢٤ ــ ٣٢ ؛ البكرى : معجم ما استعجم ، ج٤ ، ص١٢١٢؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٤٩.

(٧) (الزاهر) هي الآن داخل مكة المكرمة وتعرف بالشهداء والزاهر كانت تعرف سابقاً بفخ. أنظر الحربي : المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، ص ٤٦٧.

ويمكننا القول :إن سبب ذكرهم لها عائد إلى أن الأماكن التي مروا بها مناطق جرداء ؛ لذلك لفتت انتباههم تلك المزروعات.

٦ ـ وصف القلاع والحصون :

كان لوصف الاستحكامات الحربية من حصون وقلاع نصيب من وصف الرحالة المغاربة والأندلسيين ، سواء كانت بحالة جيدة أو خربة ، مثل ما ذكره ابن جبير والعبدري وابن بطوطة(١).

٧ ـ وصف البحر :

كان لوصف البحر ومخاطره وأهواله وغدره بالإنسان نصيب في كتابات الرحالة. ولاشك أن المبدع في وصفه لابد أن يكون أديباً بارعاً. ونلمس تلك البراعة والإتقان لدى ابن جبير والتجيبي السبتي أثناء عبورهما للبحر الأحمر في طريقهما إلى جدة ،حيث أبدع كلاهما في وصف معاناتهما فيه إلى أن وطئت أقدامهما الأرض (٢). ولاريب أنه لو قدر لباقي الرحالة المغاربة والأندلسيين ركوب البحر لما ترددوا في وصفه لأن معظمهم أدباء مبدعون متقنون للشيء الذي يصفونه ، فيحس المرء بإحساسهم ؛ وكأنه معهم ناظر لما يصفونه.

٨ ـ وصف الجبال والصحراء :

إن مما اشتمل عليه وصف الرحالة المغاربة والأندلسيين الجبال ، وقاموا بوصفها بجميع أبعادها مع التطرق لتاريخها إن وجد . ومثال ذلك وصف ابن جبير(٣) لجبال في الزاهر. وقد أورد ابن بطوطة أيضاً وصفها ولكن باختصار. وكذلك البلوي ذكرها ولكنه لم يفصل(٤).

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٢ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛ التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٢ ـ ٢١٤.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

بينما نجد ابن رشيد يتحدث عن جبل عرفات بالتفصيل وتطرق لاسمه سابقاً قائلاً " إنه يُعرف عند العرب القدماء بالإل "[1] ولم يكتف بذلك ؛ بل ضبط اسمه من كتب اللغة مع النقد والتصحيح . فقد نقد البكري في وصفه له حيث قال :إنه " جبل صغير من رمل على يمين الإمام بعرفة " [2]. وأوضح أن هذا غير صحيح . كما صحح للأزرقي مؤرخ مكة في مكان موقف الرسول ﷺ بقوله : قال الأزرقي :" وموقفه منها على النابت " [3] وبين ابن رشيد وجهة نظره في هذا ذاكراً إنه كان الأولى به أن يقول " وموقفه إلى النابت لا على النابت لأن النابت لايمكن القرار عليه " [4].

أما وصفهم للصحراء فإن أغلب المناطق التي مر بها الرحالة في طريقهم إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة يغلب عليها الطابع الصحراوي أو شبه الصحراوي . وطبيعي أن يتطرقوا لوصفها . حيث وصف ابن بطوطة صحراء البزواء [5]. وذكر جملة نتبين منها وصف هذه الصحراء فقال :" يضل فيها الدليل " [6] كناية عن تشابه معالمها ، وعدم التفريق بين مسالكها بالرغم من شهرتها وطروق الحجيج لها كل عام في طريقهم إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة. كما وصفها العبدري بمثل ذلك[7].

٩ ـ وصف الطرق والقرى :

اشترك الرحالة جميعهم ما عدا ابن جابر الوادي آشي والرعيني في وصف القرى منذ انطلاق رحلتهم . فلم يقتصروا على وصف القرى داخل

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج ٥ ، ص ٨٧ .

(٢) البكري : معجم ما استعجم ، ج١ ، ص ١٨٥ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٨٧ ـ ٨٨ ، ٩٣.

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص ١٩٠ .

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٨٩ ـ ٩٣.

(٥) (البزواء) موضع في الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والبزواء هي الأرض البيضاء الممتدة بين مستورة وبدر على الساحل ، انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤١١ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص ٢١٧ .

(٦) ابن بطوطة: الرحلة ، ص ١٢٨ .

(٧) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٤ .

الحجاز فقط ، حيث وصف البلوي الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة وما بينهما من قرى[1].

١٠ـ وصف الآثار التاريخية القديمة :

من خصائص كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين وصف الآثار التاريخية القديمة . واشترك معظمهم في هذه الخاصية ما عدا الرحالة الذين كتبوا رحلاتهم على هيئة برامج. أما الرحالة الوصفيون فقد أدلوا بدلوهم في وصف الآثار التاريخية القديمة بعد تدقيق شديد . ومثال ذلك البلوي ووصفه لمدائن صالح عقب معاينته لها. " فأدرك الناس العبر وعاينوا منظراً لا تشرحه عبارة الخبرة لا يخبر عنه إلا منظره ، ولا يشفي من حديثه إلا محضره . وما عدا ذلك فنجم في سماء ونقطة من ماء "[2].

كما وصفها ابن رشيد أثناء حديثه عن الطريق إلى المدينة . وذكر أن ما شاهده فيها يحار فيه الوصف . ومما يدلنا على تحليله السليم ما أورده في وصف منازلهم وما شاهده من عظام باقية لأهل مدين قائلاً " وإن ظاهر أحوالهم أن خلقهم كانت كخلقنا إذ أبواب بيوتهم وزواياها على مقادير أبوابنا المعتادة في الارتفاع "[3]. كما اختصوا بتسجيل النقوش التاريخية الموجودة بالمساجد أو الآثار المقدسة.

١١ـ وصف المجتمعات وأخلاقها وطباعها :

من أبرز منْ تكلموا عن أخلاق وطباع بعض المجتمعات التي حلوا بها الرحالة العبدري فقد وصف أهل مكة المكرمة بقوله :« وفي أصحابها بعض جفاء وقلة ارتباط للشرع وهم في الغالب يؤذون الحجاج ويحيفون على المجاورين بها »[4].

(١) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٩٥.
(٢) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٤ ـ ١٥.
(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٢.

د ـ وصف أحاسيس النفس :

ظهرت براعة الرحالة المغاربة والأندلسيين في تصوير ما يعتلج في نفوسهم سواء عند الفرح أو الخوف أو الغضب من شيء مخالف للسنة. فقد أبدع ابن جبير ثم البلوي على سبيل المثال في وصف مشاعرهم لحظة دخولهم لمكة المكرمة(١).

أما الإحساس بالخوف فأبرز من أوضحه التجيبي أثناء عبوره للبحر الأحمر إلى جدة(٢). وكان الإحساس بالغضب في حالة ما هو مخالف لتعاليم الإسلام متفاوتاً بين الرحالة كلٌ بحسب طبعه وردود فعله . فمنهم من اكتفى بالدعاء بأن يصلح الله الأحوال مثل ابن جبير عند رؤيته للعامة في نهبها الشمع المقدم للحرم المكي في رمضان فقال على عادته " وعند الله تعالى في ذلك الجزاء والثواب إنه سبحانه الكريم الوهاب "(٣).

ومنهم من انطلق لسانه بالسب والشتم على لصوص الطرق الذين يتعرضون بالأذى لحجاج بيت الله الحرام مثل الأعراب القاطنين قرب المدينة فوصفهم العبدري بقوله " وعرب تلك الناحية من أكفر العرب وأفجرهم... لا خفف الله ثقل أوزارهم ولا عفى عن قبيح آثارهم ولا أعفاهم من قوارع الدهر وخطوبه وإنحائه عليهم من كروبه بأنواع ضروبه "(٤).

ومن المؤكد أن الذي دفع هؤلاء الأعراب لقطع الطريق هو ما كان يلاقونه من مشقة في سبيل الحصول على الرزق . فالدولة الإسلامية في ذلك الوقت لم تكن تلتفت إلى مساعدتهم لتدهور أحوالها هي أيضاً إذ لم تكن هناك دولة إسلامية قوية إلا دولة المماليك بمصر. وهذه كانت منشغلة بحرب الصليبيين.

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٨ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٥.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٢ ـ ٢١٤.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٣.

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠١.

هـ ـ تصحيح مايرونه من أخطاء شائعة :

من جملة ما اختص به الرحالة المغاربة والأندلسيون تصحيح ما يرونه من أخطاء شائعة في عصرهم ، وعدم سكوتهم عليها . فهم يوردون ما يشاهدونه ويستنكرونه ، ثم يتبع ذلك تصحيحهم لها، مع إبراز رأيهم وبيان ما يقال في ذلك وحقيقته . فمما أورده العبدري أثناء وصفه لبدر قائلاً :" أن هناك غاراً يذكر الناس تخرصاً أنه الغار الذى دخله الرسول ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه حينما هاجرا من مكة " وأوضح عدم صحة ذلك وأن الغار المذكور موجود في جبل ثور قريب من مكة[1].

و ـ التطرق للبدع والشائعات المنتشرة :

لم يترك الرحالة المغاربة والأندلسيون جانباً من جوانب الوصف إلا وطرقوه وتناولوه بالتعليق والتصحيح . ومن ذلك موقفهم من الشائعات والبدع التي انتشرت بين الناس دون التأكد من صحتها ؛ إذ أشار التجيبي أن الشيبيين[2] أحدثوا داخل الكعبة الشريفة كوة[3] في الجدار الغربي مقابل الباب يبلغ ارتفاعها نحو ست أذرع وأطلقوا عليها العروة الوثقى ، وأوهموا العامة أن يلمسوها ونبه على بطلانها[4].

ز ـ تسجيل الأحداث التاريخية المعاصرة :

سجلت أقلام الرحالة المغاربة والأندلسيين العديد من الأحداث التاريخية التي عاصروها أثناء وجودهم في الحجاز وكانوا شاهدي عيان لها، فحرصوا على تدوينها . وبهذا حملت تلك المعلومات الدقة والصدق. فمن ذلك ماحدث أثناء إقامة ابن جبير في مكة المكرمة ومجيء سيف الإسلام طغتكين ابن أيوب[5]

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٤.

(٢) (الشيبيين) من ذرية عثمان بن طلحة حيث سلمه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم فتح مكة وقال له اليوم يوم بر ووفاء. انظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٤ ، ص ٤١٢.

(٣) (الكوة) بالفتح والضم النقبة في الحائط. انظر الفيومي : المصباح المنير ، ج٢ ، ص.٦٦.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، انظر مناقشة هذا الأمر فيما بعد ، ص ٢١٥ـ٢١٦.

(٥) سيف الإسلام أبو الفوارس طغتكين بن أيوب بن شادي بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين =

شقيق صلاح الدين الأيوبي فقد أشار إلى قدومه إلى الحجاز في طريقه إلى اليمن على إثر خلاف وفتنة وقعت بين حكامها. واكتفى ابن جبير بالإشارة إلى الفتنة دون ذكر تفاصيلها(١) وكان ذلك سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م(٢).

كما اهتم الرحالة المغاربة والأندلسيون بذكر أسماء بعض الملوك المعاصرين لهم والذين كانت لهم، صلة بالحجاز مع إيراد طرفٍ من سيرهم بعيداً عن التحيز.

هـ ـ إبراز الناحية السياسية :

شملت ملاحظات الرحالة المغاربة والأندلسيين والمدونة في أسفار رحلاتهم النواحي السياسية للبلدان التي زاروها.

فقد ذكر التجيبي عامل مدينة جدة من قبل أمير مكة نجم الدين أبي نمي الحسني(٣) واصفاً إياه بملك مكة (٤) كناية عن الصلاحيات المطلقة الممنوحة له في إدارة شئون مكة وتوابعها وانتصاره على الطامعين في الحكم.

= صاحب اليمن كان أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين قد سيره إلى اليمن وكان رجلاً شجاعاً كريماً مشكور السيرة حسن السياسة مقصوداً في البلاد الشاسعة لإحسانه وبره توفي في شوال تاسع عشر منه سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م بالمنصورة وهي مدينة اختطها باليمن. انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤ ؛ الفاسي : العقد الثمين، ج٥، ص ٦٢ ـ ٦٤.

(١) ابن جبير : الرحلة، ص ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) انظر تفاصيل ذلك عند أبي شامة : الروضتين، ج٢، ص ٢٥ ـ ٢٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج١١، ص ٣٠٩ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية، ج١، ص ٣٨.

(٣) محمد بن حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني يلقب بنجم الدين تولى إمارة مكة نحو خمسين سنه إلا أوقاتاً يسيرة زالت ولايته عنها وقد شارك عمه إدريس بن قتادة في امرتها حوالى سبع عشرة سنه وقد تولى أبي نمي بعد قتل أبيه أبي سعد في المحرم سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م وقد وقعت معارك كثيرة بينه وبين أمير اليمن والأشراف وأمير المدينة جماز بن شيحة إلى أن استقر له الأمر وخطب لملك مصر المنصور قلاوون وللملك المظفر صاحب اليمن ثم أعاد الخطبة لملك مصر الظاهر بيبرس وقد أثنى عليه من ترجم له ووصفوه بالصفات الحسنة وكان شاعراً قال بعض من ترجم له أنه يصلح للخلافة لولا أنه كان زيدياً وتوفي في صفر سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م. انظر الفاسي : العقد الثمين، ج١، ص ٤٥٦ ـ ٤٧١.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة، ص ٢١٩.

ط ـ الناحية الاجتماعية :

شكلت النواحي الاجتماعية جانباً لا يستهان به من فن الرحلة عند المغاربة والأندلسيين ، وهي من أبرز خصائصها. وقد أفاض في هذا الجانب الرحالة ابن جبير وابن بطوطة من خلال تسجيلهما لتلك الناحية لأهل الحجاز ـ مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ ويمكننا القول إن ابن بطوطة استطاع أن ينقل لنا صورة دقيقة لمظاهرالحياة الاجتماعية لأهل مكة والمدينة خلال عصره(١).

ي ـ الناحية الاقتصادية :

تعرض الرحالة المغاربة والأندلسيون للإشارة إلى الناحية الاقتصادية. ونستطيع استنتاج تلك الجوانب من خلال ما أوردوه في كتبهم . فمن ذلك ما ذكره التجيبي عن الحجاز: أن بجدة عاملاً من قبل أمير مكة مهمته الأساسية قبض المكوس(٢) والضرائب من الحجاج . وقد أظهر التجيبي تذمره من هذه المكوس والضرائب لعدم مشروعيتها(٣) فقال :" والله تعالى يصلح أحوال الجميع ويعظم الأجر بذلك فعلى قدر النفقة والنصب يكون الأجر "(٤). ومعنى هذا أن المكوس والضرائب كانت تشكل أحد موارد الدخل لأهل الحجاز في تلك الفترة.

ك ـ الناحية الدينية :

حظيت الناحية الدينية بنصيب وافر من اهتمام الرحالة ،حيث تناولت كتاباتهم قضية تعدد المذاهب الإسلامية المنتشرة في الحجاز . وقد أشار ابن جبير لهذا الموضوع(٥).

---

(١) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠١ ـ ١١٠ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) (المكس) الضريبة التي يأخذها الماكس وأصلها الجباية : انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٦ ، ص٢٢٠.

(٣) وأول مكس فرض على الحجاج المسلمين كان من قبل القرامطة سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٤م وهي " أول سنة مكس فيها الحاج ولم يعهد ذلك في الإسلام ". انظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج٦ ، ص ٢٩٦ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٣٨٧ .

(٤) التجيبي السبتي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٨ ـ ٨٠ .

ل ـ وصف الناحية الثقافية :

ومن أهم الخصائص التي قام عليها فن الرحلات المغربية والأندلسية الحديث عن الناحية الثقافية والتي تشمل :

١ ـ الترجمة للعلماء الموجودين في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

٢ ـ أماكن حلقات العلم التي يجلس فيها العلماء للتدريس.

٣ ـ ذكر الإجازات التي حصل عليها الرحالة.

٤ ـ المدارس الموجودة بمكة المكرمة والمدينة المنورة.

٥ ـ أسماء الكتب المتداولة في ذلك الوقت والمعتمد عليها في التدريس.

٦ ـ العلوم المتصدرة في التدريس.

م ـ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ورواية الشعر :

حفلت كتب الرحلات بالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي انتثرت في أماكنها المناسبة ؛ إضافة إلى ورود الكثير من الأبيات الشعرية، وخاصة التي توضح مدى التشوق لزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة والمدائح النبوية.

ن ـ البعد عن الأسلوب الخيالي والاعتماد على الأسلوب المدعم بالآراء العلمية المنطقية :

من أهم الخصائص في تدوين رحلات الرحالة المغاربة والأندلسيين اعتمادهم على الأسلوب العلمي السليم القائم على المشاهد الواقعية ، وابتعادهم عن الأسلوب الخيالي القصصي . وذلك عائدٌ إلى كونهم شهود عيان لكثير من الأحداث الواردة في كتبهم ، إلى جانب المناقشة العميقة لعدد من القضايا المدعمة بالوصف القائم على المشاهدة أولاً ثم بإيراد ما يدور حولها من أقوال تطرقت إليها كتابات العلماء السابقين.

ومن مميزات أسلوبهم العلمي في الرحلات تدوين المعلومات بحسب تواريخ حدوثها مع الاطلاع على كتب الرحالة السابقين والإشارة إلى ما نقل

منها مع تصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء. وقد ساعد الرحالة على انتهاج الأسلوب العلمي السليم في كتاباتهم ما وصلوا إليه من علم غزير وسعة فهم مع حرصهم على تدوين ملاحظاتهم أولاً بأول ، ومن لم يتسن له ذلك قام بتدوين رحلته عقب عودته إلى بلاده والتزامه جانب الدقة وقوة الملاحظة في كل صغيرة وكبيرة ، وأحياناً نعثر على بعض الهفوات التاريخية البسيطة ولكنها مع ذلك لاتقلل من أهمية الرحلة ومدى ما تقدمه من مادة علمية متنوعة الموضوعات مما ترتب عليه ازدهار فن الرحلة المغربية والأندلسية على أيدي الرحالة والذي وصل إلى ذروته في القرنين السابع والثامن الهجريين .

* **الخصائص الخاصة :**

تميز الرحالة المغاربة والأندلسيون بمميزات خاصة في تدوين رحلاتهم فكل رحالة يكمل ما نقص من سلفه ويضيف إلى فن الرحلة لبنات جديدة أعطته صفته وميزته عن باقي الرحالة المسلمين في العالم الإسلامي . فمثلاً نجد أن ابن جبير كان أنموذجاً يحتذى به . فهو قد جمع فيها بين الخصائص العامة والخاصة وإن لم يقم فيها بالترجمة للعلماء والأعلام الذين التقى بهم.

بينما نجد أن رحلة الرعيني تميزت بميزة أخرى ، وهى البرامج والمختلفة تماماً عما سار عليه ابن جبير إذ انصب اهتمامه على الجانب الثقافي من حيث الترجمة لشيوخه والكتب التي نال إجازتها وغيرها من الأمور المتعلقة بعلم الحديث. فاحتوت بذلك ميزة التعريف بالعلماء ومدى إسهامهم في الحركة العلمية. وهو أمر لايقل أهمية عن الجوانب الأخرى المطروقة في غيرها من الرحلات.

أما ابن رشيد فقد اتبع منهج ابن جبير من حيث وصف المراحل في طريقه إلى الحجاز . ولم يلبث أن طغى الجانب العلمي على رحلته حتى إنه يمكن تصنيفها ضمن رحلات البرامج بما حوته من ذكر العلماء والكتب المتداولة

في تلك الفترة سواء القديمة أو الحديثة ، إلى جانب ما حظيت به رحلته من إضافات عن المناقشات والمناظرات العلمية والأدبية . وبهذا يكون جملة ما تطرق إليه من وصف على الرغم من قلته يعد مكملاً لمضمون رحلته. وقد أوضح ابن رشيد مضمون رحلته بقوله : " وقد ضمنته من الأحاديث النبوية والغرائب الأصلية والفقهية واللطائف الأدبية والنكت العروضية وضبطت المشكل من أسماء الرجال والتعريف بكثير من المجاهيل والأغفال "(١).

وكما نلاحظ أن كل ما ذكره ابن رشيد يعد جديداً على فن الرحلة وحرص على إضافته وإن كانت الترجمة للشيوخ قديمة بقدم علم الحديث ولكنها هنا في الرحلة المغربية والأندلسية تعد جديدة ومن إضافات ابن رشيد والرعيني.

وقد حرص ابن رشيد على إصلاح الأخطاء التي وقعت في الأسانيد والآداب . فقد قال :" فمما علمت وجه الصواب فيه أوضحته وأقمت صوابه ونبهت على الذى أصلحته "(٢).

أما العبدري فرحلته تأرجحت بين الرحلة الوصفية والعلمية إذ تشتمل على قسط وافر من الوصف سواء للمراحل أو المدن أو الآثار بالإضافة إلى عنايته الفائقة بشرح النواحي السياسية والحضارية في حين أن الجانب العلمي حظي بالقليل من اهتمامه.

وقام العبدري بتصحيح الأخطاء الشائعة ، معتمداً في ذلك على الموازنة بين الكتب التي تحدثت عن الموضوع وإبراز الصحيح فيها مع بيان رأيه ؛ وبذلك يكون حكمه صادراً من عالم بحقيقة الأمور متمكنٍ من فهم كافة دقائقها مع إصلاحه للأخطاء الموجودة في تلك المصادر عقب رجوعه إليها مما يعد ميزة انفرد بها العبدري ، وإضافة لخصائص الرحلة المغربية والأندلسية(٣).

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٢ ، ص ٣٣.
(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج ٥ ، ص ٣٤.
(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٦.

بينما نجد أن التجيبي السبتي قد جمع بين الرحلة الوصفية والعلمية مع حرصه على تغطية الجانب الوصفي بكل أبعاده. وإضافة التعاريف اللغوية لأسماء بعض المدن التي مر عليها مثل جدة ومكة المكرمة(١) بشيء من التوسع.

أما الرحالة ابن جابر الوادي آشي فرحلته تعد من الرحلات العلمية الصرفة لما اشتملت عليه من تراجم العلماء والشيوخ الذين إلتقى بهم . وبهذا فرحلته تعد من الرحلات المعروفة بالبرامج.

بينما نجد أن الرحالة ابن بطوطة كان نموذجاً فريداً للرحالة المغاربة والأندلسيين ، وعلى يديه أخذت الرحلة المغربية والأندلسية شكلها النهائي . فمن بين سطور رحلته يظهر لنا ابن بطوطة الفقيه وعالم الاجتماع والاقتصادي والجغرافي ، فاجتمعت له بذلك العديد من الصفات ، وربما يعود ذلك إلى كثرة تنقلاته واتصالاته بالناس مما أدى إلى اتساع أفقه ومداركه.

أما الرحالة البلوي فكانت عنايته بالجانب الأدبي . ويعد أسلوبه من النثر البليغ ، مع اهتمامه بالدواوين الشعرية المعروفة في عصره ، واعتماده في تدوين رحلته على أهم الخصائص والأسس التي سار عليها سلفه من الرحالة المغاربة والأندلسيين.

ومن المميزات التي عرفت لكل رحالة ما قام به ابن جبير من كتابته لرحلته على هيئة مذكرات يومية . ومنهم من أملى رحلته من الذاكرة كابن بطوطة أو من كتبها أثناء رحلته وعقب عودته قام بتحريرها وتنقيحها، ومنهم من تركها على حالها إلى أن وصلتنا دون تحرير أو تنقيح إلا في مواضع قليلة زاد عليها كابن رشيد ، مما يؤكد أنهم يراجعون رحلاتهم عقب عودتهم.

ومنها أيضاً قيام بعضهم بذكر المسافات المقطوعة بين كل مرحلة ومرحلة أو مدينة وأخرى بالفراسخ والأميال كابن جبير ومنهم من ذكرها بعدد الأيام تعبيراً عن المسافة التي قطعت كابن بطوطة.

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ ، ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

ومن الملاحظ أن بعض الرحالة المغاربة والأندلسيين عند خروجهم من موطنهم لأداء الفريضة وطلب العلم يكون في صحبتهم أحد قرابتهم أو أصدقائهم مثل ابن جبير وابن رشيد والعبدري.

ثالثاً : أهمية الرحلات المغربية والأندلسية

لاشك أن الرحلات المغربية والأندلسية إلى الحجاز ظاهرة أدبية وتاريخية واضحة وجلية ، إلا أنه لم يصلنا منها إلا القليل . بينما حفظت لنا كتب التراجم والتاريخ أسماء رحالة مغاربة وأندلسيين لم نعثر على رحلاتهم أو إنتاجهم أو لم يدونوا رحلاتهم . ومنهم من قام بتدوينها ؛ ولهذه الرحلات المدونة والمحفوظة الفضل في إمدادنا بمعلومات قيمة لم يدر بخلد مؤلفيها أهميتها وقت تدوينها، خاصة وأنهم أودعوا فيها معظم مشاهداتهم عن الحجاز. والتي قد لانجدها في كتب التاريخ المعاصرة من حيث الوصف الدقيق للمدن ونمط الحياة فيها . فأثنوا على الحسن من عاداتها ، ودعوا إلى البعد عن الشاذ منها ، مع ذكر المراحل والمسافات التي قطعوها والصعوبات التي واجهتهم أثناء الطريق إلى الحجاز وعلاقة أشراف الحجاز بأهلها وبالملوك والأمراء والمجاورين مع وصفٍ للحياة الاجتماعية والثقافية والمدارس الموجودة فيها ونشاط العلماء والمصادر المعتمدة في الدراسة بالحجاز.

فهذا الجانب المهم من تاريخ الحجاز والذي حفلت به كتب الرحلات المغربية والأندلسية ، والتي لم تحظ باهتمام المؤرخين المتخصصين . فهي بحق تعد من أصدق المصادر التاريخية للحجاز في هذه الفترة.

وعلى هذا يمكننا القول :إن نمط كتب الرحلات المغربية والأندلسية فن قائم بذاته زاخر بالكثير من المعلومات التي تهم المؤرخ والجغرافي وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع . فأهميتها تتجلى بما تحويه من مادة علمية عن تلك النواحي ، مكتوبة بأسلوب أدبي منسق خال من الأساطير إلا ماندر ، والمعتمد

على المشاهدة والسماع في ملاحظة مختلف المظاهر ومن ثم تدوينها.

ولاشك أن المتمعن في كتب الرحلات يجد أن هؤلاء الرحالة يتفاوتون في درجة ملاحظاتهم واهتمامهم ببعض النواحي دون الأخرى . ومن هنا ظهرت لنا أهميتها في النواحي الآتية :

١ ـ أهميتها من الناحية العلمية :

إن رغبة الرحالة المغاربة والأندلسيين في أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة وارتياد مراكز العلم في المشرق بعد أن تجاوزوا سن الطلب ووصلوا إلى سن تؤهلهم بمجالسة كبار العلماء للأخذ والعطاء ، وبهذا أثريت الناحية العلمية بفضل هذا التبادل العلمي القائم على الالتقاء بكبار العلماء للأخذ والرواية عنهم والحصول على إجازاتهم العلمية في المراكز التي وصلوا إليها والتي تعد ينابيع فياضة بالعلم والمعرفة . وبهذا أصبح الرحالة رسل علم ومعرفة وحلقة اتصال وتبادل فكري وعلمي بين الشرق والغرب أتاح لأهل المغرب والأندلس النهل من علوم المشرق على أيدي هؤلاء الرحالة الذين قاموا بتدريس تلك العلوم وخاصة علوم الحديث وملحقاته لمواطنيهم إلى جانب ذكرهم للمدارس ومنشئيها وأماكنها والعلماء المتصدرين للتدريس فيها.

لذا فكتب رحلاتهم في هذه الناحية تعد من أهم الكتب التي تشير بوضوح للجانب الثقافي والعلمي مع الكشف عن الأصول والمنابع التي استقى الرحالة علومهم منها. وعلى ضوء ذلك تعد من أهم المصادر عن الحركة العلمية في الحجاز.

٢ ـ أهميتها من الناحية الاجتماعية :

شكلت الناحية الاجتماعية جانباً لا يستهان به في كتابة الرحلات المغربية والأندلسية . حيث إن رحلتي ابن جبير وابن بطوطة سجلات حافلة بالجوانب الاجتماعية التي تبين ما كان عليه أهل الحجاز من عادات وتقاليد وخاصة في مكة المكرمة ؛ وبذلك عرفنا الكثير عن ذلك المجتمع في الفترة التي

انصرف فيها اهتمام المؤرخين للنواحي السياسية ، وتدوين أخبار المشرق الإسلامي وما واجهه من هجمات الصليبيين والتتار، مع إهمالهم الناحية الاجتماعية . والتي نستطيع أن نستشف منها الأوضاع المعيشية للمجتمع في ظل تلك الظروف.

انصب حرص الرحالة على إظهار الجوانب الحسنة للمجتمع الحجازي وانتقادهم للسيء منها. وربما جاءت انتقاداتهم عنيفة مثل العبدري ، وربما جاءت بالدعاء إلى الله بإصلاح الأحوال كابن جبير. ومنهم من لم يتعرض لها بالنقد السلبي كابن بطوطة مثلاً.

كما نستطيع أن نتلمس بداية الانحراف في العبادة والتواكل وغيرها من الأمور التي كانت وبالاً على الإسلام والمسلمين من رحلة إبن جبير، والتي بلغت ذروتها في رحلة ابن بطوطة . ولعل مرد ذلك إلى الفهم الخاطىء للشريعة الإسلامية.

٣ ـ أهميتها من الناحية السياسية :

إن ما سجله الرحالة المغاربة والأندلسيون من ملاحظات عن الأحوال السياسية في البلاد الإسلامية التي نزلوا بها كشف لنا كثيراً من الأمور التي نجهلها عن علاقات الممالك الإسلامية بعضها مع بعض ، وخاصة علاقات الحجاز بجيرانه . والتي توضح مدى ما تمتع به الأشراف من مكانة بين سلاطين وأمراء المسلمين الذين كانوا يغدقون الأعطيات عليهم مقابل السماح بالدعاء لهم في المسجدين الحرام والنبوي والمشاعر المقدسة . فعلاقتهم بالمماليك هي علاقة تبعية.

وأيضاً علاقة الأشراف بعضهم ببعض والمنازعات الحاصلة بينهم. كما نستشف من كتابات الرحالة :أن أشراف الحجاز كانت لهم الحرية المطلقة في إدارة شئون مكة في بعض الفترات.

الفصل الثاني

الرحالة المغاربة والأندلسيون ومناهجهم

١ - ابن جبير	٥٤٠-٦١٤هـ/١١٤٥-١٢١٧م
٢ - الرعيني	٥٩٢-٦٦٦هـ/١١٩٥-١٢٦٧م
٣ - ابن رشيد	٦٥٧-٧٢١هـ/١٢٥٨-١٣٢١م
٤ - العبدري	كانت رحلته عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م
٥ - التجيبي السبتي	٦٧٠-٧٣٠هـ/١٢٧١-١٣٢٩م
٦ - ابن جابر الوادي آشي	٦٧٣-٧٤٩هـ/١٢٧٤-١٣٤٨م
٧ - ابن بطوطة	٧٠٣-٧٧٠هـ/١٣٠٣-١٣٦٨م
٨ - البلوي	٧١٣-٧٨٠هـ/١٣١٣-١٣٨٧م

الرحالة المغاربة والأندلسيون ومناهجهم

ابن جبير

٥٤٠ ـ ٦١٤هـ / ١١٤٥ ـ ١٢١٧م

أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير ابن سعيد بن محمد بن مروان بن عبدالسلام بن مروان بن عبدالسلام بن جبير الكناني[١]. رحالة أندلسي ، كان جده عبدالسلام من أوائل الداخلين إليها مع بلج القشيري [٢] في سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م [٣] . فهو أندلسي شاطبي[٤] بلنسي[٥].

ولد ابن جبير ليلة السبت العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ببلنسية من شرق الأندلس [٦]. وقيل إن مولده كان سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م في شاطبة أو بلنسية[٧].

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٣. وهو يُعَدّ من أوائل المترجمين لابن جبير ونقل نسبه من كتاب ابن فرتون المفقود والمسمى الذيل على الصلة. انظر المنذري : التكملة لوفيات النقله ، ج٢ ، ص٤٠٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج ١ ، ص ٢٧٤.

(٢) بلج بن بشر بن عياض القشيري سيره هشام بن عبدالملك على مقدمة جيش كثيف مع عمه كلثوم إلى أفريقية عندما ثار أهلها على أميرهم ابن الحبحاب فقاتل البربر وقُتل عمه في أوائل سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وحصر بلج إلى أن جاءته مراكب أمير الأندلس فرحل إليها مع أصحابه ثم لم يلبث أن قتل أمير الأندلس واستولى عليها وتوفي متأثراً بجراحه وكانت عاصمته قرطبه. انظر الزركلي : الأعلام ، ج ٢ ، ص ٧٣.

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٣٠ .

(٤) نسبة إلى (شاطبة) مدينة شرقي الأندلس ينسب إليها عدد كبير من العلماء. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٣٠٩.

(٥) نسبة إلى مدينة (بلنسية) وهي مدينة مشهورة بالأندلس أهلها يسمون عرب الأندلس ينسب إليها عدد كبير من العلماء. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٩٠ ؛ المقّري : نفح الطيب ، ج٢، ص٣٨٢.

(٦) المنذري : التكملة ، ج٢، ص٤٠٧ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٣٩ ؛ المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٣٨٢ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص ٦٠.

(٧) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص٢٨٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطه ، ج٢ ، ص ٢٣٩.

وسبب نسبته لبلنسية لمولده بها على أرجح الأقوال . أمّا نسبته إلى شاطبة فعائد لإقامته بها فترة من الزمن . ويُعد والده من أعيانها وأبرز كتّابها. وسلك ابن جبير نهج والده في ذلك ثم سكن غرناطة[1].

توفي رحمه الله بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م[2]. وقد بلغ من العمر أربعة وسبعين عاماً[3].

نشأ ابن جبير في كنف أبيه الذي أعده لتقلد المناصب . فتلقى العلم عن أبيه وعلماء عصره بشاطبة وعني بالأدب فبرع فيه وبرز في صناعة الكتابة[4]. وتنقل ابن جبير في مطلع حياته في عدد من المدن الأندلسية والأفريقية ، فقطن بلنسية وشاطبة وغرناطة وسبتة[5] وفاس[6] وتقلب في المناصب الكتابية . ويُعد أحد كتّاب الدولة الموحدية حكام الأندلس والمغرب ، وتمتع بمكانة عالية لديهم لسعة علمه وقدرته على نظم الشعر والنثر[7].

---

(١) المقرّي : نفح الخطيب ، ج٢، ص ٣٨٤ ــ ٤٨٧ ؛ (غرناطة) أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنهاوأحصنها بينها وبين قرطبة ٣٣ فرسخاً ويقال لها أغرناطة وأسقطها العامة . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٢٤.

(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص٢٨٠ ؛ الذهبي : العبر في خبر من غبر ، ج٣ ، ص ١٦٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٣٩ ؛ المقري : نفح الطيب ، ج٢، ص ٤٨٩.

(٣) المنذري : التكملة ، ج٢ ، ص ٤٠٧.

(٤) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٣٨٢.

(٥) (سبتة) مدينة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق تميزت بحصانتها. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ١٨٢.

(٦) (فاس) مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر ، حاضرة البحر وأجل مدنه قبل اختطاط مراكش ، وهما مدينتان مفترقتان مسورتان الأولى تسمى عدوة القرويين والثانية تسمى عدوة الأندلسيين وكلتاهما في سفح جبل والنهر بينهما. انظر المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٣٠.

(٧) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ٢٧٨ ؛ الذهبي : العبر في خبر من غبر ، ج ٣ ، ص١٦٣؛ حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٤٢٩.

صفاته :

كان أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً سنياً فاضلاً ، نزيه الهمة سري النفس ، كريم الأخلاق ، أنيق الخط ، ذا نظم ونثر بديع سهل حسن ، ومحاسنه عديدة، ذائع الصيت ، مشهوراً بالخير والصلاح[1] .فأهّلته صفاته لتقلد أرفع المناصب في الدولة ، وهو الكتابة ، وأتاح له ذلك المنصب الاطلاع على العديد من الأمور المهمة والتي لا يتاح للمؤرخين العاديين معرفتها[2].

ونلاحظ أن ماتميز به ابن جبير من صفات جعلت المقري يصفه بالمروءة والسعي في قضاء حوائج الناس والسعي لأداء واجب إخوانه عليه وإيناس الغرباء فقال :" إن صاحب كتاب الملتمس كان أحرص الناس على مصاهرة قاضي غرناطة أبي محمد عبدالمنعم بن الفرس[3] فجعل ابن جبير الواسطة في إتمام زواجه ولكن لم يوفق الله بينه وبينها ، فأتاه وشكى له ذلك ، فقال له: إنما ما كان القصد لي في اجتماعكما ولكن سعيت جهدي في غرضك وها أنا أسعى أيضاً في افتراقكما إذ هو من غرضك وخرج من حينه وفصل القضية من غير أن يظهر عليه أدنى امتنان ؛ بل إنه أتاه بمائة دينار مؤمنية يريد أن يعطيها له يعوضه فيها عما خسره في زواجه هذا"[4].

ومما يروى عن لسانه من شعر في حبه لقضاء الحوائج :

يحسب الناس بأني متعب ... في الشفاعات وكليف الورى
والذي يتبعهم من ذاك لي ... راحة في غيرها لن أفكرا
وبودي لو أقضي العمر في ... خدمة الطلاب حتى في الكرى[5]

---

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ٢٧٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٣١.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٦ ، ص ١٨٨.

(٣) عبدالمنعم بن محمد بن عبدالرحيم الخزرجي المعروف بابن الفرس ولي القضاء بجزيرة شقر وبمدينة وادي آشي ثم بجيان ثم بغرناطة وكان له النظر في الحسبة والشرطة له عدة مؤلفات منها كتاب الأحكام مولده سنه ٥٢٤هـ / ١١٢٩م وتوفي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م. انظر النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٠٠ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ــ ١٣٥.

(٤) المقري : نفح الطيب ، ج٣ ، ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦.

(٥) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٨٨.

ولم تكن كل صفات ابن جبير السابقة سبباً في ذيوع شهرته ؛ بل إن شهرته عائدة إلى تدوينه لرحلته التي اقترن اسمه بها . حيث زار فيها العديد من البلدان والأماكن وسجل مشاهداته فيها بإسلوب جميل بديع .

ولابن جبير ثلاث رحلات إلى المشرق ولكل رحلة سببها :

السبب الأساس للرحلة الأولى :

أداء فريضة الحج وقد سجل ابن جبير تفاصيلها. وأوضح المقري دافعه فيها قائلاً : إنه كاتب السيد أبي سعيد [1] صاحب غرناطة الذي استدعاه ذات يوم ليدون له كتاباً فلما ذهب ابن جبير إليه وجده على مائدة الشراب فطلب السيد من ابن جبير مشاركته فامتنع في البداية فألح السيد عليه فأصابه الخوف فعاد السيد وأصر عليه شرب سبعة أقداح منها . فلما فعل ابن جبير ملأها السيد سبع مرات بالدنانير وأفرغها في حجر ابن جبير الذي نذر أن يجعلها كفارة لما فعل ، وعزم على الخروج لأداء فريضة الحج ثم باع منزلاً له ليكمل نفقات الرحلة فبدأ رحلته سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م[2].

وحوت الرحلة العديد من المعلومات المختلفة في النواحي السياسية والحضارية ، والتي تهم الدارسين لتلك الفترة. فابن جبير قام بوصف كل ماشاهده في طريقه إلى الحجاز حتى عودته لغرناطة مرة أخرى عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م[3]. وتضم رحلته وصفاً مفصلاً لما كانت عليه الحجاز وخاصة مكة في ذلك الوقت حيث مكث بها ثمانية أشهر وثلث شهر[4].

---

(١) أبوسعيد بن عبدالمؤمن الكومي عقد له والده على سبتة سنه ٥٤٧هـ / ١١٥٢م وعلى غرناطة سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م وقد أقره على غرناطة أخوه أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن عليها سنة ٥٦١هـ / ١١٥٦م. انظر ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٦ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩.

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٣٨٥ ــ ٣٨٦. وقد انفرد المقري بما ذكره حيث أن ابن جبير لم يشر لسبب عزمه إلى الحج والباعث له مع ملاحظة بُعد المقري عن الحقبة التي عاش فيها ابن جبير مما يجعل تلك القصة مثار شك كبير خاصة وأن المقري لم يذكر مصدر قصته.

(٣) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٤٨٨.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦١.

وقد نظم ابن جبير قصيدة عند وصوله إلى مكة المكرمة في الثاني عشر من ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م ومطلعها :

بلغت المنى وحللت الحرم فعاد شبابك بعد الهرم

فأهلاً بمكة أهلاً بها وشكراً لمن شكره يلتزم

ونظم قصيدة أخرى عند استقباله للمدينة المنورة ومطلعها :

أقول وآنست بالليل ناراً لعل سراج الهدى قد أنارا

وإلا فما بال أفق الدجى كأن سنا البرق فيه استطارا(١)

واشتهرت له قصيدتان أيضاً في صلاح الدين الأيوبي الأولى شاكياً إليه فيها من المكس المأخوذ من الناس في الحجاز والتي منها :

وما نال الحجاز بكم صلاحاً وقد نالته مصر والشام(٢)

أما القصيدة الثانية فقالها عند خروجه للمرة الثانية للحج ومطلعها:

أطلت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر(٣)

فهذا هو الترتيب التاريخي الصحيح للقصيدتين ، لأن الثانية يهنىء ابن جبير فيها صلاح الدين بفتح بيت المقدس فأغلب من ذكر القصيدتين خلط في الترتيب الزمني لهما.

سبب الرحلة الثانية :

وهذه الرحلة كان الدافع لها مابلغه من أخبار فتح صلاح الدين لبيت المقدس حيث نلاحظ نظمه للقصيدة السابقة مهنئاً. فكان خروجه من غرناطة للمرة الثانية يوم الخميس التاسع من ربيع الأول سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م وعودته إليها سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م.

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ ، ٤٨٧.

(٢) المصدر السابق والجزء ، ص ٣٨٤.

(٣) أبو شامة :كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ٢ ، ٤ ، ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص٣٨٣.

وتمكن خلالها من أداء فريضة الحج ثم عاد إلى غرناطة ورحل منها إلى مالقة[1] وسبتة وفاس ولم يلبث أن انقطع عن الكتابة وجلس لتدريس الحديث[2].

سبب الرحلة الثالثة :

يبدو أنه قد تأثر لوفاة زوجتـه عاتكة [3] ورحل إلى الحجاز طلباً للراحة والسلوان عقب دفنه لزوجته بسبته حيث قال فيها :

بسبتة لي سكن في الثرى وخـل كـريـم إليهـا أتـى

فلـو أستطيع ركبت الهوى فزرت بها الحي والميتا[4]

فكانت هذه آخر رحلاته حيث جاور بمكة طويلاً ثم ببيت المقدس ثم تجول بمصر واستقر بالإسكندرية للتدريس إلى أن توفاه الله[5].

مـؤلفاته :

لم يدون سوى رحلته الأولى ؛ إذ ليس بأيدينا معلومات كافية عن رحلتيه الأخيرتين إلا النزر اليسير المبعثر في طيات الكتب المترجمة له. كما أن كل من ترجم له ذكر أسماء مختلفة لرحلته وهي : تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار[6]، ورحلة الكناني[7] ، وكتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك[8].

---

(١) (مالقة) مدينة بالأندلس عامرة على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق وأصل وضعها قديم ثم عمرت وكثر قصد المراكب والتجار إليها. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٤٣.

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٣٢.

(٣) أم المجد عاتكة بنت الوزير أحمد بن عبدالرحمن الوقشي كانت وفاتها يوم السبت لعشر خلون من شعبان سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وقـد قـام ابن جبير برحلته الثالثة عقب وفاتها فوصل مكة سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م وجاور هناك طويلاً. انظر المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٤٨٩.

(٤) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٣٢.

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧ ؛ نقولا زيادة : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى ، ص ٨ ؛ زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص٧ ؛ عبدالرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، ص ٣٢٣.

(٧) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٨٣٦ ؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج١ ، ص ٢٩٩.

(٨) محمد عبدالله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، ص ٣٣٦.

ويبدو أن هذا الاسم الأخير ليس اسماً لرحلته التي اشتهر بها، وإنما هي رسالة مستقلة . فقد أشار إلى ذلك إشارة طفيفة ابن عبدالملك المراكشي في كتابه الذيل والتكملة حيث قال :" وله مقالة سماها رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك كتب بها إلى وليه أبي الحسن بن مقصير من علماء فاس عند عودته إلى المشرق في ذي القعدة سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦م "[١].

ونلاحظ هنا أنه ذكرها بلفظ رسالة وليس رحلة ، وأنه كتب بها إليه سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م . ومن المعروف أن زمن رحلته الأولى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م وتاريخ إرسال هذه الرسالة في فترة سابقة مابين رحلته الثانية والثالثة[٢]. ومما يؤيد ذلك أن عنوان الرحلة التي بين أيدينا تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار كما هو مدون في بدايتها[٣] .

ومما سبق يتضح أنها رسالة مستقلة . إما أن تكون وصفاً لرحلته الثانية وتقتصر على الآثار الكريمة والمناسك وإما أن تكون جزءاً مأخوذاً من الرحلة الأولى اشتمل فقط على الآثار الكريمة والمناسك . وهذا كله يدعم القول : بأنها مختلفة عن الرحلة التي اشتهر بها وهذا مالم يشر إليه أحد .

وقد كان ابن جبير ناظماً للشعر والنثر . له أشعار كثيرة منها : ديوان شعر يعرف بنظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان[٤]. وله جزء آخر سماه نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح. في رثاء زوجته أم المجد[٥].

وأشار شكيب أرسلان إلى عدم صحة ماقيل : في أن الرحلة ليست من تأليفه[٦] إذ قال " وهذا غير صحيح لأن نسجه معروف وأسلوبه العالي واحد لا تختلف فيه جملة عن جملة وديباجة كلام ابن جبير لاتخفى على أحد "[٧].

(١) المراكشي : الذيل والتكملة ، ج٥ ، قسم ٢ ، ص ٦٠٤.
(٢) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٤٨٩ ، فرحلته الثالثة كانت سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م. انظر ماسبق ص٩٢ ، هامش٤.
(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧.
(٤) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ٢٧٨.
(٥) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج٣ ، ص ١١٨.
(٦) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص٢٨٠.
(٧) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج٣ ، ص ١١٨.

مكانة ابن جبير الاجتماعية :

تلقى ابن جبير العلم على عدد كبير من العلماء . وقد ذهب الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري إلى القول : بأنهم أربعة وعشرون شيخاً[1] ، وهذا عدد قليل بالنسبة لشخص بلغ هذه المكانة مع تعدد رحلاته إلى المشرق . فهو بلاشك تلقى العلم على الكثير منهم خلال رحلاته . ولعل السبب عائد إلى عدم ذكره أو ترجمته لهم بل اكتفى أحياناً بإيراد الاسم الأول أو اللقب أو الشهرة مما أدى إلى صعوبة تتبعهم والعثور على تراجم وافية لهم . وهو في هذه الناحية يختلف عن غيره من الرحالة الذين انتهجوا منهج الرحلات الوصفية والبرامج ، من حيث الترجمة الكاملة لمشايخهم التي قد لاتوجد بهذه السعة والشمول لدى كتاب التراجم من حيث الإشارة لأماكن التدريس والمؤلفات وغيرها من الأمور المتعلقة بهم.

وقد بلغ ابن جبير مكانة عالية إذ يقول المنذري :" إنه كان مقدماً في بلاده "[2]. فارتفاع مكانته عائد لعلمه ومجالسته لعلماء المشرق وغيرهم ، بالإضافة إلى كونه كاتب أمير غرناطة المرموق ، بفضل ماتمتع به من جمال النظم سواء كان شعراً أو نثراً ، وإن كانت شهرته النثرية أغلب عليه وتدل عليها رحلته المدونة والشاهدة على دقته وبراعته . وقد أشار إلى ذلك العلامة ابن جابر الوادي آشي عقب وصفه لدمشق حيث قال :" ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد هذا ولم تكن له بها إقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ولا أزمان فصولها المتنوعة ولا أوقات سرورها المهنئات ولقد أنصف من قال ألفيتها كما تصف الألسن وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين "[3].

---

(١) عبدالقدوس الأنصاري : مع ابن جبير في رحلته ، ص ٣٩.

(٢) المنذري : التكملة ، ج٢ ، ص ٤٠٧.

(٣) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٣٨٧.

مميزات رحلة ابن جبير :

قبل البدء في بيان مميزات الرحلة لابد من إبداء ملاحظة لعل الكثيرين غفلوا عنها . وهي عدم عودته بعد أداء فريضة الحج رأساً إلى غرناطة من الطريق التي آتى منها عبر مصر ثم عبوره البحر الأحمر إلى جدة . فهو قد عاهد الله تعالى بعدم عبوره مرةٍ أخرى بسبب ماقاساه من أهوال ومشقة [(١)]. وحيث إنه لم يكن هناك إلا طريق البحر وطريق البر الذي سيطر عليه الصليبيون في تلك الفترة ، فلم يكن أمامه سوى الذهاب إلى العراق وغيرها من مدن الشام . ثم عودته بحراً إلى الأندلس ؛ فلولا ماحلف به لسلك نفس الطريق.

لقد امتازت رحلة ابن جبير بالعديد من المميزات ومنها : تدوينها على هيئة يوميات ؛ لذا كان وصفه شاملاً مفصلاً مع إثبات ذلك بالتاريخين الهجري والميلادي . وهذا يخالف ماذهب إليه كراتشكوفسكى من أنه دونها بعد رجوعه[(٢)] فالدلائل كلها تشير إلى تقييدها يوماً بيوم.

ومنها أيضا عنايته الكبيرة بوصف المدن التي مر بها ، وخاصة مكة المكرمة وآثارها ومعالمها الدينية وأسواقها ومساجدها وغيرها. كما تطرق للناحية الاقتصادية بالحجاز وخاصة المكوس المفروضة على الحجاج في شيء من التفصيل . ولا يفهم من هذا أنه قد أفرد للجانب الاقتصادي مبحثاً خاصاً، ولكنه يستنتج من خلال كلامه ومن واقع معايشته هناك.

وحفلت رحلته بالمدح والثناء على عددٍ كبيرٍ من الأموات والأحياء لصلاحهم وتقواهم[(٣)].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٢.

(٢) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج١ ، ص ٢٢٩.

(٣) كان المسلمون في تلك الفترة يعتقدون بالصالحين والأولياء وخاصة الميتين منهم حيث كانوا يشيدون لهم الأضرحة ويتقربون إليهم بالدعاء وهذا في الواقع بدعة منكرة وغير مقبولة فالدعاء والعبادة لله وحده.

اتصفت رحلة ابن جبير ببعض المبالغات والتي قد تصل إلى حد التهويل لما يشاهده ليظهر مدى إعجابه أو استنكاره لما يصفه. وبالرغم من أهمية رحلة ابن جبير إلا أنه قد وقع في بعض الأخطاء التاريخية والتي كان من المفروض عليه التحري عنها مثل مكان مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما، حيث ذكر أنه بمكة المكرمة(1). ولا ريب أن اشتهار هذا الأمر بين العامة من أهل مكة المكرمة جعله يقع في مثل هذا الخطأ.

ويلوح لقارىء رحلة ابن جبير استشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مكانها الملائم في الرحلة ؛ إضافة إلى استعماله لبعض الكلمات العامية المستخدمة لدى أهل كل بلد مر به. ونلمس خُلق ابن جبير في مدح من يستحق المدح وذم من يستحق الذم بدون تجاوز أو تطاول (2). وعمل ابن جبير على التأكد مما يشاع بين الناس عن زيادة ماء زمزم ، وقيامه بقياسه للتأكد فعلاً من زيادته أو نقصانه في منتصف شهر شعبان . حيث أثبت بطلان زعم زيادته.

إضافة إلى عنايته الفائقة بتسجيل النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية بأسلوب سهل واضح أعطى لرحلته قيمة علمية كبيرة أثرت كثيراً فيمن تلاه من الرحالة فنقلوا عنه بعض عباراته ، مثل ابن بطوطة والبلوي.

وقد كان ابن جبير ملماً بالنواحي التاريخية ، كثير المغالاة في التعظيم والتبرك بالآثار المقدسة ، وهو أمر شائع في تلك الفترة بين المسلمين مع ملاحظة عدم اعتنائه بذكر مصدرها، فغالباً ما يبدأ ذكر ذلك بلفظ يذكر.. ويقال وغيرها من الألفاظ التي لا تفيد التوثيق.

---

(1) والصحيح ولادتهما بالمدينة المنورة : انظر فيما بعد ، ص ٣٥٨.

(2) مدحه لصلاح الدين الأيوبي وذمه لمكثر أمير مكة.

وحفلت رحلته بالكثير من المحسنات البديعية مثل : الاستعارة والسجع البديع دون تكلف ، بحيث يسهل فهمها. كما نجده يقدم معلوماته ببراعة مع حسن تصوير وتشبيه وصدق في الوصف والتحري بقدر اطلاعه على حقائق بعض الأمور المذكورة له ؛ إضافة إلى اهتمامه البالغ بما ساد العالم الإسلامي.

وعلى الرغم من بعض الأخطاء والهفوات التي وقع فيها ابن جبير. فمدونته تحوي الكثير من المعلومات المهمة التي لا يستغني عنها أديب أو جغرافي أو اقتصادي أو مؤرخ يتناول تلك الفترة بالدراسة ؛ ولولا تسجيله لها لبقي كأحد الكتاب المشهورين بجمال الأسلوب وحسن الصياغة في الدولة الموحدية.

الرعيني

٥٩٢ ـ ٦٦٦هـ / ١١٩٥ ـ ١٢٦٧م

الرحالة الأندلسي علي بن محمد بن علي بن محمد بن عبدالرحمن ابن هيصم الرعيني الإشبيلي البطشي حيث كان سلفه فيها يعرفون ببني الحاج ، ويلقب بأبي الحسن ويعرف بابن الفخار صنعة أبيه . وقد أراد والده أن يعلمه تلك الحرفة فلم يفلح (١). ولد بإشبيلية (٢) في شعبان عام ٥٩٢هـ / ١١٩٥م فنشأ فيها وأخذ القراءة على شيوخ عصره ، وقد أجيز صغيراً وقُدم للتدريس في مجالسها ، وتولى القضاء على مذهب الإمام مالك في مورور (٣) عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م.

ومن المرجح أن تكون رحلة الرعيني إلى المشرق فيما بين عامي ٦١٨هـ / ١٢٢١م و ٦١٩هـ / ١٢٢٢م ، ففي ترجمته لشيوخه المشارقه يشير

---

(١) المراكشي : الذيل والتكملة ، ج٥ ، قسم ١ ، ص ٢٢٣.

(٢) (اشبيلية) مدينة كبيرة بالأندلس قريبة من البحر يطل عليها جبل الشرف ، كثيرة الشجر والزيتون وسائر الفواكه ، اشتهرت بزراعة القطن الذي يُحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب وهي على شاطىء نهر عظيم تسير فيه المراكب المتصلة يقال له وادى الكبير. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٩٥ ؛ الحميري : الروض المعطار ، ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٣) (مورور) : كورة مورور متصلة بأحواز قرمونه من جزيرة الأندلس وهي في الغرب والجوف كورة شنونه وهي من قرطبة بين القبلة والمغرب ومدينة قلب قاعدة مورور ودار الولاية بها. انظر الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٦٤.

إلى التقائه بهم في سنه ٦١٩هـ / ١٢٢٢م في شهر شعبان [١]. واكتفى بإيراد أسماء سبعة منهم فقط وتحرز من ذكر البقية ، وسبب ذلك أنه وقت كتابته لبرنامجه لم تتوفر لديه معلومات مفصلة عنهم ولم يقف على فهارسهم[٢].

مكانته الاجتماعية :

اشتهر في بدء حياته بالكتابة وكتب لعدد من ملوك الأندلس في اشبيلية وقرطبة [٣] وغرناطة ومرسية[٤]. ويبدو أن الرعيني كثير التنقل ، فقد سكن اشبيلية ومورور وقبطيل[٥] ومالقة وشريش[٦] وقرطبة ومرسية وغرناطة وتلمسان[٧] واستقر به المقام في آخر حياته بمراكش [٨] حيث توفي فيها في الرابع والعشرين من رمضان سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م.[٩]

---

(١) الرعيني : البرنامج ، ص ١٧٤ ـ ١٧٩.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٩.

(٣) (قرطبة) مدينة في وسط الأندلس ومقر ملوك بني أمية بينها وبين البحر خمسة أيام ليس لها بالمغرب شبيه من كثرة الأهل وسعة الرقعة محصنة بسور من حجارة لها بابان وأبنيتها متشابكة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٢٤.

(٤) (مرسية) مدينة بالأندلس اختطها عبدالرحمن بن الحكم بن هشام وسماها تدميُر الشام فاستمر الناس على اسم موضعها الأول وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها. انظر المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٠٧.

(٥) (قبطيل) تقع بالأندلس وهي مفرع وادي طرطوشة بالبحر ويعرف أيضاً بالعسكر. انظر الحميري : الروض المعطار ، ص ٤٥٤.

(٦) (شريش) من كور شذونة بالأندلس وهي على مقربة من البحر يجود زرعها ويكثر ريعها وهي موضع رباط ومقر للصالحين يقصد من الأقطار وهي متوسطة حصينة حسنة الجهات بها كروم كثير وشجر الزيتون والتين. انظر المصدر السابق ، ص ٣٤٠.

(٧) (تلمسان) بعضهم يقول تنمسان بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر إحداهما قديمة والأخرى حديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب ، فيهايسكن الجنود وأصحاب السلطان وأصناف من الناس ، والقديمة يسكنها الرعية. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٤.

(٨) (مراكش) أعظم مدينة بالمغرب وأجلها بها كان ملوك بني عبدالمؤمن وهي في البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر اختطها يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م. انظر المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩٤.

(٩) الرعيني : البرنامج ، ص ١٠٢ ، ٢٠٠. وانظر المقدمة ص ، ط ـ ى.

مؤلفاته :

للرعيني عدة مؤلفات منها :

١ـ برنامج شيوخه الذي سماه " كتاب الإيراد لنبذة المستفاد من الرواية والإسناد بلقاء حملة العلم في البلاد على طريق الاقتصار والاقتصاد " [١].

وقد كتب برنامجه متأخراً عن وقت رحلته ، وأغلب الظن أنه لم تكن لديه نية كتابته لولا عزم بعض أصحابه عليه أن يقيد برنامجه فأحجم فترة لنسيانه بسبب طول العهد بينه وبينهم[٢].

٢ـ اقتفاء السنن فى انتقاء أربعين من السنن أخرجها عن أربعين شيخاً.

٣ـ شرح الكافي لابن شريح.

٤ـ وله كتاب كبير سماه " جنى الأزاهر النضيرة وسنا الزواهر المنيرة في صلة المطمع والذخيرة مما ولدته الخواطر من المحاسن في هذه المدة الأخيرة "[٣].

مميزات برنامج الرعيني :

لقد رتب الرعيني برنامجه وفق اختصاص العلماء ، حيث أفرد لكل اختصاص باباً سرد فيه أسماء شيوخه وأنسابهم ومواطنهم وماحمله عنهم من كتب وما أخذه من إجازات . وقد أفرد أيضاً باباً سرد فيه أسماء مشايخه بدون ترجمة حتى يسهل الرجوع إليهم والتعرف عليهم.

احتوى برنامجه على الترجمة لعلماء المشرق وهم قلة وترجمته لهم مختصرة مع عدم ذكره لأسماء مشايخه الذين أخذ عنهم بمكة المكرمة والمدينة المنورة. وربما يكون هذا عائداً إلى نسيانه أسماءهم لطول العهد بين رحلته وبين كتابته لبرنامجه.

حيث صنف برنامجه بعد مرور مدة طويلة على رحلته ، لذا نجد أنه كتبها من الذاكرة. وقد رجح محقق البرنامج أن يكون وقت كتابتها سنة

---

(١) الرعيني : البرنامج ، المقدمة ، ص ق ؛ كحالة : المستدرك على معجم المؤلفين ، ص ٥٠٨.

(٢) الرعيني : البرنامج ، ص ٤.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤، ١٦، ٢١٤ ؛ كحالة : المستدرك ، ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩.

٦٤٦هـ / ١٢٤٨م. فالرعيني هنا يخالف الرحالة المغاربة والأندلسيين من حيث التسجيل الآني والترجمة الفورية لمشايخهم وماحملوه عنهم والإجازات التي أخذت منهم.

لذا نراه يغفل ذكر عدد كبير من العلماء لنسيانه إياهم[١]. كما أنه عند ذكره لمشايخه في برنامجه ذكرهم ذكر بعيد العهد بهم . ويدل على ذلك ما يظهره من ترحم على الغالبية منهم.

وقد خلا برنامجه أيضاً من اللمحات الجغرافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتركيزه فقط على الترجمة لذا فبرنامجه من البرامج العلمية فقط.

ابن رشيد

٦٥٧ ـ ٧٢١ هـ / ١٢٥٨ ـ ١٣٢١م

محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد ابن مسعود بن حسن بن محمد بن محمد بن رشيد أبوعبدالله الفهري السبتي[٢]. ولد بسبتة في شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٨م وكانت وفاته في فاس في يوم الإثنين الرابع والعشرين من محرم سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م.

رحالة من بلاد المغرب رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء أهل العلم سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م[٣].

صفاته :

لقد أثنى عليه كل من ترجم له ، إذ وصف بالثقة والعدل. كان عارفاً بعلم القراءات والعربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافي مشاركاً في غير ذلك

---

(١) الرعيني : البرنامج ، المقدمة ، ص س ، ص ٧.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ١١١. وقد ورد في نسبه بعض اختلافات بسيطة من حيث النقص من أسماء أجداده. انظر الحسيني : ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ، ص ٩٧؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٣١٥.

(٣) المقري : أزهار الرياض ، ج٢ ، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، ٣٥٦.

من الفنون – وهو من خدام الكتاب والسنة – فاضلاً كريماً براً بأصدقائه ، حسن العهد ، أديباً خطيباً بليغاً ذاكراً يقرض الشعر على تكلف[1].

وقد طلب منه أن يكتب شيئاً من شعره ولم يكن الوزن من طبعه فكتب :

يامن يفوق النجم موطنه　　كلفتني ماليس أحسنه

وانغض عما فيه من خلل　　خلدت في عز تزينه[2]

وكانت له عناية بعلم الحديث وضبط أسانيده ورجاله ومعرفة انقطاعه واتصاله[3] كما كان أصيل النظر ذاكراً للتفسير[4] حافظاً للأخبار والتواريخ[5] .

ومن صفاته أيضاً أنه كان عظيم الوقار والسكينة ، مضبوط الكتابة ، حسن الخلق ، متواضعاً ، مبذول الجاه ، طلق الوجه ، ملاذاً لطلبة العلم [6].

وقد ذُكر عدم انتماء ابن رشيد للمذهب المالكي[7] بينما أشار هو إلى انتمائه إلى المالكية[8].

وجميع صفاته هذه يشهد عليها كتابه المسمى ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة[9]. التي قال عنها السيوطي إنها ست مجلدات مشتملة على فنون [10] بينما ذكر الصفدي إنها أربع

---

(١) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٤٨.

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٤ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٣) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ٩٦.

(٤) السيوطي : بغية الوعاة ، ج١ ، ص ١٩٩.

(٥) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص ٣١٥.

(٦) السيوطي : بغية الوعاة ، ج١ ، ص ١١٩ ـ ٢٠٠.

(٧) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ٢٨٩ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ١١٢.

(٨) المقري : ازهار الرياض ، ج٢ ، ص ٣٥٠.

(٩) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥.

(١٠) السيوطي : بغية الوعاة ، ج١ ، ص٢٠٠.

مجلدات[1]. وأشار ابن القاضي والمقري إنها أربعة أسفار جمع فيها من الفوائد الحديثية والفرائد الأدبية كل غريبة وعجيبة[2].

ويبدو أن رحلته قد استنسخ منها عدة نسخ ، حيث رأى العياشي أجزاء منها بمكة في وقف المغاربة برباط الموفق[3]. وكما استُنسخ من الرحلة فقد اختُصر منها أيضاً إذ رأى ابن الخطيب مختصراً لها بسبتة[4]. ويدل تعدد نسخها ووجود مختصرات لها على أهميتها.

مكانته الاجتماعية :

اتجه منذ صباه لدراسة الأدب واللغة[5] وطلب العلم بجميع فروعه وتلقاه على العديد من العلماء. وبلغ أعلى المراتب بفضل علمه الغزير فصار ذا حظوة عند الملوك والناس [6] ووُصف بالإمام لجلال قدره . ووصفه المقري " بأنه من خدام الكتاب والسنة لكثرة عنايته بالحديث متنه وسنده ومعرفته برجاله "[7].

سبب الرحلة :

الخروج لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء والحصول على الإجازات منهم. وقد سجل ذلك في متن رحلته . وكان خروجه للمشرق سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م[8].

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٤ ، ص ٢٨٥.

(٢) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ٩٧ ؛ المقري : أزهار الرياض ، ج٢ ، ص٢٥٠.

(٣) العياشي : الرحلة العياشية ، ج٢ ، ص ٢٣٨. انظر الحديث عن الرباط فيما بعد ، ص ٣٥٥ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ١٣٧.

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ١١١.

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص ٣١٥.

(٧) المقري : أزهار الرياض ، ج٢ ، ص ٣٤٨ ــ ٢٥٠ .

(٨) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ٩٦ ؛ المقري : أزهار الرياض ، ج٢ ، ص ٣٤٧.

صحبه في جزء من رحلته الوزير أبوعبدالله بن الحكيم[1]. وعندما قفل عائداً من المشرق حل ببلدة سبتة ولكن لم تطل مدة إقامته بها ، إذ كتب إليه رفيق رحلته الوزير أبو عبدالله يستدعيه لغرناطة فرحل إليها وقُدم للخطبة والصلاة بجامعها. ولي قضاء الأنكحة واستقر به المقام بغرناطة ، وحظي فيها بمكانة عالية كان خلالها يلقي دروسه[2]. إلى أن قتل صديقه الوزير أبوعبدالله فتعرض للأذى وعزم على الرحيل من غرناطة [3] بالرغم من أن سلطانها خيره بين المكوث بها أو تركها فاختار أن يلحق بمراكش ، ومالبث أن أصبح فيها محط الأنظار وقُدم للصلاة والخطبة بجامعها العتيق ، وكان شغله الشاغل بها العلم والتدريس والتحقيق إلى أن استدعاه سلطان فاس فانتقل إليها وأصبح من خواص السلطان وجلسائه ، أثيراً لديه لعظم مكانته العلمية إلى أن توفي[4].

وُصف ابن رشيد برباطة الجأش فبينما هو على منبر المسجد الأعظم بغرناطة وظن أن المؤذن قد فرغ فقام يخطب فرفع المؤذن أذانه فاستعظم ذلك بعض الحاضرين وقاموا بإشعاره وتنبيهه وكلمه آخرون فلم يلتفت إلى أحدٍ منهم وأكمل ماشرع فيه من الخطبة وأوضح للناس في هذه الخطبة أن الأذانَ الذي بعد الأول غير مشروع الوجوب وحضهم على طلب العلم ، وتلى قوله تعالى : ﴿ وماءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[5] وذكر أحاديث تبين وجوب الإنصات وعدم اللغو عند خطبة الإمام[6].

---

(١) أبوعبدالله محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن يحيى اللخمي الرندي الكاتب البليغ الأديب الشهير الذكر بالأندلس قدم غرناطة أيام السلطان أبي عبدالله محمد بن محمد بن نصر بعد رجوعه من رحلته للحج التي رافق فيها ابن رشيد فألحقه السلطان بخدمته ثم قلد الوزارة في عهد أبي عبدالله المخلوع ولقبه ذا الوزارتين وصار صاحب أمره. إلى أن توفي قتيلاً بغرناطة يوم الفطر سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م حيث انتهبت منازله وضاع ماله وكتبه ومثل به قتلته ، وطيف بأشلائه فضاع ولم يقبر ، وكانت ولادته برندة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م. انظر المقري : نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٤٩٨ ـ ٥٠٧.

(٢) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ٩٩ ؛ المقري : أزهار الرياض ، ج٢ ، ص ٣٥٥.

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ١٤٢.

(٤) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ٩٩ ؛ المقري : أزهار الرياض ، ج٢ ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٥) القرآن الكريم : سورة الحشر ، ٥٩/ ٧.

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

مؤلفاته :

خلف ابن رشيد مؤلفات كثيرة ومهمة في علوم الحديث والأدب والعربية منها :

١ ـ رحلته التي سماها ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة المكرمة وطيبة[١] . وهي أهم مؤلفاته ولم يسبقه أحد من الرحالة في تأليف رحلة في كبر حجمها وماتحتويه من غرائب وفرائد، بالإضافة إلى ما اشتملت عليه من تراجم واسعة لشيوخه في المدن الإسلامية التي مر بها.

٢ ـ مقدمة المعرفة في علو المسافة والصفة.

٣ ـ الصراط السوي في اتصال سماع جامع الترمذي.

٤ ـ إفادة النصيح في مشهور رواة الصحيح وجزء فيه مسألة العنعنة.

٥ ـ المحاكمة بين الإمامين.

٦ ـ إيضاح المذهب فيمن يطلق عليه اسم الصاحب وجزء فيه حكم رؤية هلال شوال ورمضان.

٧ ـ تلخيص كتاب القوانين في النحو.

٨ ـ شرح جزء التجنيس لحازم بن حازم الإشبيلي.

٩ ـ حكم الاستعارة.

١٠ ـ وهناك غيرها من الخطب والقصائد النبوية والمقتطفات البديعية[٢].

١١ ـ تقييد على كتاب سيبويه[٣].

١٢ ـ الإضاءات والإنارات في البديع المسماة بإيراد المرتع لرائد القوافي لشيخه أبي الحسن حازم[٤].

ويبدو أنه لم يبق من مؤلفاته إلا رحلته وإفادة النصيح[٥] وقد أورد الكتاني وحاجي خليفة من مؤلفاته أيضاً الرحلة ، وايضاح المذهب فيمن يطلق عليه

---

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٧.

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٤ ، ص ٢٨٥.

(٣) المقري : أزهار الرياض ، ج٢ ، ص٣٥٠.

(٤) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ٩٧ ـ ٩٨.

(٥) كحالة : معجم المؤلفين ، ج١١ ، ص ٩٣.

اسم الصاحب ، وترجمان التراجم ، والسنن الأبين في السند المعنعن ، وإفادة النصيح في رواية الصحيح[1].

مميزات رحلة ابن رشيد :

تميزت رحلة ابن رشيد بأنها من الرحلات العلمية . فاهتمامه منصب على علم الحديث الذي كان محور الطلب في ذلك الوقت ؛ بالإضافة إلى العقيدة والفقه والأدب والسيرة والتصوف واللغة والشعر. حيث ظهرت الناحية العلمية جلية في هذه الفترة بفضل ترجمته لكل من لقيهم من العلماء والحفاظ والفقهاء والأدباء في كل مدينة مر بها . وأبان طريقة التلقي سواء كانت سماعاً أو مناولة أو قراءة ؛ إضافة إلى تسجيله لأسماء الكتب المقروءة والمسموعة ، وإبراز أسماء المصنفات التي كان يحرص على أخذ الإجازات عليها له ولبنيه وإخوانه.

كما أشار إلى تحديد أماكن الدرس والعلم التي لم تكن قاصرة على مكان معين ، بل نجدها في منازل الفقهاء وحتى الطرقات أو كل مكان يمكن أن يلتقي فيه بشيخه. وهذا يدل على مدى حرصه على تلقي العلم وفي أقصر مدة. كما حرص على السماع والتقييد والحصول على الإجازات التي أورد نماذج منها[2].

وتميز أيضاً بدقة الضبط للأسانيد مع لفت الانتباه إلى غير المعروف لديه بالبحث عنه مع تعليقه على كل مايقال له ، وإبداء الرأي فيه . ويتخلل كل ذلك نقد للأحاديث وتعريف بالرجال وإيراد سند الأحاديث التي سمعها حتى الوصول بها إلى النبي ﷺ.

بالإضافة إلى تصويره للمراحل التي قطعها في طريقه ولكن بالقدر المكمل لقوام رحلته . وتبرز لنا شخصية ابن رشيد الحريص على الاقتداء بالسنة وتقبله النصيحة. كما تبرز لنا خلفيته التاريخية في إشارته لبعض الأمور القديمة ، ويبرز لنا ابن رشيد بشخصية العالم اللغوي الذي استطاع ضبط أسماء المواقع

(١) الكتاني : فهرس الفهارس ، ج١ ، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٢٠٩.

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٨٤.

والأماكن لغوياً ، وخاصة أسماء المشاعر المقدسة بالاعتماد على المعاجم الخاصة بذلك.

وكان ابن رشيد ذواقاً حافظاً للشعر . وقد وضُح هذا عند استشهاده بالأبيات الشعرية المؤيدة لمذهب إليه وذكره لإجازات شعرية حصل عليها.

ولم يكتف ابن رشيد بذكر الأخطاء التي وردت في كتب السابقين ؛ بل قام بإصلاحها والتنبيه عليها. وأشار إلى بعض العادات الاجتماعية المتبعة سواء كانت بالمدينة المنورة أو مكة المكرمة لتلك الفترة . واعتنى بذكر البدع المنتشرة والناتجة عن ضعف العقيدة الإسلامية عند بعض أبناء عصره في ذلك المجتمع .

وناقش ابن رشيد نشأة الشاذروان[1] حول الكعبة واستقر رأيه على أنه أنشىء ليصان به الجدار. كما تطرق لقضايا تتعلق بالأماكن المقدسة : مثل المسجد الموجود بعرفات[2] ، وأشار إلى وصف الحالة الجوية وندرة المياه في المشاعر المقدسة .

العبدري

محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري[3] الحيحي[4] ويرجع نسبه إلى بني عبدالدار[5] ، رحالة من بلاد المغرب لم يعرف إلا القليل عن نشأته ، حيث لم نجد ترجمة لحياته إلا في جذوة الاقتباس وهي مختصرة لاجديد

---

(١) (الشاذروان) : بفتح الذال من جدار البيت الحرام وهو الذي ترك من عرض الأساس خارجاً ويسمى تأزير لأنه كالإزار للبيت. والشاذروان هو الحجارة المائلة الملتصقة بأسفل الكعبة المحيطة بها من جوانبها الثلاثة. أما الجانب المقابل لحجر إسماعيل ففيه درجة واحدة مسطحة وهي بطول جدار الكعبة. انظر الفيومي : المصباح المنير ، ج١ ، ص ٣٦٣ ؛ الكردي : التاريخ القويم ، ج٤ ، ص ١.

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٩٦ ، ١٢١.

(٣) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج ١ ، ص ٢٨٦.

(٤) (حاحة) بلدة واسعة بين مراكش وسوس وحِيّحُه بالكسر قبيلة من قبائل سوس مشهورة وحاحة قرب مدينة الصويرة على شاطىء المحيط الأطلسي على مقربة من مفادور بمراكش. انظر العبدري : الرحلة المغربية ، ص ت ؛ الزبيدي : تاج العروس ، ط ١٣٦٩هـ / ١٩٦٩م ، ج٦ ، ص٣٥٨؛ نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ١٦٤.

(٥) الزبيدي : تاج العروس ، ط دار الفكر ، ج٣ ، ص ٣٧٩.

فيها يزيد عما هو موجود في متن رحلته. والفترة الوحيدة المعروفة يقيناً من حياته هي المسجلة في رحلته ، والتي تكشف عن شخصيته وتبين أنه عالم ملم بجميع العلوم ذو اطلاع واسع ، إلا أنه ليست لدينا معلومات مفصلة عن بداية حياته العلمية. والراجح أن يكون من عائلة علم فقد نعت والده بالشيخ الصالح الخطيب في بداية نسخة الرحلة المخطوطة في الرباط ، إلى جانب اهتمامات شقيقه يحيى العلمية.

وفيما يبدو أنه تلقى تعليمه بمراكش لأنه ارتبط فيها بصلة قوية مع عدد من علمائها ومنهم ابن عبدالملك المراكشي(١).

صفاته :

حفلت رحلة العبدري بتدوين مشاهداته والتي أظهرت دقته في تسجيل ملاحظاته. إضافة إلى وجود الكثير من المباحث الفقهية والنحوية واللغوية والأدبية والأبيات الشعرية التي امتلأت بها رحلته . فمن خلال المباحث يظهر لنا العبدري العالم المثقف المتمكن في علمه ، إذ عكف على مناقشة القضايا التي أوردها معتمداً على ماسبق كتابته في نفس الموضوع مع ترجيح بعضها على بعض هذا من الناحية العلمية .

صفاته الخُلقية :

فيها الحِدة والغضب والسخط وعدم الرضا . كان صادقاً في أحكامه على أهل المدن ضَئيلي الثقافة فهو ما أن يحس بذلك حتى يسارع إلى رميهم بأقدح الذم والهجاء معتقداً صواب مايفعل.

وقد نقده ابن عبدالسلام الناصري(٢) في هذا الجانب رغم عدم إنكاره لعلمه وفضله (٣) وهو مالم يعهد في رحالة قبله أو بعده.

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ح المقدمة ، ١٤٠ ، ٢٧٥.

(٢) محمد بن عبدالسلام بن عبدالله بن محمد بن محمد الناصري عالم الحديث رحالة من أهل درعة بالمغرب تعلم ببلده وسافر إلى فاس فقرأ على علمائها ورحل إلى المشرق مرتين توفي بالزاوية الناصرية بدرعة له مؤلفات الرحلة الكبرى والرحلة الصغرى. انظر الزركلي : الأعلام ، ج٦ ، ص ٢٠٦.

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ص ـ ض.

وتأتي قيمة رحلته في كونها وثيقة سجل فيها حالة العالم الإسلامي العلمية والدينية.

سبب الرحلة :

فقد كانت لأداء فريضة الحج والعلم والتجارة . ونلمس ذلك بوضوح في إشارته إلى أنه كان يحمل القمح لبيعه في مكة المكرمة دلالة على اشتغاله بالتجارة والتي لم يشر أحد إليها. وكان خروجه للرحلة في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م من مدينة حاحة ، ولكنه لم يبدأ بتدوين رحلته إلا بتلمسان(١) وأسماها بالرحلة المغربية والتى ربما أخذت اسمها من الطريق البري الذي سلكه في شمال أفريقيا مع الأخذ في الحسبان أنه من ساكني بلاد المغرب.

والواقع أن العبدري مجهول الميلاد وسنة الوفاة ، واحتمال أن تكون وفاته قريبة عقب عودته من المشرق لأنه كما قيل لو عمر طويلاً لظهرت له مشاركات في العلوم التي يتقنها ولعثرنا له على مؤلفات قيمة. وكانت رحلة العبدري إلى المشرق في مقتبل حياته(٢).

مؤلفاته :

لا يوجد له مؤلفات غير رحلته التي دونها وسماها الرحلة المغربية.

مميزات رحلة العبدري :

أوضح العبدري المنهج الذي سيتبعه في تقييده لرحلته وذلك من قوله :إنه سيقيد ما أمكنه تقييده بطريقة تجعل الناظر إليه يسمو مطرقاً. كما أنه سيذكر وصفاً للبلدان التي زارها وأحوال ساكنيها بقدر مايدركه ويعاينه بالمشاهدة من غير إخفاء القبيح أو تحسينه ولا تقبيح الحسن أو إخفائه. مظهراً ذلك كله

(١) المصدر السابق ، ص ٧، ١٨٨.

(٢) المصدر السابق ، المقدمة ص ١ج.

بصورة واضحة بحيث يكون السامع كالناظر. وأضاف قائلاً : إنه سيورد ما استفاده من أخبار وقصائد ونكات وغيرها من الأمور التي تتمم هدف الرحلة بحيث يكون مؤلفه هذا مغنياً عن غيره. وأكد على أنه سيؤيد أقواله بالأحاديث التي رواها والآثار التي شاهدها متبركاً بإثباتها وإثبات الفضلاء من رواتها[1].

وقد سار في تقييده على ما رسمه لنفسه ، فمن ذلك نقده اللاذع وذمه المقدح لأهل المدن التي مر بها بسبب قلة اهتماماتهم العلمية فجعل جل اهتمامه منصباً على هذه الناحية.

فأخذ يتقصى ويمعن البحث عن العلماء في كل مدينة يصلها وقد عزا انصراف الناس عن العلم وندرة حامليه إلى " المُلك الذي قوض دعائمه وصدعت قوائمه ، وقال : إن من ادعاه فاته معناه ، مالهم منه إلا أسماؤه وكناه ، لا يأمن بهم طريق ولا يستفيد بهم غريق ، ولا يذكر منهم أصيل في المجد عريق ، ولا تندى أكفهم بنائل ، ولا تصون عن الابتذال وجه فاضل ، ولا ينصف بهم مظلوم ، ولا يقرع بأسيافهم ظلوم "[2].

وبهذا يصور حال البلاد الإسلامية السياسية التي مر بها أصدق تصوير. كما أصاب في التحقيقات الجغرافية الدقيقة ، إضافة إلى وصفه المتقن للمدن فهو في هذه الناحية يضاهي أغلب الجغرافيين الذين اعتمدوا في مؤلفاتهم على النقل في حين أنه اعتمد على مشاهداته ، فوصفه للمناظر والمراحل التي مر عليهاكان وصفاً جميلاً محكماً عاكفاً على تصحيح أخطاء شائعة وردت في مؤلفات سابقة ، بشيء من التوسع ، مع بيان الصحيح منها وإبداء رأيه بالاعتماد على المنطق المرتكز على الحجج العقلية والبراهين التاريخية. ويظهر لنا العبدري الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في محاربته للبدع المخالفة للقرآن الكريم والسنة المطهرة دلالة على فهمه الصحيح للدين.

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١ ـ٢.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣ ـ ٤.

أما أسلوبه المتبع في رحلته فهو الصدق والدقة والمناقشة المعتمدة على الحجة والمنطق والهجاء اللاذع.

وحفلت الرحلة بالكثير من الأبيات الشعرية سواء لأدباء وعلماء لقيهم أو ماكان يخصه. فالعبدري اهتم بعلم التاريخ وخاصة تراجم العلماء وكان صائباً في الحكم على بعض علماء عصره إصابة أثبت التاريخ صحتها في مدحه لهم وإعلاء شأنهم : مثل ابن خميس شاعر تلمسان ، والدباغ القيرواني صاحب كتاب معالم الإيمان وروضات الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان ، وابن دقيق العيد[1].

ومن جملة مميزات الرحلة أيضاً اهتمامه بالتدقيق في الآثار القديمة والتصوير الدقيق للحالة الاجتماعية والدينية التي كانت عليها البلاد الإسلامية في ذلك الوقت " فهو يدرك بالنظرة الواحدة مالايدركه غيره بالتأمل الطويل"[2].

إضافة إلى اعتنائه بالجانب الاقتصادي في المدن التي زارها. فقد كتب رحلته بلغة سليمة تنم عن إحاطته بمفرداتها ودقائق أمورها .

ومن خلال مناقشاته للمواضيع التي تناولها ظهر لنا العبدري العالم المتبحر المشارك في مختلف فنون العلم [3] . ومما يؤخذ عليه كثرة ذمه للناس وأخلاقهم . أما فيما عدا ذلك فالعبدري كان دقيق الحكم فيما يختص بالأوضاع الدينية والعلمية إلا ما ندر ، وهذا عائد الى قصر الفترة التي مكثها في المناطق التي أصدر عليها حكمه .

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٣ ، ٦٦ ـ ٦٧ ، ١٣٢ ، ١٣٨.
(٢) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، ص ٥٢٣.
(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، المقدمة ، ص غ.

التجيبي السبتي

٦٧٠ ــ ٧٣٠هـ / ١٢٧١ ــ ١٣٢٩م

القاسم بن يوسف بن محمد علي بن القاسم التجيبي البلنسي المحتد السبتي النشأة والمولد[١] النجار المحدث علم الدين[٢]. رحالة أندلسي الأصل نشأ في المغرب وقد أشار إلى سنة مولده في ٦٧٠هـ/١٢٧١م[٣]، ونجد أن مضمون رحلته وفهرس مشيخته يظهران لنا مدى ماتمتع به من ثقافة واسعة حتى أنه وصف لغزارة علمه بالعالم البارع المحدث الحافظ ، المتقن العارف بالحديث ، القيم على أنواعه ، الضابط الثقة. توفي سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م[٤].

سبب الرحلة :

خرج قاصداً أداء فريضة الحج ، ولقاء العلماء ، والأخذ عنهم . وكان خروجه في بداية سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م[٥]. وأخذ يتنقل بين مراكز العلم في شمال أفريقيا حتى وصل القاهرة في بداية سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م . وقام بتدوين رحلته أثناء سفره وأضاف إليها المزيد من الحوادث التي علمها عقب عودته إلى بلاده[٦].

وتقع رحلته التي سماها مستفاد الرحالة والاغتراب[٧] في ثلاثة مجلدات ضخمة[٨] ، فُقد القسمان الأول والثالث منها، وبقي القسم الثاني الذي تناول فيه

---

(١) التجيبي : البرنامج ، المقدمة ، ص ي.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٢٤٠.

(٣) التجيبي : البرنامج ، ص ٦٤ ؛ وقد ذكر التنبكتي إنه ولد سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م. انظر التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج١ ، ص ٢٢٢.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٢٠ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج١ ، ص ٢٢٢.

(٥) التجيبي : البرنامج ، ص ٢٥٩. فقد كان موجوداً في بجاية في ذلك الوقت.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٢٠ ، ص ٣٠٦.

(٧) التجيبي : البرنامج ، ص٤٠ ، ٥٦ ، ٩٨ ، ١٦٦.

(٨) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٢٤٠ ؛ التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج١ ، ص ٢٢٢.

الحديث عن القاهرة وجُدة ومكة المكرمة[1]. واتبع خطوات ابن رشيد في تدوينه لرحلته إلا أنه زاد عليه بتراجم مستوفاة كاملة لمشايخه ومروياته عنهم بأسانيدها[2].

مؤلفاته :

لم يعرف له غير :

١ـ مستفاد الرحلة والاغتراب . ويتضمن وصف رحلته من حين خروجه إلى عودته.

٢ـ برنامج التجيبي وهو مأخوذٌ من مستفاد الرحلة والاغتراب . حيث استخرج التراجم الموجودة فيه وجعلها في برنامج قائم بذاته مع إضافة ما أخذه أثناء لقائه بالمحدثين والفقهاء في تنقلاته بين المراكز العلمية.

مميزات رحلة التجيبي السبتي :

اعتنى التجيبي بالوصف التفصيلي لمشاهداته الجغرافية والعمرانية مع الإجادة في وصف أحاسيسه وشعوره أثناء اتجاهه لجُدة. كما اهتم بتسجيل تراجم مشايخه ومكان لقائه بهم ومروياته عنهم بأسانيدها ، إضافة إلى تطرقه للنواحي التاريخية الدالة على سعة معرفته بهذا الجانب.

قام التجيبي بضبط أسماء البلدان لغوياً مع إشاراته الدقيقة للنواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية للمدن التي زارها . ولكنه وقع في بعض الأخطاء التاريخية التي لاتنقص من قيمة رحلته ، مثل قوله : عن كومين من الحجارة اشتهرا عند أهل مكة المكرمة بقبري أبي لهب وزوجته قرب ثنية كُدي[3]. فقال " وأرى ذلك غير صحيح والذي يشبه عندي أن يكون أحد

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، المقدمة ص ح ـ خ ـ د ـ ذ.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٢٤٠.

(٣) كدي أعلى مكة يهبط منها إلى الأبطح والمقبرة فيها عن يسارك وتعرف اليوم باس الحجون : انظر الحربي : كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ، ص ٤٧٣ ؛ البكري : معجم ما استعجم ، ج٤ ، ص ١١١٧ ـ ١١١٨ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤١ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٧ ، ص ١٩٦ ـ ٢٠٢ ؛ البلادي : معالم مكة الأثرية ، ص ٢٧٧ ؛ حمد الجاسر : من آثار مكة المكرمة ، مجلة العرب ، ج١٠ ، السنه ٢ ، ربيع الآخر ١٣٨٨هـ/ تموز ١٩٦٨م ، ص ٨٦٥ ـ ٨٧٥.

الكومـين قبــر أبي رغال "[1] ، وهنا أخطأ التجيبي فأبورغال كان دليل أبرهة في حملته التي أراد بها هدم الكعبة فهلك فيمن هلك ، ودُفن بين مكة المكرمة والطائف في مكان يسمى المغمس[2] . وقد مر النبي ﷺ بقبـره فأمر برجمه فصار ذلك سنة[3]. والمغمس خارج مكة المكرمة فكيف يكون قبره بكدي.

امتاز التجيبي بوصفه الدقيق للمسجد الحرام وإشاراته عن الزيادات الملحقة به ، وقصة بناء الكعبة ، وحفر بئر زمزم ، ونسب بني شيبة سدنة البيت الحرام ، إضافة لوصف مكة المكرمة وماقيل في أسمائها وفضلها والأحاديث النبوية الواردة في هذا الشأن مع العناية بذكر الناحية الاجتماعية.

وقد أجاد التجيبي في وصف حالة مكة المكرمة الدينية والعلمية مع مراعاة التسلسل الزمني للأحداث ، وإضافة الجديد ووضعه في مكانه المناسب ، مثل ذكره لوفاة أبي نمي وبناء ميضأة حول الحرم وتولي أبناء أبي نمي الحكم بعده. وعمل التجيبي على تحقيق الأحاديث النبوية والتنبيه على ذلك وإيراد كرامات الصالحين ، ولقاء العلماء والترجمة لهم.

وقد نبه التجيبي على خطأ ابن جبير في قوله إن مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما بمكة المكرمة. كما نبه إلى وهم العامة من أهل مكة على الشجرة الموجودة فوق جبل أبي قبيس والتي قيل أن النبي ﷺ بويع تحتها. وتتبع أيضاً أماكن وجود المساجد بمكة المكرمة ووصفها ، ووصف الأماكن والمشاعر المقدسة والجبال وماقيل في تاريخها[4] . وتميز أسلوبه بالسهولة والوضوح وعدم التكلف في صياغة الجمل الإنشائية وملئها بالسجع . وقد امتاز التجيبي بعنايته الفائقة في الوصف والتدقيق لكل مايشاهده ؛ ولعله خص القسم الثالث المفقود من رحلته للحديث عن المدينة المنورة ، ولعله تناول فيه الكثير

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٤ ، انظر تعريفه فيما بعد ، ص ٢١٨.

(٢) انظر تعريفه فيما بعد ، ص ,٢١٨

(٣) الأزرقي : تاريخ مكة ، ج١ ، ص ١٤٢ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٥٣ ، ج٥ ، ص ١٦١.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٦ ، ٢٤٨ ، ٣٠٧ ، ٣٣٤ ، ٣٥١ ، ٣٤٩ـ٣٥٠.

عنها فيكون بذلك إضافة جديدة إلى كتب الرحلات في تلك الفترة. حيث إن أغلب كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين كانت متركزة على مكة المكرمة.

ابن جابر الوادي آشي

٦٧٣ ـ ٧٤٩هـ / ١٢٧٤ ـ ١٣٤٨م

محمد بن جابر بن محمد بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم القيسي الوادي آشي[١] الأصل، التونسي مولداً وقراراً [٢]، المالكي مذهباً. ولد في جمادى الآخرة سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م بتونس[٣] ويعرف بابن جابر وبالوادي آشي، ويلقب بشمس الدين وهو من الألقاب المشرقية [٤]. ويكنى بأبي عبدالله[٥]. تلقى تعليمه على يد علماء تونس، ومن ضمنهم والده الذي كان شيخاً من شيوخ الإسلام في وقته، وأحد مشايخ العبدري [٦]. توفي ابن جابر الوادي آشي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م في الطاعون العام بتونس في شهر ربيع الأول[٧].

---

(١) (وادي آشي) مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة تطرد حولها المياه والأنهار ينحط نهرها من جبل شلير وهو في شرقها وهي على ضفته ولها عليه أرحاء لاصقه بورها كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون والقطن بها كثير، كان بها حمامان ولها بابان شرقي على النهر وغربي على خندق وقصبتها مشرفة عليها وعليها سور حجارة وهو في ركنها الذي بين المغرب والقبلة ويقرب وادي آشي قرية بها عين تجري سبعة أعوام وتغور سبعة أعوام تُسكن بجريان عينها وتخلو بغورها. انظر الحميري : الروض المعطار، ص ٦٠٤.

(٢) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج، ط١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٥٤.

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة، ج٣، ص ٤١٣؛ (تونس) مدينة كبيرة محدثة بإفريقية على ساحل بحر الروم عمرت على أنقاض قرطاجنة وهي قصبة بلاد أفريقية بينها وبين صفاقس ثلاثة أيام وبينها وبين القيروان مائة ميل ليس بها ماء جار إنما شرب أهلها من الآبار ومصانع خارجها وماؤها ملح ولها غلة فائضة وهي من أصح بلاد أفريقية هواء افتتحت أيام عبدالملك بن مروان على يد حسان ابن النعمان. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص٦٠ ـ ٦١.

(٤) ابن القاضي : درة الحجال، ج٢، ص ١٠٢.

(٥) ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ص ٢٩٩.

(٦) الكتاني : فهرس الفهارس، ج٢، ص ١١١٦.

(٧) ابن حجر : الدرر الكامنة، ج٣، ص ٤١٤؛ ابن فرحون : الديباج المذهب، ج٢، ص ٣٠١؛ ابن القاضي : درة الحجال، ج٢، ص ١٠٣.

كانت تونس محط رحال الذاهبين والعائدين ما بين المشرق الإسلامي وبلاد المغرب والأندلس ، ومركزاً يعج بالعلماء القادمين إليها للعلم والتدريس بها أو لتولي بعض المناصب ذات الأهمية والتي يشغلها كبار العلماء . ولذا شهدت نشاطاً علمياً واسعاً . وفي هذا الجو العلمي نشأ ابن جابر ، والتقى بالرحالة العلماء فاستفاد منهم وتاقت نفسه للمزيد ، فقرر شد الرحال إلى المشرق الإسلامي.

ولابن جابر رحلتان . ولقب بصاحب الرحلتين [١]. فرحلته الأولى سنة ٧٢٠هـ /١٣٢٠م والثانية سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م. وفي كلا الرحلتين حرص على السماع والرواية ، حتى غدا ذا مكانة علمية كبيرة دفعت العديد لتلقي العلم عنه[٢] .

وقد حدد ابن فرحون شيوخه بمائة وثمانين شيخاً من أهل المشرق والمغرب[٣]. ولم تكن رحلاته قاصرة على المشرق بل شملت المغرب والأندلس أيضاً[٤].

سبب الرحلة :

خرج للحج وطلب العلم إذ التقى بعدد كبير من العلماء قيدهم في برنامجه[٥]. وحظي بالسماع على كثير منهم حتى أصبح شيخ المغرب وراوية وقته[٦].

---

(١) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، ط ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ١٣.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٤١٤.

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج٢ ، ص ٣٠١.

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٤١٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ١٦٥.

(٥) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ١٠٢.

(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص ٢٩٩.

صفاته :

كان حسن المشاركة عارفاً بالنحو واللغة والحديث والقراءة ذا فقه قليل[1] جوالاً في البلاد المشرقية والمغربية ، مكثراً في الرواية ، عظيم الوقار ، من المشتغلين بالتجارة[2] مهنة أبيه[3]. فهو شيخ فاضل أديب عفيف ظريف مقبل على الأدب وربما قرض الشعر[4]. فهو طريف النزعة ، قويم السمت. لذا حظي بمكانة علمية كبيرة بفضل سعة علمه. وأشار ابن الخطيب إلى ذلك قائلاً : " إنه أصبح بهم شيخ وَحْده ، انفساح رواية ، وعلوّ إسناد "[5].

وكان ثقة ثبتاً له تقييد عن مشايخه بخطه بالإضافة إلى تقييده لأجزاء كثيرة من تواليف المتأخرين وتقييداتهم[6].

ويندرج ابن جابر الوادي آشي ضمن الرحالة الذين قيدوا رحلاتهم على هيئة برامج ينعدم فيها الوصف الجغرافي والإشارات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فبرنامجه بهذا يبدو سجلاً حافلاً لما كانت عليه المدن الإسلامية التي رحل إليها من مكانة علمية بفضل ماحواه من تراجم وأسماء كتب كانت غاية الطلب في ذلك الوقت.

مؤلفاته فهي :

١ ـ الأربعون حديثاً البلدانية. وهي تدل على " سعة خاطر وانفساح رحلة ".

٢ ـ أسانيد كتب المالكية يرويها إلى مؤلفيها[7].

٣ ـ الإنشادات البلدانية.

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص ٢٩٩.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ، ج٣ ، ص ٤١٤.

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٦٥.

(٤) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ١٠٢.

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ١٦٣.

(٦) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ١٠٢.

(٧) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج٢ ، ص ٣٠١.

٤ ـ زاد المسافر[١].

٥ ـ الترجمة العياضية[٢].

٦ ـ تقييده على القصيدة العروضية المسماة بالمقصد الجليل في علم خليل [٣].

٧ ـ تعاليق مفيدة[٤]. غير مبين نوعها.

٨ ـ مسلسلات انتخبها من مرويات مشيخة قاضي مصر مع أناشيد[٥].

٩ ـ برنامج رحلته[٦].

ولم يذكرعمر رضا كحالة من مؤلفاته إلا (الأربعون) في الحديث وبرنامجه وديوان شعر في مجلد كبير[٧].

وسبب تقييده لبرنامجه يرجع إلى أن بعض من لقيه من المشايخ في تونس أثناء رحلته سأله ان يذكر له ما أخذه عن العلماء على حسب الوسع والإمكان . ومن أجازه ولقيه ، وأخذ عنه أو ممن كتب إليه بالإجازة من المشرق أو المغرب ، وأن يفصح له عن جملة ذلك ويعرب . فأجابه وجعله في جزءين : أحدهما أسماء شيوخه وأنسابهم وكناهم وتواريخ ميلادهم ووفياتهم وأناشيدهم. وفي الجزء الثاني ذكر المأخوذ عنهم مضافاً لهم ما فيه من علو سند بالإجازة ، معتذراً عن التقصير ، وذلك من قوله " إذ فات حصول المأمول منهم في ذلك اللائق لتعرض الشواغل عن السنن المطابق راجياً في ذلك علو السند "[٨].

---

(١) الكتاني : فهرس الفهارس ، ج٢ ، ص ١١١٦.

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج٢ ، ص ٣٠١.

(٣) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ١٠٣.

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج٢ ، ص ٣٠١.

(٥) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، ط١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص ٢٩٤.

(٦) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ١٠٢.

(٧) كحالة : معجم المؤلفين ، ج٩ ، ص ١٤٦.

(٨) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، ط ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٢٨ ـ ٣٧.

ويبدو أن ابن جابر الوادي آشي لم يدون برنامجه من الذاكرة ، إذ كانت لديه تقييدات بخطه تحوي ما أخذه عن مشايخه[1] ساعدته في إخراجه وترتيبه .

مميزات برنامج ابن جابر الوادي آشي :

تندرج رحلته ضمن البرامج وليست من الرحلات الوصفية فهي علمية بحتة لما اشتملت عليه من تراجم للشيوخ والكتب التي أخذها. فجعل برنامجه من جزءين ، الأول يحوي أسماء المشايخ وقسمه إلى قسمين : اشتمل القسم الأول على ترجمة العلماء الذين لقيهم وأخذ عنهم مباشرة. كما ضمنه أسماء العلماء الذين ارتبط معهم بصلات علمية وقد أورد أسماءهم تبعاً لكثرة التلقي عنهم وبحسب المدن التى ينتسبون إليها. وسار في هذا القسم على نمط واحد فهو يورد في الترجمة الأوصاف ، ثم اللقب والكنية ، والاسم والبلد المنتمي إليه العالم ، وسنة الميلاد والشهر إن وجد ، مع ذكر المناصب التي شغلها . ويلي ذلك ذكر قراءته عليه ، وبيان مقدار الأخذ ، مع ذكر مكانه والكتب التي سمعها . ويتخلل ذلك أبيات شعرية إن وجدت ثم يذكر سنة الوفاة مع ذكر اليوم والشهر ومكان الدفن.

أما القسم الثاني من الجزء الأول فقد أورد فيه شيوخه الذين أجازوه . حيث رتبهم حسب الحروف الأبجدية مغايراً بذلك منهجه في القسم الأول . وقد أفرد قسماً خاصاً للنساء في آخر القسم الثاني دون ترتيب.

وفي هذا القسم كان ترتيبه البدء باسم العالم دون وصفه ، يتبعه ولادته وشيوخه الذين أخذ عليهم ، مع ذكر سنة الوفاة إن عرفها وأحياناً ذكر اسم العالم دون ترجمة.

أما الجزء الثاني فقد أفرده للكتب التي أخذها عن العلماء دون وصف لهذه الكتب . ورتب هذا الجزء حسب العلوم . فبدأ بالقرآن الكريم وعلومه ، ثم الحديث وعلومه ، ثم كتب التصوف واللغه والأدب . يتبع ذلك كله كتب الفهارس والمعاجم.

---

(١) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٢ ، ص ١٠٢.

وقد ذكر اسم كل كتاب ومؤلفه وتحديد ما أخذه من الكتاب . كما أورد الكتب التي درسها واعتمد عليها بدون استقصاء لكل ما وقع تحت يديه واستفاد منه . إذ يقول في بداية حديثه عنها :" هذا ذكر ماحضرني ذكره "[١].

وقد ذكر محقق البرنامج الدكتور/ محمد الحبيب الهيلة أن المؤلف عاد إلى نسخته وأضاف إليها إضافات جديدة في نهايات بعض ترجمات القسم الأول من الجزء الأول . حيث أكمل في بعض الترجمات تواريخ وفيات أصحابها وقال : إن هذه الإضافات لاتوجد في نسخة المخطوطة الأندلسية مما يدل على أن المؤلف راجع برنامجه في سنة ٧٤٤هـ /١٣٤٣م أو بعدها بقليل[٢].

ونلحظ ابن جابر الوادي آشي أراد من تقييده لبرنامجه الانتفاع والبيان ، لذا جاء أسلوبه سهلاً واضحاً خالياً من السجع المتكلف.

ابن بطوطة

٧٠٣ ـ ٧٧٠هـ / ١٣٠٣ ـ ١٣٦٨م

محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف (بن عبدالرحمن)[٣] ابن يوسف اللواتي الطنجي ، أبوعبدالله ابن بطوطة[٤] الملقب بشمس الدين[٥]. رحالة مغربي ، يرجع نسبه إلى لواتة[٦] إحدى القبائل البربرية. ولد سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م يوم الإثنين السابع عشر من رجب بمدينة طنجة[٧].

(١) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، ط ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ١٧٨.
(٢) المصدر السابق والطبعة ، ص ٣٧.
(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٢٧٣ زيادة في نسبه.
(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٤٨٠.
(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥.
(٦) (لواته) بطن واسع من بطون البربر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر ابن زهيك ، ولوا الأصغر هو نفرا ولو اسم أبيهم والبربر إذا أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فصارت لوات فلما عربته العرب حملوه على الإفراد وألحقوا به هاء الجمع ، وهم بطون كثيرة. أنظر ابن خلدون : العبر ، ج٦ ، ص ١١٦.
(٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤ ؛ و(طنجة) بلد على ساحل بحر المغرب مقابل للجزيرة الخضراء وهي مدينة قديمة آثارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر وهي على ظهر جبل وماؤها من قناة يجرى إليهم من موضع لايعرفون منبعه على الحقيقة وهي خصبة وبين طنجة وسبتة مسيرة يوم واحد هي آخر حدود أفريقيا. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٤٣.

ينسب ابن بطوطة لأسرة علم ، فمنها القضاة والعلماء ، وهو ماذكره لملك الهند عندما خيره بين الوظائف التي يرغبها ، فقال :" أما الوزارة والكتابة فليست شغلي . وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي "(١).

وقد أشار إلى توليه قضاء الركب الحجازي عند خروجه من تونس قاصداً الحجاز. وممن تولى القضاء من عائلته ابن عم له يقال له أبوالقاسم محمد ابن يحيى بن بطوطة قاضي إحدى المدن الأندلسية.

ولا نعرف من أخبار عائلة ابن بطوطة ومكانتها سوى ما أشار به في رحلته. وهو مالكي المذهب. تلقى علومه الأولى على مشايخ طنجة ، وأصبح ذا معرفة واسعه مكنته من تولي قضاء الركب الحجازي. واستمر ابن بطوطة في طلب العلم فهو لم يكن يخالط إلا العلماء والقضاة . ولعله كان يقرض الشعر ، وذلك من خلال إيراده أبياتًا نسبها لنفسه ولم نعثر في المصادر إيضاحات عن ذلك. وقد ظهر قرضه الشعر عند مدحه لملك الهند رغبة منه في مساعدته لقضاء دينه(٢).

لم يشر ابن بطوطة إلى طلبه العلم في البلدان التي زارها، واكتفى بالإشارة إلى سماعه على بعض كبار العلماء والوعاظ . كما أنه لم يصرح بأسماء مشايخه في طنجة. وقد ذكر ابن حجر أنه لقي العديد من العلماء(٣).

أخلاقـه :

لقد كان سريع الاندماج والتأقلم مع أهل المدن والبلدان التي زارها وألف عاداتها نظراً لطول مدة سفره . وهو بهذا عكس العبدري.

فابن بطوطة شديد الحرص على التمسك بتعاليم الدين الإسلامي(٤) . فلا يكاد يسمع برجل صالح أو عالم إلا وسارع إلى لقائه والتبرك بدعائه وهو كثير

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٥١١.
(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٨ ، ٦٦٨ ، ٥١٣ ، ٥١٥.
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٤٨٠.
(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤.

الزواج ففي كل بلد يحط رحاله بها يتزوج عازماً على أن تكون معه ولكن نراه لا يلبث أن يفارقها لعدم قبول الزوجة مفارقة وطنها.

وعرف عن ابن بطوطة شدة الاعتزاز بوطنه والحنين لأهله طوال غيابه عنهم. وتميز بدقة الملاحظة وقوة الذاكرة، وهو مادلت عليه رحلته.

ولاريب أن ابن بطوطة حذق فنون الفروسية والقتال ففي رحلته مايشهد على اشتراكه في بعض المعارك التي حدثت أثناء تنقلاته.

سبب رحلته :

لقد كان خروجه للحج وزيارة مسجد الرسول ﷺ. وقضى في رحلته هذه وقتاً طويلاً متنقلاً في البلدان؛ إذ بدأها سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م، ولم يصحبه أحد من أقاربه أو أصدقائه على عادة الرحالة المغاربة والأندلسيين.

وقد أدى ابن بطوطة فريضة الحج سبع مرات وهو مالم يشر إليه كل من تناول دراسة رحلة ابن بطوطة وقد كانت الأولى منها سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م والثانية سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م والثالثة سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م والرابعة سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م والخامسة سنة٧٣٠هـ / ١٣٢٩م والسادسة سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م والسابعة سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م[1].

واستمرت رحلة ابن بطوطة في المشرق حوالي خمس وعشرين سنة منذ خروجه عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م إلى حين عودته إلى فاس عام٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ولكنه لم يلبث أن واصل رحلته إلى الأندلس وتنقل فيها وتركها في عام ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م. ثم عاود التجوال متجهاً صوب بلاد السودان وعاد منها سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م[2].

وهكذا استمرت رحلته مايقرب من تسعة وعشرين عاماً جاب فيها جميع الأقطار التي تسنى له الوصول إليها في ذلك الوقت.

(١) ابن بطوطة : الرحلة، ص ١٤، ١٧٠، ٢٤٠ ـ ٢٤٢، ٢٨٠، ٦٥٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٧٣، ٦٩١.

ويمكننا أن نقسم رحلته إلى ثلاث رحلات : الأولى وهي الأطول وشملت المشرق كله بالإضافة إلى جزء من شمال آسيا· أما الرحلة الثانية فكانت إلى بلاد الأندلس ، والثالثة إلى بلاد السودان. وعندما عاد ابن بطوطة إلى فاس قيض الله له السلطان أبا عنان المريني[1] سلطان مراكش الذي اتصل به . فكان نتيجة هذا الاتصال ظهور كتاب رحلة ابن بطوطة الذي أسماه تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[2] . والذي تصدر لكتابته ابن جزى[3] حيث انتهى من كتابته في عام ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م[4].

ويدل عنوان رحلة ابن بطوطة على ماحوته من غرائب وعجائب هي مثار شك أدت إلى اتهامه بالكذب[5] . ومن ذلك موقف ابن خلدون وتشكيكه في تلك الروايات أمام وزير السلطان فارس الذي أشار إلى ما يتناقله الناس من حكايات ابن بطوطة ، ويبدو أن الوزير من المؤيدين لها لأنه ضرب مثلاً لابن خلدون عبر فيه عن تصديقه لابن بطوطة ، حيث شبه ابن خلدون بابن الوزير الناشىء بالسجن والذي لايعرف من أشكال الحيوانات غير الفأر لعدم رؤيته سواها[6].

وعلى ضوء ماسبق فهناك من اتهمه بالكذب وهناك من نفاه عنه[7]. والملاحظ أيضاً أن المواضيع التي تضمنتها الرحلة مثار جدل بين مؤيد

---

(١) فارس بن على بن عثمان بن يعقوب بن عبدالحميد المريني أبوعنان بن أبي الحسن ملك المغرب ولي السلطنة خمس سنوات ومات سنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م. انظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٢١٩.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص٧٠٠.

(٣) محمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن يحيى بن عبدالرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي من أهل غرناطة وأعيانها يكنى أبا عبدالله برز في الأدب واضطلع بمعاناة الشعر وإتقان الخط ، نشأ بغرناطة في كنف والده وبعد وفاته انتقل إلى المغرب فاستقر بباب مِلكه توفي بفاس في أول سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م. انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ، ٢٦٥.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٧٠١.

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٤٨٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٢٧٣.

(٦) ابن خلدون : العبر ، ج١ ، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٤٨٠.

ومعارض . فمن المؤيدين لها كوز غارتن KOSEGERTEN أما من عارض حدوثها تمثل في موقف يول YULE ولكن لم تلبث أن عادت الثقة إليها في القرن العشرين مع الاعتراف بقيمتها العلمية.

أما موقف المعارضين فتمثل في مجيك MZIK وشيفير SCHEFER وفيرا FERRAND وياما موتو YAMMOTO وكان أكثر إنكاره في زيارته للصين والقسطنطينية(١).

وقد قطع ابن بطوطة في تجواله أكثر من مائة وخمسة وسبعين ألف ميل(٢). لذا لايخفى على الإنسان إنه رحالة العصر(٣). وكما وفق ابن بطوطة في رحلاته وفق أيضاً فيما أملاه على ابن جزى حيث يُظهر بوضوح أحوال العالم الإسلامي وغيره في تلك الفترة.

واستطاع ابن بطوطة أن يحتفظ بكل مشاهداته في ذهنه دون تمحيص، فهو لم يك من كبار الفقهاء أو العلماء ؛ بل كان رحالة متنقلاً في أرجاء العالم يدفعه لذلك حب الاستطلاع والتعرف على غرائب وعجائب البلدان حتى أنه لقب " بشيخ الرحالين "(٤).

وأكثر ما يلفت انتباه ابن بطوطة وجعله مثار اهتمام الناس بمختلف طبقاتهم . وعلى الأخص العلماء والصالحين . فهو بذلك يعد مؤرخاً من الناحية الاجتماعية للمسلمين في عصره(٥). فرحلة ابن بطوطة تحوي الكثير من الموضوعات وفي مختلف النواحي. ولا شك أن شهرة هذه الرحلة وأهمية ماحوته من هذه الدراسات كانت دافعاً إلى ترجمتها إلى الإنجليزية والفرنسية (٦).

---

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ج١ ، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٢) المرجع السابق والجزء ، ص ٤٢١.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٧٠١.

(٤) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص١٨٠.

(٥) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ١٨٢.

(٦) حسني محمود حسين : أدب الرحلة عند العرب ، ص ٤١؛ البستاني : دائرة المعارف ، ج١، ص ٣٩٩.

وبالرغم من شهرة ابن بطوطة ورحلته إلا أننا لا نعرف أية تفاصيل عن حياته عقب انتهائه من تدوين الرحلة وحتى وفاته.

ولاشك أن ابن بطوطة كان يجيد أكثر من لغة مكنته من العيش فترة طويلة في مناطق لا ينطق أهلها بالعربية.

مناصبه التي تولاها :

أول منصب تقلده كان قاضي الركب الحجازي الخارج من تونس ثم تولى القضاء بالهند وبجزيرة المهل(١) . وعقب عودته إلى وطنه ولي قضاء بعض المدن(٢).

مؤلفاته :

لا توجد له مؤلفات غير رحلته تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار التي صاغها له ابن جزي.

مميزات رحلته :

امتازت رحلة ابن بطوطة بطولها ، وحفلت بتنوع حوادثها فجمعت الكثير من الغرائب والعجائب التي أثارت الشك لدى الكثير من الكتاب ، وحوت الكثير من المعلومات عن أحوال المسلمين الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. واستغرقت رحلته فترة تزيد على الثمانية والعشرين عاماً سلك فيها طريق البر والبحر.

وكان ابن بطوطة حريصاً على الاتصال بالملوك لينال أعطياتهم ويتمكن من مواصلة رحلته مما يدل على علو مكانته الاجتماعية. ويلاحظ أن ابن بطوطة

---

(١) جزيرة المهل : وهي ما تعرف اليوم بجزائر المالديف. انظر محمد محمود الصياد : رحلة ابن بطوطة ، ص ٤٩ ؛ شوقي عبدالقوي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، عالم المعرفة، الكويت ، العدد ١٥١ ، السنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ص ١٩٣.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٨ ، ٥١١ ، ٥٨٢ ـ ٥٨٨ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٤٨٠.

لم يدون في رحلته طلبه للعلم ، والتقاءه بالعلماء ، والكتب المتداولة ، وأماكن التدريس.

وقد وقع ابن بطوطة في بعض الأخطاء الجغرافية لاسيما فيما يتعلق بأسماء بعض البلدان والمدن ؛ ولعل السبب في ذلك مرده إلى عدم معرفته بلغات أهلها. أو لأنه لم يدونها في حينها بل أملاها من الذاكرة وكتبها له ابن جزي بعد سماعها منه.

والملاحظ فيها أيضاً اهتمام ابن بطوطة بالجانب الاجتماعي من حيث حالة العلماء والملوك وعادات الناس في البلاد التي زارها. ويبدو أن ابن بطوطة قام بنقل الوصف الجغرافي من الرحالة السابقين وهذا مرده تدوين رحلته من الذاكرة فكان من الطبيعي أنه لا يستطيع وصف ما شاهده وأغلب الظن أن ابن جزي أكمل هذه الناحية من الرحلات السابقة ، إذ أن ابن بطوطة لم يُعرها اهتمامه. فهو لم يدون رحلته في حينها فاعتمد على الذاكرة في إملائها بعد عودته فوقع في الكثير من الأخطاء.

والملاحظ أيضاً عدم وجود الترتيب في تقييدها إذ تداخلت الأحداث والحكايات بعضها ببعض ، ولعلها قد تكون نتيجة خطأ الكاتب.

وتمتع ابن بطوطة بذاكرة قوية خاصة في سرد بعض المعلومات الخاصة بوصف المساجد وأبعادها.

وحفلت رحلة ابن بطوطة ببعض الحكايات والروايات الخرافية دون تمحيص منه ولا تدقيق ، وهذا بلاشك عائد إلى تكوين شخصية ابن بطوطة ، فهو رجل مسلم يمثل عامة المسلمين في معتقداتهم لتلك الفترة التي عمت فيها مثل هذه الظواهر الاجتماعية.

ويظهر من فحوى كلام ابن بطوطة أنه لم يكن يرغب في البداية في تدوين رحلته ومرجع ذلك كله إلى رغبة السلطان المريني أبي عنان للاستفادة منها. وابن بطوطة في إيراده للمعلومات الخاصة بالجوانب الاجتماعية والسياسية والدينية يمثل شاهد عيان نقل لنا مشاهداته وما وصل إلى سمعه . وهذا

ماجعله ضمن الرحالة المشهورين الحريصين على إيصال المعلومات بدقة . ومن هنا تكمن أهمية رحلته من الناحية التاريخية.

لقد وصف ابن بطوطة مكة المكرمة والمدينة المنورة والمسجدين المكي والمدني ، وعمد إلى الاختلاط بطبقات الناس . فهو أكثر الرحالة احتكاكاً بهم في رحلاته ، فجاءت رحلته حافلة بأوصاف دقيقة مع اهتمامه بذكر القصص الغريبة والنادرة ، في رحلته.

وعلى العموم فرحلة ابن بطوطة في جملتها مثلت فترة من التاريخ الاجتماعي الإسلامي أكثر من أي ناحية أخرى ، بسبب ماوجد فيها من غرائب هي مثار فحص وتدقيق للتثبت منها.

البلوي

٧١٣ ـ ٧٨٠هـ / ١٣١٣ ـ ١٣٨٧م

خالد بن عيسى بن أحمد بن إبرهيم بن أبي خالد البلوي(١) من أهل قنتورية(٢) من حصون وادي المنصورة(٣). لُقب بأبي البقاء(٤) ، رحالة من بلاد الأندلس وقد أُجمع في الثناء عليه لفضله. كثير التواضع حسن الأخلاق جميل العشرة محب في الأدب (٥) " ذو خط رائق "(٦).

صفاته :

يبدو أنه قد تأثر كثيراً بأهل المشرق وعاداتهم حتى أن ابن الخطيب قال فيه « وقد شهرته النزعة الحجازية ... وتشبه بالمشارقه شكلاً ولساناً » وكان

(١) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ١٨ ؛ ابن القاضي : درة الحجال ، ج١ ، ص ٢٦٢ ؛ المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٣٢.

(٢) (قنتورية) بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية تقع على نهر المنصورة على مقربة من بلدة المنصورة. ووادي المنصورة هو المنطقة الواقعة على نهر المنصورة الذي يخترق شمال ولاية المرية بين برشانة ومدينة المنصورة. انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص٥٠٠ ، حاشية رقم ٢ ، ص ٤٨٧ حاشية رقم ٣.

(٣) المصدر السابق والجزء ، ص٥٠٠.

(٤) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٣٢.

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص٥٠٠ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧..

يصبغ لحيته بالحناء والكتم [١] ويلبس البياض [٢] وأثني عليه بأنه الشيخ الفقيه القاضي الأعدل[٣] .

ومن غير المعروف بالضبط سنة ميلاده، وأما مكان مولده فهو (قنتورية). وقد رجح محقق رحلته إنه قد يكون سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م لأنه كما قال رحل في مقتبل الشباب ، وقد جاوز سن الطلب إلى سن الاتصال بالعلماء والرواية عنهم ، وتوفي سنة ٧٨٠هـ / ١٣٨٧م.

وينتسب البلوي إلى أسرة علمية فنشأ في وسط علمي مع تربية دينية صالحة [٤]. وعندما وصل إلى سن تؤهله للالتقاء بالعلماء شد الرحال وجاب المدن للقاء علماء عصره بفاس وتلمسان وغرناطة وغيرها من بلاد المغرب والأندلس[٥]. ثم رحل إلى المشرق للحج والاستزادة من العلم وهو في مقتبل العمر، وألف رحلته التي سماها تاج المفرق في تحلية علماء المشرق [٦] " وهي مشحونة بالفوائد والفرائد وفيها من العلوم والآداب مالا يتجاوزه الرائد "[٧].

سبب الرحلة :

كانت بقصد الحج وطلب العلم وكانت بداية خروجه ضحى يوم السبت الثامن عشر لصفر من عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م [٨] من بلدة قنتورية وعاد إليها يوم الإثنين عصراً في بداية ذي الحجة عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م . فمدة رحلته أربعة أعوام وتسعة أشهر واثنا عشر يوماً.

وقد ألف البلوي في هذه الرحلة مؤلفه تاج المفرق في تحلية علماء المشرق . وفي بداية تقييده لها بين منهجه الذي اتبعه ، فقال : إنه قصد

(١) الكتم نبات يخلط مع الوسمة للخضاب الأسود. أنظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٢ ، ص ٥٠٨.
(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ٥٠١ ؛ المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٣٣.
(٣) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٣٢.
(٤) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، المقدمة ، ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٦) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ١٤٣.
(٧) المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٣٢.
(٨) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ١٤٤.

به ضبط موارد الرحلة الحجازية وذِكر معاهد الوجهة المشرقية ابتغاء مرضاة الله. وبين أنه سيذكر بعض شيوخه من العلماء والفضلاء والبُلغاء ، وأنه سيذكر نُبذاً من فوائدهم وطرفاً من أناشيدهم[1].

وقد سار البلوي في رحلته وفق منهجه فظهرت بالصورة التي حددها وبذلك وصفها المقري . وإن كان لسان الدين ابن الخطيب قد انتقص من قدرها وقال عنها: « إنه جلب أكثر كلامه في رحلته من كلام العماد الأصبهاني[2] وغيره »· وقد أوضح المقري سبب تحامل ابن الخطيب على البلوي ، كونه منحرفاً عنه ، ولكنه لم ينكر فضله وعلمه ، وهذا ما أثبته المقري[3].

وأوضح محقق الرحلة أن البلوي كتب رحلته وتناقلها الناس ثم عّن له أن يكتبها مرة ثانية وعرضها على أصدقائه من العلماء فقرظوها وهي التي احتفظ بها حفيده ونشرها من جديد.

لذا فهناك اختلافات في النسخ التي وجدت. كما بين محقق الرحلة أن مصدر الرحلة نابع من تجربة البلوي الشخصية ، وأنه لم يعتمد على ماجاء في كتب الرحالة والمؤرخين السابقين . وهذا القول ربما ينطبق على النواحي الأدبية والسياسية والاقتصادية والتاريخية والاجتماعية . أما فيما يتعلق بالنواحي الوصفية ، فالأمر يختلف ، خاصة وأن من يقرأ وصف البلوي لبعض المشاهد ، ووصف ابن جبير لها يرى مدى التطابق التام في الكلمات المستخدمة مما يؤيد أنه نقل منه ولعله استفاد أيضاً من غيره من الرحالة الوصفيين، خاصة وأن بعض الرحالة السابقين الذين اتبعوا منهج الرحلات الوصفية على

---

(١) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٥٩ ـ ١٦١ ، ج١ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن محمود بن هبة الله بن آلُه عماد الدين أبوعبدالله بن صفي الدين أبي الفرج بن نفيس الدين أبوالرجاء الكاتب الأصفهاني المعروف بابن أخي العزيز ولد بأصبهان سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م برع بالفقه وأتقن النحو والأدب وسمع الحديث ، اتصل بصلاح الدين وكانت مكانته تضاهي الوزراء توفي مستهل رمضان سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م بدمشق برع في الشعر والنثر وإن غلب على نثره كثرة الجناس. انظر الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج١ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ٥٠٠ ، المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٣٣.

اطلاع بما سبق من كتب الرحلات الأخرى ، فجاءت كتاباتهم في مجملها تعالج المواضيع نفسها مع الإشارة إلى ماوقع فيه سلفهم من أخطاء.

مـؤلفـاتـه :

١ـ رحلته التي سماها تاج المفرق في تحلية علماء المشرق.

٢ـ برنامج روايته ولكن لم يعثر عليه وإنما ذكر عرضاً أثناء حديثه في رحلته[١].

٣ـ ديوان شعر ضمنه قصائده ومقطوعاته.

٤ـ حديث الرحمة وكتاب عن أسانيد لثلاثيات البخاري.

٥ ـ له مجموعة منتقاة اختارها من أشعار معاصريه[٢]. ولم يذكر عمر رضا كحالة من مؤلفاته غير رحلته[٣].

مناصبه التي تولاها :

لم يشغل البلوي مناصب مهمة قبل رحلته الحجازية ولكنه أثناء عودته إلى الأندلس أقام فترة بالإسكندرية ، تلقى فيها العلم وجلس للتدريس[٤] ، ثم تولى الكتابة لأمير تونس فترة من الوقت[٥]. كما تولى القضاء ببلدة قتورية[٦] وعدد من مدن الأندلس[٧].

وقد بلغ البلوي مكانة عالية من العلم بفضل لقائه العلماء أثناء تجواله ورحلته إلى المشرق.

مميزات رحلة البلوي :

تعد رحلة البلوي من الرحلات الأدبية القائمة على النثر المليء بالسجع.

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص٣٦ ، ٤٧ ، ١٧٥ ، ٢٠٦ ، ج٢ ، ص ٢٥ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٧٠ ، ٩٧.

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١١٣ ، ج١ ، ص ٣٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ج٢ ، ص ٥١ ، ٦٢ ، ٩٣ ، ٩٨ .

(٣) كحالة : معجم المؤلفين ، ج٤ ، ص ٩٧.

(٤) البلوي : تاج المفرق ، ج٢ ، ص ٩٣.

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص٥٠٠ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ١٨٧.

(٦) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٤٣ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ٥٠١ ؛ المقري : نفح الطيب، ج٢ ، ص ٥٣٣.

(٧) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص٥٠٠.

وقد استوفى بها شروط الرحلات المغربية والأندلسية من الاهتمام بذكر القضايا الفكرية المثارة في وقته ، والترجمة لأعلام العلماء المأخوذ عنهم ، من الكتب العلمية المشهورة التي كانت غاية الطلب ، والدواوين الشعرية المتناقلة بين الناس. فعدت رحلته من نماذج الرحلات المغربية والأندلسية.

وتميزت بعبارات السجع المتكلف الذي يصعب على القارىء العادي فهمها لأول وهلة مع الإكثار من الشعر سواء له أو لغيره. كما اهتم بالترجمة للعلماء المشهورين وإسباغ الأوصاف والألقاب عليهم. ويبدو أن البلوي على درجة كبيرة من الثقافة ، ويظهر ذلك جلياً واضحاً من خلال ما أورده من كتب وفهارس ودواوين شعر وغيرها في رحلته.

وقد اهتم أيضاً بالوصف الجغرافي للمدن والقرى التي مر عليها بدون تطويل ممل أو تقصير مخل ، وإن كان يؤخذ عليه نقل بعض العبارات من ابن جبير وخاصة في هذه الناحية.

كما أشار إلى الحالة الأمنية والسياسية والاجتماعية والدينية والعلمية في متن رحلته ، واعتنى بتسجيل النقوش التي شاهدها على الآثار المقدسة في المسجدين المكي والمدني مع وصفه لهما ، وسجل أسماء المدارس بمكة المكرمة والمدينة المنورة والمكتبات الموجودة بهما . وتتبع بالإضافة إلى ذلك المساجد الموجودة بهما ووصفها.

واهتم بذكر النواحي التاريخية القديمة عن المساجد والآثار المقدسة ووصف مكة المكرمة والمدينة المنورة وأسوارهما وذكر أسماء أحياء مكة المكرمة وجبالها.

وسجل الإجازات التي نالها من العلماء . وكعادة الرحالة المغاربة والأندلسيين انتثرت الأحاديث النبوية والآيات القرآنية في رحلته. وأشار أيضاً إلى قضية تعدد الأئمة بالمسجد الحرام ، ووصف مناسك الحج ، واعتنى بتسجيل سبب خروجه وتاريخه وتاريخ وصوله إلى مكة المكرمة وتاريخ خروجه منها ، وتاريخ وصوله إلى بلده .

الفصل الثالث

الأحوال السياسية والتنظيمات الإدارية لبلاد الحجاز من خلال كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين مع المقارنة ببعض ما أوردته المصادر التاريخية

أولاً - الأحوال السياسية في بلاد الحجاز :

أ - إمارة مكة المكرمة.

ب - إمارة المدينة المنورة.

جـ - المدن والقرى التابعة للحجاز.

ثانيًا - التنظيمات الإدارية في بلاد الحجاز :

أ - الأمراء ببلاد الحجاز.

ب - نظام ولاية العهد.

جـ - نظام الوزارة.

د - الوحدات الإدارية.

هـ - التنظيمات المالية.

و - التنظيمات القضائية.

ز - التنظيمات الحربية.

أولاً : الأحوال السياسية في بلاد الحجاز :

كانت الحجاز ضمن الولايات التابعة للخلافة العباسية في فترة قوتها ولكن الملاحظ أنه في الفترات الأولى سعى العلويون إلى الاستقلال بها لاعتقادهم بأحقيتهم في الخلافة من الأمويين والعباسيين [1] وفي سبيل ذلك بذلوا محاولات عدّة تمكّن الأمويون من القضاء عليها ؛ مثل ثورة الحسين ابن علي ، وثورة زيد بن علي بن الحسين ، وثورة المختار بن أبي عبيدة[2] .

وعقب انتقال الخلافه إلى بني العبّاس جدّد العلويون محاولاتهم تلك ولم تكن لتهدأ إلاّ في لحظات ضعفهم ، ثم ماتلبث أن تعود مجدّداً تمهيداً لتكوين خلافة تمثّلهم[3] ، مع ملاحظة تولّي بعض منهم حكم الحجاز من قبَل الخلفاء العباسيين[4]. وثورة بعضهم الآخر من الجوْر والظلم ضدّ عمال العباسيين[5] ، أو لأي سبب آخر فتبدأ دعوتهم ولكن لا تلبث أن تنتهي إلى الفشل[6].

ومنذ تغلّب جعفر بن محمد الحسني[7] على مكة المكرمة سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦م في أيام خلافة المقتدر بالله . نستطيع القول : إنه انطلاقاً من هذا الوقت استطاع الأشراف العلويون من ذريّة الحسن بن علي تكوين إمارة لهم بمكة المكرمة تتمتّع باستقلال ذاتي في ظل الخلافة العباسية. ويتبع إمارة مكة المكرمة عددٌ من مدن وقرى الحجاز مثل جُدّة ، والطائف ، ومر الظهران

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٦ ، ص ٢٢٨ ؛ وبتفصيل لذكر أسماء من خرج على الخلافتين الأموية والعباسية من العلويين. انظر الذهبي : أسماء من رامُوا الخلافة ، ص ٧ ــ ٢٣.

(٢) ابن الطقطقا : الفخري ، ص ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٣٢.

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج٢ ، ص ١٢١.

(٤) عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٤٠٥ ــ ٤٠٨.

(٥) ابن الطقطقا : الفخري ، ص١٩٠.

(٦) عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٣٢٢ ، ٣٤٩ ، ٣٨٩ ، ٤٣٤.

(٧) جعفر بن محمد بن الحسن بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب الحسني أمير مكة المكرمة غلب عليها في أيام الأخشيديين ، وخطب لنفسه بالإمامة ، وخلع طاعة المقتدر بالله. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٢٩.

والقرين [1] ووادي نخل[2] ، وغيرها من المدن والقرى التي ورد ذكرها في كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين. وقد تعاقب على حكم مكة المكرمة وتوابعها ثلاث أسر من الأشراف من ذرّية الحسن بن علي هم السليمانيون والهواشم ثم بنو قتادة[3].

أما المدينة المنورة :

فقامت بها إمارة علوية أخرى من ذرية الحسين بن علي بدأت بطاهر ابن مسلم[4] الذي قدّمه بنو الحسين بالمدينة المنورة على أنفسهم واستقلّ بإمارتها[5] سنة ٣٦٠هـ /٩٧٠م ومنذ إمارة طاهر بن مسلم استطاع بنو الحسين تكوين إمارة خاصة بهم في المدينة المنورة وكلا الإمارتين كانتا تتأرجحان في الولاء للدولة العباسية حيناً والدولة الفاطمية حيناً آخر على أساس الأموال المدفوعة لها وبانتظام[6].

وقد وردت بعض اللمحات السياسية المتعلّقة ببلاد الحجاز في كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين سواء الخاص بسياستها الخارجية أو الداخلية مما يعطينا صورة شبه واضحة عن أحوالها السياسية منذ زمن رحلة ابن جبير إلى الحجاز عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣م وإلى زمن رحلة ابن بطوطة عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م .

---

(١) (القرين) اسم الأكمة الصغيرة البارزة التي بطرف بلدة بحرة من الشرق بين مكة المكرمة وجدة ثم سمّيت بحرة وسميت القرين لأنها منتصف الطريق بين مكة المكرمة وجدة وبها حصن صغير. انظر ابن المجاور : تأريخ المستبصر ، ص ٤١ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٧ ، ص ١٢٦.

(٢) (وادى نخل) واد من الحجاز بينه وبين مكة المكرمة مسيرة يومين وبه يجتمع حاج اليمن وتسمى نخله اليمانية. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٢٧٨.

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٩٩ ، ١٠٢.

(٥) أمير المدينة المنورة في سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م وفيها جاءت جيوش العزيز صاحب مصر مكة المكرمة والمدينة المنورة وضيّقوا عليهم طالبين إقامة الخطبة للعزيز وأمير مكة المكرمة إذ ذاك عيسى ابن جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد الحسني وأمير المدينة المنورة طاهر هذا. انظر السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٢٥٧.

(٥) عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٣٢٢ ، ٣٤٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٤٣٤.

(٦) العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ١٩٩.

أ - إمارة مكة المكرمة :

بدأت الأسرة الثانية أسرة الهواشم في مكة المكرمة بمحمد بن جعفر ابن محمد بن عبدالله بن أبي هاشم الحسني(١) وانتهت بمكثر بن عيسى(٢) الذي عاصر ابن جبير في رحلته . وقد أورد ابن جبير طَرَفاً من سيرته حيث وصفه بأنه عامل غير صالح . ومن المؤكد أن سبب نقمة ابن جبير عليه عائدٌ لما فرضه من مكوس وضرائب على الحجاج(٣) .

وقد أيّد ابن فهد والجزيري قول ابن جبير مضيفين أن سبب زوال ملك هذه الأسرة إنما هو انصرافها إلى اللهو والتبسّط في الظلم ، والإعراض عن حماية مكة المكرمة من العابثين ، اغتراراً بما كانوا عليه من العز والقسوة لمعارضيهم وفقدهم لولاء قوّادهم(٤) . مما أدّى إلى عدم استقرار الأمن ، إذ أشار ابن جبير إلى عرب بني شعبة (٥) المتربصين للحجيج في منى ومزدلفة ،

---

(١) محمد بن جعفر بن محمد بن عبدالله بن أبي هاشم بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني المكي أبو هاشم أمير مكة اختاره الصليحي ليكون أميرها وهو صهر شكر بن أبي الفتوح وأعطاه مالاً وسلاحاً وعندما تولى الإمارة قطع الخطبة للفاطميين وأعادها للعباسيين وترك الآذان بحيّ على خير العمل ولكنه لم يستمر على ذلك فقد كان تارة يخطب للعباسيين وتارة يخطب للفاطميين كان ظالماً قليل الخير توفي سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٤ .

(٢) مكثر بن عيسى بن فليتة بن محمد بن جعفر الحسني المكي كانت ولايته لمكة المكرمة عدة سنين يتداولها هو وأخوه داود مدة ثلاثين سنة وبمكثر انقرضت ولاية الهواشم لمكة المكرمة على اختلاف في سنة انقضائها وولايته بدأت سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م وهو الذي بنى الحصن على جبل أبي قبيس وهدمه أمير الحجاج العراقي طاشتكين توفي سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م بنخلة بعد أن خرج فاراً من أبي عزيز قتادة بن إدريس الحسني الذي تولى إمارتها بعده. انظر المصدر السابق ، ج٧ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٩ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٤ ، ٥٧ .

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٦٦ - ٥٦٧ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٧٧ .

(٥) (بنو شعبة) قبيلة اشتهرت بالشجاعة والقوة ، وهم فرع من كنانة ، ويقال من تغلب ، كانوا يسكنون جنوباً ولايوجد من هم أسرف ولا أجرم ولا أخسر منهم في أخذ مال الحجاج لأنهم يسمون الحاج جفنة الله وكانوا يقولون : " إذا حضر جفنة الله لخلقه أكل منه الصادر والوارد ". انظر ابن المجاور: تاريخ المستبصر ، ص ٥٢ ؛ محمد بن أحمد العقيلي : قبيلة بني شعبة (مجلة العرب ، ج١١ - ١٢ ، ١٣٩٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٨٩٢ - ٨٩٣).

وكذلك الحرابة[1] أتباع الأمير مكثر ، بالإضافة إلى الفتن الواقعة بين سُودان أهل مكة المكرمة وبين الحجيج من أهل العراق والشام ومصر حيث شاهد ابن جبير إحداها سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م فقال " حدثت بين سُودان أهل مكة المكرمة وبين الأتراك العراقيين فتنة وقعت فيها جراحات وسُلَّت السيوف والعصي ورميت السهام وانتُهبت بعض أمتعة التّجار بمنى "[2]. وأكّد وقوع هذه الحادثة الجزيري في حوادث سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م[3] كما قيد ابن جبير بعض حوادث أشارت إلى علاقات مكة المكرمة الخارجية ومنها تبعيّتها للدولة العباسية من خلال التزام الخليفة العباسي بإرسال كسوة الكعبة ومايتبع ذلك من أمور تتعلق بالخطباء والمؤذنين[4] حيث كان الدعاء فيها على المنابر للخليفة العباسي أبي العبّاس أحمد الناصر[5] يليه أمير مكة المكرمة مكثر بن عيسى ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب [6] ولولي عهده أبي بكر ابن

(١) (الحرابة) هم حاملوا الحراب من الأعراب وهم أتباع أمير مكة المكرمة. انظر ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥٧ ؛ عبدالقدوس الأنصاري : مع ابن جبير في رحلته ، ص ١٨٤.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥٧.

(٣) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٧٤.

(٤) ابن جبير الرحلة ، ص ٥٧.

(٥) أبو العباس أحمد بن الحسن المستضيء بن المستنجد يوسف بن المقتفي محمد بن المستظهر أحمد ابن المقتدر بويع بالخلافة يوم الأحد ثاني ذي العقدة سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م فأخذ الأمر بقوة وكانت وفاته يوم السبت ثاني شوال سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ومدة خلافته ست وأربعون سنة وأحدعشر شهراً وأربعة وعشرون يوماً ، وكان فاضلاً عالماً أديباً حسن الرأي والتدبير حسن السياسة ذا فكرة جيدة يباشر بنفسه الأمور ويطلع على أحوال الرعية وما كان يحتجب على عادة من تقدّمه . انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٦) السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن مروان بن شاذي الحميدي الريديني تولى وزارة العاضد بعد موت عمه أسد الدين شيركوه ولما ملك مصر انقطعت دولة الفاطميين وملك بلاد الشام ودولته أربعاً وعشرين سنة مات بقلعة دمشق في صفر سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م افتتح بسيفه من اليمن إلى الموصل ومن طرابلس الغرب إلى النوبة كان كريماً حليماً رحيماً حسن الخلق متواضعاً صبورا لطيفاً قليل التكبر ويحضر مجلسه الفقهاء والفقراء ، بنى المدارس وسور القاهرة وخلّص بيت المقدس من أيدي الفرنج. انظر المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٣ ـ ١٩.

أيوب[1] ، إلاّ أنّ ابن جبير انفرد بالإشارة إلى ولاية العهد لأبي بكر بن أيوب وذكر اسمه في الخطبة الأمر الذي لم تشر إليه المصادر الأخرى.

والدلالة على التزام أمير مكة المكرمة بالولاء والطاعة لصلاح الدين تنفيذه لأوامره التي تصله بواسطة الرسائل حيث وصلت إحداها أثناء وجود ابن جبير بمكة وأشار إلى مضمون الكتاب ؛ وهو التوصية بالحجاج وحمايتهم من العابثين[2].

وقد أشارت جميع مصادر تلك الفترة إلى نص الخطاب هذا وماتضمن من العمل على رفع الضرائب والمكوس عن الحجّاج وتعويض أمير مكة المكرمة عنها[3].

وعبّر ابن جبير عن خوف أمير مكة المكرمة من الأيوبيين إذ سعى إلى استرضاء صلاح الدين ، ويلاحظ ذلك من خروجه للقاء شقيق صلاح الدين طغتكين بن أيوب المتوجّه إلى اليمن وإقرار الأمور بها على إثر وقوع الخلاف بين أمرائها[4]. وقد وصف ابن جبير اللقاء بأنه يحمل في الحقيقة معنى الخشية والخوف منهم[5]، ومما يؤكد وجهة النظر هذه ما أصدره الخليفة

---

(١) الملك العادل أبوبكر بن أيوب تولى بعد موت الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وكانت وفاته في سابع جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م وعمره خمسة وسبعون وأشهر ، مات بدمشق وكان ذا رأي سديد ومكر شديد خبيراً بالحيل حليماً. انظر المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣ ــ ٢٧.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٧. انظر فيما بعد فحوى الكتاب في الملاحق ، ص ٤٦٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٢ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣١٤ ؛ المقريزي : الخطط المقريزية ، ج٢ ، ص ٢٣٣ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٧٨ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٣٨ ــ ٥٤٠ ، ٥٧٦ ــ ٥٦٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص٢٠؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٧٢.

(٤) انظر تفاصيل الفتنة التي حدثت باليمن من البنداري : سنا البرق الشامي ، ص ١٩١ ؛ أبوشامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٥ ــ ٢٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص ٣٠٩ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٥ ، ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٣٨.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٢٤.

العباسي من مرسوم سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م بإسناد السلطة لصلاح الدين على مصر وبلاد الشام والنوبة وغربي الجزيرة العربية[١].

كما يدعّم هذا الرأي ما أورده أبو شامة وابن واصل مشيراً إلى طلب صلاح الدين من الخليفة العباسي التقليد بذلك قائلاً : "... ثم طلب من الخليفة المستضيء بنور الله[٢] تقليداً جامعاً بمصر والمغرب واليمن وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره ، ولمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده ، تقليداً يتضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً "[٣]. وهذا يعني أن التبعية للدولة العباسية اسمية ولكن الإشراف الفعلي على بلاد الحجاز كان لصلاح الدين ولهذا نلاحظ خشية وخوف أمير مكة المكرمة من شقيق صلاح الدين ، لعلمه التام بقدرتهم على عزله من منصبه وإسناد الأمر لغيره ، فحرص الأمير مكثر على المحافظة على وضعه في البلاد ضماناً لعدم فقد أسرته لكرسّي الحكم فيها.

وقد أفاض ابن جبير في خبر قدوم طفتكين إلى مكة المكرمة سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م حيث مكث فيها سبعة أيام ، وكانت أبنيته خلالها منصوبة بالزاهر ، وقام بزيارة المسجد الحرام برفقة الأمير مكثر ودخل الكعبة المشرفة مرتين إحداهما مع زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل بن عبدالرحمن الشيبي[٤]

---

(١) أحمد عسه : المعجزة المغربية ، ص ٤٤.

(٢) أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي محمد بن المستظهر أحمد بويع بالخلافة بعد أبيه وتلقب بالمستضيء وذلك يوم الأحد سابع ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م كان عادلاً حسن السيرة عم أكثر الناس إحسانه وأسقط الخراج المجدد والضرائب والمكوس وفي أيامه عادت مصر إلى الدولة العباسية بعد سقوط الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين توفي ليلة الأحد ثاني ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م. انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص ٢١٢ ـ٢١٣ ، وحاشية رقم ١، ص ٢١٣.

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٩.

(٤) محمد بن إسماعيل بن عبدالرحمن الشيبي زعيم آل الشيبي وصاحب حجابة الكعبة وقد عزل عن الحجابة لهنات نسبت إليه ثم أعيد إليها سريعاً لأنه فدى نفسه بخمسمائة دينار مكية وذلك في ذي القعدة سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٤١٤.

والأخرى مع الأمير مكثر ، وأغدق الهدايا على الأمير ، ثم أدى صلاة الجمعة بالمسجد الحرام وغادرها إلى اليمن بجنده[1].

ونستنتج من تلك الزيارة مدى حرص أمير مكة المكرمة على مودة الأمير الأيوبي مع ملاحظة فرار الأمير عثمان الزنجيلي[2] من اليمن عند علمه بتوجّه الحملة الأيوبية إليه ، ولجوئه إلى مكة المكرمة[3].

ويبدو أن سيف الإسلام طغتكين قدِم إلى مكة المكرمة في سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م لأمور أوجبت حضوره ودعته للقدوم . وهي المرة التي تناولها معظم المؤرخين بالتفصيل بسبب أحداثها وما قام به من بعض التغييرات التي مكّنته من السيطرة على مكة المكرمة فعلياً بعد أن كان اسمياً، ومن هذه التغييرات :

١ـ سك الدنانير والدراهم باسم أخيه السلطان صلاح الدين.
٢ـ تأديب العبيد المعتدين على الحجاج.
٣ـ إقامة الخطبة باسم أخيه السلطان صلاح الدين.
٤ـ الحدّ من المذهب الشيعي وذلك بإلغاء عبارة حيّ على خير العمل من الآذان[4].

ويبدو أنه خلال وجود الأمير الأيوبي في مكة حدثت وحشة بينه وبين الأمير مكثر ، فقام مكثر في البداية بالفرار منه ، وأخذ مفتاح الكعبة معه ، ولكنه لم يلبث أن عاد وأعاد المفتاح[5]. وبقي مكثر أميراً على مكة المكرمة من قِبَل سيف الإسلام المستولي عليها ، ومما يؤيّد هذا الرأي ما ذكره الفاسي

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) الأمير فخر الدين المعروف بالزنجيلي له مدرسة ورباط بمكة المكرمة عند باب العمرة وسبيل خارج باب الشبيكة في طريق التنعيم وقد وهبها للوقف سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م وكان نائب السلطان صلاح الدين بعدن وخرج منها هارباً عندما دخلها الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وله أيضاً أوقاف كثيرة بالشام توفي سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٤) انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٦٢ ـ ٦٤ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٥٣ ؛ عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص٥٤٧.

(٥) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

وعزالدين بن فهد من أن اسم طغتكين مكتوبٌ على باب زبيد المعروف بباب القُرتب بسبب عمارته له . ومن ألقابه المكتوبة عليه " سلطان الحرمين والهند واليمن "[1] وبذلك أصبح الحجاز في تلك الفترة ضمن أملاك وحكم صلاح الدين[2].

ونلاحظ أن ما أورده ابن جبير مخالفٌ تماماً لما ذكره بعض المؤرخين حول قدومه إلى مكة في سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م فهو لم يُشر إلى حدوث ما يعكّر صفو العلاقة بين سيف الإسلام وبين الأمير مكثر ولم يُشر إلى أمره بضرب دنانير ودراهم باسم أخيه السلطان صلاح الدين ، وكل ما ذكره أن الخطبة كانت تقام بالدعاء للخليفة العباسي ، ثُم الأمير مكثر ، ثم لصلاح الدين ، ونستنتج مما ذكره ابن جبير أن أهل مكة المكرمة يميلون كثيراً لصلاح الدين ، كما أنه لم يذكر إلغاء عبارة حي على خير العمل من الأذان ؛ بل كان مستمراً أثناء وجوده بمكة المكرمة حيث قال :" وللحرم أربعة أئمة سُنّيين وإمام خامس لفرقة تسمّى الزيدية [3] ، وأشراف أهل هذه البلد على مذهبهم ويزيدون في الأذان بحي على خير العمل "[4].

ومما سبق نجد أنه قد حدث خلط لدى بعض المؤرخين حول مجيء سيف الإسلام إلى الحجاز في المرة الأولى والثانية ، حيث أدمجت في مرة واحدة. فالأرجح أنه قصد مكة المكرمة مرتين : الأولى مروراً في طريقه إلى اليمن ، وهذه ذكرها ابن جبير وأيّد حدوثها البنداري والخزرجي [5] ، بينما الفاسي وابن فهد وعز الدين ابن فهد يوردون قدومه في المرتين بأسبابها[6]. أما

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٦٤ ؛ عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص٥٥٠ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ١٧.

(٣) (الزيدية) أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب جعلوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها وكانوا يرون جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبدأ مذهبهم في أول الأمر قريباً من أهل السنة ثم لم يلبث أن انحرف عن الصواب وأخذوا في الطعن في الصحابة وافترقوا فرقاً كل فرقة تخالف الأخرى. انظر الشهرستاني : الملل والنحل ، ج١ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٣ ، ٧٨.

(٥) البنداري : سنا البرق الشامي ، ص ١٩١ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٣٨.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٦٢ ـ ٦٤ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩ ، ٥٥٣ ـ ٥٥٤ ؛ عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩.

أبوشامة وابن خلّكان وأبوالفدا وابن خلدون فيتّفقون مع ابن جبير في الحدث وسببه ويختلفون معه في سنة القدوم ، حيث يذكرون قدومه في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م . ويضيف أبو الفدا حادثة هروب عثمان الزنجيلي في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م [١]. فهذه الحادثة ذكرها ابن جبير في سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م. ونجد أن الجزيري لم يذكر إلاّ خبر مَقدمه للمرة الثانية فقط[٢]. بعد أن نجح في إخماد الفتنه باليمن[٣].

ومن هنا حدث الخلط بين المؤرخين فهو في المرتين ذهب إلى اليمن. لذا نرجّح ما ذكره ابن جبير لمشاهدته الحدث لحظة وقوعه وتسجيله له.

وكما كان الأمير مكثر يخشى صلاح الدين كان أيضاً يخشى الخليفة العباسي . ويبدو أنّ العلاقة بينهما لم تكن على مايرام ؛ إذ يبدو أنه كانت لديه نوايا بالاستقلال التام عن التبعية العباسية ، وأشار ابن جبير إلى ذلك في قوله: من أن أمير مكة المكرمة عيسى أبو مكثر[٤] شيّد حصناً له فوق جبل أبي قبيس

---

(١) أبوشامة . الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٦ ؛ ابن خلكان . وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص ٥٢٣ ؛ أبوالفدا : تاريخ أبوالفدا ، ج٣ ، ص ٦٤ ؛ ابن خلدون . العبر ، ج٥ ، ص ٣٣٤.

(٢) الجزيري . الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٤٨ ـ ٥٤٩.

(٣) انظر فيما تقدم سابقاً ص٧٤ ، هامش ٥ ، ص ١٤٤ ، هامش ١.

(٤) يبدو أن ابن جبير أخطأ في اسم باني الحصن فالذي بناه مكثر وليس والده عيسى. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٩ ؛ ابن فهد . إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٥٠.

(٥) أمير الحج العراقي طاشتكين بن عبدالله المقتفوري مُجير الدين أمير الحرمين والحاج حج بالناس ستاً وعشرين حجة وكان يسير في طريق الحج مثل الملوك. كان شجاعاً جواداً سمحاً قليل الكلام ، توفي سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م بتستر وحُمل في تابوت إلى مشهد علي بن أبي طالب فدفن هناك حسب وصية أوصى بها. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٥٦ ـ ٥٨. وتجدر الإشارة إلى أنه قد حدث خلط ولبس بين أمير الحاج طاشتكين وأخ صلاح الدين طغتكين ، فقد ورد في كتاب أحمد السباعي . تاريخ مكة ، ج١ ، ص ٢٢٢ " أن الخليفة العباسي كلف أمير الحاج طاشتكين أخ صلاح الدين بأن يجلي مكثراً عن مكة المكرمة وأن يهدم حصنه الذي بناه فوق جبل أبي قبيس ". وبالمعنى نفسه ورد هذا الخبر في كتاب سليمان المالكي. مرافق الحج، ص ١١٦ ـ ١١٧ ؛ عائشة باقاسي . بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، ص ٣٩. والصحيح أن من قام بتأديب الأمير مكثر وهدّم حصنه ليس طغتكين بن أيوب وإنما أمير الحج العراقي طاشتكين المقتفوري ، ومن هنا حدث اللبس بين الاسمين خاصة وان كلاهما كانت له صلة بالحجاز والصحيح ما أوردناه. انظر تفاصيل ذلك في بعض المصادر مثل ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ؛ الفاسي . شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٨ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٧١ ـ ٥٧٢.

للتحصّن به مما أدّى بالخليفة العباسي إلى إرسال أمير الحاج العراقي(٥) لهدمه إذ اعتبر ذلك مخالفة من أمير مكة(١).

كما أشار ابن جبيرإلى أنه في السنة التي حجّ فيها تأخّر أمير الركب العراقي عن موعده فأوجست نفوس أهل مكة المكرمة خيفة من حقد الخليفة على أميرهم.

ولم يكن لأمير مكة المكرمة مطلق الحرية في إدارة شئون البلاد ، بل كان رأي الخليفة العباسي الفاصل في الأمور ذات الأهمية الكبرى ، مثل عزله لأحد سدنَة البيت الحرام ؛ وهو محمد بن إسماعيل وتعيينه لآخر مكانه(٢).

ابن جبير واليمن :

تناول ابن جبير جانباً من الأحداث التاريخية الجارية في اليمن لتلك الفترة . فأشار إلى فرار الأمير عثمان بن علي الزنجيلي من عدن إلى مكة المكرمة في شهر ذي الحجة عَقِب علمه بتوجّه الأمير طغتكين إليها . وقد حمل معه من الأموال والذخائر مالا يُعَدُّ ولا يُحصى ، والتي حازها طوال حكمه. فاستطاع الأيوبيون الاستيلاء على جزء منها. بينما حمل العبيد الذخائر والنفائس الخاصة بعثمان ووصلوا بها إلى مكة المكرمة ليلاً وأُدخلت داره . وجمع هذا الأمير أمواله نتيجة لسوء سيرته وسياسته المعروفة عنه في البلاد(٣).

وقام المؤرخون بإيراد بعض التفاصيل عن الأمير عثمان نقلاً عن رحلة ابن جبير(٤). ويبدو أن الدار التي شيدها في مكة المكرمة هما : رباطه أو مدرسته المعروفان واللذان أوقفهما سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م(٥).

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٥.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٩ ، ١٥٧.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٤٩ ، مما يؤكد أهمية الرحلات المغربية والأندلسية لمؤرخي الحجاز في تلك الفترة حيث اعتمدوا في التاريخ لبعض الأحداث على ما ورد في كتب الرحلات وهذا بدوره يؤكد ويشير إلى اشتهارها بين المؤرخين لأهميتها وما حوته من معلومات ذات قيمة كبيرة.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٣٤ ـ ٣٥.

وأشار ابن جبير إلى قيام الأمير عثمان على رأس رجاله بحماية الحجاج من عبث الشعبيين الذين اتخذوا من المضيق الواقع بين مزدلفة وعرفات مكاناً لمهاجمة الحجاج[1]. وقد أجمعت المصادر المؤرّخة لتلك الفترة على ذلك[2].

والملاحظ في رحلة ابن جبير اعتناؤه بالحديث عن مكة المكرمة دون المُدن الأخرى الواقعة في منطقة الحجاز ، ولعل ذلك مردّه إلى طول إقامته بها.

الرحلات عقب ابن جبير :

إن المتتبّع لتاريخ الرحلات المغربية والأندلسية لمكة المكرمة يلاحظ انقطاع تدوينها بعد ابن جبير منذ سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م ولعل هناك رحلات مدوّنة ، ولكن لم يعثر عليها بعد. وعلى العموم استمّر الانقطاع إلى زمن ابن رشيد حيث قام برحلته المعروفة سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، ونستنتج من خلال ما أورده تغّير الأحداث في سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، إذ خضعت مكة المكرمة لحكم أسرة جديدة معروفة بأسرة بني قتادة ، وهم أشراف من ذريّة الحسن ابن علي[3] أيضاً.

وأمّا فيما يتعلق بأحداث العالم الإسلامي فقد سقطت الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م على أيدي التتار. ولم تلبث أن انتقلت إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ /١٢٦٠م وسيطرت دولة المماليك على السلطة في مصر[4]. لم يُعْنَ ابن رشيد كثيراً بتسجيل الحالة السياسية في الحجاز بصفة عامة ومكة المكرمة بصفة خاصة كسابقه ؛ ولكنه أشار إلى اسم أمير مكة المكرمة في ذلك الوقت ؛ وهو الشريف أبونمي محمد بن أبي سعد الحسني. وأن الأوضاع في المشاعر المقدسة غير آمنة بسبب تعّرض بني شعبة للحجيج

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص١٥٠.

(٢) مثل ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٤٩.

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٥.

(٤) الذهبي : دول الإسلام، ج٢ ، ص ١٦٥ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ج٢، ص ٥٢ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٨.

هناك ، وأنّ الحالة الدينية فيما يبدو قد أصابها الضعف ، إذ كثر التعرّض للدعاة والوعّاظ مثل : رضيّ الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني[١]. أحد العلماء الأجّلاء الذي نذر حياته للدعوة وإرشاد الناس إلى الحق ، وكان شديداً على أمير مكة المكرمة في كثير من المواقف التي أدّت فيما بعد إلى سجنه ، ولكن لم يلبث الأمير أن أطلقه من سجنه معتذراً إليه[٢].

ولم يقم ابن رشيد بتقديم المزيد من المعلومات عن الأحوال السياسية لمكة المكرمة أو المدينة المنورة ؛ ولكنه في ترجمته لشيخه أبي اليُمن [٣] أشار إلى ما حدث خارج الحجاز وفي مصر خاصة من نزول الفرنسيين بدمياط عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م . وهو العام المعروف بعام دمياط [٤]. وأيّد وقوع هذه الحادثة في تلك السنة مؤرّخو تلك الفترة[٥].

العبدريّ وبلاد الحجاز :

وصل العبدريّ مكة المكرمة سنة ٦٨٩هـ /١٢٩٠م ولم يُشر إلى اسم أمير مكة المكرمة مع ملاحظة استمرار أبي نمي أميراً عليها ، وكان تابعاً لسلاطين مصر بحسب الأموال والأعطيات المرسلة إليه ، ولكن متى انقطعت انقطعت بالتالي تبعيّته لهم لاعتباره هذا المال حقاً له. بالإضافة إلى عدم استقرار الأوضاع الأمنية بمكة المكرمة ، ووقوع الفتن بين حجّاج الشام ومصر وأهل مكة المكرمة[٦]. في خلال الموسم والتي أدّت إلى وقوع عدد كبير من الضحايا ، كما حدث في سنة ٦٨٩هـ /١٢٩٠م[٧].

---

(١) انظر ترجمته فيما بعد ، ص ٤٧٥.

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٨٧ ، ٩٦ ، ١٣١.

(٣) أنظر ترجمته فيما بعد ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٤٥ ، ٢١٨.

(٥) أبوالفدا : تاريخ أبوالفدا ، ج٣ ، ص ١٧٨؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص ١٢٥؛ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٢٦٣ ؛ المقريزي : الخطط المقريزية ، ج٢ ، ص ٢٣٦ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ص ج١ ، ص ٢٧٧.

(٦) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١١١ ـ ١٨٧.

(٧) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص١٢٠ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٦٠٩.

التجيبي السبتي وبلاد الحجاز :

وصل التجيبي إلى مكة المكرمة سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م خلال حكم أبي نمي لها ، وأشار إلى مدى إحكامه السيطرة على الأوضاع فيها ، والتحصينات التي أعدها لمواجهة أعدائه . ومن ذلك الحصن الذي شاهده التجيبي ويدعى بالجديد في مكان يسمى البرابر[١].

ومما ذكره التجيبي عن أبي نمي نستشف منه أنه قد وقعت بينه وبين الأشراف خلافات أدّت إلى حروب كثيرة . اضطر لخوضها في سبيل تدعيم سلطته على البلاد ، وفي سبيل ذلك أنفق الأموال الكثيرة ، وقام ببيع الصفائح الفضية المستخدمة في تزيين أعمدة الكعبة ، علاوة على مابجسده من آثار ضرب السيوف وطعن الرماح[٢]. الدالّة على كثرة الحروب التي خاضها من أجل تثبيت حكمه.

ولهذا انعكست آثار تلك الحروب على مكة المكرمة وأدّت إلى عدم استقرار الأوضاع فيها كما أشار بعض المؤرخين إلى ذلك[٣].

ونلمس حرص التجيبي على إتمام صورة الحالة السياسية لمكة المكرمة في رحلته . حيث أنه لم يكتف بما قاله عن أوضاعها وقت وجوده فيها ، إضافة إلى ما سمعه وشاهده ؛ بل عمد إلى تقصّي الحقائق السابقة لبداية حكم أسرة بني قتادة ، مشيراً إلى أنّ ولاية أبي عزيز قتادة بن إدريس الحسني[٤] جدّ

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٢ ؛ (البرابر) عين كانت جارية بمّر الظهران. انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج١ ، ص ١٩٦.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٥٨ ، ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٤٥٦ ـ ٤٧١ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٧٦ ـ ١٢٦ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٩٨ ـ ٦١١.

(٤) قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبدالله ابن محمد ابن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يكنّى أبا عزيز الينبعي المكي صاحب مكة وينبع وغيرها من بلاد الحجاز ، ولي مكة المكرمة عشرين سنة أو نحوها على خلاف في مبدأ ولايته هل هي سنة ٥٩٧هـ أو ٥٩٨هـ أو ٥٩٩هـ/ ١٢٠٠ أو ١٢٠١ أو ١٢٠٢م ، ملك ينبع وصارت له على قومه رئاسة فجمعهم ، وملك بهم وادي الصفراء ، وطمع في إمرة مكة المكرمة فملكها من الأمير مكثر بن عيسى ، وحارب أمير المدينة سالم بن قاسم الحسيني ، وكان أبو عزيز في بداية أمره حسن السيرة صافي السريرة ، ولكن تغيّرت حاله وساءت معاملته للحجاج، وأكثر المكوس والتغريم بمكة ، كان أديباً شاعراً توفّي سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م بمكة. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٣٩ ـ ٦١.

الأمير أبي نمي تمّت عقب موت الشريف مكثر بن قاسم [1] سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م [2]. ويُفهم من قول التجيبي أن إمارة مكة المكرمة لم تستقر لأبي عزيز إلاّ بعد موت الشريف مكثر ، وهذا يؤيد ماصرّح به الفاسي والعصامي من أن الشريف أبي عزيز ورث ملك مكثر[3].

وأضاف التجيبي مشيراً إلى اتّساع ملك أبي عزيز قتادة بشكل لم يكن من قبل ، وهذا موافقٌ لما ذكره ابن خلدون من أنّ ملكه استفحل واتّسع إلى نواحي اليمن[4]. كما أفاد القلقشنديّ أن ملك أبي عزيز تعاظم حتى ملك مع مكة المكرمة والينبع أطراف اليمن وبعضاً من أعمال المدينة وبلاد نجد[5].

وامتدت ولاية أبي عزيز على مكة المكرمة إلى سنة ٦١٧هـ /١٢٢٠م وقيل ٦١٨هـ / ١٢٢١م وبلغ التسعين من العمر وقيل في سبب موته أن ابناً له يُدعى الحسن بن قتادة [6] قام بقتله خنقاً بالتواطؤ مع جارية وعبد له[7]. ثم قتلهما لإخفاء جريمته[8]. وهذا مطابقٌ لما ذكره ابن خلدون والفاسي[9]. بينما أشار ابن الأثير إلى مقتله فقط [10]. في حين ذكر ابن فهد والعصامي أن أبا عزيز مات مسموماً[11].

---

(١) يبدو أن التجيبي أخطأ في اسم والد مكثر فهو مكثر بن عيسى وليس بن قاسم. انظر المصدر السابق، ج٧ ، ص ٢٧٤.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٥٣ ــ ٥٤ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢١٣.

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٥.

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٧٧.

(٦) حسن بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسني يكنى بأبي عالي ويلقب شهاب الدين أمير مكة المكرمة بعد أبيه نحو ثلاث سنين قتل أباه وأخاه وعمه ولكنه لم يستمر في حكم مكة إذ أخرجه منها الملك المسعود سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م وكان سيء العشرة والسيرة ظلوماً مقداماً ، وهو الذي قتل أمير الحاج العراقي اقباش سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م وأحدث بمكة اموراً منكرة فأريد القبض عليه فخرج منها هارباً وقصد الشام فلم يلتفت إليه فتوجه إلى العراق ووصل بغداد فتوفي هناك سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ١٦٦ ــ ١٧٤.

(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥.

(٨) العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢١٣.

(٩) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٥ ــ ١٠٦ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٢١٣.

(١٠) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٢٤٦.

(١١) عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٧٥ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢١٤.

أكمل التجيبيّ حديثه عن الحسن بن قتادة بأنه تولّى حكم إمارة مكة المكرمة عَقِب وفاة أبيه ، ولكنه لم يتمتّع بالملك حيث استدعاه أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبو العباس إلى بغداد فاعتقله بها ومات في سجنه(١). ولم يشر الفاسي وابن فهد والعصامي إلى خبر اعتقاله ، ولكنهم أجمعوا على وفاته في بغداد(٢).

واستمر التجيبي في الحديث عن أسرة أبي نمي وسيطرة صاحب اليمن(٣) على الأمور في مكة المكرمة إلى أن قتل(٤) . وهنا خالف التجيبي جميع المصادر التي لم تذكر مقتل الملك المسعود بينما أشارت إلى إصابته بفالج عطّل يديه ورجليه وأدركته المنيّة سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ودُفــن بمكة(٥).

وبعد موت الملك المسعود سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م تولّى أمر مكة المكرمة والحجاز الشريف أبو سعد الحسن(٦) والد أبي نمي وذلك في سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م (٧). وهنا نجد انقطاعاً تاريخياً في تسلسل الأحداث مدته اثنتان

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ١٧٣ ؛ عز الدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٩٢ ؛ العصامي: سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢١٦.

(٣) يوسف بن محمد بن أبي بكر محمد بن أيوب الملك المسعود بن الملك الكامل أبي المعالي ابن الملك العادل صاحب اليمن ومكة دخلها وانتزعها من حسن بن قتادة سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م وقيل ٦١٩هـ / ١٢٢٢م توفي ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م وكان مولده في ربيع الآخر سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م. انظر عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٨٩ ــ ٥٩٥.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥.

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٦ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ٤٩٤ ؛ عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٩٢ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢١٦ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٣، ص ٥٩٠.

(٦) الحسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم الحسني المكي أبوسعد صاحب مكة وينبع ولي إمرة مكة نحو أربع سنين استولى عليها من صاحب اليمن وقوي أمره بها بموت صاحب اليمن المنصور ، ودامت ولايته عليها إلى أن قتل بسبب غروره. كان فاضلاً طيباً شديد الحياء جمع الشجاعة والكرم والعلم والعمل أديباً بارعاً إلاّ أنه نزع بآخره إلى هوى نفسه . قتل في أوائل رمضان سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م أو لثلاث خلون من شعبان. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٦٠ ــ ١٦٣.

(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥.

وعشرون سنة لم يشر إليها التجيبي بأية معلومات عمن تولّى إمرة مكة المكرمة خلالها . إلاّ أنه ذكر أن أبا سعد الحسن ظلّ حاكماً لها بالعدل وحسن السيرة في أهلها حتى دَبَّ الخلاف بينه وبين أقاربه مما أدى إلى استعانتهم بالناصر ابن عبدالعزيز[1] سلطان الشام ، فأرسل إليه جيشاً كبيراً يقال إنه بلغ عدد الجمال فيه نحو مائة وثلاثين ألف جمل في سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م فقُتل رحمه الله على أيدي أبناء عمومته من آل إدريس بن حسين بن قتادة وأخويه جماز[2] وأحمد[3] وقد أورد التجيبي كيفية اغتياله فذكر أن أخويه جماز وأحمد كانا برفقة بعض أبناء عمّهم إدريس بن حسين ، وذلك في منزل أخيهم الحسن المكّنى أبا سعد ، وقد رتب أحمد لمقتله بالاتفاق مع أخ له من الرضاعة الذي داهمه بخنجر أخفاه لذلك ، إلاّ أن أبا سعد تنبّه لهذه المؤامرة فكادت أن تفشل لولا ان استنجد القاتل بأخيه أحمد فبادر أحمد إلى الإجهاز على أخيه الحسن وقعد جماز في الإمرة مكانه وعزم على قتل أبي نمي[4] ، فبلغه ذلك ، فكاتب عمّي أبيه إدريس[5] وراجح[6] ابني أبي عزيز قتادة ، ليستعين بهما على حرب

---

(١) يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي السلطان الملك الناصر صلاح الدين ابن الملك العزيز ابن الملك الظاهر ابن الناصر صلاح الدين صاحب حلب ثم الشام ولد بقلعة حلب في رمضان سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م وقتل سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م تولّى الملك بعد موت والده سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م وكان الأمر كله لجدّته الصاحبه صفيه خاتون ولما توفيت سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م أشتدّ أمره واستولى على حمص ودمشق وقصد مصر وكان سمحاً جواداً حليماً حسن الأخلاق محبباً إلى الرعية فيه عدل وصفح ومحبة للفضلاء والأدباء ، وقد ضمن له الفرنج أخذ مصر مقابل تسليمهم القدس فرفض ووردت الأخبار في منتصف صفر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م بقدوم التتار إلى حلب وأخذها بالسيف فهرب وزال ملكه ودخل التتار دمشق بعد بيوم وجاء التتار بالأمان فبقي في ذل وهوان ، ثم قتل بالسيف عقب موقعة عين جالوت. انظر الكتبي : فوات الوفيات ، ج٤ ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٦.

(٢) جماز بن حسن بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الشريف الحسني أمير مكة ، وليها بعد قتله لأبي سعد الحسن. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج٢ ، ص٢٥٠.

(٣) لا توجد له ترجمة في المصادر التي تناولناها.

(٤) يبدو أنه خاف منه لقوّته فقد درج الأشراف على تولية الأمارة أكثرهم قوة.

(٥) إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني أمير مكة المكرمة ولي إمرتها نحو سبع عشرة سنة شريكاً لابن أخيه أبي نمي وانفرد بها يسيراً وقتل بيد أبي نمي بسبب ولدٍ قتله سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٣٧٨.

(٦) راجح بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الشريف الحسني أمير مكة وليها أوقاتاً كثيرة توفي سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ٣٠٣.

ابن عمه فأجاباه وقدِما إليه وبرفقتهما عبد لأبيه يدعى ياقوت الذي كان والي جُدة فأمدّه بالمال ، حيث استفاد منه في جمع العرب حوله وسار بهم إلى مكة المكرمة ، فوصل خبرهم لجماز الذي فرّ هارباً إلى ينبع[1]. واستقرّ بها حتى مات ، ودخل أبو نمي وعماه وغانم بن راجح[2] مكة المكرمة في ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م واتفقوا على جعل أبي نمي وإدريس هما المتوليان لأمرها واستمرّت الأمور على هذا الوضع إلى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م عندما أقدم إدريس على قتل زوج ابنته زيد بن أبي نمي في الحرم فانعكس أثر ذلك على أبي نمي بالخوف ففرّ إلى ينبع[3] مستجيراً بصاحبه إدريس العربي[4] ، فحشد جيشاً كبيراً سار به إلى مكة المكرمة ودخلها عنوة وقتل إدريس بيده انتقاماً لمقتل ابنه. وقامت العرب بنهب أوقاف الحرم الشريف من كتب وخلافه ، واستبّد الشريف أبو نمي بالأمر في سنة ٦٦٩هـ /١٢٧٠م ولم يزل كذلك إلى وفاته سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م[5].

والواقع أن ما أورده التجيبي حول كيفية تولّي أبي سعد الحسن إمارة مكة المكرمة موافق لما ذكره الفاسي على الرغم من اقتضاب السرد لدى التجيبي حول سيطرة أبي سعد على مكة المكرمة مع ملاحظة أنه سنّيّ المذهب ، وهو مالم يُشر إليه أحدٌ من المؤرّخين كالفاسي مثلاً[6].

---

(١) (ينبع) على يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر على ليلة من رضوى ومن المدينة على سبع مراحل وهي لبني الحسن بن علي ، يسكنها الأنصار وجهينه وليث وفيها عيون عذبه غزيرة ، وواديها يليل بها منبر وهي قريه غنّاء بها حصن ونخل وزرع وبها وقف لعلي بن أبي طالب يتولّاها ولده وهي بين مكة والمدينة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

(٢) غانم بن راجح بن قتادة بن إدريس الشريف الحسني المكي أمير مكة تسلم البلاد من أبيه سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م فاقام بها إلى شوال وأخذها منه أبونمي وإدريس بن قتادة. أنظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج٢ ، ص ٥١٨.

(٣) يبدو أنها ملجؤهم الاختيارى لوجود أنصارهم بها فمتى ألمّت بهم شدّة عادوا إليها لتجميع قوّتهم والعودة مرّة أخرى إلى مكة.

(٤) لايوجد له اسم في كافة المصادر التي تناولناها ، ولعله يكون أحد أقاربه الحسنيين.

(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٦٠ ـ ١٦٣.

وقد سبق وأشرنا إلى إغفال التجيبي للفترة الممتدة مابين وفاة الملك المسعود إلى تولية أبي سعد الحسن . ولعلّه قصد الإشارة إلى المتولّين من أسرة أبي نمي.

أما المؤرّخون الذين أرّخوا للحجاز فقد أفاضوا في ذكر كيفية استيلاء أبي سعد الحسن على مكة المكرمة[1]. بينما أغفل ابن خلدون ذلك[2].

وقد أورد التجيبي خبر مقتل أبي سعد الحسن بشكل مفّصل ، ممّا يوحي باستقائه الخبر من مصادر موثوقٍ بها ، وسكت عن ولاية راجح بن قتادة لمكة المكرمة ومن بعده ابنه غانم ، ولكنه أعاد القول في شأن استنجاد أبي نمي بعمي أبيه إدريس وراجح ، ودخولهم مكة المكرمة ، وانتزاعها من جماز ابن حسن. أمّا الفاسي وابن فهد والعصامي فقد أفاضوا في كيفية مقتل أبي سعد، وذكروا أنّ الشريف جماز بن حسن ذهب إلى دمشق طالباً مساعدة الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي الأيوبي لاسترجاع مكة المكرمة من ابن عمه أبي سعد الحسن بن علي وأبدى استعداده بقطع الخطبة فيها للمظفّر[3] صاحب اليمن والخطبة له مرغّباً إياه في مساعدته ، فاستجاب له وسيّر معه جيشاً انتصر به على ابن عمه وتمكّن من قتله في الحرم ولكنه لم يلبث أن نقض عهد الناصر وخطب للمظفر صاحب اليمن ثم استولى عمّه راجح ابن قتادة على الحكم بلا قتال وفرّ جماز هارباً إلى ينبع. وكان استيلاء جماز على مكة المكرمة وقتل أبي سعد سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م وفي ربيع الأول سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م قام غانم بإخراج والده راجح من مكة المكرمة بلا قتال وأقام بها وقتاً قصيراً ولم يلبث أن استولى أبو نمي محمد بن أبي سعد وإدريس ابن

---

(١) الخزرجي :العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ؛ ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص٢٦٦؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ،ص ٦٨ ـ ٦٩ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٩٧؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ،ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٦.

(٣) يوسف بن عمر بن علي بن رسول الملك المظفر أبو المنصور صاحب اليمن توفي بها في شهر رجب سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج٢ ، ص ٨٠٤.

قتادة على الحكم عَقِب قتال مع غانم ، وظَلّ في مكة المكرمة إلى شهر ذي القعدة . ثم قام المظفّر صاحب اليمن بالسيطرة على مكة المكرمة ، وعيّن عليها مبارز الدين ابن برطاس(1) . ولم يستقم له الأمر إذ استطاع أبو نمي وإدريس وجماز بن شيحة(2) أمير المدينة استعادة مكة المكرمة من صاحب اليمن ، عَقِب حصار شديد وقتال عنيف وسط مكة المكرمة في سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م.

أحكم أبو نمي سيطرته على الأمور في مكة المكرمة ، ويبدو أن إدريس كانت له تطلّعات لمشاركة أبي نمي في حكم البلاد ، فلما استبّد أبو نمي بالأمور أصابت إدريس خيبة أمل فتوجّه إلى أخيه راجح الذي قام بتقريب وجهات النظر بين إدريس وأبي نمي نتج عنها اشتراكهما في إدارة شؤون البلاد.

وفي سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م استطاع أولاد حسن بن قتادة السيطرة على مكة المكرمة لمدة ستة أيام ، ولكن أبا نمي نجح في استعادتها منهم دون قتال.

وفي سنة ٦٦٩هـ /١٢٧٠م ، وعلى إثر مقتل ابن الشريف أبي نمي وقع الخلاف بينه وبين عمه إدريس فقام أبو نمي بالفرار إلى ينبع مستنجداً بصاحبها حيث جمع جيشاً كبيراً قصد به مكة المكرمة عَقِب أربعين يوماً من مقتل ابنه ، فالتقى بعمّه إدريس بخليص(3) وتحاربا ، فطعَن أبو نمي إدريس وألقاه عن جواده ، ونزل إليه وجزّ رأسه واستبّد بالإمرة في مكة المكرمة (4). وقد

---

(1) علي بن الحسين بن برطاس ، الأمير مبارز الدين أمير مكة وليها للملك المظفّر صاحب اليمن ، وأخذها من الشريفين أبي نمي وإدريس بن قتادة في شوال سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م. عاد إلى اليمن بعد أن هزمه الأشراف. أنظر عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص ٤٤ ـ ٤٦.

(2) جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنّا الشريف عزالدين الحسيني أمير المدينة ثم أمير مكة ، أخذها من أبي نمي محمد ثم رحل عنها بعدما حكمها في سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م وعاد إلى المدينة واستمّر بها إلي أن توفي سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص٢٥٠. ويظهر أن أمراء مكة وأمراء المدينة يقوم بينهما تعاون إذا ما ألمّ بهم خطب أو تعدّى عليهم أحد ، وهذا مثال لما كان يحدث.

(3) (خليص) حصن بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٨٧.

(4) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص١٦٠ ـ ١٦٣ ، ج٣ ، ص ٤٣٥ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٧٤ ـ ٩٩ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص٢٢٠.

أشار ابن خلدون والقلقشندي والجزيري إلى مقتل إدريس بالحرم[1]. ولعلّ المقصود هنا أن القتل تمّ داخل مكة المكرمة.

وقد ذهب الخزرجي ويحيى بن الحسين إلى أن أبا سعد قتل في داره وقاتلهُ حماد بن حسن[2].

أما ابن ظهيرة فذكر أن جماز أحد قتلة أبي سعد ، ولكن دون إيراد تفاصيل في ذلك[3]. ويبدو من تعدد الروايات أن جماز بن حسن قد استنجد بالناصر الذي أمّده بقوّة طامعاً في ذكر اسمه على منابر الحرم ، ولكن لا نستطيع الجزم بكبر حجم المساعدة كما ذكر التجيبي خاصة وأن أوضاع العالم الإسلامي وبلاد الشام لا تسمح بإرسال مثل هذا المدد الكبير نظراً لكثرة تهديدات التتار لمقّر الخلافة العباسية في بغداد.

وفي روايات تشير إلى أن الشريف أبا نمي استنجد بعمّه إدريس حيث استعاد مكة المكرمة من غانم بن راجح بالقوّة سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م[4] . بينما تشير روايات أخرى إلى عدم حدوث ذلك[5].

وأغلب الظن أن المقصود هنا ليست هذه الحادثة خاصة وأن التجيبي ذكرها في سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م في ذي الحجة ، ولكن المراد هنا هو دخول الشريف أبي نمي وعمه إدريس إلى مكة بعد قتالهم للأمير مبارز الدين ابن برطاس وإخراجه منها[6].

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٧٨ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٩٨.

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ١٠٢ ؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ج١ ، ص ٤٣٩ ، ولعل ذلك تصحيف الكاتب من جماز إلى حماد.

(٣) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ١٩٣.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٤ ؛ ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج٢ ، ص٥١٨ ؛ عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج٢ ص١٠ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٩٨ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٧٨.

(٦) عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص ٤٤ ـ ٤٥.

وقد أكدت المصادر هذه الحادثة إذ أثبتت ولاية المبارز علي بن الحسين ابن برطاس من قبل المظفر بن المنصور صاحب اليمن ، إذ جهزه على رأس جيش كبير ومائتي فارس وسيره إلى مكة المكرمة فالتقى مع الشريف أبى نمي وإدريس في معركة كان الظفر فيها لابن برطاس الذي أحكم سيطرته على مقاليد السلطة بمكة المكرمة سنة ٦٥٣هـ /١٢٥٥م ثم لم تلبث أن وقعت الحرب مرّة أخرى بين الشريف وابن برطاس فتمكّن الشريف من أسر عدّوه ، ولكنه استطاع افتداء نفسه وترك مكة بمن معه(١).

أما ما كان من أمر أبي نمي وعمه إدريس وقتل ابن أبي نمي زيداً ، فقد أشارت المصادر في حوادث سنة ٦٦٩هـ /١٢٧٠م قتل أبي نمي لعمّه إدريس عقِب خروجه من مكة المكرمة بأربعين يوماً بعد انفراده بالإمرة(٢).

أمّا عن سيرة أبي نمي وسنة وفاته التي ذكرها التجيبي ، فقد أجمعت عليها المصادر التي أرّخت لوفاته وكانت سنة ٧٠١هـ / ١٢٠١م(٣).

ومما سبق نلاحظ انفراد التجيبي بايراده لبعض الأحداث دون غيره من المصادر . منها ذكره لاسم صاحب ينبع الذي استنجد به الشريف ، واسم العبد الذي كان لأبيه ، وما أعطاه له من أموال ساعدته على استرداد إمارة مكة وغيرها من الأمور. ولعل ذلك راجعٌ إلى قرب التجيبي من الأحداث أو أنّه سمعها ممّن عاصر تلك الوقائع فدونها عنه بأدق تفاصيلها بشكل لم يرد لدى غيره من الكتاب.

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ١١٢ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ١٩٥ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢٢١ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٥٩٩. وذكر الجزيري أن أبا نمي طعن عمه يحيى ، وهذا خطأ منه فهو إدريس وليس يحيى.

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ص١٥٩ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ؛ العصامي :سمط النجوم ، ج٤، ، ص ٢٢٣ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج ١ ، ص ٦٠٣.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص٤٧٠ ــ ٤٧١ ؛ ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج٢ ، ص٦١٢ ؛ عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص ٣٨ ــ ٣٩.

ولا يعني أن كل ماورد ذكره في رحلته عن حالة مكة المكرمة السياسية يمكن الأخذ به ، بل وجدنا معلومات احتاجت منا إلى بيان ورد إيضاحه في مكانه. ولا يتنافى ذلك مع إيراده لأحداث ووقائع لم ترد في كافة المصادر التاريخية أشار إليها أصحابها دون تفصيل ووضحت الصورة أكثر بما أورده التجيبي حولها ؛ إذ أفاض في كيفية وصول الحكم لأبي نمي ، ولم يكتف بنقله لما سمعه من أحداث؛ بل ذكر ما شاهده وسمعه هو أيضا ، فساعد في إكمال صورة الحالة السياسية في تلك الفترة. وهنا تبرز أهميته كمصدر معاصر لبعض الأحداث السياسية في مكة المكرمة.

ولا شك أن حرص التجيبي على تقصيّ أوضاع مكة المكرمة السياسية في رحلته استمرّ حتى عِقب عودته إلى وطنه ، عندما أعاد تنقيح وكتابة مؤلَّفه . ومما قاله لإكمال هذه الناحية بعد أن أشار إلى ولاية العهد لرميثة[1] ،

ذاكراً أنه بعد وفاة الشريف أبي نمي بعث ملك مصر والشام الملقّب بالناصر ابن المنصور جُملة من العسكر في القافلة المصرية فقبضوا على رميثة وحميضة[2] وقيّدهما وأنزلوهما إلى مصر ، فاعتقلهما بالقاهرة المعِّزية ، وولّى أمر مكة المشرّفة وجهاتها لأخيهما أبي الغيث[3] فَسُرّ الناس بذلك لحُسن سيرته وخوفاً من أن يصيبه مثل ما أصاب أخويه.

---

(١) رميثة بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة بن إدريس الشريف أبو عرادة أمير مكة المكرمة وليها نحو ثلاثين سنة وأزيد في سبع مرات وكانت وفاته يوم الجمعة ثامن ذي القعدة سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ٣٠٦.

(٢) حميضة بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن الشريف عزالدين المكي الحسني أمير مكة ولي إمرتها إحدى عشرة سنة ونصف في أربع مرات إلى أن قتل بمكة في جمادى الآخرة سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م . انظر المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٧٩.

(٣) ابوالغيث بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الأمير عماد الدين الشريف الحسني المكي أمير مكة وليها في موسم سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م شريكاً لأخيه عطيفة ثم عزل في موسم سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م بأخويه رميثة وحميضة ثم وليها في سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م ووصل مكة بجيش كبير وخرج أخواه رميثة وحميضة منها ثم عجز عن مؤونة الجيش فسرّحهم ، فتوجّه إليه حُميضة وانهزم أبوالغيث إلى وادي نخلة وكان ذلك في رابع ذي الحجة سنة ٧١٤هـ / ١٣١٤م. انظر المصدر السابق ، ج١ ، ص ٧٩ ـ ٨٠.

كما أشار إلى أن أهل مكة المكرمة كانوا يثنون على رميثة في ذلك الوقت، أي قبل تولّيه إمارة مكة المكرمة ، ويبدو أنها سياسة سار عليها في سبيل الوصول للإمرة ، وما أن تحقّق له ذلك حتى انقلبت الأمور وأساء السيرة في الناس.

وتميز حميضة بالشجاعة والإقدام والكرم إلا أنه كان ميّالاً للثورة ، حتى هابه المجاورون بسبب قوّته وقوة أعوانه من شرار الناس وسرّاق الحجيج وكانوا يرون أنّ الأمر لا يتمّ معه لرميثه[1].

ويتبين لنا أن ما أورده التجيبي قد وقع فعلاً بسبب اختلاف السيرة بين الأخوين ، لذا عمل الناصر على القبض عليهما ، ثم أعادهما إلى مكة المكرمة، وقام حميضة بتولّي أمورها والإحسان إلى الرعيّة[2].

وقد أيّد العصامي ما ذكر من تولية حميضة ورميثة الحكم بعد وفاة أبيهما واستمرارهما شريكين في الإمرة إلى أن وصل الحجّاج وكان بصحبتهم ثلاثون أميراً فتوجّه أبوالغيث وعطيفة[3] بالشكوى إليهم من حميضة ورميثة وأنهما أحق بالملك منهما ، فمال الأمراء إلى جانبيهما وعقب انتهاء موسم الحج قام الأمراء بتولية أبي الغيث وعطيفة شؤون البلاد وحملوا رميثة وحميضة أسيرين إلى مصر فظلاّ بها إلى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م ولكنهّما لم يلبثا أن عادا إلى حكم البلاد عام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م بالعدل وحسن السيرة وقاما بإسقاط بعض المكوس عن الناس[4].

وأشار التجيبي إلى ذلك ولكنه لم يذكر مشاركة عُطيفة لأبي الغيث في الحكم ، وكذلك اشتراك رميثة وحميضة ، بل نستنتج ذلك من خلال أقواله بالمقارنة مع أقوال المؤرخين.

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠٦.

(٣) عطيفة بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الأمير سيف الدين الشريف الحسني المكي أمير مكة وليها مدة طويلة شريكاً لأخيه رميثة ثم مستقلاً بها ، مات خارج القاهرة بالقبيبات ودفن فيها في سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ٤٤٣.

(٤) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص ٢٢٧.

وقد وافق عز الدين بن فهد التجيبي ولكن بتفصيل أوسع في أسباب القبض على حميضة ورميثة وأنه كان تأديباً لهما على ما صدر منهما في حقّ أخويهما عُطيفة وأبي الغيث ، وتّم ذلك سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م واستمّرا في السجن إلى سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م . فلما عادا مّرة أخرى أظهرا العدل وحسن السيرة وقاما بإعفاء الناس من بعض المكوس[١].

وقد أشارت روايات إلى هذه الحادثة ولكن دونما تفصيل في أسباب القبض على الشريفين[٢]. وأورد أبوالفدا خبر اختلاف أولاد أبي نمي بعد وفاته، وتغلّب رميثة وحميضة على مكة المكرمة ، ثم القبض عليهما وإطلاقهما وعودتهما إلى مكة المكرمة مّرة أخرى ، ثم هروب أبي الغيث منها[٣]. و أيد المؤرخون المعاصرون ماسبق[٤].

ومما سبق يتضح أن التجيبي ركّز على أحوال مكة المكرمة السياسية في عهد الناصر دون الإشارة إلى فترة حكم السلطان حسام الدين أبي الفتح لاجين المنصوري[٥] سلطان مصر سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م[٦]. وعلاقاته مع أشراف مكة المكرمة ، ولكن الواضح أن تلك العلاقة كانت أظهر وأوضح في عهد الملك الناصر . والذي بدأ تدخّله في شؤون مكة المكرمة السياسية ظاهراً للعيان، وغدا الأشراف يخشون سلطة المماليك في مصر ، الحريصين على

(١) عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص ٥٣ ـ ٥٦ ، ٧٩ ـ ٨٢.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشي ، ج٤ ، ص ٢٧٨ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص٢٠٠.

(٣) أبوالفدا : تاريخ أبي الفدا ، ج٤ ، ص ٤٧.

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ١٠٧ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، ٢٩٩ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ، ٤٠٤ ، ٥٠٦ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص١٣٤ ـ١٣٥ ، ١٤٠ ـ ١٤٢ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ١٩٥ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص٩١٤ ـ٩١٧ ؛ ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ص ٦٥ ـ ٦٧.

(٥) الملك المنصور لاجين المنصوري بويع أوائل صفر سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م وكان موصوفاً بالشجاعة والحكمة استمرت دولته سنتين وثلاثة أشهر قتل يوم الخميس عاشر ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م. انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج٢ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٨.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٨.

بسط نفوذهم وسيطرتهم على الحجاز لعوامل دينية وسياسية وحملهم لقب خادم الحرمين الشريفين أو حامي الحرمين الشريفين(١). وإحياء الخلافة العباسية بمصر عقب سقوطها في بغداد على يد التتار سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م(٢).

كما تتضح أيضاً بداية الإنهيار لاستقلال الأشراف بمكة بسبب تدخّل الناصر تدخّلاً مباشراً في شؤونها الداخلية ، وعبّر ريتشارد مورتيل عن أسباب التدخّل قائلاً : " فلم يكن يرمي من هذا التدخل الاستيلاء على البلد الحرام وضمّها إلى الدولة المملوكية ، أو النفع المادي ، لكنه قام ببسط نفوذه على إمارة مكة المكرمة والتدخل بين أولاد الشريف أبي نمي ليعيد الأمن إلى مكة المكرمة في سبيل حماية الحجاج "(٣).

وارتبطت مكة بعلاقات مع الدولة الرسولية في اليمن ، وقام حكامها بالدعاء للملك داود المؤيّد بالله(٤) كما أشار إلى ذلك التجيبي(٥). والواقع أنه بمجرد انشغال سلاطين مصر باموره‍م الداخليه يسارع بنو رسول(٦) ملوك اليمن إلى التدخل السياسي وبسط نفوذهم على مكة ابتداءً من سنة ٦٢٨هـ

---

(١) انظر فيما بعد ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٢) انظر الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص ١٦٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص٢٠٠ ـ ٢٠٢ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٣) ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ص ٧١.

(٤) داود بن يوسف بن عمر بن رسول التركماني الأصل اليمني الملك المؤيد عزيز الدين صاحب اليمن ابن المظفر صاحب اليمن ولي بعد أخيه الأشرف في المحرم سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م وكان ملكاً فاضلاً مشاركاً في الفنون مات في ذي الحجة سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ٢٩٧.

(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٢.

(٦) اسم رسول محمد بن هارون بن أبي الفتح بن نوحي بن رستم وهو من ذرية جبلة ابن الأيهم فلما هلك أقام ولده في بلاد الروم مع قبائل التركمان وتكلموا لغتهم وبعدوا عن العرب ، فلما خرج أهل هذا البيت إلى العراق نسبهم من يعرفهم إلى غسّان ومن لا يعرفهم نسبهم إلى التركمان ، وكانوا بيت شجاعة ورئاسة ومحمد بن هارون هذا جليل القدر فيهم فأدناه الخليفة العباسي وأنس به واختصّه برسالته إلى الشام وإلى مصر ، ورفع الحجاب فيما بينهما فأطلق عليه اسم رسول واشتهر به وترك اسمه الحقيقي حتى جهل ثم انتقل من العراق إلى الشام ومنها إلى مصر فيمن معه من أولاده ثم صحبوا الملك المعظم توران شاه إلى اليمن. انظر الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٣٦ ـ ٣٩.

/١٢٣٠م[١] عقب توطيد سلطانهم باليمن . ويشهد على عظم صلتهم بمكة المكرمة ما وجد لملوك اليمن من بعض آثار حميدة وصدقات جارية تصل لأهل مكة المكرمة كما أوضح ذلك التجيبي[٢].

وتطابقت أقوال المؤرخين مع قول التجيبي عند تحدّثهم عن ذلك خلال حوادث سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م[٣]. وقد أشار الفاسي إلى هذه الناحية بقوله : إن الدافع لأبي نمي ، في الدعاء لصاحب اليمن على منابر المسجد الحرام عِظم صلته ، وهو أمر لايقدم عليه أمير لمكة المكرمة إلا بعد معرفة عميقة بمدى الفائدة العائدة عليه من ذلك[٤]. وهو أمر " ليس بجديد في علاقاتهم مع الدول المجاورة لهم وخصوصاً أن مكة المكرمة عانت من تنافس الدولتين العباسية والفاطمية في بسط نفوذهما على الحجاز لصبغ حكمها بالصبغة الشرعية[٥]. فنرى أن ولاء أشراف مكة المكرمة تبع صاحب أكبر صلة . وهو المقدم لذلك في الخطبة والدعاء على المنابر.

وقد ترجم التجيبي لملك اليمن داود قائلاً : إنه أحد العلماء المشهود لهم تولّى بعد موت أخيه الأشرف[٦] سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م وكان عند موت أخيه معتقلاً فأخرج من سجنه وولي الحكم.

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ج١ ، ص ٤١٩ ــ ٤٢٠.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٢.

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٢٧٩ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ ؛ عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص٢٠ ــ ٢٢ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٦١٢ ــ ٦١٣.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٢٦٤.

(٥) بندر بن رشيد الهمزاني : علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم ، ص ١٣٨، رسالة ماجستير .

(٦) عمر بن يوسف بن عمر بن رسول أبوحفص ممهد الدين الملك الأشرف ثالث ملوك الدولة الرسولية في اليمن كان عالماً فاضلاً ، حسن السيرة ، كثير الاطلاع على كتب الأنساب والطب والفلك ، انتدبه أبوه الملك المظفر للمهمّات ، ثم تنازل له عن الملك قبيل وفاته سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤ فاستمّر قرابة السنتين وتوفي بتعز سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م. انظر الخزرجي: العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٢٣٩ ــ٢٥٠ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٥ ، ص ٦٩.

وأشار التجيبي إلى ولاية أبيهما المظفّر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م والموصوف بالخير والفضل والعلم والإيثار خاصة لأهل الحرمين الشريفين ، فله فيهما آثار حميدة ، وصدقات جارية ، ولي بعد مقتل أبيه الملك المنصور[١] عمر ابن علي ابن رسول ، الذي وصل اليمن مع السلطان المسعود أبي المظّفر يوسف ابن الملك الكامل أبي المظّفر محمد بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب ، وكان ذا حظوة لديه فلما مات المسعود في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ترك ابناً صغيراً هو الناصر صلاح الدين يوسف ، وأوصى له بالملك من بعده تحت وصاية الأمير نور الدين عمر[٢] ، فشكرت سيرته وحمدت طريقته وأظهر عنايته بالحرم الشريف وبنى به المدرسة المنصورية وامتدت ولايته إلى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م[٣].

وأشار ابن بطوطة إلى أن مكة المكرمة كانت تتبع السلطان يوسف ابن رسول ملك اليمن المعروف بالمظفر ، حيث عمل على إرسال الكسوة للكعبة المشرفة إلى أن حلّ محلّه في ذلك المنصور قلاوون[٤].

أما ماذكره التجيبي من تولية داود بعد الأشرف ، وما قاله من صفاته فقد جاء موافقاً لما ذكره الخزرجي[٥].

وجاء في غاية المرام أن بني رسول وصلوا اليمن بصحبة الملك المعظّم توران شاه بن أيوب[٦] ، وحظي نور الدين بمكانة كبيرة لدى الملك المسعود حتى

---

(١) عمر بن علي بن رسول محمد بن هارون بن أبي الفتح بن نوحي بن رستم الغساني التركماني من ذرية جبلة ابن الأيهم وهو الملك المنصور نور الدين أبو الفتح صاحب اليمن ، ملكها بعد أن وقعت له أمور وحوادث. قتل في ليلة السبت تاسع ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ، قتله مماليكه. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢.

(٢) الملك المنصور.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٢.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٩.

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٨١ ـ ٨٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣.

(٦) الملك المعظم توران شاه بن أيوب بن شاذي شمس الدولة فخر الدين شقيق صلاح الدين وأكبر إخوانه ، وكان يرى أنه أحق بالملك من أخيه سيرّه صلاح الدين لفتح النوبة سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ثم سيرّه إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م فأخضعها ومات بمصر سنة ٥٧٦هـ /١١٨٠م وكان شجاعاً كريماً حسن الأخلاق حازماً. انظر أحمد بن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، ص٥٠ ـ ٥٥ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٢ ، ص٩٠.

أنابه بمكة المكرمة مرّة واستنابه نيابة عامة باليمن مرتين ، وأوصى له بالمُلك من بعده حتى أنه قال له : " قد جعلتك نائبي في اليمن ، فإن متّ فأنت أولى بملك اليمن من إخوتي لأنك خدمتني ، وعرفت منك النصيحة والاجتهاد ، وإن عشت فأنت على حالك ، وإياك أن تترك أحداً يدخل اليمن من أهلي ولو جاءك الملك الكامل(١) والدي مطوياً في كتاب "(٢) وقد أيّد كلّ ذلك الخزرجي(٣).

ولم تقتصر علاقه أشراف مكة المكرمة بسلاطين مصر واليمن بل تعدّتها إلى بلاد البجة(٤) ، وللدلالة على تلك العلاقة أورد التجيبي أن الشريف أبا نمي أمير مكة له ابن يسمّى زيد المعروف بابن السواكنية ، وأمّه بنت ملك البجة ، صاحب جزيرة سواكن(٥). ويؤيّد ذلك قول ابن بطوطة عندما وصل إلى سواكن قال : إن سلطانها الشريف زيد بن أبي نمي(٦). ويعضد ذلك ماجاء في ترجمة زيد لدى الفاسي فبالرغم من أنه لم يذكر غير اسمه كاملاً وقصيدة ورد فيها ما يؤيّد أن زيداً كان ملكاً بها :

---

(١) محمد بن أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذي السلطان الملك الكامل ابن العادل ، ولد سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م تولّى بعد وفاة والده سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م كان شجاعاً مهيباً ذكياً فطناً يحب العلماء ، وفي أيامه أخذ الفرنج دمياط وملوكها سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م وأخذ الفرنج بيت المقدس مرّة ثانية سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ومات الكامل يوم الأربعاء حادي عشر رجب سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م بقلعة دمشق ودفن فيها ومدّة ملكه عشرون سنة وخمسة وأربعون يوماً. انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج٢ ، ص ٢٨ ـ ٣١ ؛ الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٢٩٩ ـ ٣٢١.

(٢) عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٩٦ ـ ٥٩٨.

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٤٧.

(٤) (أرض البجة) أسفل مصر والبجاة هم جنس من الحبشة وبلادهم بين البحر الأحمر ونيل مصر يسكن عندهم جماعة من العرب من ربيعة بسبب معدن الذهب والبجة من مدن الحبشة ، وليس للبُجة قرى ولا خصب ، وهم بادية يقتون النجب ورقيقهم ونجبهم وسائر ما بأرضهم يقع إلى مصر في جملة التجار المصريين أو ما قدم به بعضهم. انظر ابن حوقل : صورة الأرض ، ص١٥١ ؛ مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ٨٥ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٤٠.

(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٥ ؛ (سواكن) ميناء سوداني على ساحل بحر الجار قرب عيذاب ترفأ إليه سفن الذين يقدمون من جُدة وأهله بُجاة سُود نصارى. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٣ ، ص ٢٧٦.

(٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٥ ؛ زيد بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة ابن إدريس بن مطاعن الحسني يكنى أبا الحارث. انظر الفاسي · العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤.

سواكن أنت ياذا الجود مالكها أحييت بالعدل من فيها فما ندموا
جبرتهم بعد كسرٍ واعتنيت بهم فالناس بالعدل فيها كلهم علموا
سواكن مالها في الناس يملكها إلا أبـو حارث بـالـعدل يحتكم[1]

وورد في ترجمة مبارك بن عطيفة[2] لدى الفاسي أنه ملك سواكن ومات به في سنة ٧٥١هـ /١٣٥٠م[3] ولعل سبب ملكه لها أنّ عمه زيد تولّى حكمها ، وإلا لصعب عليه امتلاكها خاصة وأن البحر الأحمر يفصل بينها وبين الحجاز ، فوجود مُلك لعّمه وبعض اتباعهم سهّل له أمر امتلاكها. ويظهر مما سبق أنها في ذلك الوقت كانت تتبع أمراء مكة المكرمة وهذا مالم يذكره أحدٌ من المؤرخين، ولعل سبب ذلك أنها تبعّيه فردية لأحد الأشراف.

كما امتدت علاقة أمراء مكة المكرمة إلى العراق أيضاً فقد تّم الدعاء على قبة زمزم في سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م لسلطان العراق أبي سعيد[4] في عهد الشريفين رميثة وعطيفة فقد ذكر اسمه في الخطبة أيضاً بعد ذكر الملك الناصر ودُعي له بأعلى قبّة زمزم بعد سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين[5].

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٤٨٣ ــ ٤٨٤.

(٢) مبارك بن عطيفة بن أبي نمي الحسني المكي كان ذا شهامة وإجادة في الرمي ، وكان نائباً عن أبيه بمكة سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م مات سنة ٧٥١هـ /١٣٥٠م شهيداً. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٧، ص ١٢٣.

(٣) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٤) أبوسعيد بن خربند بن أرغون بغا بن هلاوو المغلي ، ملك التتار وصاحب العراق والجزيرة وخراسان والردم ، كان مسلماً حسن الإسلام ، جيد الخط ، جواداً عارفاً بالموسيقا ، مبغضاً للخمور ، وهو آخر بيت هلاوو ، انقضوا بهلاكه. أقام في الملك عشرين سنة وقبل موته بسنة أرسل الركب العراقي إلى مكة فَسلِم وفي السنة التالية جّهزهم فنهبهم العربان ، فسأل عن السبب ، فقالوا له إنهم يقيمون في البراري ولا رزق لهم فجعل لهم مقداراً من بيت المال يكفيهم ، ومات في تلك السنة في ربيع الآخر سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م وتأسف عليه الناصر لما بلغه موته لأنه هادنه وعمرت البلاد في عهده. انظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص ١٣٧ ، ج١ ، ص ٥٠١.

(٥) على بن داود المؤيد بن يوسف المظفر من ملوك الدولة الرسولية في اليمن ، ولد بزبيد وولي الملك بعد وفاة أبيه سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م فاقام سنة ، وخلعه الأمراء والمماليك ، وولوا المنصور فمكث أشهراً وثار بعضهم فاعادوا المجاهد ، وحجّ سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م ، وذهب إلى مصر وأقام أربعة عشر شهراً ، وعاد فانتظم أمره إلى أن توفي بعدن وكان عاقلاً محمود السيرة شاعراً عالماً بالأدب ، مقرّباً للعلماء والأدباء ، محسناً إليهم. ومن آثاره مدرسة بمكة ملاصقة للحرم. انظرالفاسي : العقد الثمين، ج٦ ، ص ١٥٨ ــ ١٧٤ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٤ ، ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧.

ويبدو أن سبب الدعاء لسلطان العراق في ذلك العام عائدٌ إلى كثرة صدقات أهل العراق وسلطانها المبعوثة إلى مكة المكرمة. فقد ذكر ابن بطوطة وقت وجوده بمكة المكرمة في سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م و٧٢٩هـ / ١٣٢٨م وصول أحمد(١) ابن الأمير رميثة ومبارك ابن الأمير عطيفة من العراق حاملين صدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة المكرمة من قِبَل السلطان أبي سعيد ملك العراق ، وفي هذه السنة ذُكِر اسم السلطان أبي سعيد في الخطبة ودُعي له بأعلى قُبّة زمزم. ويذكر ابن بطوطة أن الدعاء لصاحب العراق لم يتكّرر عَقِب تلك السنة(٢).

ولعل هذا الإجراء تعبير عن الشكر والتقدير من أمير مكة المكرمة رميثة لسلطان العراق مع ملاحظة أنه لم يلق قبولاً لدى الأمير عطيفة المشارك له في الحكم. حيث بعث شقيقه منصور(٣) لإطلاع الملك الناصر على حقيقة الأمر. وقد حاول رميثة إعاقة وصول الخبر إليه ، إلاّ أنّ عُطيفة استطاع إيصاله عن طريق جُدّة(٤).

ونجد هنا أن ابن بطوطة قد خالف المصادر في تحديد سنة الدعاء لسلطان العراق ، حيث ذكروا أن السنة التي تم فيها الدعاء لصاحب العراق إنما هي سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م ، ووصل الخبر إلى الناصر بمصر سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م(٥).

---

(١) أحمد بن رميثة بن أبي نمي بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الحسني المكي صاحب الحلة. سافر إلى العراق مرتين في زمن أبي سعيد ابن خربندا ، وعظم شأنه هناك. قتل في الثامن عشر من رمضان سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م. أنظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص٤٠ ـ ٤١.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٧٢ ـ ٢٤١.

(٣) لم نعثر على ترجمة له في المصادر التى تناولناها.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٧٢ ، ٢٤١.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٢٤١ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٥٨ ؛ المقريزي : السلوك ، ج٢ /١ ، ص ١٧٦.

ونجد أن المصادر التي بين أيدينا قد سكتت عن هذه العلاقة ، ولم ترد إشارة إلى ذكر أبي سعيد في الخطبة والدعاء له في تلك السنة. غير أن الفاسي ذكر خبر سفر أحمد إلى العراق مقتضباً(١).

وربما يكون قد حدث خطأ في كتابة السنة لدى هؤلاء المؤرخين ، خاصة لبُعدهم عن الحَدَث ، في حين أن ابن بطوطة شاهد عيان لما حدث. أو أنّه دُعي له مرتين مرة سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م ومرة سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م وفي المرة الأولى ذكرها المؤرّخون ، وأما الثانية فقد أغفلوا ذكرها. واستدرك ريتشارد مورتيل قائلاً : " إنه ليس ببعيد أن السلطان أبا سعيد كان يترقّب الوقت المناسب لتحدي سيطرة المماليك على إمارة مكة المكرمة ، وخاصة أنه كان بين أشراف مكة المكرمة من يؤيّده "(٢).

وإذا كان ابن بطوطة قد تحدّث عن علاقة أشراف الحجاز وخاصة أمراء مكة المكرمة بالمماليك والإمارات الإسلامية الأخرى التي أشار إليها بعض المؤرّخين ، إلاّ أن ابن بطوطة انفرد بإلقاء الضوء على علاقات أخرى أفاض في وصفها ؛ وهي علاقة الأشراف بسلطان مصر الملك الناصر ، والتي اتّضح منها عمق علاقته بمكة المكرمة حتى امتدت إلى قضاتها الذين ارتبطوا معه بصلات جيّدة. حيث كانت صدقاته وصدقات أمرائه تصل إلى يد قاضي مكة المكرمة نجم الدين محمد بن الإمام محيى الدين الطبري وكيله ، والذي تولى توزيع أعطياته على أشراف مكة المكرمة وكبرائها وفقرائها ، وخدم الحرم الشريف ، وجميع المجاورين.

وبالرغم من قوّة الصلة بين سلاطين المماليك في مصر وأمراء مكة المكرمة إلا أنّ صلتهم بملوك اليمن كانت قويّة أيضاً وقد أشار ابن بطوطة إلى الدعاء لسلطان بني رسول وذِكْر اسمه بعد الدعاء للسلطان المملوكي(٣). مما

---

(١) الفاسي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص٤٠ ـ ٤١.

(٢) ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ص ٨٣.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٩ ، ١٦١.

يدل على سياسة الموازنة التي اتبعها أمراء مكة المكرمة للمحافظة على علاقتهم ببني رسول باليمن وسلاطين المماليك في مصر ، إلاّ أنّه يبدو أن علاقتهم بمصر قد شابها نوع من الفتور ، عقِب فتنة أشار إليها ابن بطوطة في حديثه عن علاقة الملك الناصر بأمراء مكة المكرمة الأشراف ، إذ حدث في عام ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م أثناء موسم الحج خلاف بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جندار الناصري[1] بسبب قيام تجار من أهل اليمن بالسرقة ، فرفع الأمر إلى أيدمور الذي أوعز لمبارك ابن الأمير عُطيفة بإحضار اللصوص ، فاعتذر عن ذلك لعدم معرفته بهم. ولعل في هذا إشارة إلى عدم رضى أمير مكة المكرمة عن تدخل أيدمور في شؤون مكة المكرمة وخاصة الحجاج اليمنيين حفاظاً على علاقة مكة المكرمة وأهل اليمن. وأما في حالة وقوع سرقة لأهل مصر والشام فقد تكفّل أمير مكة المكرمة بحلّ الأمر فلم يرض ذلك أيدمور وشتمه وقيل تطاول عليه بضربٍ ودفعٍ لأمير مكة المكرمة ، فوقع ووقعت عمامته فأثار غضب الناس عليه ، ثم ركب أيدمور متوجهاً نحو عسكره ، فلحقه مبارك وأتباعه فقتلوه هو وولده ، فوقعت الفتنة بالحرم ، وتصادف فيه وجود الأمير أحمد قريب الملك الناصر ، وتدخّل الترك في القتال فقتلوا امرأة قيل إنها عملت على تحريض أهل مكة المكرمة على القتال ، واشتدت الفتنة ، وحاول القاضي وأهل مكة إيقاف ما حدث وعقد الصلح ودخل الحجاج مكة المكرمة فأخذوا أمتعتهم ورحلوا إلى مصر. وبلغ الخبر الملك الناصر فاستاء لذلك ، وسيرّ عساكره إلى مكة المكرمة ففرّ الأمراء عُطيفة وابنه مبارك ورميثة وأولاده إلى وادي نخلة ، فلما وصلت عساكر الناصر إلى مكة المكرمة بعث الأمير ابناً له يطلب الأمان،

---

(١) إلدمر أحد الأمراء بالقاهرة في الأيام الناصرية كان أمير جندار وحج بالناس فثارت بمنى فتنه فقتل فيها هو وولده خليل في يوم عيد النحر سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م. ومن العجب أن الناس تحدثوا بالقاهرة بما جرى له يوم العيد سواء. أنظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٤٠٧. ونجد هنا اختلافاً في موعد وقوع الفتنة ومكانها كما وجد اختلاف في اسمه بين المؤرخين الذين تناولوا هذه الحادثة.

فبذلوه لهم فحضر إليهم بكفنه منتظراً الموت ولكن مبعوث الناصر خلع عليه وأعاده إلى الحكم(١).

وذكر بعض المؤرخين في حوادث تلك السنة الفتنة ولكن دون تفصيل(٢). أما الفاسي فلم يذكر سبب الفتنة التي أشار إليها ابن بطوطة وأورد قائلاً :" إنه في سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م يوم الجمعة عند طلوع الخطيب المنبر حصلت شوشة ودخلت الخيل المسجد الحرام وفيهم جماعة من بني حسن ملبين غائرين، وتفّرق الناس ، وركب الأمراء من المصريين وكانوا ينتظرون سماع الخطبة فتركوها ، وركب الناس بعضهم بعضاً ونُهبت الأسواق ، وقتل من الخلق جماعة من الحجاج وغيرهم ، ونُهبت الأموال ، وصليت الجمعة والسيوف تعمل والقتل بين الترك والعبيد والحرامية من بني حسن ، وخرج الناس إلى المنزلة(٣) ، واستشهد من الأمراء سيف الدين الدمر أمير جاندار وولده خليل ومملوك لهم أمير عشرة يعرف بابن التاجي وجماعة نسوة وغيرهم من الرجال ودخل الأمراء راجعين بعد الهرب إلي مكة المكرمة لطلب بعض الثأر وخرجوا فارين مرة أخرى، ثم بعد ساعة جاء الأمراء خائفين وبنو حسن وغلمانهم فلما اشرفوا على ثنية كَداء من أسفل مكة المكرمة فَأمُر بالرحيل ولولا أن سلم الله الناس كانوا نزلوا عليهم ولم يبق من الحجاج مخبر ، فوقف أمراء المصريين في وجوههم وأمر بالرحيل فأختبط الناس مما دفع أكثرهم لترك ماثقل من أحمالهمْ ونهب الحاج بعضه بعضاً ووقع الخبر بذلك بالقاهرة في نفس اليوم سواء "(٤).

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٢.

(٢) ابوالفدا : تاريخ ابو الفدا ، ج٤ ، ص ١٠١ ــ ١٠٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص١٤٩ ــ ١٥٢ ؛ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٤١٨ ــ ٤١٩ ؛ عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص٩٠.

(٣) ربما يكون مكان نزول الركب بمكة المكرمة.

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣٩٢ ــ ٣٩٣.

أما ابن تغري بردي فأشار إلى مقتل الأمير الدمر بمكة المكرمة على أيدي بعض العبيد الذين قاموا بسرقة أموال ومتاع بعض حجاج العراق ، فاستجار الناس بالأمير الدمر الذي تخلّف عن الركب لأداء صلاة الجمعة ، فهبّ مع ابنه للدفاع عنهم وضرب العبيد ، ولكن تمكنّ العبيد من قتل ابنه فاشتدّ حنقه عليهم وعزم على الفتك بهم ، وعندئذ حمل العبيد عليه و قتلوه ، وعمّت الفوضى ونُهبت الأسواق ، ووقع عددً كبير من القتلى ، وحاول الأمراء المصريون الاقتصاص لتلك الفعلة ففشلوا ، ثم عادوا إلى مصر وأطلعوا السلطان قلاوون بذلك فسيّر إلى مكة المكرمة عسكراً كثيفاً للاقتصاص لمقتل الدمور وابنه ، وأوقعوا القتل في العبيد ، وفرّ أشراف مكة المكرمة ، ونُهبت أموالهم ، وسيطر الأتراك على البلاد في ذلك العام ، وفقد الأشراف سطوتهم وهيبتهم ، وعندما قام الملك الناصر بأداء فريضة الحج كان استقباله لأشراف مكة المكرمة يشوبه الفتور مع تواضع الملك للفقهاء والعلماء(١). غير أن المقريزي وابن فهد والجزيري أشاروا الى أن أساس حدوث الفتنة من تدبير الملك الناصر ليقتص من أمير الركب العراقي الذي ناله بما يكره ، فأسّر ذلك في نفسه ، ولما بلغه مسير أمير الركب العراقي إلى مكة المكرمة كتب إلى الشريف عُطيفة ابن أبي نمي سرّاً للتخلّص منه ، فلم يجد بُدّاً من امتثال ما أُمر به وأطلع ولده مبارك بن عُطيفة ومن يثق به على ذلك، وتقدم إليهم بإعمال الحيلة فيه فلّما قضى الحاج النسك تأخرّ أمير الركب العراقي والأمير الدمر وولده والأمير أحمد ابن خالة السلطان الناصر لأداء صلاة الجمعة مع بقية حجاج مصر فلما حضروا للصلاة وصعد الخطيب المنبر حانت لحظة تنفيذ الخطة الموضوعة ، فقام العبيد بإثارة الفتنة بين الناس وهدفهم حجاج العراق ، فخطفوا شيئاً من أموالهم بأحد أبواب المسجد الحرام المعروف بباب إبراهيم ، وكان الشريف عُطيفه جالساً إلى جوار الدمر فصرخ الناس بالدمر ، ولم يكن لديه علم بما كتب به السلطان إلى الشريف عُطيفة ،

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

وقد عرف عن الدمر شجاعته وحدّة مزاجه وقوّة شخصيته ، فنهض وجماعتة من المماليك على صراخ الناس وقام بإهانة الشريف وسبّه وقبض على بعض قواده، فلاطفه الشريف فلم يهدأ خشية تدخله وإفساد ما رسم لتنفيذه ، وعند اشتداد صياح الناس ركب الشريف مبارك بن عُطيفة في قوّاد مكة المكرمة بآلة الحرب وركب جند مصر فبادر خليل ولد الأمير الدمر ليطفئ الفتنة ، وضرب أحد العبيد فرماه بحربة فقتله ، فلما رأى أبوه ذلك اشتد غضبه وحمل بنفسه لأخذ ثأر ولده فرُمي الآخر بحربة فمات.

ويقال بل صدف الشريف مبارك بن عُطيفة وقد قصد أمير العراق وعليه آلة حربه ، فقال له ويلك تريد أن تثير فتنة ، وهّم بضربه بالدبوس فضربه مبارك بحربة كانت في يديه أنفذها من صدره فخرّ صريعاً ، وقتل معه في هذه الفتنة عدد آخر وفر أمير الحج العراقي عند ذلك ونجا بنفسه ورُمي مبارك ابن عُطيفة بسهم في يده فشلّت. وصعد أهل مكة المكرمة سطح الحرم ورموا الأمير أحمد ومن معه بالحجارة ، وفّر أمير ركب العراق ، ودخلت الخيل المسجد الحرام ليمتد القتال إلى من به واختلط الناس ببعضهم ، ونهبت الأسواق ، ووقع عدد كبير من القتلى بأيدى العبيد ، وصلّى الناس الجمعة والسيوف تعمل، وتجمّع الأمراء في مكان نزولهم خارج مكة المكرمة بعد أن لاحقتهم السيوف وقرّروا العودة إلى داخل مكة المكرمة ثانية طلباً للثأر ، فخرجوا فارين مّرة أخرى ، وتصدى الشريف عُطيفة للقضاء على هذه الفتنة بعد أن فات الغرض منها بفرار أمير الركب العراقي فحسم الموقف ورحل الحجاج عائدين إلى بلادهم.

ولما علم سلطان مصر بقتل الدمر شقّ الأمر عليه ، وأمر بإحضار الشريف عُطيفة وابنه وقوّاده. وسار العسكر فوصلوا مكة المكرمة وهرب الناس إلى نخلة وغيرها ، وفّر الشريفان عُطيفة ورميثة وأولادهما وجندهما إلى جهة

اليمن وكان الشريف رميثة قد جمع العرب لمحاربة الأمير ، فبعث إليه بالأمان وهو الخاتم والمنديل وقلّده إمارة مكة[1].

ونجد أن ابن بطوطة خالف معظم المؤرخين في أسباب الفتنة ، ولعلّ ما جاء في رحلته هو الأصحّ لأنهّ شاهد عيان لها. وربما حدث خلط من حيث التحّرش بالحجّاج العراقيين بدلاً من اليمنيين كما وأن ابن بطوطة أورد تفاصيل لم ترد في كافّة المصادر ، مما يدلّ على أنه كان قريباً جدّاً من مكان الواقعة بحيث أنه سمع ورأى ما حدث من دقائق الأمور ، وعلى كلٍ فالحادثة وقعت فعلاً وإن اختلف المؤرخون في إبداء أسبابها ، ونرجّح ما جاء في رحلة ابن بطوطة فهو كما سبق شاهد عيان لهذه الحادثة بتفاصيلها.

ولقد ارتبط أمراء مكة المكرمة بعلاقات وديّة مع سلطان كلوة[2] أبي المظفر حسن[3] حيث كانوا يَفِدون عليه لنيل أعطياته ، كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة[4].

ب ـ إمارة المدينة المنورة :

انصبّ اهتمام الرحالة المغاربة والأندلسيين على مكة المكرمة فكان لها الحظّ الأوفر في كتاباتهم إذ تتبعوا جميع شؤونها وتقصّوا مختلف أحوالها. أما المدينة المنورة فلم تحظ إلا بالقليل من اهتمام الرحالة وبالتالي تضاءلت

(١) المقريزي : السلوك ، ج٢/٢ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٩ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٧ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج١ ، ص ٦٣١ ـ ٦٣٧.

(٢) (كِلوة) بالكسر موضع بأرض الزنج وعلى بعد نحو ٢٤٠ كم إلى الجنوب من مدينة دار السلام عاصمة تنزانيا حالياً. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٧٨ ؛ سليمان عبدالغني المالكي : سلطنة كلوة الإسلامية ، ص ١٩.

(٣) أبو المظفر حسن بن سليمان ويكّنى أبا المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه ، كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج والإغارة عليهم ، فكثرت غنائمه وعمل على صرفها وفق تعاليم الشريعة الإسلامية في كتاب الله تعالى وجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حِدة فإذا جاءه الأشراف دفعه إليهم وهو دائم التواضع للفقراء حريص على تناول الطعام معهم ، كثير التعظيم للعلماء. حكم ٢٤ سنة ومات دون عَقِب. انظر ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٥٨ ؛ المالكي : سلطنة كلوه الإسلامية ، ص ٤٣.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٥٨.

المعلومات عنها. ولا نجد عن أحوالها السياسية إلاّ ما تضمنتها رحلة ابن بطوطة وهي معلومات قليلة إذا ما قورنت بما كتب عن مكة المكرمة.

إذ ذكر ابن بطوطة أميرين من أمراء المدينة المنورة عاصرهما هما طفيل بن منصور بن جماز الحسيني(١) وكبيش بن منصور بن جماز(٢). وتحدّث عن كيفية تولّي طفيل، فقال: تولى إمره المدينة كبيش بن منصور ابن جماز عِقب قتله لعّمه مقبلاً (٣)، وقيل توضأ بدمه ثم إن كبيشاً خرج سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م إلى الفلاة في شّدة الحر ومعه أصحابه فأخلدوا إلى الراحة وتفرّقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلاّ وأبناء مقبل في جماعة من عبيد هم ينادون يالثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبراً ولعقوا دمه، وتولّى بعده أخوه طفيل بن منصور(٤).

---

(١) طفيل بن منصور بن جماز بن شيحة الحسيني استقر في إمرة المدينة المنورة بعد قتل أخيه كبيش في رجب سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م وكان أميراً كبيراً كامل السؤدد وعالي الهمّة مهيباً معظماً في النفوس محبوباً من الجميع جمع مفاخر المناقب جواداً محسناً لاسيما إلى المجاورين، سمحاً للوافدين والزائرين، وشفاعات المجاورين عنده مقبولة استمر حاكماً إلى سنة ٧٥٠هـ /١٣٤٩م. انظر السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) كبيش بن منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم ولي إمرة المدينة المنورة بعد قتل أبيه في رمضان سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م فأقام سنة ونحو خمسة أشهر، ولم تصف له تلك الأيام واستناب أخاه طفيلاً وقتل على يد أولاد عمه مقبل بن جماز في يوم الجمعة سلخ رجب سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م واستقل طفيل بعده بالإمرة وكان هذا ينوب عن أبيه في الإمرة. انظر السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٣، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧.

(٣) مقبل بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين الحسيني قريب أمير المدينة وولد مستوليها، طرقها في شعبان سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م فتغيظ منه كبيش بن منصور بن جماز وهو ابن أخيه وكان إذ ذاك يخالف أباه على الإمرة فدهمهم مقبل ليلاً ونصب سلماً خشبيًا كان معه مقطعاً وصعد منه إلى السور فاستيقظ له كبيش وتقاتلا إلى أن قتل مقبل وقتل معه من أقاربه قاسم ابن قاسم بن جماز واستمروا حزبين. انظر ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص ٤٣٦.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٢٤.

وجاء في رواية القلقشندي أن مقبلاً اشترك في إمرة المدينة المنورة مع أخيه منصور[1] على إثر طلبه من الظاهر بيبرس بمصر لذلك. وعندما قام منصور بالإيعاز لابنه في تدبير شؤون المدينة المنورة خلال غيابه فاعتبر مقبل ذلك تعدّياً على حقوقه في الإمارة ، فهجم على ابن أخيه وانتزعها منه ، مما دفع بكبيش إلى الخروج من المدينة المنورة واللحاق بأحياء العرب طالباً مساعدتهم، واستعاد المدينة المنورة وتمكن من قتل مقبل في سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م وعاد منصور إلى إمارته ثم هلك سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م فولي ابنه كبيش فقتله عسكر ابن عمّه ودى بن جماز[2] الذي حكم المدينة المنورة من قبل الملك الناصر محمد ابن قلاوون وعقِب وفاته تولاها طفيل بن منصور بن جماز وانفرد بإمرتها[3].

فنلاحظ أن ما أورده ابن بطوطة حول المدينة المنورة وأمرائها متفق مع غالبية المصادر. كما نرى أن اعتماد وسيلة القتل في سبيل الإمارة أيضاً معروف في المدينة المنورة ، بل إنها شملت حتى من يتطاول على شخص الشريف ولو خطأً فيقتل جزاء ذلك ، وذكر ابن بطوطة أن أحد فقهاء ومدرسي المالكية بالمدينة المنورة ويدعى أبو العباس الفاسي تحدّث يوماً مع الناس فانتهى به الكلام إلى القول أن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يعُقب فبلغ ذلك أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسيني فأنكر كلامه

(١) منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن الحسين بن مهنا بن داود بن قاسم ابن طاهر بن يحيى بن عبدالله بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن على بن أبي طالب الحسيني صاحب المدينة والد طفيل استقل بالإمرة في حياة والده سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م ثم حضر أخوه مقبل فُقتل مقبل ثم توجه إلى مصر فأقام ولده كبيش بها ، وأعاد الناصر منصوراً إلى الإمرة سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م فاستمر بها إلى أن قتله ابن أخيه حديثة بن قاسم بن جماز وقتل قاتله في الحال سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م. انظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٢) ودى بن جماز بن شيحة الحسيني أمير المدينة محباً للسنة وكارهاً للشيعة. انظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ؛ أحمد بن محمد صالح الحسيني البرادعي : المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي ، ص ١١٨ ـ ١٢١.

واستعظمه وأراد قتله ثم عدل عنه ونفاه من المدينة ، وقيل بل بعث إليه من قام بقتله واختفى أثره[1].

إن ما ذكره ابن بطوطة عن أحوال المدينة المنورة السياسية قليلٌ جداً ولكنه أبرز لنا مدى الصراع على الإمرة والسلطة فيها ووسائل الوصول إليها. كما نجد أن ما ينطبق على مكة المكرمة ينطبق أيضاً على المدينة المنورة من حيث علاقاتها بمصر في بعض الأحيان وانقطاعها أحياناً أخرى.

فالعلاقة والارتباط بمصر قائمٌ على أساس الوضع الاقتصادي والاستقرار الداخلي ، فمتى توفّر الاستقرار وعّم الرخاء الاقتصادي أصبحت إمارة مستقلة ، ومتى تزعزع الوضع الداخلي نجد الأشراف الحسنيين يسارعون إلى الاستنجاد بملوك مصر ضد بعضهم بعضاً فتعود العلاقة مرة أخرى. ومن هنا فعلاقات الحجاز السياسية بمن حوله من المماليك والدول الإسلامية قائمةٌ أولاً وأخيراً على وضعه الاقتصادي ومايصله من مساعدات مالية ، فهي التي تحكّمت في مدى وقوّة علاقة الحجاز السياسية بهذه الدول. وبالمقابل حرصت تلك الدول على إقامة علاقة وديّة مع أشراف الحجاز وإرضائهم في سبيل الدعاء لهم على منابر الحرمين الشريفيين ، إضافة إلى أنّ أشراف الحجاز بسبب نسبهم المتّصل بفاطمة الزهراء رضي الله عنها ، كان الأمراء والملوك يتحّرزون كثيراً في عقابهم ضماناً لعدم وصفهم بأنهّم قتلة أبناء رسول الله ﷺ[2]. ولذلك فملوك مصر تكتفي من نوّاب الحجاز بإظهار الطاعة[3]، وأقصى عقاب ينزل بأشراف الحجاز في حالة خروجهم عن الطاعة أو

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤.

(٢) عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص ٤١.

(٣) عز الدين بن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص ١٨.

مخالفة مايصدر إليهم من أوامر هو الاعتقال مدة من الزمن في القاهرة ، وإسناد الأمر لمن عليه الدور في تولّي السلطة(1).

وكان الصراع القائم على السلطة بين أفراد بني الحسن في مكة المكرمة أو بني الحسين في المدينة المنورة واستنجادهم بالأعراب في سبيل استرداد نفوذهم السياسي وفرضهم للمكوس على الحجاج في بعض الأحيان بسبب قلّة موارد الحجاز الاقتصادية في سبيل الإيفاء بالتزاماتهم نحو البلاد. وقيام عبيد الأشراف بنهب أموال الحجيج. واعتداءات بني شعبة على الحجيج بمنى ، وعدم قدرة أشراف مكة المكرمة على ضبط الأمور ، مما كان له انعكاس سيء على الأوضاع السياسية في الحجاز. في حين أن توفّر المساعدات المالية لبلاد الحجاز بشكل منتظم مع الحزم وحسن الإدارة له مردوده الطيب في استقرار أوضاعها السياسية.

وعلى الرغم مما سبق ففي بعض الأحيان نلاحظ وجود تعاون بين أمراء المدينة المنورة وأمراء مكة المكرمة إزاء بعض المواقف المطلوب فيها مثل هذا التعاون ، ومثالاً لذلك ما حدث من تعاون الشريف أبي نمي وجماز بن شيحة في استرداد مكة المكرمة من الأمير مبارز الدين بن برطاس.

وأما فيما يتعلق بموقف علماء الأندلس من أوضاع الحجاز السياسية فقد أجازوا إسقاط فريضة الحج حفاظاً على أرواح الحجاج ، وما يمكن أن يلاقوه من عنت ومشقة في سبيل ذلك(2). وذكر الناصري بعد ذلك خبر هذه الفتوى من قبل علماء الأندلس مؤكدًا ما ذكره ابن جبير(3).

---

(1) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج1 ، ص280 ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج4 ، ص 278 ؛ عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج2 ، ص80.

(2) ابن جبير : الرحلة ، ص 55.

(3) الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج7 ، ص 8.

جـ ـ بعض المدن والقرى التابعة للحجاز التي ذكرها الرحالة المغاربة والاندلسيون :

ينبع :

أشار العبدري إلى أمير ينبع واصفاً حكمه بالاستبداد وسخط الناس عليه ، إلاّ أنّه أغفل ذكر اسمه ولكنه أظهر علاقته بمصر بقوله : " صاحب ينبع وأهلها في خدْمة صاحب مصر حيث يمدهم بالزرع "(١).

ويستنتج من ذلك مدى الصلة الاقتصادية بين ينبع ومصر. والذي كان سلطانها في تلك الفترة هو الملك المنصور(٢) ، وقد أشار العبدري وقت خروجه من مصر إلى عزم الملك المنصور للجهاد بعكّا ، إلاّ أن المنيّة قد أدركته قبل تحقيق ذلك فجاءت أخبار وفاته أثناء توجّه العبدري إلى مكة المكرمة ، وعلى بعد مرحلة من رابغ(٣).

وما جاء في رحلة العبدري موافقٌ لما حدث تلك السنة حيث وصل إلى المنصور خبر غدر الفرنج بعكّا ، وقتلهم المسلمين ، ونهب أموالهم ، فعزم على الخروج لجهادهم ولكنّه مرض وتوفي يوم السبت سادس ذي القعدة عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م(٤).

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣.

(٢) الملك المنصور قلاوون الصالحي تولّى المملكة وجلس يوم الأحد ثاني عشر رجب سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م وتلقب بالمنصور وكانت وفاته يوم السبت سادس ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م. والمنصور حسن الشكل معتدل القامة ، دريّ اللون ، قليل الكلام بالعربي ، فصيح اللسان بالتركي ، شجاع مقدام محبٌّ لجمع الأموال مغرم بشراء المماليك ، اقتنى منهم ما لم يقتنه أحد قبله. انظر ابن دقماق: الجوهر الثمين ، ج٢ ، ص ٩٢ ـ ١٠٤.

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٦ ؛ (رابغ) واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ١١.

(٤) ابن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ؛ الذهبي : دول الإسلام ، ج٢ ، ص١٨٨ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج٢ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

مرّ الظهران :

أمّا مرّ الظهران فذكرها العبدري ضمن أعمال مكة المكرمة[١] ، وداخل نطاق الأشراف من بني الحسن أمراء مكة المكرمة.

جُدّة :

كانت جُدّة تتبع شريف مكة المكرمة ، وعليها عامل من قبِله مهمّته تحصيل المكوس والضرائب[٢].

وادي الصفراء[٣] :

وشمل نفوذ أشراف مكة المكرمة وادي الصفراء إذ ذكر ابن بطوطة أن فيها حصناً يسكنه الحسنيّون[٤].

خُلَيص :

حكم خليص أحد الأشراف الحسنيين[٥].

ثانياً : التنظيمات الإدارية في بلاد الحجاز

لم يرد الشيء الكثير عن النظم السياسية لمدن وقرى الحجاز في كتب الرحلات بسبب أن الرحّالة المغاربة والأندلسيين كانوا طلبة علم فكان طبيعياً أن يكون احتكاكهم بما يتّصل بالعلم والعلماء أكثر ، ويندر بالتالي احتكاكهم بأصحاب الوظائف السياسية.

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٧.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٧ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٣.

(٣) وادي الصفراء) من ناحية المدينة كثير النخل والزرع والخير بينه وبين بدر مرحلة ، وماؤها عيون كلها ، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة ، وماؤها يجري إلى ينبع. انظر ياقوت الحموي:معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤١٢.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨.

(٥) المصدر السابق ، ص ١٢٩.

أ ـ الأمراء ببلاد الحجاز :

تولّى حكم بلاد الحجاز أسر من الأشراف من ذريّة الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. فهي إمارة عربية في تقاليدها(1). ففي مكة المكرمة تَعاقَب على حكمها ثلاث أسر من ذريّة الحسن بن علي رضي الله عنهما وهم السليمانيون وحكموا من سنة ٣٦٦ ـ ٤٥٣هـ / ٩٧٦م ـ ١٠٦١م. والهواشم وحكموا من سنة ٤٥٦ ـ ٥٩٧هـ / ١٠٦٣م ـ ١٢٠٠م وبنو قتادة الذين بدأ حكمهم سنة ٥٩٧هـ / ١٠٦٣م(2).

وعاصر ابن جبير في رحلته إلى مكة المكرمة أحد أفراد أسرة الهواشم ، وهو مكثر بن عيسى(3) فهو آخر حكّام هذه الأسرة ، والتي انتهت سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م. ثم أعقبتها إمارة بني قتادة في حكم البلاد لمدّة طويلة.

وقد أشار الرحّالة المغاربة والأندلسيون إلى بعض من حكّامها ، فعلى سبيل المثال : أبوعزيز قتادة بن إدريس ، وحسن بن قتادة(4) ، وأبو سعد الحسن ، ثم خلفه ابنه أبونمي ، ثم رميثة وحميضة وأبوالغيث وعطيفة(5).

أما المدينة المنورة فخضعت لأسرة من الأشراف من ذريّة الحسين ابن علي رضي الله عنهما وأشار ابن بطوطة إلى بعض حكّامها منهم : طفيل ابن منصور بن جماز ، وكبيش بن منصور(6).

وأشار العبدريّ في زيارته لبلاد الحجاز إلى أمير ينبع واستبداده ببلاده، دلالة على استقلال بعض أمراء بلاد الحجاز بمدنهم عن سلطة الأشراف بمكة المكرمة والمدينة المنورة(7).

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٨١.
(٢) انظر شجرة الأمراء الأشراف في الملاحق .
(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٥ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٢.
(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٧٧.
(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.
(٧) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣.

ومن ضمن سلطات الشريف بمكة المكرمة تعيين وعزل سَدَنَة بيت الله الحرام ،وأشار ابن جبير إلى قيام الشريف مكثر بالقبض على زعيم آل الشيبي محمد بن إسماعيل ، وذلك راجعٌ إلى قيامه ببعض أعمال أوجبت عزله. ولم يلبث الشريف أن أعاد محمد بن إسماعيل إلى سَدَانَة البيت الحرام ، عقب افتدائه لنفسه ، بمبلغ خمسمائة دينار ، ولكن وصل أمر عزل هذا السادن نهائياً من قِبل الخليفة العباسي ببغداد ، وتعيين ابن عمه مكانه(١).

والواقع أن هذه الحادثة تدلّ على يقظة الشريف فيما يتعلق بالأمور الدينية والقائمين عليها إلى جانب تغاضيه عن الأخطاء مقابل مبلغ من المال. كما تظهر مدى تبعيّة مكة المكرمة للدولة العباسية بل وتدخّلها حتى في عزل وتولية سَدَنَة بيت الله الحرام ، وعدم قدرة الأشراف الخروج على ذلك.

كما لم تغفل كتب الرحّالة الإشارة إلى الصراع القائم بين الأمراء الأشراف في بلاد الحجاز على السلطة ومحاولتهم الوصول إليها بمختلف الوسائل إلى جانب اشتراك اثنين في إدارة شؤون البلاد : ومثال ذلك الصراع على السلطة ، ودور الشريف أبي نمي فيها ، وما حدث بين رميثة وحميضة(٢).

والملاحظ أن الأمر لم يكن مقصوراً على مكة المكرمة ، بل نجده واضحاً في المدينة المنورة في عهد طفيل بن منصور وكبيش ، واشتراك مقبل في الإمارة مع أخيه منصور عَقِب مقتل كبيش(٣).

كما لقب الشريف أبونمي أثناء الدعوة له على منابر الحرم الشريف «بذي الرئاستين مالك الحرمين الشريفين "(٤). ولعلّه دلالة على امتداد سلطته إلى المدينة المنورة.

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٢ ، ١٤٥، ١٥٧ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٤١٤ ؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٤٨ ــ ٥٥١.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٥ ــ ٣٠٧ ــ راجع ما سبق ص ١٦٢ ــ ١٦٥.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٤. انظر ما سبق ص.١٨٠.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٤.

وانحصر منصب حاكم بلاد الحجاز في الأشراف بطريق الوراثة. كما خضع أمير مكة المكرمة في تعيينه وعزله للدولة العباسية ببغداد[١]. التي تسارع إلى تأديبه إذا انحرف عن السياسة المرسومة له : مثلما حدث مع الأمير مكثر[٢].

وأحياناً كان أهل مكة المكرمة يقومون بترشيح أحد الأشراف ليكون الحاكم بدلاً من شريف آخر بسبب سوء سيرته أو إساءته لأهل البلاد ، وخاصة المجاورين والتجار، وتمت الموافقة على ذلك من قِبَل سلطان مصر[٣]. وعَقِب انتقال الخلافة العبّاسية لمصر لم يعد الترشيح قائماً على اختيار الأصلح للولاية.

ب ـ نظام ولاية العهد :

أشار الرحالة التجيبيّ إلى منصب ولاية العهد ؛ الأمر الذي لم يشر إليه المؤرخون ، إذ أن ولاية العهد لم تكن موجودة في تقاليد الأشراف. ولكن يعّد ولي العهد للحكم عن طريق المشاركة أثناء عهد والده أو أخيه فتُتاح له الفرصة لإثبات مدى أهليته لهذا المنصب ، وتكوين الأنصار والمؤيّدين. حيث إن المتولّي لمنصب الحاكم في نظر الأشراف وفق إجماع أهل الحل والعقد ، ولهذا حرص الأشراف على إشراك أبنائهم معهم في إدارة شؤون البلاد[٤].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٥ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٢ ؛ السباعي : تاريخ مكة ، ج١ ،ص ٢٢٢ ؛ عائشة باقاسي : بلاد الحجاز ، ص ٣٩.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٥ ؛ ابن الاثير : الكامل ، ج٩ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٢ ؛ ابوالفدا : تاريخ أبي الفدا ، ج٣ ، ص ٥٨ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٨ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٨. انظر ما سبق ص ١٤٨.

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٥ ، ص ٥٠٥.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٧ ؛ أحمد بن عمر الزيلعي : نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة ، مجلة الدارة ، العدد الثالث ، الرياض ، ١٤٠٩هـ ، ص ٧٤ ـ ٧٥.

وأحياناً قد يَعهد الأمير إلى أحد أبنائه صراحة ، وذلك بإشراكه معه في الإمرة مثلما حدث من إشراك الأمير أبي سعد الحسن لابنه أبي نمي معه(١). أو شراء أبناء الأمير للإمارة من أبيهم كما حدث من محاولة شراء أبناء الأمير رميثة الإمارة منه بسبب مرضه وكبر سنه(٢).

وبسبب كبر السن والمرض أيضاً قد يبادر أحد أبناء الأمير لجمع كبار الأشراف والعلماء لمبايعته كما فعل الأمير حسن بن قتادة(٣).

ولاشك أنّ منصب وليّ العهد محكومٌ بقوّة شخصيته وكثرة أتباعه. فتقع الصراعات بين أفــراد الأسرة بسبب ذلك(٤) حتى ينتهي الأمر إما بإشراكه في الإمرة أو إزاحته وتوليّ الأقوى مكانة ، ومثال ذلك موقف رميثة وحميضة في حياة والدهما وبعد وفاته(٥).

وغالباً ما يكون الفصل في هذا الأمر إما للخليفة ببغداد أو لسلاطين المماليك بمصر. فقد فصل السلطان الناصر في أمر رميثة وحميضة عندما اشتّد الخلاف بينهما وبين إخوانهم(٦).

حيث كانت كلمة المماليك مسموعة بمكة المكرمة وأوامرهم منفّذة ورغباتهم مجابة ومطاعة من الأشراف لمعرفتهم مسبقاً بمدى قوتهم على تولية وعزل الأشراف ، لذا كان التعيين النهائي لأمير مكة المكرمة من قبَلِهم(٧).

---

(١) العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢٢٥.

(٢) المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٥.

(٣) المصدر السابق والجزء ، ص ٤٦٣.

(٤) المصدر السابق والجزء ، ص ٤١٥.

(٥) المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٧.

(٦) العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢٢٧.

(٧) المصدر السابق والجزء والصفحة.

فالملاحظ ازدياد تدخّل سلاطين مصر بشؤون مكة المكرمة وخضوع أشرافها لهم. حيث أصبحت إمارة مكة المكرمة " ولاية تابعة لمصر كسائر الولايات. وأصبح تعيين الأشراف وعزلهم بل وحتى اعتقالهم بيد سلاطين المماليك "[1]. وهذه نتيجة حتميّة لنظام المشاركة وعدم انتظام ولاية العهد في إمارة مكة المكرمة. حيث كان الأشراف قبل نظام المشاركة يتمتّعون إلى حدٍ ما باستقلال داخلي[2]، وفُقِد ذلك نتيجة نظام المشاركة[3].

وقد أورد التجيبي طرفاً من أحداث مكة المكرمة فذكر أن رميثة كان ولياً لعهد أبي نمي ولكن وجود أخيه حميضة وأتباعه أدّى إلى عدم استقرار رميثة، وانتهى الأمر بإشراكهما في الإمرة[4].

وقد أيّد الفاسي والعصامي[5] ما ذكره التجيبيّ.

ولكن لم يلبث التعيين النهائيّ لأمير مكة المكرمة أن صدر من قِبَل مصر بتولية الأخوين أبي الغيث وعطيفة معاً، ثم تلاه بعد ذلك بسنة عودة رميثة وحميضة إلى الإمرة وكان الأمر من قبل سلطان مصر المملوكي[6] أيضا. وقد اتفق الفاسي وابن فهد والعصامي[7] مع ما أشار إليه التجيبيّ.

---

(١) احمد الزيلعي : نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة ، مجلة الدارة ، الرياض ، العدد الثالث ، ١٤٠٩هـ ، ص٨.
(٢) المقال السابق ، ص ٨١.
(٣) المقال السابق ، ص٨ ــ ٨١.
(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٧.
(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٢٣٢ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢٢٧.
(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٧.
(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٢٣٢ ــ ٢٣٤ ؛ ج٦ ، ص ٩٦ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥ ؛ العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢٢٧.

ويلعب رضى الخليفة العباسي وعدمه دوراً كبيراً في الموضوع ، من حيث التعيين وعدمه ، أو الاشتراك في الحكم ، أو الانفراد. كما حدث أيام الأمير مكثر وأخيه داود[1].

وأدّى ظهور الدولة الرسولية وتدخّلها في أحداث مكة المكرمة ، ومناصرة الأشراف ضد بعضهم بعضاً مقابل الدعاء لها في الحرم الشريف إلى تأثير واضح في أوضاعها السياسية. ولكن سرعان ما يعود ذلك التأثير إلى الانحسار بعودة المماليك في مصر إلى متابعة الأحوال السياسية في بلاد الحجاز. وهو ما حدث في عهد الشريف راجح بن قتادة[2].

جـ ـ نظام الوزارة :

أظهرت كتب الرحّالة وجود الوزراء في بلاد الحجاز. حيث أظهرتهم رحلة ابن جبير والتجيبي ، ولكن لم تحدد المصادر حدود مهامّهم وأعمالهم. وربما كان الوزير ينوب عن أمير مكة المكرمة في حضور بعض المناسبات التي قد لايستطيع شريف مكة المكرمة حضورها بسبب التزاماته نحو البلاد ومثالاً على ذلك إنابة الوزير عن الشريف أبي نمي في حضور ختم القرآن في المسجد الحرام ليلة السابع والعشرين من رمضان[3].

واما فيما يتعلق بالوزارة وكيفية اختيار الوزير ونوع وزارته ومهامّه السياسية فليست لدينا معلومات واضحة في ذلك.

---

(١) داود بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر المعروف بابن أبي هاشم الحسني أمير مكة ، ولي إمرتها بعهد من أبيه في شعبان سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م فأحسن السيرة ، ونازعه أخوه مكثر ، ومات يوم الإثنين رابع عشر شعبان سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م. انظر عزالدين بن فهد : غاية المرام ، ج١، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٧.

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣١٨ ـ ٣٢١ ؛ عز الدين بن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٦١٧ ـ ٦٢٣ ؛ ريتشارد مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة ، ص ٤٦ ـ ٥٠.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٤ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٣.

واعتمد الأشراف في مكة المكرمة على حرس يُسمّى الحرابة من العبيد والسودان ، وقد شكّلت هذه الفئة في بعض الأوقات مصدر خطر على الحجّاج ، إذ قامت بنهب أموالهم وأمتعتهم. مما اضطر الحكومة المصرية إلى تسيير حملة لتأديبهم ، كما حدث في عهد صلاح الدين(١).

د ـ الوحدات الإدارية :

أشارت كتب الرحالة إلى مدن بلاد الحجاز منها :

ينبُع :

وتتبعها الدهناء فهي من أعمالها وأحياناً قام حكامها بالاستقلال بأمورها عن مكة وأشرافها.

ومنها الوجه(٢) ، والمدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، وجُدَّة(٣) ، ورابغ(٤) ، وادى الصفراء ، وخُليص(٥) ، وتبوك ، الحوراء ، البرابر ، مَر الظهران.

وكما هو معروف تمتعت مكة المكرمة والمدينة المنورة بأهمية دينية كبيرة دون سائر مدن بلاد الحجاز وخضعت لحكم الأشراف. وقام شريف مكة المكرمة بتعيين أمير لمدينة جُدَّة ، حمل لقب القائد في عهد الشريف مكثر بن عيسى وهو علي بن موفق(٦).

أما ابن بطوطة الذي وصل جُدَّة أيضاً أشار إلى متولّي أمرها من قبل أمير مكة المكرمة ولقّبه بالأمير وهو أبو يعقوب بن عبدالرزاق(٧). مما يعني عدم استمرار حمل لقب قائد في تلك الفترة.

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٥٣. انظر ماسبق ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ، ١٦١.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩.

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٦.

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٤ ـ ٥٧ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩.

(٧) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٣.

إنّ صمت المصادر عن أمور جُدَّة في ذلك العهد يجعلنا نفترض أنه طالما وُجد متولٍ لأمرها سواء كان لقبه القائد أو الأمير من قِبَل أمير مكة المكرمة،، فهي إذاً إمارة صغيرة ملحقة بإمارة مكة المكرمة وأميرها لقّب بالقائد في البداية ، ثم بالأمير فيما بعد. وقد أصبحت جُدَّة ضمن توابع إمارة مكة المكرمة في عهد شكر ابن أبي الفتوح[1] ، ومن عهده خربت واندرست وبقيت آثارها[2].

أما بقيّة مدن وقرى الحجاز فكان يعهد بها للأشراف من الأسرة الحسنية [3] يرتبطون في ولائهم ومساعدتهم لشريف مكة[4] أبي نمي وقتادة[5]، وقد يمتنعون عن ذلك خوفاً من سلطان مصر[6].

وفي ينبع حمل حاكمها لقب أمير وأحياناً يلجأ إلى الاستبداد بها وارتباطه بمصر ، كما أشار العبدري وتَبِعَت مَرّ الظهران والصفراء مدينة مكة المكرمة[7].

هذا فيما يختص بالنظام في المدن التابعة لبلاد الحجاز. أمّا ما يتعلق بالدواوين التابعة لهذا الجانب فليست لدينا معلومات مفصّلة عنها ولا يعني هذا بالضرورة عدم وجودها ، بل من الطبيعي أنها معروفة لما تُقدّمه من خدمات وأعمال خاصة بالبلاد.

---

(١) شكر بن أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد الحسن بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني أمير مكة ولي مكة بعد أبيه وجرت له مع أهل المدينة حروب ملك في بعضها المدينة المنورة وجمع بين الحرمين وملك الحجاز ثلاثاً وعشرين سنة وكانت وفاته سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م وانقرضت به دولة السليمانيين من مكة وجاءت دولة الهواشم. أنظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ١٤.

(٢) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٤٦.

(٣) العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢١٢.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٤.

(٥) العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢١٢ ، ٢٢٣.

(٦) ابن خلدون : العبر ، ج٥ ، ص ٤٨١.

(٧) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ، ١٦٧ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

هـ ـ التنظيمات المالية :

الواقع إن المعلومات المتعلّقة بهذا الجانب قليلة ، فكل ما أشارت إليه كتب الرحالة فيما يتعلق بالموارد المالية لبلاد الحجاز بشكل عام نلاحظها في الآتي :

المكوس[١] ، الأعطيات[٢] ، الأوقاف[٣].

* المكوس والضرائب :

تؤخذ من الحجاج وخاصة عند وصولهم لجُدَّة كما ذكر الرحالة ابن جبير. ويبدو أن الأمر لم يستمر إذ قام صلاح الدين بإرسال خطاب إلى أمير مكة المكرمة برفع تلك الضرائب والمكوس عن الحجاج وتعويض عامل جُدَّة عنها[٤]. ويبدو أن الحجاج عانوا مرّة أخرى من دفع المكوس للأشراف ، إذ نلاحظ القيام بإسقاطها سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م[٥] عَقِب إشارة إليها في زمن رحلة التجيبي[٦].

* الأعطيات والهدايا والهِبات :

تصل إلى أشراف مكة المكرمة الكثير من تلك الأعطيات والهدايا والهِبات مثل تلك التي أهداها سيف الإسلام طغتكين للأمير مكثر[٧] ، وتلك التي أهداها وزير الشريف أبي نمي للخطيب في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان[٨] والخلع الواصلة للخطباء والمؤذنين من قبل العباسيين[٩] ومنها التي وصلت من

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٢ ، ٥٧ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٢٢٠.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٩ ، ١٦١.

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٣.

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣١٤.

(٥) العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢٢٧.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ ـ٢٢٠.

(٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٢٦ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٤٦.

(٨) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٣.

(٩) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٧ ، ٧٣.

مصر إلى قاضي مكة المكرمة نجم الدين محمد بن الإمام محيى الدين الطبري وكيل السلطان الناصر في مصر ، حيث تولّى توزيعها على كافّة أهل مكة المكرمة[١] ، وكذلك الأعطيات التي تصل من الدولة الرسولية في اليمن في بعض الأحيان[٢]. وهناك الصدقات والأعطيات الواصلة من العراق لأهل مكة[٣]. ومنها أيضاً التي يأخذها الأشراف من سلطان كلوة[٤].

ومن هنا نلاحظ ما كانت تحظى به بلاد الحجاز من اهتمام الدول المجاورة ، والمتمثّلة في الخلافة العباسية والخلع التي تبعثها سواء لأهل البلاد أو للأشراف وكبار أهل مكة المكرمة ، ومن مصر أيضاً سواء من الدولة الأيوبية أو من دولة المماليك فيما بعد ، ثم الصدقات المبعوثة من قبِل حكّام اليمن. وما كان يختص به أشراف بلاد الحجاز من أعطيات سلطان كلوة.

* الأوقاف :

تمثّلت في المساكن التي أسهم الأغنياء في إنشائها من أموالهم الخاصة. سواء من أهل البلاد أو من القادمين عليها، وأوقفت على المجاورين. إلى جانب الأموال المبذولة لهم[٥].

أما عن كيفية مصارف الأموال من قبِل حكّام الحجاز فليست لدينا أيّة تفاصيل عن ذلك سوى ما أوردناه من إشارات موجزة ؛ وأغلب الظن أنها إنما كانت تصرف لتثبيت حكمهم وبناء الاستحكامات الحربية. ولم تكن تصرف على

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٩ ، ١٦١.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٢.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٧٢ ، ٢٤١.

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٥٨.

(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٩ ــ ١٧١.

تحسين أوضاع البلاد وخدمة الحجاج. حيث لم نجد أي إشارة لا في كتب الرحلات ولا في المصادر التاريخية التي تناولناها ما يشير إلي ذلك.

و ـ التنظيمات القضائية :

أدى القضاء دوراً مهما في الحياة العامة لبلاد الحجاز. فهو من أجّل المناصب [1]. إذ تقوم مهامه على الفصل في الخصومات ومشاكلات الأفراد والجماعات ، فالقاضي صاحب السلطة وخاصة في الأمور المتعلقة بالنواحي الشرعية. وفي البداية نلاحظ ارتباط القضاة بالخلافة العباسية. فعندما شك القاضي في شهادة الشهود في هلال شهر ذي الحجّة آثر انتظار قدوم الركب العباسيّ من بغداد ضماناً للدقّة[2]. بينما نلاحظ في سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م عدم التزام الناس بقرار القاضي وخاصة في حادثة موعد وقفة عرفات فانقسم الناس فيها إلى فريقين حيث وقفت الفرقة الأولى في يوم الجمعة بينما وقفت الأخرى في يوم السبت[3].

ومن هنا ففي البداية مثّلت سلطة القاضي القول الفصل مع التزام العامّة بها ، ولكن بمرور الوقت لم يعد لها ذلك التأثير القويّ ، وضعفت أمام قوّة عامّة الناس والحجيج.

ويتم تعيين القاضي في مكة المكرمة من قبَل الخلافة العباسية قبل سقوط بغداد[4]. وعقِب انتقالها إلى مصر أصبح مرسوم تعيين القاضي يصدر منها[5]. كما يوجد لهؤلاء القضاة نّواب يلتزمون بأداء أعمالهم في حالة غيابهم[6].

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٢ ، ص ٢٣٦.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٦ ـ ١٤٩.

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٦ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣٨٣ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ١١٣.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٢؛ التجيبي :مستفاد الرحلة ، ص ٤١٥؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٩.

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج١٢ ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥١.

وكذلك الأمر في المدينة المنورة فهناك القاضي ونائبه[1].

ومن اختصاصات القاضي إمامة الناس في صلاة الاستسقاء ، ويقوم بدعوة الناس لأدائها عَقِب صيام ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع يتجه إلى المسجد الحرام ويؤمّ المصلّين خلف المقام ، فيصلّي بهم ركعتين يقرأ في الأولى سورة الأعلى وفي الثانية سورة الغاشية ،.وبعد انتهاء الصلاة يصعد إلى المنبر ويُلقي على الناس خُطبة بليغة يدعوهم فيها إلى صالح الأعمال والعودة إلى الله عز وجل وترك المنكرات[2].

وعند ثبوت هلال شهر ذي الحجّة يقوم القاضي بإلقاء خطبة شاملة وخاصة بأحكام الحج لكافة الحجاج ، موضحاً لهم الطرق السليمة لأداء الفريضة[3].

ومن مهام القاضي إلقاء خطبة الجمعة المشتملة على الوعظ والتذكير والصلاة على النبي محمد ﷺ وآله والصحابة الأربعة ، والدعاء لعمّي النبّي ﷺ حمزة والعباس ، وللحسن والحسين وزوجات النبي ﷺ وفاطمة الزهراء ثم الدعاء للخليفة العباسي وأمير مكة المكرمة ، ثم لحاكم مصر وولي عهده[4].

الحِسْبَة :

أدت الحِسبَة دوراً مهماً في الحياة العامة في بلاد الحجاز. والحِسْبَة من الوظائف الدينية. وتعتمد على الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا فشا فعله[5]. وهي بذلك تُسهم مع القاضي في تنفيذ القوانين المتصلة بالمصالح والآداب العامة ، وتقوم بحماية العامة من الغش والاحتيال. والقائم بها

(١) المصدر السابق ، ص١٢٠ ـ ١٢١.
(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٥ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٩.
(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٦٠.
(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٩٩ ؛ ابن الأخوة : معالم القربة ، ص ٥١ ؛ السنامي : نصاب الاحتساب ، ص ١٢ ـ ١٣.

لابد من أن تتوفر به شروط مهمة منها : العلم بأحكام الشريعة ، والحرية والعدل ، والشدّة والصرامة في تنفيذ الأحكام مع النزاهة والفقه. وفي بلاد الحجاز وردت في كتب الرحالة إشارات إلى هذه الوظيفة لدى ابن رشيد ، حيث ذكر أن شيخه رضيّ الدين من القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن يرضي الشريف أبا نمي فقام بسجنه ولكنه لم يلبث أن أطلقه(١).

وقام ابن بطوطة بإيراد اسم أحد الأشخاص الذين تولوا منصب المحتسب. وهو إمام الحنابلة محمد بن عثمان (٢) ، فإلى جانب قيامه بالحسبة ناب في القضاء أيضاً. ويبدو أن أمير مكة المكرمة يقوم بحماية المحتسب فمتولّي هذا المنصب يتم تعيينه وفق أمر الأمير ، ويُعطى عمامة في حضور عدد كبيرٍ من الناس ضماناً لعدم التعرّض له بسوء(٣).

ويمكننا القول إن المحتسب لم يكن يتمتع بالحماية في زمن رحلة ابن رشيد ، ولكن لم يلبث أن أصبح من المتمتعين بحماية أمير مكة المكرمة في زمن رحلة ابن بطوطة.

ز ـ التنظيمات الحربية :

يشمل النظام الحربيّ الحديث الجيش والأسطول وكافة ما يتعلق بذلك، ولكن نقتصر هنا على مادوّنه الرحالة في كتب رحلاتهم. والواقع إنها معلومات قليلة وضئيلة وبالرغم من ذلك فهي تلقي بعض الضوء على ما كانت عليه الأوضاع في تلك الفترة.

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٣١.

(٢) انظر ترجمته فيما بعد ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

حملت إشارات الرحالة الحديث عن قادة جيش أمير مكة المكرمة ، ويتولّى هذا المنصب من حاز صفات القوة والشجاعة ، وقد يكون أحد أبناء الأمير ، كما حدث في عهد أبي سعد الحسن والذي أشرك ابنه أبا نمي في قيادة بعض الحملات ، ويمكن أن يتولاّه أحد إخوة الأمير ، كما فعل الأمير قتادة في إسناد قيادة جيشه السائر إلى المدينة لأخيه في سنة ٦١٧هـ أو ٦١٨هـ /١٢٢٠مَ أو ١٢٢١م(١).

ولكن الملاحظ أن الأمر لم يقتصر على أبناء الأسرة الحاكمة ؛ بل تعدّاه إلى الموالي(٢) ، حيث برز منهم أحد القادة من ذوي الكفاءة والشجاعة في عهد الشريف أبي نمي ، وأشار التجيبي إليه إذ نزل في داره ، ويُدعى محمد ابن الحسن (٣). كما أشار ابن بطوطة إلى أسماء بعضهم فمنهم : محمد ابن إبراهيم وعلي وأحمد أبناء صُبيح ، وعلي بن يوسف ، وشداد بن عمر ، وعامر الشرق ، ومنصور بن عمر ، وموسى المرزق(٤).

ويظهر مما سبق وجود جيش كبير اعتمد عليه أشراف مكة المكرمة في تثبيت دعائم سلطانهم والقضاء على معارضيهم.

أما نظام المعارك وحروبهم وطريقة تسيير الجيش لها وتنظيماته وعدد أفراده فليست لدينا أيّة تفاصيل عنها.

---

(١) العصامي : سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢٢٥ ، ٢١٣.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٨١.

(٣) لم نجد له ترجمة في المصادر التي تناولتها.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٩ ؛ ابن بطوطة . الرحلة ، ص ١٦٢.

الفصل الرابع

الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لبلاد الحجاز من خلال كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين

أولاً - الأحوال الاجتماعية :

١ - عناصر المجتمع.

٢ - طبقات المجتمع.

٣ - العادات والتقاليد.

٤ - الاحتفالات.

٥ - المواكب.

٦ - الملابس.

٧ - الأطعمة والأشربة.

ثانيًا - الأحوال الاقتصادية :

١ - الزراعة ومصادر المياه.

٢ - الثروة الحيوانية.

٣ - الصناعة.

٤ - التجارة.

أولاً - الأحوال الاجتماعية :

تنوعت الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز متّخذة مظاهر عدة لذلك، وسنحاول قدر الإمكان تتبّعها من خلال كتب الرحّالة. وفي البداية نتحدّث عن عناصر المجتمع في بلاد الحجاز :

١ ـ عناصر المجتمع :

* ضمت مكة المكرمة العديد من العناصر البشرية لما لها من مكانة وهيبة في نفوس المسلمين الوافدين من شتّى بقاع العالم . والواقع أننا لن نستطيع حصرها وإنمّا سنعمل على إبراز أهم العناصر الموجودة في بلاد الحجاز والتي استخرجناها من كتب الرحالة ، فمن عناصر السكان :

آل بيت الرسول ﷺ من ذرّية الحسن بن علي وهم السليمانيون وبنو هاشم وبنو قتادة[١] ومن سكان مكة المكرمة الأوائل القرشيون وهم قلّة تفرّقت الغالبية العظمى منهم في البلدان مثل الشام والعراق وغيرهما مع موجة الفتح الإسلامي لتلك الأماكن. ونجد جزءاً منهم في الطائف والوديان المحيطة به وفي جُدة ونواحيها[٢]. ومنهم من غادر الحجاز إثر ثورات العلويين[٣].

* أما المدينة المنورة فمن عناصر السكان بها آل بيت الرسول ﷺ من ذرية الحسين بن علي، ومن سكانها الأصليين الأوس والخزرج. كما شكّل المجاورون نسبة كبيرة من السكان في المدينتين المقدستين بصفة عامة حيث قدموا من بقاع شتّى بهدف الاستقرار في مكة[٤].

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٢.

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٩٩.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٨.

ومن العناصر السكانية الموجودة في بلاد الحجاز :

* **الأعراب :**

وهم فئة من الناس احترف بعضهم السرقة والاعتداء على الحجاج وسلب أموالهم ، مما تسبب في بروز خطرهم حتى على أفراد المجتمع في بلاد الحجاز أنفسهم . ونلاحظ أماكن تواجدهم في الطرق المؤدّية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة : مثل المناطق المحيطة بذي الحُليفة[١] ، وسيطرتهم عليها[٢] ، وانتشارهم في الطريق من الوجه[٣] إلى المدينة المنورة[٤].

وفي مكة المكرمة انتشرت أعراب بنو شُعبة[٥] في المشاعر المقدسة ، وهدفها الاعتداء على الحجاج بالسلب والنهب والقتل . ووصل خطرهم لدرجة أنّ ابن رشيد ترك المبيت بمنى وقت أدائه لفريضة الحج خوفاً على حياته منهم[٦]. كما أشار البلوي[٧] إلى انعدام الأمن أيضاً من الأعراب عند وصوله إلى ماء هدية[٨].

* **العبيد :**

ومن العناصر التي وجدت أيضاً أهل البلاد السودان ويجلبون من أماكن متفرّقة مثل الحبشة والنوبة والديلم[٩] واستخدموا كعبيد لذوي السلطة[١٠] وخدم في المنازل ، بالإضافة إلى وجود الجواري للغاية ذاتها[١١].

---

(١) (ذو الحليفة) قرية على بعد ٦ أو ٧ أميال من المدينة وهي ميقات أهلها. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٩٥.

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠١.

(٣) (الوجه) بلدة تقع شمال ينبع. انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٩ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦١.

(٥) انظر فيما سبق ص ١٤٢ ، هامش ١.

(٦) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٨٧ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٨.

(٧) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٧٩.

(٨) (هدية) محطة للجمال في وادي الطيق. انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، ج٩ ، ص ١٦٩.

(٩) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٩٩.

(١٠) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٧.

(١١) جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، ص ٢٣١.

ومنذ القدم كان أهل مكة المكرمة يجلبون العبيد والجواري ويجعلون على الواحد منهم مبلغاً مطلوباً يدفعه كل يوم لسيّده ، مما أدّى في وقت من الأوقات إلى دفعهم للحصول على المال عن طريق السرقة وأحياناً بالحيلة ، فاستفحل ضررهم على المجتمع المكّي ؛ ولهذا قدم سيف الإسلام طغتكين على رأس جيش كبير سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م لتأديبهم والقضاء على ضررهم(١).

٢ ـ طبقات المجتمع :

*** الطبقة الحاكمة :**

تولّى حكم الحجاز الأشراف من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما في مكة المكرمة. ومن ذرية الحسين بن علي رضي الله عنهما في المدينة المنورة واتّسم حكمهم بطابع الإمارة فقط(٢).

وفي رحلة ابن جبير نجد إشارة إلى حاكم مكة المكرمة الأمير مكثر ابن عيسى (٣) ، وكان مقيماً في داخل مكة المكرمة واعتمد على الوزراء والقوّاد والحاشية في تسيير أمور البلاد إلاّ أننا لم نعثر على أسماء أحد منهم(٤).

وتشمل هذه الطبقة أيضاً الأمراء الذين اعتمد عليهم الشريف في إدارة القرى والمناطق التابعة لمكة المكرمة . في حين انفردت مدينة ينبع بأمير مستبّد بها. وقام بحكم خليص أحد الأشراف المعروف بالعدل وحسن السيرة والإحسان إلى الحجاج. وفي مّر الظهران أيضاً أحد الأشراف من بني الحسن والمعين عليها من قبل شريف مكة المكرمة(٥).

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص١٠٠ ؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٧ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٨١.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٣ ، ٧٥ ويلاحظ قلّة المعلومات عن هذا الأمير. انظر عز الدين ابن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٣٨.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٤ ، ١٠٠.

(٥) العبدري : الرحلة ، ص ١٦٣ ، ١٧٧.

وفي رحلة ابن رشيد نجد إشارة إلى شريف مكة المكرمة أبي نمي محمد ابن أبي سعد الحسني وما تمتع به من هيبة وسلطان وقوّة شخصية[1]. والذي استمر في إمارته حتى زمن رحلة العبدري والذي أغفل الإشارة إليه واستمر حكمه في عهد رحلة التجيبي الذي أشار إلى تعيينه عاملاً من قبله على مدينة جدة[2].

وقد أشار التجيبي في رحلته واصفاً الشريف أبا نمي من الناحية الخلقية قائلاً :إنه شيخ خفيف العارضين ، شديد السمرة ، ضخم الجسم ، معتدل القامة حسن الصورة ، تميّز بالسكينة والهيبة وقوة النفس والإقدام والشجاعة والتواضع وقال في هذا : إنه رأى الشريف ذات ليلة أثناء طوافه بالبيت الحرام وهو يهّم بتقبيل الحجر الأسود وكان المجاورون قد سبقوه إلى ذلك وحاول أتباعه إبعادهم عن الحجر الأسود وإفساح المجال للشريف فنهاهم عن ذلك وانتظر حتى انفضّوا وقام بتقبيل الحجر وعقب فراغه اتجه إلى المقام وصلّى فيه ركعتي الطواف على الأرض بعد إزاحته لرداءٍ فرشه له أحد أتباعه ، واتجه بعدها إلى السعي لإتمام عمرته.

وللشريف أبي نمي أعوان لمساعدته في الحكم منهم وزير قدير لم ترد إشارة إلى اسمه وكانت إقامة الشريف في حصن له خارج مكة المكرمة يسمّى الجديد.

ترك الشريف أبونمي عدداً من الأولاد تولى بعضهم إمارة مكة المكرمة وأسهموا في أحداثها مثل رميثة وحميضة وغيرهما وهذا له دلالة على حصر السلطة في أعضاء الأسرة الحاكمة من الأشراف[3].

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٩٦ ، ١٠٠.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٨ ، ٤٦٣.

ويلاحـظ في رحلة ابن بطوطة أيضـاً من حكام مكة المكرمة الأشراف من نسل الشريف أبي نمي عطيفة ورميثة ومقرهما مكة المكرمة[1]. ودارهما قرب المسجد الحرام وأقام رميثة أحياناً في حصن الجديد[2].

وقد تميّز رميثة بحسن السيرة في أهل مكة المكرمة بينما كان الناس يخشون أخاه حميضة لقسوته[3]. وتولى الحكم من أولاد رميثة عجلان[4] وثقبة[5].

أما المدينة المنورة فمن حكّامها نلاحظ إشارة ابن بطوطة إلى كُبيش ابن منصور بن جماز سنة ٧٢٦هـ / ١٢٢٨م[6] وطُفيل بن منصور بن جماز[7] من ذرية الحسين بن علي.

واعتمد الأشراف على حرس يسمون بالحرابة ووصفوا باللصوص لسلبهم أمتعة الحجاج بحيل وطرق عجيبة[8].

*** طبقة القوّاد :**

وهي طبقة لها أهميتها الكبرى تتبع الشريف ويتّم اختيار أفرادها من أكابرالأشراف[9] واحتفظت كتب الرحّالة باسم أحد هؤلاء القوّاد وهو محمد ابن

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٨٤.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٤١٥.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٤) عجلان بن رميثة ولي مكة لعدّة مرات وتوفي سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ٤٤٢.

(٥) ثقبة بن رميثة من أسرة قتادة ولي إمارة مكة شريكاً لأخيه ثم استقل بها إلى أن مات سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م. انظر ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ ، ص ٢٣١. وفيما يتعلق بتولي وعزل كل منهما. انظر ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٨؛ الفاسي : العقد الثمين، ج٤، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٤.

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٨) ابن جبير : الرحلة ، ص١٠٠ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٩) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٤ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٢.

الحسن مولى الشريف أبي نمي[1] . وأحياناً قد يكون القائد لايمّت إلى الأسرة الحاكمة بصلة . كما أشار ابن بطوطة إلى هذا الأمر من خلال ما أورده من أسمائهم[2].

*** طبقة العلماء :**

حظي العلماء بأهمية كبيرة لدى الناس . حيث حرص الكثير على القدوم إليهم وتلقّي العلم عنهم . وحظيت بلاد الحجاز بزيارة العديد منهم وجلسوا لإلقاء الدروس على الناس مع حرص بعضهم الشديد على إزالة البدع والمنكرات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحمل الأذى في سبيل ذلك ولهم مواقف في الحق مع الحكام نسوق منها على سبيل المثال ، ما حدث بين العالم أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني حيث سجنه الشريف أبونمي لقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يلبث أن أطلقه بعد مدّة من الزمن[3].

*** طبقة القضاة :**

يلحق بفئة العلماء طبقة القضاة والأئمة . حيث يختارون من رجال العلم وأهل الدين ويقومون بتنفيذ الأحكام الدينية على سائر الناس. وفي بلاد الحجاز نلاحظ وجود قضاة لجميع المذاهب ؛ فكلّ طائفة تتبع إمامها وقاضيها، ولكل إمام مكان محدّدّ في المسجد يصلّي فيه مع أتباعه . وإلى جانب قضاة السنة هناك قضاة وأئمة للمذهب الشيعي ، وقد أشار ابن بطوطة إلى وجود قاضٍ شيعيّ في المدينة المنورة[4].

*** أصحاب المهن :**

التجار :قدم التجار دوراً كبيراً في بلاد الحجاز ، إذ أنه من الملاحظ

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٩ ؛ سليمان مالكي : بلاد الحجاز ، ص١١٠.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٢. انظر ما سبق ص ١٩٩.

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٩٦.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٨ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٧.

اعتماد بلاد الحجاز بالدرجة الأولى على التجارة . وكانت حوانيت التجار مصفوفة على جانبي الصفا والمروة. وهناك الفلاحون المشتغلون في بساتين مكة المكرمة المتناثرة في الزاهر والمسفلة. بالإضافة إلى مهن أخرى متنوّعة منها كالسقائين والخبازين[1] وصناع الحلوى[2] والرعاة[3]. والأغوات وهم خدم المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة[4] وهم من أصل حبشي وصقلبي تميزوا بالظرف وحسن المظهر[5] وسبب استمرارهم هو صلاح الدين الأيوبي فقد ثبتهم في أعمالهم وكتب لهم بذلك كتاباً وقفهم فيه على الحرم النبوي وهو موجود لديهم إلى وقت السخاوي. ويعملون على العناية بالمسجد خلال ساعات النهار ويقومون بإغلاق أبوابه ليلاً مع القيام بنظافته وإشعال وإطفاء قناديله وغير ذلك[6].

ويبدو ان استخدام الخدم للعناية بالمسجدين أمر قديم ، إذ نجد أن معاوية بن أبي سفيان جعل عبيداً للمسجدين في مكة والمدينة ومن ثم أصبح ذلك تقليداً معروفا[7].

ومن المهن أيضاً صناعة الثياب ، إذ يطلق على أحد أبواب المسجد الحرام باب الخياطين[8]. وهناك المعلّمون والنساخ[9] ، إلى جانب مهنة الطوافة

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٩ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٨.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨.

(٣) جميل حرب : الحجاز واليمن ، ص٢٣٠.

(٤) (الأغوات) جمع آغا. أنظر عبدالرحمن عبدالكريم الأنصاري : تحفة المحبين ، ص ٥٣ ؛ وعن مراتب وأعمالهم. انظر توفيق نصر الله : الأغوات نسل منقطع النظير ، مجلة اليمامة ، العدد ١٩٢، ١٤١٠هـ ، ص ٤٢ ـ ٤٦.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

(٦) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦١ ـ ٦٣.

(٧) الأزرقي : أخبار مكة ، ج١ ، ص ٢٥٤.

(٨) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٧.

(٩) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨.

وقيام سدنة البيت بالطواف بالحجاج مقابل أجر يأخذونه[1]. إضافة إلى مهن أخرى كالحمالة[2] والجزارة[3] والبناء والتنجيد[4] وصناعة الدهان[5].

ومن المهن الموجودة في جدة فئة عملت بتأجير الجمال للراغبين بذلك إلى جانب مهنة الحطاب[6] والصياد[7]. وهذه مجمل عن المهن التي وردت عنها إشارات واستطعنا تتبعها ولايعني هذا اقتصار أهل الحجاز على هذه المهن فقط فربما وجدت غيرها ولكن يبدو أن الرحالة أغفلوا ذكرها.

٣ ـ العادات والتقاليد :

* الأسرة في بلاد الحجاز :

اشتهر أهل الحجاز بنكاح الجواري الحبشيات[8]. ولم يكن الأمر قاصراً على العامة بل نجده منتشراً بين الطبقة الحاكمة من الأشراف مثل الشريف

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٦٤ وهذه أول إشارة لها ويثبت أن الطوافة عرفت منذ ذلك الوقت وليس كما يذكر البعض أنها إنما عرفت بعد القرن الثامن الهجري. انظر محمد عبدالله مليباري : المنتقى في أخبار أم القرى ، ص ١٨٩ وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب منتقى من ثلاثة كتب الأول كتاب الفاكهي والثاني الأزرقي والثالث الفاسي وقد انتقى مادته وجمعه المستشرق الألماني الأستاذ/ فردنالد وستنفلد ـ F - wustenfeld ـ وليس كما ذكر محقق الكتاب من ان نسبته تعود إلى ناسخه الذي اعتقد أنه الشيخ عبدالستار الدهلوي. انظر ما جاء حول هذا الموضوع في مقالة للدكتور / فواز الدهاس : وقفه عند كتاب المنتقى في أخبار أم القرى ، جريدة عكاظ ، العدد ٦٩٦٠ ، ٢١ شوال ١٤٠٥هـ / ٩ يوليو ١٩٨٥م ، العدد ٧٠٢٣ ، ٢٥ ذي الحجة ١٤٠٥هـ/ ١٠ سبتمبر ١٩٨٥م.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٩.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٩.

(٤) أي الأشخاص القائمين على صناعة بعض الأثاث المستخدم في المنازل. انظر التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٣.

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ٣٣٦.

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٣.

(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠

(٨) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٣ ؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٥.

أبي نمي حيث أنّ ابنه رميثة أسود اللون[1] وكذلك حميضة وكانت والدة الشريف أبي سعد الحسن حبشية[2] وربما يكون الداعي الى التزوج بهذا الجنس هو لتدعيم سلطة الشريف المتولي للإمارة .

العادات والتقاليد :

حظي شهر رمضان في بلاد الحجاز بالتعظيم والإجلال لما له من أهمية دينية . ومن العادات المعروفة فيه المسحّراتي وهو القائم على إيقاظ الناس وقت السحور. وفي مكة المكرمة يقوم المؤذن الزمزمي بهذه المهمة حيث يقف في المنارة الواقعة في الركن الشرقي من المسجد الحرام للدعاء والتذكير وإظهار فضل وبركة السحور ، ويقف معه اثنان من إخوته يقومان بترديد بعض أقواله. ويبدو أن السبب في اختيار هذا المكان لإيقاظ الناس قربه من منزل الأمير . وعلى هذه المنارة تنصب خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يوضع عليها قنديلان كبيران من الزجاج يوقدان خلال فترة السحور وسبب ذلك إعلام الناس حال رؤيتها بدخول وقت السحور لمن لايتسنّى لهم سماع صوت المسحراتي لبعد منازلهم عن المسجد المكي. وعند اقتراب الفجر يقوم المؤذن الزمزمي بإنزال القنديلين ويبدأ الأذان وهذه عادة مستمرة طوال ليالي الشهر الكريم.

وعند إقبال شهر شوال يتميز الناس فيه بارتداء الملابس الجديدة والتي أعّدت خصيصاً لهذه المناسبة ويتبادلون فيما بينهم التهاني.

وحرص المؤذن الزمزمي في الحرم المكي على الدعاء للخليفة العباسي ولأمير مكة ولصلاح الدين إثر صلاة المغرب دلالة على ما لهؤلاء الحكام من محبة في نفوس أهل الحجاز.

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٢) عزالدين ابن فهد : غاية المرام ، ج٢ ، ص ٧٦ ، ٦٣٧.

ومن العادات أيضاً ضرب الطبول في أوقات الصلاة إشعاراً بابتداء موسم الحج(١).

ومن عادة أهل مكة المكرمة في حالة وجود قحط إخراج مصحف مكتوب بخط زيد بن ثابت الصحابي الجليل رضي الله عنه ووضعه في القبة مع المقام بعد فتح باب الكعبة ثم يجتمع الناس وهم حاسرو الرؤوس داعين الله ومتضرعين إليه حتى يتداركهم برحمته(٢).

والواقع أن هذه العادة بدعة لأن الوارد في السنة أنه في حالة القحط تقام صلاة الاستسقاء ويجتمع الناس لأدائها في أماكن خارج البلد لأجل السعة مع الاستغفار والتوبة والإقلاع عن الذنوب.

ومن عادات المكيين أيضاً الاحتفاء بالضيوف وإقامة الولائم كل حسب استطاعته المادية بالإضافة إلى عادة استقبال الحجاج وإخراج أطفالهم لمساعدتهم في أداء المناسك وإرشادهم إلى الطرق الصحيحة لأداء الفريضة(٣).

كما درج أهل مكة على إعداد مياه زمزم للشرب في الحرم حيث توضع في دوارق بعد تنظيفها وجميرها وتوضع حولها كيزان(٤) بيضاء تسمى الغراريف(٥).

كما تحدث ابن بطوطة عن العادات الحسنة لأهل مكة واصفاً إيّاها بأنها من " الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ". ودلّل على ذلك بأنه متى صنع أحدهم وليمة

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص٨٠ ، ١٠١ ـ ١٠٢ ، ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٤٨.

(٢) المصدر السابق ، ص٨٠ ـ ٨١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٨.

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٢٩ ، ٨٠.

(٤) (الكوز) نوع من الأواني ذو عروة وفي حالة عدم وجودها يسمى كوباً. انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٥ ، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٦ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٣ ، ٤٦٣ ؛ المغرفة ما يغرف بها وهي على قدر ملء اليد. انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٩ ، ص ٢٦٣.

بدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين وذكر أماكن تواجد المساكين والمنقطعين فقال يكون بالأفران حيث " يطبخ هناك أهل مكة أخبازهم فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له ولايردهم خائبين . ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيّب النفس بذلك من غير ضجر ".

ومن حميد عاداتهم أيضاً اعتناؤهم بالأيتام ومساعدتهم على تعلّم طرق الكسب الحلال . حيث اعتاد الأيتام الصغار الجلوس في السوق ومع كل واحد منهم قُفّتان إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة . ويسمون القُفة مَكتلاً فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويُعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفّتيه واللحم والخضر في الأخرى ، ويحمل الصبي ذلك إلى دار الرجل ليهّيأ له طعامه منها مقابل أجر معلوم . في حين يتجه الرجل لقضاء أعماله(١).

وقد أشار ابن بطوطة إلى كثرة استعمال أهل مكة للطيب والكحل والسواك . ووصف نساء مكة بأنهن فائقات الحسن بارعات الجمال ، تميزن بالصلاح والعفاف ومشاركتهّن الرجال في حبّهن للطيب لدرجة استبداله بالقوت والطعام . كما حرصت النساء على الطواف في ليلة الجمعة فيذهبن إلى المسجد الحرام في أحسن لباس فيغلب عند ذلك على الحرم رائحة طيبهّن حتى بعد ذهابهّن يبقى أثر الطيب عبقًا(٢).

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٧ ، كانت هذه العادة موجودة إلى وقت قريب جداً وقبل التوسع العمراني الذي رافق الطفرة الاقتصادية.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥١ ؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٩ ؛ وفي هذا تجاوز للشريعة الإسلامية والتي أمرت بعدم الطيب للمرأة حال خروجها من المنزل فقد روي عن زينب امرأة عبدالله قالت (قال لنا رسول الله ﷺ إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً). انظر مسلم : صحيح مسلم ، ج٤ ، ص ١٦٣.

وقبل أن نختم حديثنا عن العادات والتقاليد في المجتمع المكي يجدر بنا أن نشير إلى بعض الخرافات والبدع التي كانت موجودة فيها : مثل اعتقادهم في زيادة ماء زمزم في ليلة النصف من شهر شعبان(١). وقيل أيضاً في كل ليلة جمعة (٢) ، كما أشير إلى عدم هبوط الحمام فوق الكعبة وانتشاره حولها وفي حالة نزوله عليها فإنه يموت لحينه أويشفى من علته إذا كان عليلاً(٣). وقد أشار التجيبي إن ذلك نوع من البدع خصوصاً عند ملاحظته لاقتراب الحمامة منه لمرة واحدة الأمر الذي أثار فضوله فتوجه بالسؤال لشيخه أبي إسحاق الطبري فأخبره إن العادة درجت عندهم أنه لاينزل عليه طائر إلا مستشفياً من مرض ثم أردف قائلاً : والله أعلم(٤).

وقد سجل هذا النوع من البدع الرحالة المغاربة والأندلسيون على الرغم من حرصهم على الدقة في كثير من الأمور ولم يقم أحد منهم بمناقشة هذا الأمر . ولكن ناقش هذه القضية محمد طاهر الكردي بإفاضة عند ذكره لحمام الحرم ووقوفه أحياناً على الكعبة المشرفة ، وقد أثبت صوراً تؤيّد هذا ذاكراً أن غيره من الحمام لايقع على الكعبة لأسباب منها :

١ ـ الكعبة بالنسبة لما سواها من الأبنية منخفضة والطيور محبة للأماكن المرتفعة.

٢ ـ الكعبة المشرفة ليس لها بروزات سوى ميزابها وهي ملساء مفروشة بالحرير في حين أن الحمام يحبّ الأشياء البارزة الخشنة ليستطيع التمسك بها علاوة على أن سطحها مفروش بالرخام فهو معّرض لحرارة الشمس الحارقة فلايمكن الوقوف عليه لذلك.

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١١٩ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٧.
(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.
(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، ص٣٠٠ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣٩.
(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٨٩.

٣ ـ ليس في الكعبة فجوات تجذب الحمام إليها لبناء أعشاشها[١].

ولعل ما أورده الكردي حول هذه المسألة صحيح ؛ لذا فالكعبة لاتجذب الطيور للوقوف عليها . فساد هذا الاعتقاد عند أهل مكة وغيرهم.

ومن الشائعات أيضاً قولهم إنه على جانبي طريق الزاهر جبال أربعة جبلان عن اليمين وجبلان عن اليسار عليها أعلام من الحجارة وقيل إنها جبال مباركة لأن إبراهيم عليه السلام جعل عليها أجزاء الطير ثم دعاهن حسبما ورد في القرآن الكريم وأردف ابن جبير أنها سبعة وليست أربعة ، وعزا ذلك إلى علم الله تعالى[٢] . وأغلب الظن أن هذا القول غير صحيح إذ لم يرد بشأنها أي ذكر في أخبار مكة للأزرقي ، بالإضافة إلى أن كتب التفاسير التي فسرت الآية : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهّن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾[٣]. لم تشر إلى أن هذه الجبال بمكة المكرمة بل نجد أن ابن كثير في تفسيره لم يكن واثقاً من عدد الجبال أهي أربعة أم سبعة[٤] مثل ابن جبير. وأغلب الظن أن الحادثة وقعت قبل قدوم إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة ولم يشر القرطبي في تفسيره إلى مكان وجود هذه الجبال فقال " وقال ابن عباس أمر الله تعالى إبراهيم بهذا قبل أن يولد له وقبل أن ينزّل عليه الصحف "[٥].

---

(١) انظر بإفاضة محمد طاهر الكردي المكي : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، ج٢ ، ص٢٢٠ ـ ٢٢٤.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٩ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) القرآن الكريم : سورة البقرة ، ٢٦٠/١.

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج١ ، ص ٣١٥.

(٥) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج٣ ، ص ٣٠٢ ؛ عبدالوهاب النجار : قصص الأنبياء ، ص ٩٧.

ومما ورد أيضاً عن البدع والشائعات ما قاله ابن جبير حول الحجارة الموضوعة عند باب بني شيبة من أنها أصنام لقريش كانت تعبدها في جاهليتها قد كُبت على وجهها تطؤها الأقدام ويسير الناس عليها بالنعال . وقد نفى ذلك وأوضح أن الأصنام قد أمر النبي ﷺ يوم فتح مكة بإحراقها وإن هذه الحجارة الموجودة على الباب منقولة وشبهها الناس بالأصنام لعظمها [1]. وأشار التجيبي لهذا الأمر ولم يناقشه[2].

ومن الشائعات ما أثير حول جبل ثور وقولهم من لم يستطع دخول الغار من الفتحة التي دخل الرسول ﷺ منها فهو ابن زنا وأمّا موقف العامة فهناك عدد كبير رافض لذلك[3].

ومنها أيضاً ما أورده ابن رشيد والتجيبي مما قام به آل الشيبي داخل الكعبة المشرفة من استحداثهم كوة في الجدار الغربي مقابل الباب يبلغ ارتفاعها نحو ستة أذرع وأطلقوا عليها العروة الوثقى . وأوهموا العامة أن من يلمسها يعد مستمسكاً بها ؛ مع حرصهم على وضع كرسي من خشب الساج يقف عليه الراغب في لمس الكُوة بعد دفع شيء من المال للشيبيين. وأدى الأمر إلى تزاحم الناس في البيت في سبيل ذلك . وما كان من التجيبي إلاّ أن قام بتحذير من تسنّى له تحذيره من هذه البدعة. وموضحاً أن العروة الوثقى التي فرض الإسلام على الناس الالتزام بها هي لا إله إلا الله.

أما البدعة الثانية فهي : وجود مسمار من الفضة في وسط البيت على لوحة من رخام يسمى سُرة الدنيا يضع الشخص بطنه فوقه بعد الكشف عن سرته عقب دفع مبلغ من المال نظير ذلك[4].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص٩٠ .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٤.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٤ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٦ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٥.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٦٤ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

والدليل على أن هذه الأمور من البدع[1] عدم وجودها زمن زيارة ابن جبير. ومع أنها كانت موجودة زمن وجود العبدري بمكة ، إلا أنه لم يشر إليها وإنما ذكر أن القائمين على الكعبة لايسمحون بدخولها إلا بعد دفع شيء من المال عند بابها[2].

ومن غير المعروف بالتحديد وقت ابتداء هذه البدعة . وكما أشرنا فإن الداعي لظهورها الحاجة الشديدة إلى المال[3].

والملاحظ في مثل هذه البدع إقبال الكثير على تصديقها ، واعتبارها حقيقة مسلماً بها . وقد يبدو أن ضعاف النفوس والراغبين في الثراء على حساب الجهال من عامة الناس روّجوا تلك الشائعات ، رغبة في جلب الناس إلى العروة الوثقى والمسمار وغيره والتصديق بهما لاحُباً في نفع المسلمين ؛ بل لما سيعود عليهم من المال الوفير والمأخوذ بطبيعة الحال من البسطاء والحجاج دون وجه حق . إلى جانب عدم احترام قدسية المكان الشريف المستغل في عملية النصب والاحتيال.

وقد انتهى أمر هذه البدع إلى الزوال على يد الصاحب زين الدين أحمد ابن محمد بن على بن محمد المعروف بابن حناء[4] سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م عند مشاهدته لما يحدث في البيت من أمور منكرة فأمر بإزالتها وانتهت هذه البدعة على يديه[5].

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٦.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٤) أحمد بن محمد بن على بن محمد بن سليم زين الدين ابن الصاحب محيى الدين ابن الصاحب بهاء الدين بن حناء سمع من سبط السلفي وحدث عنه وتفقه ودرس وكان فقيهاً ديناً رئيساً وافر الحرمة مات في صفر سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م ودفن في قبر حفره لنفسه بجنب الشيخ أبي محمود بن أبي جمرة . انظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٨٣.

(٥) الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

ولعل سبب ظهور مثل هذه البدع المفسدة للعقيدة راجع أيضاً إلى ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمكة المكرمة ، واقتصار العلماء على التعليم والحديث دون التعرض لذلك إلا من قلة(1). إضافة إلى ضعف الوازع الديني في نفوس سدنة بيت الله الحرام وسعيهم وراء المال بطرق غير مشروعة.

كما ظهر من البدع زمن وجود ابن رشيد والتي لم يشر لها غيره من الرحالة وهو طواف النساء ليلاً وهن حاملات الشموع بأيديهن وسافرات عن وجوههن فعبر عن استنكاره للأمر بأنه من البدع غير المقبولة(2).

ومما شاع أيضاً لدى أهل مكة المكرمة قولهم إن مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما بمكة المكرمة . وقد ذكره ابن جبير على أنه حقيقي(3) ونفاه التجيبي(4).

ومن الشائعات زمن زيارة التجيبي لمكة وجود شجرة فوق جبل أبي قبيس يقصدها الناس على أنها الشجرة التي تمت بيعة الرسول ﷺ تحتها فنفى التجيبي هذا الزعم قائلاً: " إنها خفيت على أصحاب النبي ﷺ مع معاينتهم لها وقرب العهد بها فكيف يعلمها هؤلاء "(5). فضلاً عن أن هذه الشجرة بالحديبية وليست بمكة وقد أمر بقطعها عمر بن الخطاب رضى الله عنه خوفاً من افتتان الناس بها(6).

ومن جملة ما شاع لديهم أيضاً وجود أكوام كبيرة من الحجارة على قبرين عرفا بأنهما قبرا أبي لهب وامرأته وقيل بل قبر أبي رغال(7) وهذا رأى

---

(1) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٣١ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص٦٠.

(2) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٦٥.

(3) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤١ ــ ١٤٢. انظر ما سبق ، ص ٩٦ وفيما بعد ، ص ٤١٢.

(4) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٣٣.

(5) المصدر السابق والصفحة.

(6) الأزرقي : أخبار مكة ، ج١ ، ص ١٤٢ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥١.

(7) أبورغال هو دليل الحبشة عند غزوهم للكعبة أهلكه الله فيمن هلك منهم ودفن بين مكة والطائف فمر النبي ﷺ بقبره فأمر برجمه فصار ذلك سنة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٣.

غير صحيح[1] من التجيبي فقبر أبي رغال بالمغمس والمغمس خارج منطقة الحرم وأبورغال هذا كان دليلاً لأصحاب الفيل ولم يصلوا الحرم[2].

المدينة المنورة :

من عادات أهل المدينة الحسنة ما ذكره ابن رُشيد من قيامهم باستقبال ركب الحجيج مبشرين بالوصول إلى حضرة المصطفى ﷺ مع تقديم التمر لهم وقد وضعوا عصياً في أطرافها أوعية صغيرة يضعون فيها شيئاً من التمر يناولونه للجالسين داخل القباب المغطاة بالأقمشة[3].

ونلاحظ خلال كتابات الرحالة قلة معلوماتهم عن الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة . ولعل ذلك راجع إلى قصر مدة إقامتهم بها.

أما البدع المنتشرة في المدينة فمما ذكره ابن جبير عن إطالة جلوس الخطيب يوم الجمعة بعد الخطبة الأولى لجمع المال من المصلين ثم يعود عقب ذلك لمواصلة خطبته[4].

وقد استعظم ابن جبير الأمر ولعلها إحدى وسائل كسب المال بطرق غير مشروعة.

كما أورد خبراً عن بقية الجذع الذي حنّ للنبي ﷺ قائلاً : إن هناك قطعة منه في وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح الخدود فيها[5]. ولم يشر ابن جبير إن ذلك من صنع العامة ؛ بل على أساس أنه ما بقي من الجذع حقاً. كما أورده البلوي أيضاً معتقداً صحته وزاد العبدري

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص٨٨ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٤.

(٢) المغمس بالضم موضع قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبورغال. انظر الأزرقي : أخبار مكة ، ج١ ، ص ١٤٢ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٦١.

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٦.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٥) المصدر السابق ، ص١٧٠. وهذا مما لم يأمر به الشرع وهو مغالاة منهم.

على أن هذا الجذع قد فقد بعد وفاة الرسول ﷺ ولم يجده أبوبكر رضي الله عنه في حين وجده عمر ابن الخطاب أثناء خلافته عند رجلٍ بقباء قام بدفنه حتى أكلته الأرضة فأخذ له عمر ابن الخطاب عموداً فشقه وأدخله فيه ثم شعبه ورده بموضعه فلما زاد عمر بن عبدالعزيز في القبلة جعله في المحراب(١).

ومن العجيب إشارة العبدري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام بأخذه من رجل أخفى أمره فأعاده إلى مكانه ، ووجه العجب هنا ما عرف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتخلصه مما يمكن أن يؤدي إلى فتنة الناس إذ أنه هو الذي أمر بقطع الشجرة التي تمت بيعة النبي ﷺ تحتها خوفاً من الفتنة فكيف يسعى لشيء يؤدي إليها !؟

إضافة إلى أن ابن النجار ذكر أن الجذع غار وذهب بعد ما خيره الرسول ﷺ بين أن يغرس بالجنة وبين أن يرد إلى مكانه فينمو مرة أخرى فاختار أن يكون في الجنة وكان الجذع في موضعه وعلى حاله زمن الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما. ولما هدم عثمان بن عفان رضى الله عنه المسجد اختلف في الجذع فقيل أخذه أبي بن كعب وقيل دفن في موضعه(٢). وقد جاءت إشارة إلى وجود الجذع زمن السمهودي ، حيث ناقش هذا الموضوع مناقشة مستفيضة مؤيداً ما ذهب إليه ابن النجار وأنكر وجوده لاسيما وإن المسجد النبوي قد تعرض لحريقين الأول سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م والثاني سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م فيستحيل بالتالي سلامته(٣).

والحاصل أنها الأوهام التي علقت بأذهان الناس ومنهم الرحالة ابن جبير والعبدري وابن بطوطة حول الجذع الذي حنّ إلى الرسول ﷺ غير أن الواقع

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢١٩ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧. ونلحظ من قول العبدري جهل الحجاج به وحرصهم على ذلك قائمٌ على التقليد.

(٢) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٧٨.

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، ج١ ، ص٣٨٠ ـ ٣٨٢ ، ج ٢ ، ص ٥٨٩ ـ ٦٣٣.

وما تشير إليه الروايات التاريخية يؤكدان أنه ليس الجذع ذاته لزواله منذ وقت مبكر ولا علاقة بينهما(١). ولعل وجود هذه القطعة إنما لتكون علماً على موضعه الذي ربما يكون قريباً من هذا المكان.

ومما أورده ابن جبير عن البدع في المدينة المنورة ما قيل : إن بالمسجد النبوي حجراً مربعاً أصفر طوله شبر في شبر شديد اللمعان قيل : إنه مرآة كسرى وفي أعلاه داخل المحراب مسمار مثبت في جداره فيه علبة صغيرة غير معروفة يقال : إنها كأس كسرى(٢). ويلاحظ من قول ابن جبير عدم تمكّنه من معرفته وأدى هذا الأمر فيما بعد إلى الاعتقاد أنه خرزة فاطمه بنت رسول اللهﷺ وقد أمر بقلعها سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م الصاحب زين الدين نظراً لما تحدثه من فتنة لدى الناس(٣).

وكان في الجهة الشرقية من البلاط الثاني دفة مغلقة على وجه الأرض على سرداب يهبط بواسطة درج تحت الأرض تقود إلى خارج المسجد إلى دار أبي بكر رضي الله عنه وكان طريق عائشة رضي الله عنها إليها وبجانبه دار عمر بن الخطاب وابنه عبدالله رضي الله عنهما وهما بلاشك موضع الخوخة المؤدية لدار أبي بكر رضي الله عنه التي أمر النبي ﷺ بإبقائها خاصة(٤). ولم يلبث مع مرور الوقت أن راجت حولها الأكاذيب بأنها دار عائشة أو فاطمة رضي الله عنهما طمعاً في سلب أموال الناس(٥).

ونجد أن البدع والشائعات التي انتشرت بين الناس واستقرت في أذهانهم وكأنها حقيقة مسلم بها دفعت كثيراً من العلماء لمقاومتها والتخلص منها حفاظاً على صحة وسلامة النواحي الدينية.

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص١٧٠ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢١٩ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١١٣.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٢.

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، ج١ ، ص ٣٧٣.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧١ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٨٧.

(٥) حمد الجاسر : رسائل في تاريخ المدينة ، ص١٦٠.

ولا شك أن مرد ذلك إلى ضعف الحالة الدينية . وربما كان الحافز على انتشار مثل هذه البدع يعود إلى محاولة كسب الأموال من البسطاء والحجاج .

الشائعات والبدع السائدة في طرق الحجاز المؤدية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة :

قد حفظت لنا كتب الرحلات بعض العادات والبدع والشائعات سجّلها الرحالة أثناء طريقهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة . فمن ذلك ما ذكره ابن رشيد وابن بطوطة من عادة الركب المار بتبوك إعداد الجيش بأسلحته ويتقدم الرجّالة والفرسان وخلفهم الركب في حين يقوم بعضهم بتحميل أكوام الحطب على الدواب لقلّته بأرض تبوك ويقبلون على المدينة بهذه الهيئة زاعمين أن الرسولﷺ دخلها بتلك الطريقة[1].

وأشار ابن رشيد إلى وجود شجرة بأرض تبوك جلس النبيﷺ تحتها فاخضرت[2].

وأورد ابن جبير وابن بطوطة مزاعم أهل بدر حول جبل يسمى بجبل الطبول يقال : إنهم يسمعون صوت الطبول على مقربة منه[3].

وجبل الطبول هذا لم يرد له ذكر بهذا الاسم في كتب المعاجم أو المصادر التي أرّخت للمدينة المنورة . ولكن أشار السمهودي بهذا الصدد قائلاً: " شهد رسول اللهﷺ بدراً بسيفه الذي يدعى العضب وضربت فيها طبلخانة النصر فهي تضرب إلى قيام الساعة "[4].

وأغلب الظن أن الأصوات المسموعة ليست قرع طبول وربما هي أصوات بفعل حركة الرياح عند ملامستها للأتربة والصخور وخاصة إن الذاكرين لخبر جبل الطبول من الرحّالة اختلفوا في تحديده مع ملاحظة عدم سماعهم لذلك .

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٧ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١١٢.

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص١٠.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨.

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ، ج٤ ، ص ١١٤٦.

بل يوردون الرواية بصيغة إشاعة مثل ابن بطوطة . حيث أشار إلى ضرب الطبول يوم الجمعة وابن جبير حددها بيومي الإثنين والخميس[1].

ومن البدع الموجودة في بدر وجود هضبة يسعى الناس لصعودها بالإضافة إلى دخولهم لمكان يزعمون أنه الغار الذي أوى إليه الرسول ﷺ وصاحبه عند هجرتهما إلى المدينة المنورة . وأشار العبدري إلى عدم صحة الأمر نظراً لوجود الغار في جبل ثور على مقربة من مكة[2]. وهذا يدل على انقطاع المعرفة بسيرة الرسول ﷺ في ذلك الوقت من قبل العامة .

ومن المشهور أيضاً ذكرهم لبدر وحنين بشكل متلازم وبالطبع فذلك غير صحيح لاختلاف كل منهما عن الأخرى إلى جانب اختلاف المكان والزمان[3].

ولو كان قصد العبدري بزعم أهل هذه المنطقة (بدر وحنين)

المشهورتان في التاريخ الإسلامي فأمر غير مقبول ولكن أورد الجزيري خبراً يشير بأن حنين عين أمام بدر وأنها ليست المقصودة في الآية . وقد أوضح محقق كتاب الجزيري " إن قبالة بدر عين ضعيفة يقال لها عين حنين "[4]. ومن هنا يتضح الخلط الحاصل في إدماج الاسمين معاً لدرجة لم يعرف المقصود من دمجهما فوهم كثير من الناس بأن المقصود بحنين الغزوة المشهورة.

٤ ـ الاحتفالات :

درج أمراء مكة على الاحتفال ببداية الشهور الهجرية ، وذلك بالذهاب إلى الحرم المكي مع طلوع شمس أول كل شهر. أما العامة فيقومون بتهنئة بعضهم بعضاً مع دعاء كل منهم للآخر[5].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨.

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٤.

(٣) المصدر السابق والصفحة .

(٤) الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٢٤ ـ ١٤٢٥.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، ١٠١ ـ ١٠٢.

كما حرص أهل مكة على الاحتفال بشهر رجب . وهو لديهم بمثابة موسم كبير يجري الاستعداد له قبل قدومه بمدة من الزمن ، بالإضافة إلى حرصهم على أداء العمرة الرجبية[1] فيه ويشاركهم ذلك المجاورون وسكان المناطق القريبة من مكة المكرمة فيكون احتفالهم في غاية الغرابة والعجب . فقبل ليلة وصباح بداية الشهر يتّم الاستعداد لها بأيام فتمتلىء شوارع وأزقة مكة المكرمة بالهوادج المشدودة على الإبل المكسوّة بالحرير والكتّان كل حسب سعته ويخرجون إلى التنعيم فتمتلىء بهم الشعاب والأباطح . وقد ذكر ابن جبير أن هذه الهوادج يخيل للناظر إليها أنها قباب مضروبة.

وفي أول ليلة من الشهر تُشعل النيران على جانبي الطريق كله ، بالإضافة إلى الشموع التي تتقدم الإبل ؛ وعند عودتهم إلى المسجد الحرام تكون الصفا والمروة كلها مسرجة وموقدة والازدحام فيها شديد وعند ثبوت دخول شهر رجب تضرب الطبول وتنفخ الأبواق إشارة إلى أنها ليلة الموسم.

ويشارك الأمير الاحتفال بهذا الشهر ويخرج هو وحاشيته لأداء العمرة. وطريقته في الطواف كعادته في أول كل شهر. وبعد انتهاء الطواف يصلّي خلف المقام عقب إخراجه من الكعبة خوفاً عليه في مثل هذه المناسبات ، ويوضع في قبته الخشبية . وعند فراغه من الصلاة ترفع القبة فيستلم المقام ويتمّسح به[2] ثم تعاد القبة عليه.

والملاحظ هنا أن الاحتفال بهذا الشهر لم يكن قاصراً على الرجال فقط، بل شاركت النساء أيضاً في الاحتفال ، فيتصافح الرجال ويدعو كل منهم للآخر

---

(١) هي من البدع التي حرص أهل مكة عليها ويأتي كونها بدعة من اختصاصها بشهر معين وعلى الرغم من أنها بدأت كشكر لله تعالى عقب إتمام عبدالله بن الزبير بناء الكعبة إلا أنها استمّرت وكأنها أحد أركان الإسلام الواجبة. انظر الأزرقي : أخبار مكة ، ج١ ، ص٢١٠.

(٢) وهذا الأمر من البدع المتفشية في مكة فالأمر صريح للمسلمين بأن يكون المقام مصلى فقط كما ورد في القرآن الكريم (واتخذوا من مقام إبراهم مصلّى) القرآن الكريم : سورة البقرة ، ١٢٥/٢.

وكذلك النساء[1]. ويكون اجتماعهم بهذه الطريقة طوال الشهر. وفي أول ليلة منه وفي منتصفه وفي السابع والعشرين منه ؛ بحيث تكون متميزة عن باقي أيام الشهر وتفتح الكعبة كُلّ يوم فيه . ويوم التاسع والعشرين من الشهر مخصص للنساء فقط.

وفي ليلة الخامس عشر من شهر رجب يخرج الأمير أيضاً على هيئته في أول ليلة للعمرة وكذلك العامة في ليلة التاسع والعشرين يخرجون على هيئاتهم السابقة ويحرمون من الأكمة التي أمام المسجد . والأصل في هذه العمرة عندهم كما ذكر ابن جبير أن عبدالله بن الزبير لما فرغ من بناء الكعبة خرج ماشياً حافياً معتمراً وأهل مكة فانتهى إلي تلك الأكمة فأحرم منها. وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب وجعل طريقه على ثنيّة الحجون (ثنيّة كداء) المؤدية إلي المعلى التي كان دخول المسلمين منها يوم فتح مكة المكرمة، فبقيت تلك العمرة سنّة عندهم من ذلك اليوم ومن تلك الأكمة نفسها[2]. وهم لا يقتصرون على الاحتفال بالعمرة فقط ؛ بل تعدّاه إلى تنعّمهم في المطعم ويستمر ذلك أياماً يتهادون فيما بينهم على قدر استطاعتهم شكراً لله[3].

وللنساء احتفال خاص بهّن في يوم التاسع والعشرين من رجب ، فيفرد البيت لهن فيجتمعن من كل صوب مستعّدات لهذا اليوم فلا تبقى امرأة بمكة المكرمة إلا حضرت المسجد الحرام في ذلك اليوم . فيفتح الشيبيون الباب لهن ويسرعون بالخروج ، ويترك الناس الطواف والحِجر لهن فيخلون المطاف من الرجال فتبادر النساء الصعود إلي الكعبة ويتسلسل بعضهن ببعض متشابكات حتى يكاد يقع بعضهن على بعض وهن خلال ذلك صائحات مكبرات مهللات وينقضي الوقت المخصص لهن إلى قرب الظهر مع إكثارهن من تقبيل الحجر

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٢) انظر الصفحة السابقة هامش رقم ٢ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١١٥ ـ ١١٦.

واستلام الأركان . فهذا اليوم يمثل أكبر أعيادهن ؛ لذا يكثرن من الاستعداد والتأهّب له.

ويقوم الشيبيون بغسل الكعبة بماء زمزم في اليوم التالي ؛ بسبب إحضار النساء أبناءهنّ الصغار والرضع معهن فيتحرّى غسله تكريماً وتنزيهاً له مما يخشى عليه من بول الأطفال الصغار . فيتولّى الشيبيون غسله ويبادر كثيرٌ من الرجال والنساء عند انسكاب الماء عند غسله بغسل وجوههم وأيديهم منه تبركاً به وربما يقومون بجمعه في أوان قد أُعدّت لذلك غير مدركين العلّة في غسله ، ومنهم من يتوقّف عن ذلك لعدم جوازه[1]. وهو الأصح.

ومن العادات الدينية الاحتفال بليلة النصف من شعبان ، حيث يبادرون إلى أعمال البر من عُمرة وطواف أفراداً وجماعات . فقد شاهدهم ابن جبير وقال . «يصلون جماعات جماعات تراويح يقرأون فيها بفاتحة الكتاب وبـ قل هو الله أحد عشر مرات في كل ركعة إلى أن يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة، وكل جماعة يتقدمها إمام » وفي هذه الليلة تبسط الحصر وتوقد الشموع وتشعل المشاعل وتضاء المصابيح . وقد أحصى الجماعات فوجدها سبعًا أو ثماني كما أشار إلى طائفة آثرت الصلاة على انفراد ، وأخرى آثرت الاعتمار ، وثالثة اكتفت بالطواف وهم من المالكية.

أما شهر رمضان فله احتفالاته وعاداته الخاصة . فابن جبير أشار إلي الخلاف في ليلة حلوله بين أهل السنة والشيعة وعند التأكد من حلوله تعطى الإشارة ببدء الصوم[2].

وأول شيء يتم بالمسجد الحرام في رمضان تجديد الحصر والإكثار من الشمع والمشاعل وغيرها من أدوات الإضاءة . ويتفرق الأئمة لإقامة التراويح في أنحاء المسجد ؛ كل إمام بفرقته في ناحية منه والمالكية لها ثلاثةُ قراء يتناوبون

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، ١٢٢.

القراءة وهم أكثر جمعاً ، ويتنافس التجار المالكية في جلب الكثير من الشمع لإمامهم فتكون أماكنهم " تروق حسناً وترتمي الأبصار نوراً " ومع ذلك فجميع أنحاء المسجد وزواياه مليئة بالقرّاء والمصلين.

أمّا الغرباء فيفضلون الطواف والصلاة في الحِجر على أداء التراويح. وكان إمام الشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً في العبادة ، وبعد إتمام عشر ركعات من التراويح يتّجه بجماعته للطواف فإذا فرغ عاد للصلاة ويكون الإعلان عن بدء الصلاة بضربة من الفرقعة الخطيبية[1] يسمعها من في المسجد لارتفاع صوتها ؛ فإذا فرغ من ركعتين عاد للطواف وعند انتهائه تضرب الفرقعة مرة أخرى ويعاود الصلاة ركعتين ثم العودة للطواف[2]. وهكذا إلى أن يتم عشر تسليمات فيكون المجموع عشرين ركعة . ثم يؤدي ركعتي الشفع والوتر وينصرف وهذه القاعدة التزم بها غالبية الأئمة. والقائمون على إقامة التراويح خمسة أئمة أولهم إمام الفريضة وأوسطهم الفقيه أبوجعفر بن علي الفنكي القرطبي . وتستعمل الفرقعة الخطيبية طوال الشهر المبارك وتضرب ثلاث ضربات عند الفراغ من آذان المغرب ، ومثلها عند الفراغ من آذان العشاء. وهذه بدعة كما أشار ابن جبير.

ويفرد للعشر الأواخر من شهر رمضان نوع خاص من العبادة . حيث يختم في كل ليلة وتر القرآن ابتداء من ليلة إحدى وعشرين ويقوم بختم القرآن أحد أبناء مكة بحضور قاضي مكة وعدد من الشيوخ ، فإذا فرغ هذا الصبي قام فيهم خطيباً ومن ثم يستدعي أبو الصبي للاحتفال بهذه المناسبة الحضور إلى منزله.

---

(١) أول ما بدأ الاعلان عن معاودة الصلاة بالحمد والتكبير حول الكعبة وكان ذلك في زمن ولاية خالد القسري على مكة في خلافة عبدالملك بن مروان. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٢٧٢. وانظر صفة الفرقعة فيما بعد ، ص ٢٤٢.

(٢) أول من أمر بالطواف بين كل ركعتي تراويح بعد أن أدار الصفوف حول الكعبة خالد القسري. انظر المصدر السابق والجزء والصفحة.

وفي ليلة الثالث والعشرين يقوم صبي آخر من أبناء المكيين من ذوي الثراء بختم القرآن وهو غلام لم يتجاوز الخمس عشرة سنة ويقيم أبوه في هذه الليلة احتفالاً بديعاً ، حيث يُعدّ له ثريا مصنوعة من الشمع مغصنة قد انتظمت فيها أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد لها شمعًا كثيراً ويضع شبه محراب مربع مما يلي باب شيبة . وهذا المحراب مصنوع من أعواد مشرجبة[1]. قد أقيم على قوائم أربع ربطت في أعلاه عيدان أنزلت منها قناديل وأسرجت في أعلاها مصابيح ومشاعيل وثبت حول المحراب كله مسامير حديد يوضع فيها الشمع باستدارة المحراب كله وتوقد الثريا المغصنة بالفواكه ويوضع على مقربة من المحراب منبر مغطى بقماش مختلف الألوان فإذا انتهى الصبي من صلاة التراويح وقف عليه ويجتمع الناس لرؤيته وهو في محرابه لايكاد يُرى من كثرة أنوار الشموع المحدقة به ثم يخرج من محرابه مرتدياً أفخر ملابسه مكحول العينين مخضوب الكفين والذراعين ولكثرة ازدحام الناس يقوم أحد السدنة بحمله ووضعه على منبره فإذا استقرّ في مكانه بدأ بالسلام على من حضر . وجلس القراء بين يديه مبتدئين القراءة بصوت واحد وعقب نهاية عشرة أجزاء من القرآن يقوم الخطيب بإلقاء خطب الوعظ والتذكير في حين يقف بين يديه في درجات المنبر أشخاص ممسكون بأتوار[2] الشموع في أيديهم رافعين أصواتهم بـ يارب يارب عند كل فصل من فصول الخطبة ويكررون ذلك ويعود القراء مرة أخرى للقراءة وفي أثناء ذلك يلزم الخطيب الصمت حتى يفرغوا ويعود بعدها لإتمام خطبته.

وعند ذكره للبيت العتيق يرفع ذراعيه مشيراً إليه وعند ذكر زمزم والمقام يشير إليهما بكلتا إصبعيه ثم يختتم بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه ثم الدعاء للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء. وينتهي ذلك الحفل ويقيم والد الصبي حفلاً يدعى إليه القاضي وغيره من الناس.

---

(١) الشرجب هو الطويل. انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١ ، ص ٤٩٣.

(٢) إناء من الصفر. انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٤ ، ص ٩٦.

أما ليلة الخامس والعشرين فيقوم الإمام الحنفي بالختم وقد أعّد أحد أبنائه ويكون نحو سّن الأول ويقيم حفلاً كبيراً بهذه المناسبة ويقوم بإحضار أربع ثريات من الشمع كل منها مختلفة عن الأخرى منها مزينة بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ومنها غير مزينة فتصف أمام حطيمه ويتوّج الحطيم بخشب والواح وضعت في أعلاه السُرج والمشاعل والشموع لتنير الحطيم كله حتى يبدو في الهواء كالتاج العظيم من النور ، ويجلب الشمع في أواني الصفر ويوضع محراب مشرجب ويحاط أعلاه بالشمع ويوضع المنبر المزين أمامه ويقوم الصبي بختم القرآن فإذا انتهى برز من محرابه إلى منبره ثم يشير بالسلام للحاضرين ويلقي خطبة جليلة للوعظ والتذكير. ويحضر القراء بين يديه وفي اثناء فصول الخطبة يقومون بالقراءة فيصمت ثم يعاود الخطبة وبين يديه في درجات المنبر طائفة من الخدم بعضهم يمسك أتوار الشمع بأيديهم وبعضهم ممسك بإناء البخور المنبعث منه رائحة العود وعندما يصل إلى فصل من فصول الخطبة فيه تذكير رفعوا أصواتهم بـ يارب يارب ويكررونها ثلاثاً أو أربعاً وعقب الانتهاء يقوم والد الصبي بدعوة الأعيان إلى وليمة في منزله أو بإرسال الأطعمة إلى منازل الحضور.

وفي ليلة السابع والعشرين وهي ليلة الجمعة[1] يستعد لها قبل ليلتين أو ثلاث ويقام إزاء حطيم إمام الشافعية أخشاب عظيمة عالية الارتفاع موصول بين كل ثلاث منها بأذرع وصلت بالحطيم ثم تمد بينها ألواح طوال وضعت على الأذرع بحيث تكون على هيئة طبقات بعضها فوق بعض حتى تكتمل ثلاث طبقات وفي الطبقة العليا خشبة مستطيلة تثبت بمسامير محددة الأطراف ملتصق بعضها ببعض تنصب عليها الشموع . والطبقات السفلى عبارة عن ألواح مثقوبة متصلة وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب الممتدة من

(١) ليلة الجمعة حسب ما كان موافقاً لرحلة ابن جبير.

أسفلها وتدلت من جوانب الألواح والخشب والأذرع قناديل ذات أحجام مختلفة ويتخللها أشباه أطباق مبسوطة من الصفر قد أمسك بكل طبق منها ثلاث سلاسل مثقوبة ومعلقة وضعت فيها زجاجات ذات أنابيب من الناحية السفلية لتلك الأطباق الصفرية متساوية في الطول وأوقدت فيها المصابيح فبدت كأنها موائد ذات أقدام كثيرة تضيء نوراً ووصلت بالحطيم الثاني الذي يقابل الركن الجنوبي من قبة زمزم أخشاب مثل السابقة في الصفة متصلة بالركن ذاته وأوقد المشعل الموضوع فـي أعلى القـبة وانتظمـت الشموع مما يقابل البيت وحف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المثقوبة محاط " أعلاها بمسامير حديدية الأطراف امتلئت بالشموع ووضعت على يمين المقام ويساره شموع كبيرة الحجم في أتوار تناسبها ووضعت تلك الأتوار على الكراسي المخصصة لها. وغطى جدار الحِجر بالشمع في أتوار من الصفر فأصبحت كأنها دائرة من نور ساطع وأحاطت المشاعل الموقد بأرجاء الحرم.

أما شرفات الحرم فوقف فيها صبيان مكة وبيد كل منهم كرة من القماش المشبع بالزيت ثم توقد وتوضع في رؤوس الشرفات ويتبارى الصبيان في إشعالها من شرفة لأخرى مع قيام الصبيان برفع أصواتهم بقولهم يارب.

وعقب ذلك يتقدم القاضي لأداء صلاة العشاء ويبدأ في صلاة القيام بسورة القدر وهي السورة التي انتهت القراءة عندها في الليلة السابقة ويحرص بقية الأئمة على حضور هذا الختم.

ويقوم السدنة بإخراج المقام من الكعبة ويوضع في مكانه وتوضع عليه قبة الخشب التي يقف الناس خلفها للصلاة فيختم القاضي بركعتين ويقف خطيباً مستقبلاً المقام والكعبة ولايكاد يسمع صوته نظراً للازدحام والضوضاء فإذا أتّم خطبته عاد الأئمه لإكمال التراويح.

أما في ليلة التاسع والعشرين فيكون الختم فيها لجميع أئمه التراويح ثم يشرعون بالخطبة بعد الختم.

ويتقدم المالكي بإعداد ستة أعمدة إزاء محرابه منصوبة على هيئة نصف دائرة مرتفعة عن مستوى الأرض بين كل اثنين منها عمود ممدود يحيط الشمع أعلاها وجهاتها السفلى ويحف داخل الدائرة أيضاً شمع متوسط الحجم. ويجتمع المالكية للختم بالتناوب بين أئمة التراويح وعقب قضاء الصلاة تلقى خطبة مشتملة على الوعظ والتذكير يلقيها أحد الأئمة وهي مأخوذة من خطبة ابن الإمام الحنفي.

أما عن احتفالهم بليلة الأول من شوّال فتكون مثل ليلة السابع والعشرين من رمضان حيث توقد المشاعل وتضاء الثريات والشموع في أنحاء الحرم وكذلك سطح المسجد وفي أعلى جبل أبي قبيس ويقف المؤذن طوال الليل فوق سطح قبة زمزم للتهليل والتكبير.

وفي صباح أول يوم من شهر شوال يحرص الجميع على أداء صلاة العيد ويفتح باب الكعبة ويجلس زعيم آل الشيبي على عتبتها وسائر الشيبيين داخلها ويقومون لاستقبال الأمير مكثر عند باب النبي فيأخذ طريقه إلى الطواف في حين يقف المؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم كعادته رافعاً صوته بالثناء والدعاء للأمير متناوباً مع أخيه ، فإذا أكمل الأمير طوافه اتجه إلى مصطبة قبة زمزم المقابلة للركن الأسود ليجلس وأبناؤه عن يمينه في حين يقف وزيره وحاشيته عن يساره ويعود الشيبيون إلى مكانهم ويقوم الشعراء المرافقون للأمير بالإنشاد لحين وقت الصلاة فيُقبل القاضي الخطيب متهادياً بين رايتين سوداوين والفرقعة أمامه ثم يقيم الصلاة وعقب الانتهاء منها يأخذ طريقه إلى المنبر الموضوع إلى جدار الكعبة فيلقي خطبة العيد ويبدؤها بالتكبير فإذا كبّر كبر المؤذنون معه إلى نهاية خطبته. وعقب انتهائها يسارع

الناس إلى تهنئة بعضهم بعضاً ثم يتوجهون إلى المقبرة داعين للأموات بالرحمة والمغفرة(١).

وفي صلاة الجمعة يوضع منبر الخطيب بجوار الكعبة مقابل المقام بين الركن الأسود والعراقي ثم يُقبل الخطيب من باب النبي وهو يقابل المقام في البلاط الممتد من الشرق إلى الشمال، حتى يصعد منبره قائلاً السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيبادر الناس بالرد عليه ثم يجلس فيبدأ الأذان لصلاة الجمعة ويلقي الخطيب خطبة الجمعة المشتملة على الوعظ والإرشاد ، وعند جلوسه بين الخطبتين يضرب بعقب السيف إعلاناً ببدء الخطبة الثانية التي يكثر فيها من الصلاة على محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه والدعاء للخلفاء الراشدين بأسمائهم والدعاء لعمّي الرسول ﷺ حمزة والعباس وللحسن والحسين ثم لأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ وفاطمة الزهراء وخديجة الكبرى بهذا اللفظ ثم الدعاء للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر ثم لأمير مكة مكثر ابن عيسى ثم لصلاح الدين الأيوبي ولولي عهده أخيه أبي بكر ابن أيوب وعند ذكر صلاح الدين يردد الجميع الدعاء له من كل مكان، وفي أثناء الخطبة توضع الرايتان في أول درجة من المنبر يمسك بهما رجلان من المؤذنين وفي جانبي باب المنبر حلقتان تركز الرايتان إليهما ، فإذا فرغ من الصلاة اتجه إلى خارج الحرم ثم يعاد المنبر الى موضعه بإزاء المقام(٢).

وحرص خدم الحرم الشريف على تقديم ماء زمزم مبرّدًا في أوانٍ فخارية تسمى الدوارق لكل دورق مقبض واحد(٣).

ويعمل السدنة في المسجد على فتح باب الكعبة كل يوم إثنين وجمعة إلا في رجب فبابها مفتوح " يومياً ويفتح من بداية شروق الشمس ويوضع منبر

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٢٢ ــ ١٣٥ ، وظلت هذه العادة لدى أهل مكة إلى عهد قريب.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٢ ــ ٧٤.

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦. وكانت لاتزال هذه العادة إلى وقت قريب.

له درج للراغبين في دخول الكعبة له تسع درجات مستطيلة منصوبة على قوائم خشبية ذات أربع عجلات ليسهل جره ويوضع بإزاء باب الكعبة فيصعد زعيم آل الشيبي إليها وهو شيخ كبير السن جميل الشكل والملابس وبيده مفتاح القفل ومعه أحد السدنة في يده ستر أسود يمسح يديه به أمام باب الكعبة فإذا فتح القفل قبل العتبة ثم يدخل زعيم آل الشيبي وحده ويقفل الباب خلفه لأداء ركعتين ثم يدخل باقي الشيبيين بعده للصلاة ويفتح الباب بعدها ويبادر الناس بالدخول وفي أثناء فتح باب الكعبة يقف الناس أمام بابها داعين الله ومستغفرين وقائلين " اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين "[(١)].

كما التزموا بإبعاد الطائفات من النساء في آخر الحجارة المفروشة حول البيت . فالحرم الشريف مفروش برمل أبيض[(٢)]. وبدأت تلك العادة منذ تولي خالد بن عبدالله القسري[(٣)] إذ كان النساء والرجال سابقاً يطوفون مختلطين فعمل على منع ذلك[(٤)].

وقد اعتادوا حفظ المقام الشريف داخل الكعبة وعند إخراجه في الأيام العادية توضع عليه قبة من خشب. أما في الموسم فتوضع عليه قبّة حديد صوناً له من أيدي الحجاج[(٥)].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص٧٠.

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٣.

(٣) خالد بن عبدالله بن يزيد بن أسد القسري من بجيلة. أبو الهيثم أمير مكة والعراق وأحد خطباء العرب وأجودهم ، يماني الأصل من أهل دمشق ولي مكة سنة ٨٩هـ /٧٠٧م للوليد بن عبدالملك ثم ولاه هشام العراقين سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م فاقام بالكوفة وطالت مدته إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠هـ / ٧٣٧م وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وأمره بعقابه فسجنه وعذبه بالحيرة ثم قتله في أيام الوليد ابن يزيد. انظر القاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص٢٧٠ ـ٢٨٢ ؛ الزركلي : الإعلام ، ج٢ ، ص٢٩٧.

(٤) الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص٢٠ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٨١. ولايزال إلى اليوم يفرق بين الرجال والنساء في الطواف.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٣.

وعندما قدم التجيبي مكة نلاحظ عدم تغير احتفالات أهل مكة المكرمة كثيراً عما وصفه ابن جبير في رحلته بالرغم من مرور أكثر من قرنٍ على رحلته، من حيث ما يقام في شهر رمضان من التأنق في إضاءة الحرم بالشمع والقناديل والمشاعل ومن ختم القرآن في ليالي الوتر من العشر الأواخر منه ولكن نلاحظ اختفاء عادة صعود الصبي الخطيب وحلّ محله صعود أحد المكيين(١). والملاحظ من كلام التجيبي ظهور العنصر المصري بكثرة بمكة المكرمة حيث ذكر وصول عدد من القراء المعروفين بحسن الصوت وطيب النغمة يجتمعون في كل ليلة جهة باب بني شيبة من الحرم الشريف لقراءة القرآن على عادة القرّاء في البلاد المشرقية . وكان لهؤلاء القراء رئيس يصعد كلّ ليلة من ليالي رمضان إلى سطح المدرسة المنصورية المشرفة على الحرم ويقوم بقراءة جزءٍ من القرآن رافعاً صوته بحيث يسمعه الناس.

وطرأت بعض التغييرات على احتفال ليلة السابع والعشرين من رمضان بقيام الشريف أبي نمي بحضورها وعدم صعود صبي من أبناء مكة المكرمة ، بل قيام أحد المصريين بإلقاء الخطبة بعد الختم وبعد فراغه من خطبته يشرع في الدعاء للشريف أبي نمي ويرفع نسبه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيأمر له الشريف أبونمي بخلعة حسنة حريرية وعمامة حريرية مصفّحة بالذهب ويأمره بلبسها على المنبر فيفعل والناس ناظرة إليه ونلاحظ من كلام التجيبي وجود اعتراض على لبس الخطيب للحرير ، ولكن التجيبي علل عمله ذلك بالخوف من الشريف. لأن المعروف أن لبس الحرير محرم على الرجال ومحلّل للنساء حسب ما ورد في السنة المطهرة.

وكان للفرقة الزيدية يوم ختمٍ أيضاً ، وهذا ما لم يذكره ابن جبير وإنما ذكره التجيبي وخطب لهم بعد ختمهم ليلة التاسع والعشرين الخطيب المصري

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٤٦٠.

السابق مع الدعاء أيضاً للشريف أبي نمي فقام وزير الشريف بإكرامه[1]. ولم يقم الشريف أبونمي بحضور هذا الحفل.

الاحتفال بغسيل الكعبة المشرفة وإحرامها :

ذكر ابن جبير احتفال أهل مكة المكرمة في الحرم لإحرام الكعبة المشرفة في يوم السابع والعشرين من ذي القعدة بحيث يرفع ثوبها بنحو قامة ونصف من نواحيها الأربع وأما فتح بابها فلا يتم إلاّ عقب الوقفة بعرفة[2].

أما التجيبي فقد أفاض في ذكر هذا الموضوع بالتفصيل فأشار إلى أنه في اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة يتوافد أهل مكة المكرمة إلى البيت العتيق حيث تمتلىء ساحات الحرم بهم ثم يقوم خطيب مكة المكرمة فيصعد المنبر لإلقاء خطبة ذاكراً فيها الكعبة المشرفة ومكة المكرمة مع إيراد بعض الأبيات الشعرية الحسنة ثم يقوم بالدعاء ، فيحمل الناس الكثير من القماش للكعبة. ويتقدم زعيم آل الشيبي إلى الكعبة المشرفة وقد نُصب له بجوانبها كرسي خشبي يرتقي عليه ويقطع من كسوة الكعبة المشرفة نحو قامة ونصف مما يلي الأرض من الجوانب الأربعة ، وهذا يسمى إحرام الكعبة المشرفة ويعين الشيبيون زعيمهم ثم ينزل ويفتح باب الكعبة المشرفة ويدخل هو وآله وبعض الأعيان ويحمل لهم ماء زمزم فيغسلون البيت الشريف ثم يقومون بتجميره وإغلاق الباب ولا يتم فتحه إلا بوصول أمير الحاج المصري.

أما المقطوع من ثياب الكعبة المشرفة فتوزع قطعاً صغيرة على الحجاج ويفعل ذلك أيضاً بباقي ثوبها المنزوع عنها في يوم عيد الأضحى المبارك[3]. ولون ثوبها المعروف هو الأسود تزين أعلاه كتابة باللون الأبيض[4].

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٣.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٣.

(٣) كان يعمل بهذا الأمر إلي وقت قريب إلا أنه استبدل بالمال المدفوع لآل الشيبي عوضاً عن الثوب المعاد إلى مصنع الكسوة.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٥ ، ٢٥٩ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

أما في زمن رحلة ابن جبير فكانت الكسوة مرسلة من بغداد وتسلم لزعيم آل الشيبي ويقومون بوضعها على الكعبة المشرفة وتميزت الكسوة بلونها الأخضر اليانع يزين أعلاها رسم أحمر عريض وعقب وضع الكسوة ترفع جوانبها لصيانتها من عبث الأعاجم(١).

ونلاحظ اختلافاً كبيراً بين ما وصفه ابن جبير وما وصفه التجيبي في كسوة الكعبة المشرفة وإحرامها وربما بدأ الأمر كما ذكر ابن جبير برفع جوانبها وتسميته إحراماً إلى أن وصل الأمر إلى تقطيع أستارها زمن رحلة التجيبي ولايزال إلى الوقت الحاضر القيام بما يسمى بإحرام الكعبة المشرفة حيث تغسل الكعبة وترفع أطراف ثوبها إلى ثلثها تقريباً مع وضع قماش أبيض محيط بها يكون آخر أطراف ثوبها المرفوع. والقماش الأبيض علامة الإحرام ويكون هذا العمل في الخامس من ذي الحجة ولاينزع عنها القماش الأبيض إلا يوم عيد الأضحى حيث توضع الكسوة الجديدة مع رفع جوانبها أيضاً إلى نهاية شهر محرم حفظاً لها من الأيدى. وقد ذكر إبراهيم رفعت أن الكعبة المشرفة يوضع عليها إزار أبيض علامة الإحرام(٢). فنرى أن الأرجح في بداية هذا الأمر كما ذكر ابن جبير.

وتطرّق ابن بطوطة إلى الحديث عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة إذ انفرد بذكر ما لم يذكره غيره وأضاف إليه ما عاينه وشاهده مع الإشارة إلي ما هو باقٍ على حاله إلى جانب العادات التي طرأ عليها التغيير بالمقارنة مع الرحالة الآخرين . فمن ذلك أن المقام الكريم ثبت في مكانه ولم يعد محفوظاً في الكعبة المشرفة كما في زمن رحلة ابن جبير ويظهر أنه أقيم عليه بناء . فقد ذكر ابن بطوطة أن عليه قبة أسفلها فتحة. مغلقة بأعمدة حديد تبعد عن المقام قدر ما تصل أصابع الإنسان في حالة دخولها إلى

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٢) إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ٤١.

ذلك الشباك وإلى الصندوق[1]. ويبدو أن حفظ المقام داخل الكعبة حدث عقب سيل أم نهشل حفاظاً عليه[2]. واستمروا في وضعه داخل الكعبة المشرفة لعدم وجود مكان حصين يحفظ فيه ، ولكن بعد بناء مكان له أصبح موضعه ثابتاً. وقد بقي طواف النساء كما هو في أيام ابن جبير في آخر الحجارة المفروشة حول الكعبة[3].

واستمرت احتفالات أهل مكة في يوم الجمعة وخروج الخطيب والمؤذنين وغير ذلك مما ذكره ابن جبير. ولم تتغير عاداتهم سواء في استهلال الشهور العربية وخروج الأمير إلى المسجد الحرام وطوافه ودعاء المؤذن الزمزمي له وتهنئته بدخول الشهر وطرق احتفالهم بشهر رجب والعمرة وغيرها من العبادات واحتفالهم أيضاً في شهر شعبان من إيقاد المصابيح والمشاعل والصلاة والطواف والخروج للاعتمار[4].

وكذلك احتفالاتهم في رمضان من ضرب الطبول عند باب الأمير ، وتفرّق الأئمة السنيين استعداداً لإقامة التراويح ، وتجديد فرش المسجد ، والإكثار من الشمع والمشاعل ، واستمرار عادة ختم القرآن الكريم في الوتر من العشر الأواخر لشهر رمضان ، كما كانت عليه في عهد ابن جبير من قيام أحد أبناء كبار أهل مكة المكرمة فينصب له المنبر للخطبة وبعد الانتهاء يتوجهون إلى منزل والد الصبي لتناول الطعام.

واستمروا في الاحتفال ببداية شهر شوال وتزيين الحرم المكي بالمصابيح والشموع الموقدة في جميع أنحاء الحرم وسطحه وسطح المسجد الموجود بأعلى جبل أبي قبيس.

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٦.
(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٣٣.
(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٧.
(٤) المصدر السابق ، ص١٦٠ ـ ١٦٥ .

فنلاحظ أن تلك الاحتفالات لم يطرأ عليها تغيير عما ذكره ابن جبير من صلاتهم للعيد بالمسجد الحرام وبتبكير آل الشيبي بالحضور وفتحهم باب الكعبة المشرفة وتلقّيهم لأمير مكة المكرمة وخروج أهل مكة المكرمة عقب صلاة العيد إلى مقبرة المعلاة.

أما الاحتفال بإحرام الكعبة المشرفة فظل في زمن ابن بطوطة كما كان في زمن ابن جبير . ولم يقم سدنة البيت بتقطيع ثوبها القديم وتوزيعه على الحجاج كما حصل زمن التجيبي ، مع استمرار عدم فتح بابها إلا عقب وقفة عرفات.

واستمر الاحتفال بشهر ذي الحجة زمن رحلة ابن بطوطة[1] من حيث ضرب الطبول في أوقات الصلاة إلى يوم الصعود إلى عرفات ويقوم الخطيب يوم السابع من ذي الحجة إثر صلاة الظهر بإلقاء خطبة في الناس ترشدهم إلى الطرق الصحيحة في أداء الفريضة. وهذه العادة كانت موجودة وقت زيارة ابن جبير لمكة المكرمة[2].

أما زمن رحلة التجيبي فقد أشار إلى عدم وجود عادة ضرب الطبل في ذي الحجة[3]. وهناك احتمال بعودتها زمن وجود ابن بطوطة في مكة المكرمة أو أنه في ذكره لهذا الأمر عائد لنقله عن ابن جبير في رحلته.

أما الكعبة المشرفة فترتدي حلّتها الجديدة في ثالث أيام عيد الأضحى. وتميزت بلونها الأسود وقماشها من الحرير مبطنة بالكتان في أعلاها طراز مكتوبٌ فيه بالبياض ، وترفع أطرافها حفاظاً لها من عبث الحجّاج.

ويتم فتح باب الكعبة المشرفة كل يوم بعد النزول للعراقيين والخراسانيين لتأخّر سفرهم عقب سفر الركبين الشامي والمصري بأربعة أيام[4].

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٦ ـ ١٦٨ ـ ١٦٩ ، ٦٨.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٩.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٨.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥٨ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٧١.

أما البلوي فأشار إلى طواف النساء بعيداً عن الاختلاط بالرجال[1].

وقد أشار ابن جبير إلى الأرض المحيطة بالكعبة المشرفة وأنها مفروشة بحجارة تشبه الرخام[2] وفي وقت وجود ابن بطوطة عبارة عن حجارة سوداء تصبح شديدة الحرارة بفعل أشعة الشمس فعملوا على رشها بالماء من حين لآخر لإكسابها نوعاً من البرودة[3].

٥ ـ المواكب :

تقاليد دخول الشريف إلى الحرم عند بداية كل شهر هجري :

يتقدم القراء أمامه لقراءة القرآن الكريم ويحرص على الدخول من الباب المسمّى باب النبي محاطاً بحاشيته المؤلفة من القواد والحرابة ويتجّه إلى المطاف يتقدّمه الخدم والأتباع وبأيديهم الحراب ويقوم الخدم بفرش سجّادة من الكتان يصلي عليها ثم يشرع في الطواف . وعند إكماله لشوطٍ يرتفع صوت أخي المؤذن الزمزمي داعياً للأمير بقوله : " صبح مولانا بسعادة دائمة ونعمة شاملة ". مع تهنئة الشريف أو الأمير بكلام جميل ومدحه بأبيات من الشعر؛ فإذا أطّل الأمير من الركن اليماني يرفع صوته بالدعاء كما سبق مع أبيات من الشعر مختلفة عن سابقتها أيضاً في مدح الأمير وعائلته ويستمّر في ذلك حتى نهاية الأشواط السبعة. ويلاحظ أن عمر أخي المؤذن الزمزمي هذا لا يتجاوز إحدى عشرة سنة. وعقب انتهاء الطواف يؤدي الأمير ركعتي الطواف عند الملتزم ثم ينصرف[4].

أما عن موكب الأمير خلال الاحتفال بشهر رجب إذا خرج إلى الميقات للعمرة بين أبنائه وقواده وأمامه الرايات المرتفعة والطبول بين يديه تتبعه حاشيته وعسكره على مراتبهم ويقومون باللعب بين يديه . ويخرج أعراب البوادي

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٠٤.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٣.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٧، ١٢٢.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٤ ـ ٧٥.

ممتطين الإبل الجميلة المنظر مسابقين للخيل بها مع رفع أصواتهم بالدعاء والثناء للأمير حتى وصوله إلى المسجد الحرام ، وعقب انتهاء طوافه يقوم وأمامه الحرابة وبعد الفراغ من السعي استلّ أتباعه السيوف أمامه والتفّوا حوله حتى يصل إلى منزله القريب من المسعى.

وموكب العامة مختلف في طريقته عن موكب الأمير عند احتفالهم بالعمرة الرجبية . فيكون خروجهم أول الشهر بقبائلهم وحارة حارة متقلدين لأسلحتهم بترتيب معّين ، فالفرسان بخيولهم في البداية مع الرقص بالأسلحة ، ثم الرجّالة يتبارون بأسلحتهم والحراب بأيديهم مرتدين تروسهم ومتقلدين سيوفهم ويأخذون في مبارزة بعضهم بعضاً ثم رمي الحراب في الهواء والعودة للإمساك بها بإتقان شديد(١).

كما وصف لنا الرحالة طريقة موكب خطيب المسجد الحرام لصلاة الجمعة إذ يأخذ الخطيب طريقه إلى المسجد من باب النبي تحيط به رايتان سوداوان يمسك بهما رجلان من المؤذنين وبين يديه يسير آخر حاملاً لعصا مخروطة الشكل حمراء اللون في طرفها جلد مفتول رقيق يضربها في الهواء فيسمع صوتها وهي إعلان عن وصول الخطيب وتسمى الفرقعة. وعند اقترابه من المنبر يبدأ بتقبيل الحجر الأسود ثم يصعد إلى منبره وأمامه رئيس المؤذنين بالحرم ، وعند صعود الخطيب لأول درجات المنبر يقلّده المؤذن السيف فيضرب درجات المنبر به حتى يقف في أعلاه داعياً مستقبلاً الكعبة المشرفة وعند انتهائه من أداء صلاة الجمعة يأخذ طريقه خارج الحرم تحيط به الرايتان السوداوان والفرقعة تُضرب أمامه إيذاناً بانصرافه(٢).

أما التجيبي فقد أشار إلى عدم وجود الفرقعة هذه ولم يرها وقت عيد الفطر(٣).

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠٦ ـ ١١٠.

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٢ ـ ٧٤.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.

٦ ـ الملابس :

حرص أهل مكة المكرمة على لبس الملابس النظيفة الحسنة فإذا نظرنا إلى أمير مكة المكرمة نجده يلبس ثوباً أبيض وعمامة صوف بيضاء رقيقة متقلداً سيفه.

ويلبس القاضي الخطيب في صباح يوم العيد ثياباً سوداء[١]. أما في صلاة الجمعة فملابسه سوداء مزينّة بخيوط الذهب وعلى رأسه عمامة سوداء مزينّة أيضاً وعليه طيلسان شرب رقيق وهي كسوة مرسلة من قبل الخليفة.

كما يرتدي رئيس المؤذنين وقت صلاة الجمعة ملابس سوداء ويحمل على عاتقه سيفه.

وساد اللون الأبيض ثياب أهل مكة وقيام الأمير بإلباس المحتسب عمامة تكون له جواراً فلا يجرؤ أحد على التعّرض له ولكنها تصبح عديمة النفع عند رحيل صاحبها عن مكة المكرمة[٢].

٧ ـ الأطعمة والأشربة :

من المعروف أن بلاد الحجاز تميّزت بأوضاع اشتهرت بها. واختصت بأطعمة معينّة تصنع لذلك : مثل إعداد أطعمة معيّنة أثناء الحج يحملونها معهم إلى عرفات[٣].

ولا ننسى الإشارة إلى وضع أهل مكة المكرمة في الأكل ، وهو اقتصارهم على تناول وجبة واحدة في اليوم عقب صلاة العصر مع تناول التمر في سائر النهار . وانعكس هذا بالطبع على صحة أجسامهم وخلوها من الأمراض[٤].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، ص ١٣٥.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٢٩.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥١.

أما الحلويات فهناك نوع يصنع من العسل والسكر المعقود مع إضافة الفواكه الطازجة والمجففة إليه وقد أتقن أهل مكة المكرمة صنع هذا النوع(١).

ومن خلال استعراضنا لهذا المبحث يتبين لنا أن الرحالة المغاربة والأندلسيين لم يتطرقوا لذكر الاحتفالات الاجتماعية التي يحتفل بها أهل مكة المكرمة بخاصة وأهل الحجاز بصفة عامة مثل احتفالات الزواج والختان وغيرها. كما لم يشيروا إلى أنواع الملابس والحلي التي كانت منتشرة بهذا المجتمع في تلك الفترة . وهذا بطبيعة الحال عائدٌ الى أنهم كانوا حجاجاً وطلبة علم أكثر من أى شيء آخر .

ثانياً : الحياة الاقتصادية :

تظهر لنا حالة الحجاز الاقتصادية من خلال كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين في إشاراتهم للزراعة والصناعة والتجارة إذ عن طريقها يمكننا معرفة مدى الازدهار والركود الذي ساد في تلك الفترة.

ولم تحظ الناحية الاقتصادية بعناية المؤرخين حيث إن كتاباتهم اهتمت بإظهار الجانب السياسي أكثر من النواحي الأخرى . وقد تطلّب استخراجها الكثير من الجهد لقلّة المادة العلمية في هذا المجال ؛ ولذا سيكون إظهارها قاصراً على ما ورد في كتب الرحالة ، إلى جانب ما أورده بعض المؤرخين في هذا الصدد.

١ ـ الزراعة ومصادر المياه :

وفيما يتعلق بالزراعة في بلاد الحجاز نلاحظ اعتمادها على المياه . ومن ناحية توفرها نجد في القرين بئر مياه عذبة . وفي مكة المكرمة هناك سقاية للماء . وفي بطن مر وخليص وبدر والصفراء(٢) وقباء(٣) مياه آبار عذبة. وترتب

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ، ٨٨ ـ ٨٩ ، ٩٣ ، ١٦١ ـ ١٦٦.

(٣) (قباء) : بئر هناك عرفت به وهي على بعد ميلين يسار القاصد إلى مكة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٠١.

على وفرة المياه قيام بعض المشروعات البسيطة مثل إنشاء السقاية في مكانه لاستغلال المياه سواء للشرب أو الاستفادة بها في المجالات الزراعية وبالتالي اتسعت الرقعة الزراعية في مختلف مدن بلاد الحجاز.

وإذا تتبعنا البساتين والأراضي الزراعية من خلال كتب الرحالة فإننا نجد أنها تنتشر في مكة المكرمة على جانبي طريق الزاهر والتي تعود - ملكيتّها لأحد أهل مكة المكرمة. كما تنتشر البساتين في منطقة المسفلة حيث زرعت أشجار النخيل والرّمان والعنّاب والحنّاء[١].

كذلك وجدت الأراضي الزراعية في الأراضي القريبة من مكة المكرمة وما حولهـا مـن القرى والأودية مثل وادي نخلة والبرابر[٢] وبطن مر[٣] وأدم[٤] وعين سليمان التي تنسب لسليمان بن علي بن عبدالله بن موسى وقد اشتراها الشريف الحسن بن ثابت وهي قريبة من جَدّه[٥].

كما اشتهرت الطائف[٦] بخصوبة تربتها الزراعية فعمّت الزراعة بها وما حولها من القرى. وقد تحدثت كتب الرحالة عن مناطق زراعية في الطرق التي سلكوها أثناء رحلتهم في ينبع[٧] وبدر وقباء[٨] والصفراء والدهناء[٩] وتبوك[١٠].

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ٩٣ .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٣.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٢.

(٤) (أدم) من أشهر أودية مكة المكرمة. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٢٥.

(٥) انظر ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٤١.

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٩ .

(٧) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣.

(٨) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٤ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٣.

(٩) (الدهناء) منزل " بطريق مكة بها ماء عذب ونخل. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٩٣ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣.

(١٠) (تبوك) موضع بين وادي القرى والشام وهي عبارة عن حصن به ماء وزرع. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٤ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٧.

وتميزت بلاد الحجاز بوجود بعض الغلّات الزراعية مثل التمر والرمان والعنّاب والحنّاء والتين والسفرجل والخوخ والأترجّ والجوز والبطّيخ والكرنب والباذنجان والقثاء[1]. وقد ذكر ابن جبير أن من أسباب ازدهار الزراعة في الاودية المحيطة بمكة المكرمة وجود جالية مغربية بها قامت باستصلاح الأراضي فقال « قد جلب الله إليها من المغاربة ذوي البصارة بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات »[2].

والرياحين العبقة والمشمومات العطرة. كما وجد العسل المعروف عند أهل مكة المكرمة بالمسعودي[3].

٢ ـ الثروة الحيوانية :

تمتعت بلاد الحجاز بوجود ثروة حيوانية بها ومنها على سبيل المثال الجمال وتستخدم في نقل الأشخاص والأمتعة[4] ؛ والضأن والماعز والبقر ، وقد تبع ذلك كثرة المنتوجات الحيوانية وتنوعها مثل اللحوم وجودتها وهذا دلالة على وجود المراعي التي أسهمت في تنمية الثروة الحيوانية[5].

*** صيد السمك :**

تميزت مدينة جدة بوفرة الأسماك حيث أنها مدينة ذات موقع بحري متميّز أسهم في جعل أهلها يشتغلون بهذه الحرفة[6]. والواقع أنه ليست لدينا معلومات عن أنواعه ولا الطريقة المتبعة في الصيد ولا أدواته.

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ٩٣ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨ .

(٣) ابن جبير : مرجع سابق، ص ٩٧ – ٩٨.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة، ص ٢١٩ – ٢٢٠.

(٥) ابن جبير : الرحلة، ص ٩٨ – ٩٩.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة، ص ٢١٩ – ٢٢٠.

كما اشتغل أهل جزيرة تقع مقابل الحوراء[1] يسكنها عرب يصيدون السمك الذي كان قوام غذائهم فضلاً عن بيعهم السمك للركب وقت حضوره[2].

٣ ـ الصناعة :

لابد لنجاح الصناعة في أي مكان من توفر مقوّماتها المتمثّلة في المواد الخام والأيدي العاملة والاستقرار السياسي . وفي بلاد الحجاز نلاحظ بعض المواد الخام المجلوبة إليهامثل الجواهر والياقوت وغيرها من الأحجار الكريمة[3].

ونستطيع مما سبق القول عن مكة المكرمة مثلاً على ضوء توفر تلك المواد بوجود صناعة رائجة ومعروفة . وهي صناعة الحلي والمجوهرات ، إذ أن تطعيم القطع والمصوغات الذهبية يتطلّب وجود الياقوت والجواهر وغيره من الأحجار المستخدمة في ذلك المجال.

كما يظهر لنا من خلال بعض المصادر وجود مصنوعات من الفضة استخدمت في تزيين المسجد الحرام ، حيث تجلب هذه المادة إلى البلاد . وقد أشار ابن بطوطة إلى توفّر الفضة والذهب في مكة المكرمة ورخص أسعارهما [4].

٤ ـ التجارة :

اعتمدت بلاد الحجاز على التجارة لإقبال الكثير على العمل في مجالها، ويبدو أن طبيعة البلاد دفعت السكان إليها ونجد ذلك واضحاً في القرآن الكريم في دعوة إبراهيم الخليل لأهلها ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم

---

(١) (الحوراء) من أشهر موانيء الحجاز خربت قبل القرن السابع الهجري وبقي اسمها معروفاً إلى أول القرن الحالي حيث كانت إحدى محطات الحجاج القادمين من مصر . يقابلها في البحر جبل منقطع يسكنه العرب به ماء عذب وعيشهم على صيد السمك يبيعونه إلى الركب إذا حضر . العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٢ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، ج٢ ، ص ١٤٠٤ ؛ الدرعي : ملخص رحلة ابن عبدالسلام ، ص ٨٣ ؛ حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص ١٧٨ ـ ١٨١.

(٢) العبدري : الرحلة ، ص ١٦٢.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ١١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٧١ ـ ١٧٢.

من الثمرات لعلّهم يشكرون ﴾(1) ﴿ أو لم نمكّن لهم حرماً أمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾(2).

فالآيات تشير إلى المكان وما خصّه الله به من مميزات دينية وهي اتجاه القلوب إليه ثم الناحية الاقتصادية المتمثّلة فيما ساقه الله لهم من رزق ليكونوا شاكرين لنعمه ومحافظين عليها.

أما الآية الثانية فأشارت إلى قدسية المكان وإلى الأرزاق والخيرات المحمولة إليه من كل مكان.

ونجد أنه قد هيء سكن للتجار والحجاج ؛ إذ نلاحظ وجود الفنادق بكثرة في مدينة جدة وفيما يبدو أنها أُعدّت لنزول المسافرين والتجّار بها.

ومن المراكز والمحطات التجارية في بلاد الحجاز جُدّة . وهي ميناء بحري، ومكة المكرمة(3) وينبع وتبوك والعلا والحوراء والدهناء ورابغ والبرابر وعسفان(4).

أما أهم الواردات التجارية الداخلية والخارجية فهي كالآتي :

* **الناحية الداخلية :**

تقوم مدينة جدة بتصدير السمك إلى مكة المكرمة(5) ، وتحمل إليها الخضار والفواكه من الأودية القريبة مثل وادي نخلة وبطن مر(6) ومن الطائف وأدم(7).

ومن خارج بلاد الحجاز تحمل إليها من الهند المسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية ومن اليمن الزبيب الأسود والأحمر واللوز وقصب

(1) القرآن الكريم : سورة إبراهيم، 14/37.
(2) القرآن الكريم : سورة القصص، 28/57.
(3) ابن جبير : الرحلة، ص 53، 57 – 58، 96 – 97.
(4) العبدري : الرحلة المغربية ، ص 165 _ 166 ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، ج5 ، ص 277 _ 278 ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص 223 ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص 113 ، 128 _ 129.
(5) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص 219 _ 220.
(6) ابن بطوطة : الرحلة ، ص 132.
(7) ابن جبير : الرحلة ، ص 161.

السكر والعسل[1]. كما قام السرو[2]. بجلب الحنطة واللوبيا والسمن وغيرها ، فهؤلاء كانوا ذوي أهمية كبيرة في اقتصاد أهل مكة المكرمة بما كانوا يحملونه من أرزاق حتى أن أهل مكة المكرمة شبهوا مقدمهم بمقدم المطر لكثرة الخير الذى يعم عليهم بوجودهم . ومن الجهات التي تحمل السلع منها إلى مكة المكرمة أيضاً بلاد العراق وخراسان والحبشة والمغرب[3].

أما أهم الصادرات من مكة المكرمة لأهل اليمن فقد تمثّل في الأمتعة والملابس والملاحف والفُرش وهي أشياء لا يحملها التجار من أهل مكة المكرمة إليهم ، بل نجدها تتم بواسطة المقايضة مع هؤلاء القوم لعدم استعمالهم للنقود في البيع والشراء ، بل يقومون باستبدال ما حملوه إلى مكة من الأطعمة بالأمتعة التي أشرنا إليها.

ويلاحظ أيضاً من كلام ابن جبير أن النقود المستخدمة في البيع والشراء في مكة هي الدنانير والدراهم[4].

* الأسواق التجارية :

تعددت الأسواق التجارية في بلاد الحجاز وتنّوعت مبيعاتها وأوقاتها ففي مكة المكرمة يوجد سوق تجاري مابين الصفا والمروة تباع فيه الأطعمة ، وسوق للبزازين[5] والعطارين عند باب بني شيبة[6] وسوق الدقاقين[7] في

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٦ ــ ٩٨.

(٢) (السرو) من قبائل العرب لهم قرى كثيرة تصل إلى أكثر من مائتي قرية وهم أهل جبال السراة من قبائل غامد وزهران وغيرها . انظر ابن جبير : الرحلة ، ص١١٠؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٢٦ ــ ٢٧ ؛ عبدالقدوس الأنصاري : مع ابن جبير في رحلته ، ص ١٩٧.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٦ ــ ٩٧.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١١١ ، ٩٨.

(٥) (البزاز) بائع الثياب والأمتعة. انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٥ ، ص ٣١٢.

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٥ ؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ١٢ ــ ١٣.

(٧) (الدق) مصدر قولك دققت الدواء أدقّه دقاً والدقاقة ما اندّق من الشيء والدقاق فتات كل شيء دُق وأهل مكة يطلقون على توابل القدر دُقة (البهار). انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج١٠ ، ص١٠٠ ــ ١٠١ ويحتمل أنه سوق للطحانين أو بائعي البهارات.

أجياد[1] للخياطين مكان مخصص لهم[2] ، وهناك سوق العبيد والجواري المعروف بسوق النخاسة[3] وأما الأسواق التي تقام في موسم الحج ففي عرفة سوق كبير[4] وفي منى سوق يستمر طوال أيام عيد الأضحى وتباع فيه الجواهر والأمتعة وغيرها[5] .

كما توجد الأسواق في ينبع وبدر ورابغ وخليص والحوراء[6]. كما عرف سكان الحجاز معاملات تجارية مختلفة سواء منها البيع والشراء أو الرهن أو الاستدانه وربما شمل التعامل بالربا[7].

*** النقود في بلاد الحجاز :**

وردت إشارة عن دار لسك النقود بمكة المكرمة لدى البلوي ، إذ أشار إلى أن الدار المعروفة بمكة المكرمة بدار أبي بكر الصديق رضي الله عنه أصبحت داراً للسكة[8]. وقد اكتفى البلوي بهذا القول دون ذكر نوعية النقود المسكوكة وأحجامها فقد أغفل الرحالة ذكر النقود المستعملة بالحجاز ولم يشر الى ذلك إلا ابن جبير[9]. بينما أشار القلقشندي إلى نوعياتها مثل الدينار الذهبي والدرهم الفضي كما بين أيضاً أنها على نوعين الدراهم الكاملية المنسوبة للملك الكامل الذى عرف بدرهم النقرة والدراهم المسعودية المنسوبة للملك المسعود ملك اليمن[10] وقد سبق أن ضربت دراهم منذ سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م عندما دخل طغتكين مكة المكرمة وسكنها باسم أخيه السلطان صلاح الدين الأيوبي[11].

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٩.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨ .

(٣) جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، ص ٢٣١.

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٥.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥٧.

(٦) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ، ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٤٦ ، ١٦١ ـ ١٦٦ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٨) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣١٣.

(٩) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٨ .

(١٠) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٢٨٠ ؛ ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية في العصر المملوكي ، ص ١٩٣ـ١٩٤.

(١١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ ، ص ٣١٥ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٥٣.

الفصل الخامس

الحركة التعليمية والأدبية في بلاد الحجاز من خلال كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين مع مقارنة ببعض ما أوردته المصادر التاريخية

١ – المذاهب في بلاد الحجاز.

٢ – مراكز العلم ومدارسه.

٣ – كبار العلماء.

٤ – أشهر العلوم وأهم الكتب.

أولاً : المذاهب في بلاد الحجاز :

تعدد الأئمة في الحرم المكي تبعاً لتعدد المذاهب في ذلك الوقت الأمر الذي انفردت به مكة المكرمة في ذلك الوقت عما سواها من المدن . حيث كان لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة إمام مقدّم للصلاة بطائفته بالمسجد الحرام ولكن الأولوية للإمام الشافعي لأنه من قبل الخليفة فهو الذي يقيم الخطبة ويبدأ بالصلاة وأهل مكة على مذهبه[1] . ويليه بقية الأئمة كما يوجد إمام خامس لفرقة الزيدية وأعيان مكة على مذهبه[2] ولهذا يلقون الدعم واستمرارية الوجود .

ولقد لفت انتباه الرحالة تعدد الأئمه وصلاة كل إمام بمن يتبعه واستنكارهم لذلك وزاد استنكارهم من وجود الفرقة الزيدية وإمامها فالإمام الزيدي كان موجوداً زمن رحلة ابن جبير عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣م واستمر وجوده إلى وقت مجيء التجيبي[3] مكة، سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م . ولكن اختفى وجوده في وقت وجود ابن بطوطة الذي زار مكة المكرمة سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م ضمن رحلاته المتعددة إذ أنه لم يذكر وجود الفرقة الزيدية .

والغالب أنه لم يعد للمذهب الزيدي مكان بالحرم المكي ومما يؤيد ذلك الإجراءات التي اتخذت للحد منه والتي كملت بعدما وصل مرسوم من السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م إلى الشريف عطيفة يستنكر فيه وجود إمام زيدي بالحرم فأصدر إليه أمراً بمنعه فنفذ الشريف الأمر[4] . ولم يعد أتباعه يجهرون بشعائرهم لأن مكة المكرمة في ذلك الوقت كانت تتبع للمماليك تبعية مباشرة وإن خرجوا عنها في فترات قصيرة لا يلبث أشرافها أن يعودوا إليها مرة أخرى لقوة المماليك في ذلك الوقت .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص٨٠.

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٨.

(٣) المصدر السابق والصفحة ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٩٨.

ويبدو أن أشراف مكة التزموا بالمرسوم الذي أصدره الملك الناصر حيث لم يشر البلوي إلى وجود إمام زيدي بالحرم عندما تطرق لقضية تعدد الأئمة بالحرم المكي(١) .

ومما ذكر من أفعال الزيدية زيادتهم في الأذان " حي على خير العمل " بعد " حي على الفلاح " وصفوا بأنهم روافض لا يجمعون مع الناس وإنما يصلون ظهراً أربعاً ويصلون المغرب عقب فراغ الأئمة من صلاتهم ويتبرؤون من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما(٢) .

ويبدو أنه لم يكن لأهل مكة وعلمائها طاقة على الاعتراض فضلاً عن التغيير إلا بالقلوب لمساندة أعيان مكة لهم(٣) .

وقد عبر ابن جبير عن استنكاره للزيدية بقوله " والله من وراء حسابهم وجزائهم " . أما التجيبي فعبر بقوله " والله تعالى يرشدهم إلى مذهب أهل السنة والجماعة بمنه وكرمه "(٤) .

وكانت الأولوية للمذهب الشافعي بمكة المكرمة حيث يصلي إمامهم خلف مقام إبراهيم عليه السلام وتقديمه لهذا المكان يرجع إلى أنه المقدم من الخليفة ويليه في المرتبه والأتباع الإمام الحنفي فجميع ما يحتاجه يأتيه من دولة الأعاجم فهم على مذهبه ومكان صلاته بأتباعه أمام الميزاب ثم يليه في المكانة والاتباع الإمام الحنبلي ومكان صلاته ما بين الركن الأسود والركن اليماني ، وأضعف الأئمه أتباعاً المالكي ويصلي قرب الإمام الحنفي(٥) .

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص٣١٠.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٩٧.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٩٩.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٩٩.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٨ ـ ٨٠ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٠٦.

إن ظاهرة تعدد الأئمة بالحرم المكي الشريف من المستحدثات التي لا يعرف على وجه التقريب متى بدأت(١). ولعل تعددهم بدأ منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري . ومما يؤيد هذا الافتراض أنه إلى سنة ٣٢٨هـ / ٩٣٩م لم يكن لهم ذكر . فابن عبدربه قدم مكة المكرمة في حدود هذا التاريخ ووصف المسجد الحرام ولم يشر إلي وجودهم مما يعني أنه لم تتعدد الأئمة بعد بالحرم الشريف(٢) .

إن أول خبر ورد عن بداية وجودهم بالحرم المكي ما ذكره صاحب غاية الأماني من أن بداية وجودهم كانت زمن المأمون(٣) وأورد خبراً آخر يفيد أن أول من أحدث المقامات حول الكعبة المشرفة المتوكل(٤) وكلا الخبرين مشكوك في صحته ، خاصة وأنه بدأه بعبارة " ولعله " وختمه بقوله " والله أعلم " .

وربما ترجع بداية وجودهم مع بداية دولة الموسوين الأشراف(٥). فيكون بذلك الإمام الزيدى أول الأئمة ظهوراً بعد الإمام السني خاصة وأن الحجاز قد خضع لتدخلات الصليحيين حكام اليمن ردحاً من الزمن وتدخلات وحماية الفاطميين حكام مصر ردحاً آخر وكلا الدولتين كانتا شيعيتي المذهب فنتج عنه انتشار المذهب الزيدي بالحجاز خاصة وأن الحجاز وقع تحت سلطة الفاطميين

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٩٥.

(٢) حسين باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٢٢٤.

(٣) أبو العباس عبدالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور كان إماماً عالماً محدثاً لغوياً أديباً ، مدة خلافته اثنتان وعشرون سنة وقيل عشرون سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام ومات سنة ٢١٨هـ / ٧٣٣م في رجب ودفن بطرسوس. انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٦.

(٤) يحيى بن على : غاية الأماني ، ج١ ، ص ١٥٦ ؛ أبوالفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بويع بعد أخيه الواثق يوم الأربعاء خامس عشر ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦م ومات ليلة الأربعاء رابع شوال سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م وعمره أربعون سنة وخلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام . انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٥.

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص ٩٩.

التي بدأت منذ سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م بعد حصار مكة المكرمة بجيش من قبل العزيز[١] صاحب مصر حتى تقام له الخطبة بها[٢] .

وتتابع بعد ذلك ظهور الإمام الحنفي والمالكي اللذين وجدا سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م وظهر الإمام الحنبلي في سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م[٣] ويكون بذلك آخر الأئمة ظهوراً بالحرم الشريف .

ولم يتطرق أحد من الرحالة إلى بداية وجودهم وتعددهم بالحرم الشريف غير أن التجيبي أورد خبراً عن بداية تعددهم فقال إن تعددهم " جاء نتيجة تغلب الديلمي على العراق فتفرق العلماء من العراق ومن الحجاز إلى غيرها من البلدان فبقي الناس بالحرم الشريف أشتاتاً بغير إمام لهم يقيم لهم الصلاة ففزع أهل كل مذهب في الحرم إلى رجلٍ منهم فقدموه ليصلي بهم جماعة فمضى العمل على ذلك من يومئذ "[٤] . ولم يوضح التجيبي من هو المعني بالديلمي كما أغفل تحديد السنة أيضاً .

ولعل المعني هنا بالديلمي هو معز الدولة ابن بويه[٥] فقد دخل بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م واعتقل الخليفة العباسي المستكفي[٦] وسمل عينيه وكان معز

(١) أبومنصور العزيز بالله بن المعز لدين الله معد بن منصور القائم بن المهدي العبيدي بويع بعد أبيه يوم الخميس أربع ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م ومات سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م عرف عنه الكرم والشجاعة. انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص٢٥٠.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج٨ ، ص ٧٩.

(٣) يحيى بن على : غاية الأماني ، ج١ ، ص ١٥٦.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٩٦.

(٥) أبوالحسين أحمد بن أبي شجاع بُويه له ثلاثة أخوة كان صاحب العراق والأهواز ويقال له الأقطع لأن يده اليسرى مقطوعة وبعض أصابع يده اليمنى دخل بغداد يوم السبت لاحدى عشرة ليلة من جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م في خلافة المستكفي وملكها بلا عناء توفي يوم الأثنين سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ / ٩٧٥م ببغداد. أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

(٦) عبدالله بن على المستكفي بن المعتضد يكنى أبا القاسم ولد في صفر سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م ولي الخلافة وعمره إحدى وأربعون سنة وكان ذلك سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م وفي أيامه دخل معز الدولة بن بُويه بغداد وسمل عينيه وكانت مدة خلافته سنة وأربعة أشهر ويومين. انظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج٦، ص٣٣٨ ـ ٣٤٣.

الدولة شيعياً حتى قيل أنه أراد مبايعة شيعي ولكنه عدل عن ذلك وأصبحت الحالة في العراق مذرية من الفقر والجوع حتى صارت العقارات تباع برغيفين من الخبز وأكل الناس الجيف والدواب والكلاب وهجرها أهلها[١] .

ونخلص بالقول إلى أنه بالرغم من تعدد الأئمة والمذاهب بالحرم الشريف إلا أنه لم يحدث اضطهاد أو تحيز لمذهب على آخر بل سار أئمة وعلماء المذاهب جنباً إلى جنب لنشر العلم وذلك بعقدهم لمجالس العلم وحلقاته وربما يحدث تفقه العلماء على أكثر من مذهب[٢] مما يؤكد أن تعدد المذاهب نتج عنه انتشار أوسع العلم .

وظلت مكة المكرمة والمدينة المنورة مقصداً يصلهما العلماء وطلبة العلم للزيارة وأداء فريضة الحج ونيل العلم فيقيمون فيهما فترة قد تمتد إلى سنوات. بل إننا لنجد بعضاً من هؤلاء العلماء يقضي بقية عمره بإحداهما[٣]. كما تعد الرحلة إليهما في طلب العلم من الأشياء المهمة لعلماء تلك الفترة[٤]. وحفلت كتب التراجم بالإشارة لذلك فهي توضح مجاورة العديد منهم سواء بمكة المكرمة أو المدينة المنورة أو كليهما وذلك عائد إلى مكانة المدينتين في نفوس المسلمين وما كان عليه المسجد الحرام والمسجد النبوي من نشاطٍ علمي إذ كانا بمثابة جامعة كبيرة متنوعة العلوم يعقد فيهما الحلقات العلمية يومياً . وهذه الحلقات مفتوحةً لكل راغبٍ في المعرفة غير مرتبطة بدوام محدد ولا تفرض مادة بعينها للدرس يتنقل فيها الطالب من حلقة لأخرى إلى أن يستقر في الفن الملائم له[٥] .

---

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج٦ ، ص ٣١٤ ـ ٣١٦.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ١٩٦ـ١٩٩؛ ٤، ص٣٢٧ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢، ص٢٢.

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ١٣٣ ؛ السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص٢٠.

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج١ ، ص ٣٦١.

(٥) محمد المجذوب : رسالة المسجد قديماً وحديثاً ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد المنعقد في ١٥ رمضان ١٣٩٥هـ ، ص ٤٨٥.

ويتصدر الشيخ هذه الحلقات وحوله طلبة العلم يسمعونه ويناقشونه ويناقشهم ، واستعملت بهذه الحلقات طريقة الإملاء والقراءة ودراسة الرواية والدراية والمناظرة كطريقة للتعليم(١) .

وطبيعي أن تتعدد الحلقات العلمية بتنوع العلماء حيث أشار ابن جبير إلى كثرتها(٢) .

ولا ريب أن مكة المكرمة والمدينة المنورة مبدأ ومنتهى الحركة العلمية بسبب الرحلات السنوية للحج والزيارة . وهذه ميزة انفردت بها عن سائر الأقطار الإسلامية . فهي بذلك ملتقى العلماء ووسيلة مهمة لنقل الكتب إلى مختلف البلاد الإسلامية حتى قيل إن بعض العلماء إذا افتقد كتاباً ولم يستطع الحصول عليه رغم تطوافه في البلدان لجأ إلى الإعلان عنه في الحج طمعاً في معرفة مكانه أو كيفية الوصول إليه(٣) .

وأدت شهرة علماء مكة المكرمة في مختلف الأقطار الإسلامية إلى الإجابة على كل ما يردهم من أسئلة واستفسارات(٤). ولا شك أن مجيء العلماء لمكة المكرمة لم يكن للحج فقط ، بل لطلب العلم والاستزادة منه فأصبحوا رسلاً لنشر العلم والثقافة بين البلاد الإسلامية(٥). كما كانت شهرة العالم مقصداً لطلبة العلم في كل مكان يصله(٦) وأدت بالتالي إلى انتشار مؤلفاتهم في العالم

---

(١) السيوطي : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، ج٢ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٩ ؛ عبدالرحمن الحوت : رسالة المسجد والإمام ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨ ، ٧٢.

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج١٦ ، ص ١٠٢ ؛ أحمد شلبي : موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، ج٥ ، ص ٣١٤.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٥٦.

(٥) أبوعلي الهجرى : أبوعلي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع ، ص١٠.

(٦) الخشني : قضاة قرطبة ، ص ٥٣ ـ ٥٤ ؛ شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات، الجزيرة العربية ، ص٦٢ ـ ٦٣.

الإسلامي[1] ويبدو أن انتشار الكتب في البلاد الإسلامية عائد إلى طلبة العلم المتنقلين بين المراكز العلمية .

وكانت مكة المكرمة من أبرز مراكز العلم في العالم الإسلامي بفضل كثرة العلماء بها بالإضافة إلى علمائها من العائلات التي تخصصت في طلب العلم وتوارثته كما توارثت خطبة الجمعة والإمامة في المسجد الحرام[2] مثل عائلة الطبري كما قام العلماء بالتعليم والتدريس دون مقابل[3] .

ثانياً : مراكز العلم ومدارسة

مكة المكرمة :

كان المسجد الحرام من أعظم المراكز العلمية بالحجاز على الإطلاق . فهو مقر للتدريس وجامعة مفتوحة لطلبة العلم لا فرق بين غنيهم وفقيرهم . ففيه تعقد حلقات العلم[4] حيث يتصدر الشيخ الحلقة وحوله التلاميذ من مختلف الجنسيات[5] إلى جانب تنوع العلوم الملقاة فيها[6]. ويظهر ذلك من تراجم مختلف العلماء لدى الرحالة المغاربة والأندلسيين .

ولم يكن التعليم في المسجد الحرام وفق منهج محدد بل كان الأمر متروكاً لكل عالم في تدريس المفيد والصالح من العلم[7] والطالب يتبع ميوله العلمية فإذا برز في علم واستطاع اجتياز الامتحان أجيز فيه وأصبح مؤهلاً لتدريس ذلك العلم[8] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج٩ ، ص ٢١١.

(٢) أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج١ ، ص ٢١٧.

(٣) عبدالرحمن صالح : تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ص ٣٩.

(٤) على حسني الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٢٩.

(٥) عبدالرحمن صالح عبدالله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ص ٤١.

(٦) محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٧) عبدالرحمن صالح عبدالله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة ، ص ٤١.

(٨) على الخربوطلي : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

وقد ظهرت كثرة حلقات العلم بالمسجد الحرام من إشارات الرحالة المغاربة والأندلسيين حيث أشار ابن جبير إليها دون تفصيل في هذه الناحية بأكثر من قوله إنه " غاص بحلقات الدرس "(١). ونتلمس دور المسجد الحرام العلمي في ذلك الوقت من كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين الذين دونوا رحلاتهم على نمط البرامج مثل ابن جابر الوادي وابن رشيد وغيرهما ممن تأرجحت كتاباتهم بين نمط البرامج والوصف مثل التجيبي فهم يظهرون مدى إشعاع هذا المركز العلمي وشهرته في كل ناحية من أقطار البلاد الإسلامية فموسم الحج مناسبة لكل شيء(٢). ولا يلبث أن يغادر العالم أو طالب العلم إلى موطنه محملاً بما ناله من علم وما حصل عليه من إجازات فقد أورد ابن رشيد نماذج لمثل تلك الإجازات في رحلته(٣). كما قام ابن جابر الوادي آشي بنشر ما تلقاه من علوم في موطنه عندما عاد(٤) .

وزخرت كتب التراجم بالكثير من تراجم العلماء الراحلين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ونادراً ما نجد من لم تكن له رحلة إليهما. حيث أن قيمة العالم تكمن في كثرة ما له من رحلات ومشايخ تلقى العلم عنهم(٥) .

ويبدو أن مكانة المسجد الحرام العلمية بدأت منذ أن تصدر ابن عباس الجلوس والتدريس فيه حتى لقب بحبر الأمة وسمي بالبحر لغزارة علمه بحديث رسول الله ﷺ(٦) وبطرق التقاضي في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وبالفقه والشعر وتفسير القرآن الكريم والحساب والتأويل والمغازي وأيام العرب لذلك تنوعت حلقات العلم التي عقدها ، خاصة وإنه كان لكل علم من العلوم السابقة مجلس ويوم خاص . وإلى جانب ما سبق هو أعلم الناس بالمناسك إذ شوهد في أيام الحج يلجأ إليه الحجاج لسؤاله عن المناسك(٧).

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨ ، ٧٢.

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٥ ، ص ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨.

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٦٩.

(٤) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٤.

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج١ ، ص ٣٦١ ؛ أحمد شلبي : التربية الإسلامية ، ج٥ ، ص٣٣٠.

(٦) ابن الأثير : أسد الغابة ، ج٣ ، ص ١٨٧.

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٢ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

ومنذ تلك الأيام برزت المكانة المرموقة للمسجد الحرام كمقر للتدريس والفتيا واستمر الوضع بتصدر كبار العلماء للتدريس والتعليم . فقد ذكر ابن رشيد أن رضي الدين الطبري[1] تدور عليه الفتيا أيام الموسم[2]. وقد أيد الفاسي ابن رشيد في ذلك[3] .

وأشار الرحالة المغاربة والأندلسيون إلى تنوع حلقات العلم من سماع الأحاديث الشريفة[4] والشعر[5] والتفسير والسِيَر والمغازي وعلوم الحديث ونماذج من خطب الجمعة وعلم القراءات والفقه وغيرهما من العلوم[6] وساعد على بروز المسجد الحرام كمركز علمي توفر الكتب اللازمة للتعليم . فقد شاهد كل من ابن جبير والتجيبي وابن بطوطة والبلوي خزائن للكتب فيه[7]. وهي ولا ريب كتب وقفت على المسجد الحرام. إضافة إلى الكتب الخاصة بكل عالم يتولّى التدريس منها وذكر التجيبي أن لنجم الدين الطبري[8] خزانة كتب كبيرة[9]. إلى جانب الكتب الموقوفة من قِبَل علماء مكة المكرمة[10] .

وأسهم علماء كل مذهب بتأمين الكتب للدارسين وإيقافها عليهم داخل المسجد الحرام فقد شاهد ابن جبير خزانة للكتب تتبع الإمام المالكي موقوفة على أهل مذهبه[11]. ويلاحظ أيضاً مجيء طلبة العلم ببعض الكتب لمقابلتها على ما لدى علماء مكة المكرمة وإضافة الشروحات عليها وخير مثال على وفرة الكتب بمكة المكرمة ما حوته كتب الرحالة من أسمائها .

---

(١) انظر ترجمته في ص ٢٧٥.
(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٣١.
(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص٢٤٠ ــ ٢٤٧.
(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٣١ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٢.
(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٦٣.
(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٢ ، ٤٠٤ وما بعدها ، ص ٣٧٦ ، ٣٨٥ ، ٤٣٤ ، ٤٤١.
(٧) ابن جبير : الرحلة ، ص٨٠ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٨، البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٠٦.
(٨) انظر ترجمته في ص ٢٨١.
(٩) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٧٦.
(١٠) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ١٠٢.
(١١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٣.

المدينة المنورة :

يأتي المسجد النبوي مركزاً ثانياً من المراكز العلمية بالحجاز وإن لم يصل في وضعه العلمي إلى مرتبة المسجد الحرام ، خاصةً فهذا عائدٌ إلى اضطهاد السنة حتى قيل إنه لم يكن بالمستطاع الجهر بقراءة كتب السّنة(1). وأثار الأمر انتباه ابن جبير فأشار إلى تصدر الشيعة في الإمامة والخطابة(2). بالمسجد النبوي ووصفهم بأنهم " على مذهب غير مرضي "(3). وهذا مخالف لأوضاع المسجد الحرام واستيعابه لكافة المذاهب دون التحيز لأحدها ضد الآخر بإشارة ابن جبير والتجيبي والبلوي(4) .

ويفسر اضطهاد أهل السنة بالمدينة المنورة ضعف دور علمائها العلمي في تلك الفترة ولكن لم تلبث أن تغيرت تلك الأوضاع فنجد في كتب الرحالة عقب ابن جبير برز دور علماء السنة في المدينة(5) .

فحافظت على مركزها العلمي وظلت مقصداً لطلبة العلم يعودون منها إلى وطنهم لنشر ما تلقوه من علمائها . وكان العلماء المجاورون يحتفظون بكتبهم داخل المسجد النبوي في أماكن خاصة بهم مثل السمهودي وغيره(6)

---

(1) السمهودي : وفاء الوفا ، ج2، ص600 ؛ جميل حرب : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ، ص239.

(2) ظلت الخطابة والإمامة بأيدي الشيعة إلى أن خرجت منهم إلى عمر بن أحمد بن ظافر بن طراد ولكنه لم يسلم من أذاهم خاصة بعد أن أضيف القضاء له وقد كان أهل السنة قبله مستضعفين يؤذون فارتحلوا بأولادهم تاركين أملاكهم فبعث إليهم أهل المدينة أن الأشراف أمنوهم وعليهم الرجوع إلى المدينة المنورة فلم يفعلوا فصودرت أملاكهم. انظر السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج3 ، ص 313 ؛ حمد الجاسر : رسائل من تاريخ المدينة ، ص 142.وتعقيباً حول ما قيل تظهر لنا قوة وهيمنة الدولة المملوكية على المدينة المنورة بما لها من سلطة في إقصاء الشيعة وتقديم السنة وهو أمر لم تستطع الدولة الأيوبية فعله.

(3) ابن جبير : الرحلة ، ص 179.

(4) ابن جبير : الرحلة ، ص 78 ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص 296 ـ 297 ؛ البلوي : تاج المفرق، ج1 ، ص 306.

(5) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج5 ، ص 69.

(6) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج3 ، ص 231.

وللدلالة على وفرة الكتب بالمدينة وتنوعها ما قيل إنه " ما من عالم صنف كتاباً بالمشرق أو بالسند أو بالهند أو العراق أو غيرها من الأقاليم إلا يصرف نسخة للمدينة المشرفة تبركاً ورجاء الإقبال على كتبه " إضافة إلى وجود عدد كبير منها للإعارة(١) . كما احتوت على بعض كتب للذهبي شاهد ابن جابر الوادي آشي منها اختصاراً لتاريخ الذهبي والمؤلف من واحد وعشرين مجلداً بالمدينة المنورة فنقل منه(٢) .

كما ضم المسجد النبوي مكتبة كبيرة احتوت على خزانتين كبيرتين من الكتب وبعض المصاحف الموقوفة على المسجد(٣). وأغلب الظن أن الكثير من هذه الكتب قد تلف وضاع خاصة وأن المسجد النبوي تعرّض لحريقين تسببا في إتلاف العديد من الأشياء القيمة(٤) .

ونستطيع القول إن المسجدين المكي والمدني حظيا بأهمية علمية كبيرة لكثرة العلماء والمؤلفات فيهما وهما الأساسان في صبغهما بتلك الأهمية وجعلهما مقصداً لطلبة العلم .

ويجدر بنا أيضاً الإشارة إلى ما للحجاج من دور في نشر العلم أثناء سيرهم إلى الحجاز فركب الحجيج يضم آلاف المسلمين فهم في أثناء سيرهم يتدارسون ويتلقون العلم كما أشار ابن رشيد إلى ذلك(٥).

---

(١) محمد المنوني : الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج٢ ، ص ٣٠١.

(٢) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص١٠٠ ــ ١٠١.

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧١ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٨٧.

(٤) احترق المسجد النبوي الشريف للمرة الأولى في رمضان عام ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م ولم يسلم من هذا الحريق إلا بعض صناديق للكتب الموجودة في القبة الواقعة بوسط صحن المسجد والمصحف الشريف العثماني، واحترق في المرة الثانية في سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م فاحترقت كتب أخرى موجودة في المسجد من ضمنها معظم كتب السمهودي. انظر السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٥٩٨ ــ ٦٠٠ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٢٣١.

(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٥ ــ ٦ ، ١٠.

المدارس الموجودة في الحجاز :

مكة المكرمة :

المدرسة المظفرية أو المنصورية :

سارت المدارس بمكة المكرمة جنباً إلى جنب مع المسجد الحرام في نشر العلم وإن كانت متأخرة الظهور إلا أنه خلال قدوم الرحالة المغاربة والأندلسيين إلى مكة المكرمة اقتصروا في الإشارة إلى مدرسة واحدة فقط وهي المدرسة التي بناها ملك اليمن المنصور المظفر نور الدين عمر بن رسول . وتعرف بالمدرسة المظفرية وأوقفها على أتباع المذهب الشافعي[1]. وذكر الخزرجي وقف السلطان نور الدين للمدرسة ولكنه لم يشر إلى سنة الوقف[2] . بينما ذكر الفاسي وابن فهد أنها بنيت بالجانب الغربي من المسجد الحرام سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م[3] .

وذكر التجيبي أن الملك المنصور عمر بن علي بن رسول بنى مدرسة وجعل لها باباً شارعاً داخل المسجد الحرام بين باب العمرة وباب إبراهيم[4] . وحدد ابن بطوطة نفس المكان ولكنه قال إن مؤسسها هو السلطان يوسف بن رسول[5] .

وهنا التبس الأمر على ابن بطوطة فباني المدرسة هو والد السلطان يوسف ولعل سبب اللبس عائد إلى أن السلطان يوسف قد يكون أضاف إليها إضافات معمارية منسوبة إليه خاصة وأن له العديد من الآثار الطيبة في مكة المكرمة مما جعل ابن بطوطة يعتقد أنه المؤسس لها[6] .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٦.

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٨٢.

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٥٢٣ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ١١٧ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص٦٠.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٦٢ ، ٢٤٦.

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٩.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٤٨٩.

أما العبدري فذكر نفس المدرسة بنفس مكانها ونسبها لأحد حفدة الفقيه محب الدين الطبري[1] . ولعل سبب نسبتها إليه أنه القائم عليها، فالتبس الأمر على العبدري خاصة أن إقامته في مكة المكرمة محدودة ولم يتمكن فيها من تحرّي الأمر بدقة . إضافة إلى أن المحب الطبري يعمل معلماً بها وكثير السفر إلى اليمن . ولعل الحفيد المعني في قول العبدري نجم الدين الطبري والذي رافق جده إلى اليمن[2] . فربما نال حظوة القيام على المدرسة . وذكر الفاسي قولاً يوافق التجيبي من قيام هذه المدرسة بتدريس الحديث والفقه على المذهب الشافعي[3] .

وقد كانت هذه المدرسة مثار انتباه الرحالة ، إذ اكتفوا بذكرها دون غيرها وربما يرجع ذلك إلى عظم هذه المدرسة وما هي عليه من علو الشأن دون باقي المدارس حتى قيل : إنها " كانت من العظم بحيث يغبط ملوك الأرض بانيها "[4] ويبدو أن تلك النظرة لها كانت من الناحية المعمارية والعلمية.

وقد أغفلت كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين ذكر بعض المدارس التي كانت معاصرة لرحلاتهم، وجاءت الإشارة إليها في الكتب التاريخية المعاصرة . ومن أهم هذه المدارس التي كانت تؤدي دورها :

مدرسة الزنجيلي :

ذكر الفاسي وابن فهد موقعها عند باب العمرة ويدرس بها الفقه الحنفي وأوقفت سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م[5] . ولكن الراجح أنها أوقفت سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م فابن جبير حجّ وجاور في تلك السنة ولم يذكر أنه رأى مدرسة بمكة فلو تمّ وقفها في تلك السنة لبادر ابن جبير إلى الإشارة لذلك إذ أنه من

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٤.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦٥ ؛ ج٢ ، ص ٢٧٣.

(٣) نفس المصدر السابق ، ج١ ، ص ١١٧ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٥٢٣.

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٨٢ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص٦٠.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ١١٧ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٤٩.

المعاصرين لبنائها فكل ما أورده عن الزنجيلي أنه ابتنى داراً بمكة المكرمة[١] . فربما كانت هذه الدار نواة للمدرسة أو الرباط الذي شيده ومن ثم جعلها مدرسة أو رباطاً . ولم يرد ذكر هذه المدرسة في كافة كتب الرحالة وربما لعدم شهرتها أو لتغيير اسمها خاصة وأن ابن فهد يذكر أنها أصبحت تعرف بدار السلسلة وأصبحت المدرسة بيد بعض أشراف مكة المكرمة[٢]. كما جاء ذكرها لدى أبي شامة والنعيمي[٣] .

مدرسة طاب الزمان الحبشية :

عتيقة الخليفة المستضيء أوقفتها سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م على الشافعية[٤] .

مدرسة الأرسوفي :

لصاحبها أبي محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن هبة الله الأرسوفي الأصل المصري الدار الشافعي العدل التاجر . وتاريخ وقفها سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م[٥] .

مدرسة أبي علي ابن أبي زكرى :

تقع بقرب المدرسة المجاهدية وتاريخ وقفها سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وتعرف ببيت ورثة الشيخ إسماعيل الزمزمي[٦] .

مدرسة ابن الحداد المهدي :

أوقفها على المالكية بقرب باب الشبيكة وتعرف بمدرسة الأدارسة . وتاريخ وقفها سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م[٧] .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٨.

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٤٩.

(٣) أبوشامة : الروضتين ، ج١ ، ص ٢٦ ؛ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ، ص ٥٢٦.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ١١٧ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٢ ، ص ٥٥٣.

(٥) المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، ج١ ، ص ٢٢٧ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ١١٢ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٥٢٦.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ١١٨ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٤.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ١١٨.

مدرسة النها وندي :

قرب الدربية بنيت زمن المدرسة السابقة[1] .

مدرسة الأمير أرعون :

الأمير أرعون هو نائب الخليفة الناصر وتم تشييدها للخليفة قبل سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م أو بعدها بقليل بدار العجلة على يسار الداخل إلى المسجد الحرام[2] .

مدرسة الملك المجاهد :

الملك المجاهد صاحب اليمن بناها بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام وأوقفها على الشافعية سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م[3] .

ومما يلفت النظر أن الرحالة المغاربة والأندلسيين حرصوا على طلب العلم بالمسجد الحرام وليس بالمدارس المنتشرة بمكة[4]. إلى جانب أماكن أخرى مثل بيوت العلماء وغيرها[5] .

المدارس بالمدينة المنورة :

لم يرد ذكر المدارس بالمدينة المنورة في كتب الرحالة إلا في برنامج ابن جابر الوادي آشي ، حيث ذكر المدرسة الشهابية ولم يشر إلى مكانها ولا سنة وقفها . وكل ما وصلنا من معلومات عنها أن عمر بن أحمد بن الخضر بن ظافر ابن طراد عمل مدرساً بها[6] .

---

(١) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) المصدر السابق والجزء ، ص ١١٧.

(٣) المصدر السابق والجزء ، ص ١١٨.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٦٥ ، ١٨٣ ـ ١٨٤ ، ١٩٣ وغيرها ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٣١٠ وغيرها ، ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ وغيرها ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٤٠.

(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٧.

(٦) ابن جابر الوادي آشي :البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٤٩؛ أنظر ترجمته في ص٢٩٢ـ٢٩٣.

وقد ذكر السخاوي بأن هذه المدرسة للمظفر غازي[1] وموقوفة على المذاهب الأربعة وتتوفر فيها أعداد كبيرة من الكتب التي فقدت فيما بعد[2] .

وأشار البلوي إلى مدرسة أخرى بالمدينة المنورة تقع مقابل باب الرحمة مع عدم الإشارة إلى اسمها[3]. كانت أماكن الدرس والتلقي بالمدينة تقام بالمسجد النبوي وقليل منها في منازل العلماء[4]. ولم يذكر أحد من الرحالة أنه أخذ علماً بمدرسة سوى ابن جابر الوادي آشي[5] .

ومما سبق يتضح لنا ما كان عليه المسجد الحرام والمسجد النبوي من نشاط علمي بسبب وفرة الكتب العلمية ووجود العلماء القائمين على التدريس، فشدت الرحال إلى هذين المركزين لا للحج والزيارة فقط ؛ بل وللتزود بالعلم الذي سرعان ما ينتشر في أوطان هؤلاء الرحالة الذين يبادرون إلى نشره هناك وكأنما كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة مقر العلم المكين الذي لابد من الأخذ منه لتكتمل الدورة العلمية في سائر الأقطار الإسلامية .

ثالثاً : كبار العلماء :

مكة المكرمة :

ضمت مكة المكرمة جمعاً غفيراً من العلماء سواء كانوا مقيمن أومجاورين وأورد الرحالة المغاربة والأندلسيون تراجم مفصلة لأشهر الموجودين

---

(١) لم يتضح من هو المقصود بالمظفر غازي حيث يوجد اثنان بهذا الإسم أولهما غازي المظفر بن أبي بكر العادل بن أيوب من ملوك الدولة الأيوبية المتوفي سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م أو ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م. وثانيهما غازي المظفر بن داود الناصر بن عيسى المعظم بن العادل الأيوبي المتوفي سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م. انظر الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٤ ، ٤٢٣ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٥ ، ص١١٢ وفي الترجمه للمظفر بن أبي بكر ذكر أن له آثاراً حسنة بالحجاز ولكن لم تشر المصادر التي تناولناها إلى إنشائه لمدرسة بالمدينة المنورة وربما يكون الأول هو المعني.

(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦٤.

(٣) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٨٧.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢١ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٦٠ ، ٦٦ وغيرها ؛ ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٣٨ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤.

(٥) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٤٥.

فيها لتلك الفترة نظراً لصلتهم الواسعة بهم مما أتاح لهم الاطلاع على كثير من الأمور المهمة في حياتهم ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال :

عمر بن عبدالمجيد الميانشي :

عمر بن عبدالمجيد بن عمر بن حسين القرشي العبدري تقي الدين أبوحفص المعروف بالميانشي وأحياناً يدعى الميانجي ، تلقى العلم على كبار العلماء وسمع منهم الكثير . جاور بمكة وتولى الخطبة فيها . له عدة مؤلفات تميز بسعة العلم والورع والثقة . توفي في جمادى الأولى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م[١].

لقيه ابن جبير ونهل من علمه الشيء الكثير وأشار إلى أن له حماماً بمكة ينسب إليه[٢] .

أحمد بن علي الفنكي :

أحمد بن علي بن عتيق بن إسماعيل القرطبي أبوجعفر المقرىء الفنكي. قرأ القرآن الكريم وسمع الحديث بالمغرب والشام والموصل ودمشق التي قضى فيها فترة من الزمن تولى خلالها الإمامة وهو صاحب علم ودين وتميز بالصدق والأمانة توفي سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م[٣] .

وصفه ابن جبير بالفقيه المحدث والزاهد الورع وجمعت بينه وبين ابن جبير صداقة قوية على الرغم من عدم ترجمته له بدليل قوله :" صاحبنا الفقيه الورع " كناية عن صلته الوثيقة به ، فابن جبير لم يكن مهتماً بإيراد تراجم مفصلة لأ شياخه ونلمح في رحلته إشارة لأحد مؤلفات أبي جعفر في وصف المسجد الحرام فقد ذكر ابن جبير أنه عقب قياسه لذرع المسجد الحرام وجده مطابقاً لما أورده أبوجعفر الفنكي[٤] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠٢.

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٧ ، ص ٢٠٥.

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨ ، ٨١ ، ١٢٣.

ابن أبي الصيف الفقيه :

محمد بن إسماعيل بن علي اليمني تقي الدين أبوعبدالله المعروف بابن أبي الصيف الشافعي انتهت إليه رياسة الفقه بمكة المكرمة حيث حدث ودرس وأفتى بها توفي سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م على الأصح[١]. ولم ترد في رحلة ابن جبير معلومات كافية عنه ولكن من الواضح أنه على درجة كبيرة من العلم بحيث يسمع ويناقش فيما يقول ومما يدل على ذلك سؤال ابن جبير عن أصل السرو اليمنيين وإجابته له[٢] .

أبو اليمن عبدالصمد بن عساكر :

عبدالصمد بن عبدالوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الدمشقي : الشيخ أمين الدين أبواليمن المعروف بابن عساكر الشافعي سمع الكثير من العديد من العلماء وله الكثير من التلاميذ كان ناظماً للشعر ، حسن الخط . حظي بثناء ومديح عارفيه فابو اليمن ثقة فاضلٌ عالمٌ ، عابدٌ زاهدٌ . جاور بمكة نحو أربعين سنة كان خلالها شيخ الحجاز في وقته ولد يوم الإثنين تاسع عشر ربيع الأول سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م وتوفي في بداية جمادى الأولى أو وسطه سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م ودفن بالبقيع[٣] .

لقيه ابن رشيد ومدحه كثيراً ويبدو أن هناك اتفاقاً حول تفاصيل حياته لدى ابن رشيد والفاسي والسخاوي . فهما فيما يبدو قد اعتمدا على ما أورده ابن رشيد وهذا يؤكد أهمية كتب الرحالة كمصدر لتاريخ الحجاز . حيث نجد أن مؤرخي الحجاز لم يتورعوا عن الأخذ من كتب الرحالة في بعض الأمور التي خفيت عليهم . وهذا يقودنا إلى معرفة مدى انتشار كتب الرحالة بالحجاز واعتماد مؤرخيها عليها .

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص١١٠.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٤٣٢ ـ٤٣٣ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ١٨ ـ ٢٠.

وأضاف ابن رشيد أن أباه رحل به إلى العراق سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م . وسمع بها ثم حج في السنة التالية ورجع إلى الشام وبلغ بها وبمصر منزلة عالية شارك مع صديق له في جهاد الفرنسيين عند نزولهم بمصر في العام المعروف بعام دمياط(١) . سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م ، واستشهد رفيقه ونجا هو فاتجه بعد نجاته إلى مكة المكرمة مجاوراً . وأومضى بقية عمره بين حج واعتمار وزيارة للمدينة المنورة(٢) .

أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني :

أحمد بن أبي بكر عبدالله بن خليل بن إبراهيم بن يحيى بن فارس ابن أبي عبدالله العسقلاني . يكنى بأبي الفضل ويلقب بالعَلَم ويعرف بابن خليل المكي الشافعي ، من فضلاء مكة وفقهائها الثقات ولد يوم السبت منتصف ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م وتوفي عشية الثلاثاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩١م وصلى عليه أخوه الرضى(٣) .

لقيه ابن رشيد ولقبه بالعديد من الألقاب ومدحه بقوله :" فقيه الحرم الشريف ومفتيه ... الصالح المبارك "(٤) .

محب الدين : أبو العباس وأبومحمد أحمد بن عبدالله الطبري :

أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم محب الدين أبو العباس الطبري المكي ولد في جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م . مفتي الحجاز وشيخ الشافعية ومحدثها صنف الكثير من المؤلفات عرف بالزهد

---

(١) وقعة دمياط سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م حيث سار ملك فرنسا بجيشه البالغ خمسين ألف مقاتل إلى دمياط وكان الملك صالح قد استعد فيها بالذخائر والآلات وجعل فيها بني كنانة ولكنهم تراجعوا أمام الأعداء فدخلها الفرنسيون وجرت بينهم وبين المسلمين معركة عظيمة سقط فيها العديد من القتلى. انظر أبوالفدا : تاريخ أبوالفدا ، ج٣ ، ص ١٧٨ ـ ١٨٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٧٧؛ أحمد بن علي الحريري : الإعلام والتبيين ، ص ٩٦.

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ، ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٥٧ ـ ٦٠.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٢٩.

ويقول الشعر . ومن أشهر ما قاله قصيدة في المنازل بين مكة المكرمة والمدينة المنورة تزيد على ثلاثمائة بيت توفي بداية جمادى الآخرة عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م بمكة المكرمة وكان قد رحل إلى اليمن واتصل بالملك المظفر(١) .

وذكر العبدري عدم التقائه به عند قدومه إلى مكة المكرمة لسفره تلك السنة إلى اليمن(٢). وحظي المحب بمكانة كبيرة لدى الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن رسول ورتب له في كل شهر خمسين ديناراً على تدريسه بمدرسة والده بمكة المكرمة المعروفة بالمنصورية(٣). ووفاته بمكة المكرمة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م(٤) .

أبوعبدالله محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني رضي الدين :

محمد بن أبي بكر عبدالله بن خليل بن إبراهيم بن يحيى بن فارس بن أبي عبدالله العسقلاني المكي شيخ الحرم ومفتيه المعروف بابن خليل الشافعي، سمع الكثير وحدث الكثير فهو عالمٌ جليلٌ حرص على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وله مع أمير مكة أبي نمي محمد بن أبي سعد حكايات ونوادر انتهى به الأمر إلى سجنه ثم قام الشريف بإطلاقه عقب الاعتذار له . جلس للإفتاء في أيام الموسم له معرفة بالفقه الشافعي معتمد عليه بمكة المكرمة لا يخاف في الحق لومة لائم وتمتع بحب الناس واحترامهم والسعي لقضاء أمورهم .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٣٤٠ ـ ٣٤١ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦١ ـ ٦٨؛ ابن شبه : طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٤ ؛ السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٥١٤ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦.

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص٢٠٠. إن ما بين رحلة العبدري ورحلة ابن رشيد ما يقرب من أربع سنوات فلا شك أن ما وجد من علماء بالحرم المكي هم أنفسهم في الرحلتين ونستغرب قول العبدري أنه لم يلق من يأخذ عنه بمكة. انظر العبدري : الرحلة المغربية ، ص٢٠٠.

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٤٨. وما ذكره ابن رشيد من تاريخ وفاته يدل على مراجعته لرحلته بعد عدة سنوات من عودته.

حفظ التنبيه مسألة مسألة والمفصل . ولد بمنى في الحادي عشر من ذي الحجة في آخر أيام التشريق سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م وتوفي آخر شهر ذي الحجة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م وهو الأصح لأنه منقول من خط جد الفاسي[١].

لقيه ابن رشيد وترجم له ويبدو أن هناك تطابقاً مع ما أورده الفاسي رغم قصر ترجمته له[٢] .

أبوالحسن عبدالرحمن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي العماد :

عبدالرحمن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن عبدالملك بن أبي النضر الطبري المكي المكنى بأبي الحسن وأبي القاسم وأبي محمد ويلقب بالعماد الشافعي : مفتي مكة المكرمة. وصف بسعة العلم والفقه وحظي بمحبة الناس وتميز بالصلاح والتقوى . له إلمام بالحديث والعربية. ولد في ذي الحجة سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م بمكة المكرمة ووفاته سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م ودفن بالمعلاة[٣] .

ترجم له التجيبي بشكل مفصل موضحًا عدم انتسابه للطبريين المكيين. كما أوضح أنه قرشي النسب من نسل واحدٍ من العشرة المبشرين بالجنه وقد أدى فريضة الحج أكثر من ستين مرة وذكر سنة مولده تنقص سنة عما أوردها الفاسي[٤]. بينما ابن جابر الوادي آشي اتفق مع الفاسي في سنة المولد واتفق مع التجيبي والفاسي حول فضله وعلمه[٥] .

محمد بن غالب بن شعبة الجياني :

محمد بن غالب بن يونس بن محمد بن غالب الأنصاري الأندلسي الجياني شمس الدين أبوعبدالله المعروف بابن شعبة ولد سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م أو ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وتوفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م في أول شهر المحرم[٦] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٥٩ ـ ٦٣. انظر ما هية كتاب التنبيه فيما بعد ، ص ٢٩٣ ، هامش رقم ٢.

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج ٥ ، ص ١٢٩ ، ١٣١.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٢ ـ ٣٧٥.

(٥) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٤٨.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

ترجم له التجيبي بالتفصيل وأثنى عليه بقوله الشيخ الفقيه الإمام الفاضل الصالح العابد الناسك الورع الزاهد ... أحد أولياء الله الصالحين مشهور بالفضل والدين كثير الصمت قليل الكلام إلا لحاجة ذو علم وحلم أصيب بالصمم في آخر عمره وجزم أن مولده سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م[١]. على عكس الفاسي الذي لم تتضح له على وجه الدقة سنة مولده .

أما ابن جابر الوادي آشي فلم يحدد سنة ولادته وخالف التجيبي والفاسي في سنة الوفاة وحددها بـ ٧٠٣هـ/١٣٠٣م واتفق معهما في علمه وفضله[٢] .

حسين بن إبراهيم بن صدقة البصري :

الحسين بن صدقة بن بدران تقي الدين الموصلي رجل خير وصلاح فقير الحال له شعر حسن مات في أواخر جمادى الأولى سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م[٣].

لقيه التجيبي بمكة المكرمة والمدينة المنورة وذكر بأنه كثير الترحال والأسفار مصاحب للزهاد والعُبّاد والصوفية والمشايخ[٤] .

أبوعبدالله بن مطرف الأندلسي :

محمد بن مطرف الأندلسي جاور بمكة المكرمة نحواً من ستين سنة كان خلالها مواظباً على العبادة كثير الطواف مات في رمضان سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م وشارك في تشييع جنازته الأمير حميضة أمير مكة المكرمة[٥] في ذلك الوقت دلالة على علو شأنه لدى أميرها .

وقد لقيه التجيبي وأثنى عليه كثيراً واصفاً إياه بالعابد الفاضل من ساكني رباط الموفق . حج عدة مرات كان نزيهاً فيما يتعلق بأمور الدنيا ، وأورد التجيبي حادثة تدل على ذلك قائلاً : إن بعضاً من المجاورين المصريين من

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.
(٢) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٢٧.
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص ٥٦ ـ ٥٧.
(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٥٧.
(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص٢٦٠.

الأغنياء عرض عليه مالاً عدة مرات فرفضه . ثم طلب منه توزيعه لمن يراه مستحقاً له فرفض ذلك قائلاً :"مال لم أتول جمعه فلا أحب أن أتولى تفريقه"[1]

يحيى بن محمد بن علي بن الحسين :

يحيى بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن عبدالملك بن أبي النصر الطبري أبو الفضل الصالح : شرف الدين أبوالحسين وأبو محمد ويسمى محمد المكي سبط سليمان بن خليل العسقلاني . ولد سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ومات يوم الأحد السابع من شعبان سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م بمكة ودفن بالمعلاة[2] .

ونجد التجيبي يصفه بالشيخ الأجل أخي العماد الطبري . وأضاف أن لديه حديقة في وادي نخلة يبقى بها أكثر أوقاته[3] . حيث يقوم برعايتها بنفسه ولم يكن يأتي مكة المكرمة إلا في المواسم فقط وقد تحدث التجيبي عنه بتفاصيل أكثر من الفاسي مع توافقهما في بقية المعلومات .

عثمان بن محمد بن عثمان التوزري :

عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود فخر الدين التوزري المالكي يكنى أبا عمرو نزيل مكة المكرمة . ولد في رمضان سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م أو ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م سمع وقرأ مالا يحصى من الكتب ويزيد عدد شيوخه على الألف . قدم الحجاز سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م وظل يتردد عليها إلى أن استقر بمكة المكرمة سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ولم يزل بها إلى أن توفي سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م ودفن بالمعلاة [4] .

وأضاف ابن العماد أنه تلا القرآن الكريم بالقراءات السبع وتوفي عن ثلاث وثمانين سنة[5] .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٤٤٥ ـ ٤٥٠.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٤١ ـ ٤٧.

(٥) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص ٣٤.

وقد ترجم له التجيبي ترجمة واسعة لا تختلف عما أورده الفاسي ، بل ويزيد عليه بذكره أن التوزري شرع في تخريج معجم لشيوخه مرتب على حسب حروف المعجم يذكر فيه مروياته عن كل واحد منهم والكتب التي تحمّلها عنهم ذاكراً أسانيد تلك الكتب وأضاف أنه موصوف بحسن القراءة لكتب الحديث مشهور بالدقة والإتقان في قراءته علاوة على أنه كان قارئ مصر .

كما وصفه بالشيخ الفقيه الإمام الفاضل المحدث الضابط المتقن الصالح الزاهد العابد(١) .

ونجد أن ابن جابر الوادي آشي يشير إليه في برنامجه بالرغم من عدم تلقيه العلم عنه مباشرة حيث إن وفاته سابقة لوقت وجود ابن جابر الوادي آشي بمكة المكرمة(٢) .

أبو محمد عبدالله الدلاصي :

أبو محمد عبدالله بن عبدالحق بن عبدالله بن عبدالأحد بن علي القرشي المخزومي الشافعي . ولد أول رجب سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م بدلاص(٣) له كرامات اشتهرت عنه . توفي يوم الجمعة رابع عشر المحرم سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م بمكة المكرمة ودفن بالمعلاة . برع في الفقهين الشافعي والمالكي(٤) .

ترجم له التجيبي ترجمة وافية متتبعاً فيها حياته اليومية بكل دقائقها مثنياً عليه واصفاً إياه بالشيخ الفقيه الصالح الزاهد العابد الورع الناسك المنعوت بالعفيف المشهور بعلم القراءات . تصدر لإقراء القرآن الكريم بالحرم الشريف طوال أوقاته حتى أن التجيبي أشار إلى اعتراض القراء له أثناء طوافه بالبيت الشريف حج عدة مرات واستوطن مكة المكرمة أكثر من أربعين سنة

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٢) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ١٥٥.

(٣) (دلاص) بفتح أوله كورة بصعيد مصر على غربي النيل تشتمل على قرى وولاية واسمه ودلاص قصبتها وهي معدودة من كورة البهنسا. انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٥٩.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ١٩٦ ـ ١٩٩. انظر ما سبق ص ٢٥٧

كان خلالها متصدراً للإقراء و أحد العلماء البارزين[١] . وأشار إليه ابن كثير بترجمة قصيرة لا تختلف كثيراً عما سبق[٢] .

ولقيه أيضاً ابن جابر الوادي آشي وترجم له بشكل مختصر متفقاً فيها مع السابق ذكره ، مضيفاً أنه كان يقرىء القرآن الكريم بغير أجرٍ ابتغاء ثواب الله[٣] .

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الطبري :

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر من محمد ابن إبراهيم الطبري المكي مفتي الشافعية وإمامهم ومفتي الحجيج بمنى وعرفات . حدث أكثر من خمسين سنة . ولد بمكة المكرمة سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م وتوفي في الثامن من ربيع الأول سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م ودفن بالمعلاة . تلقى تعليمه بالحجاز وله مؤلفات كثيرة كما تصدر لتدريس الحديث والفقه[٤] .

وإبراهيم الطبري على جلال قدره وعلمه لم يرحل خارج الحجاز في طلب العلم وإنما جل علمه أخذه بها فقط . وهذا يقودنا إلى القول بأن الحجاز وخاصة مكة المكرمة كانت منارة إشعاع علمي أنجبت علماء أجلاء خُلدت أسماؤهم بفضل سعة علمهم .

وتعد ترجمة التجيبي لأبي إسحاق الطبري من أوسع التراجم فهي لا تختلف في مفادها عن الفاسي والذهبي وابن حجر . بل وتزيد عليها في إيراد دقائق تصرفاته التي يتضح من خلالها شخصية هذا العالم الفاضل الذي عرف بكثرة اجتهاده وصمته وشدة هيبته . كان ذا وقارٍ في مجلسه نظيف الثياب محباً للحديث وأهله عكف على عقد مجالس الحديث للغرباء حتى في أشد الأوقات حرارة متحملاً في ذلك جفاء وجهل بعضهم مطيلاً الجلوس معهم . كما أورد قائمة بمؤلفاته ونماذج من شعره[٥] .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص١٠٠.

(٣) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٤) الحسيني : ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ، ص١٠٠ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص٢٤٠ ـ ٢٤٦.

(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.

كما ترجم له ابن جابر الوادي آشي وإن كانت ترجمته قصيرة لم تأت بجديد[1] .

نجم الدين محمد بن محيى الدين الطبري :

محمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد ابن إبراهيم الشافعي المكي مفتي مكة المكرمة وقاضيها. أبو حامد ولد في شوال سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وقيل ٦٥٩هـ/١٢٦٠م تفقه وأفتى وتولى القضاء بعد أبيه فترة تزيد على خمس وثلاثين سنة حتى مات يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م ودفن بالمعلاة .

كان شيخاً فاضلاً مشهوراً بعلمه في الفقه مقصوداً للفتوى من بلاد الحجاز وما حولها وإماماً للشافعية[2] .

لقيه ابن بطوطة وأثنى عليه بالرغم من قصر ترجمته إلا أنها أضفت الجديد على ما سبق من فضله وكثرة صدقاته ومواساته للمجاورين وحسن خلقه وكثرة عبادته وإطالة مكوثه فى المسجد الحرام وقيامه بإطعام الأشراف والأعيان والفقراء وخدم الحرم الشريف والمجاورين ، وخاصة في مولد رسول الله ﷺ وحظي بمكانة كبيرة لدى ملك مصر الناصر إذ يعتبر وكيلاً عنه في توزيع صدقاته وصدقات أمرائه على سكان مكة المكرمة[3] .

جلال الدين محمد الأقشهري :

محمد بن أحمد بن أمين بن معاذ بن سعادة الأقشهري يلقب بالجلال ويكنى بأبي عبدالله وأبي طيبة جاور بالحرمين وسمع بهما الكثير. له عناية كبيرة بالحديث إلا أنه وقع في أخطاء فاحشة في تخريجه ، له إلمام بالأدب. ولد سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م ومات بالمدينة سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م[4] .

---

(١) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ؛ ابن شهبة الدمشقي : طبقات الشافعية ، ج٢ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج٦ ، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٩.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

بينما ذكر ابن حجر والسخاوي أنه ولد سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م . وأضافا أنه رحل إلى مصر والمغرب والأندلس ودوّن رحلته في عدةأسفار وألف كتاباً فيه أسماء أموات البقيع سمّاه الروضة[1] . وجاور آخر عمره بالمدينة إلى أن توفي بها وخالفا الفاسي في سنة وفاته أيضاً إذ ذكرا أنه توفي سنة ٧٣١هـ / ١٣٣٠م[2] .

لقيه ابن بطوطة وأشار إلى جلوسه عند باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام[3] .

محمد بن عثمان البغدادي :

محمد بن عثمان بن موسى بن عبدالله الآمدي المكي القاضي جلال الدين الحنبلي . إمام الحنابلة بالحرم الشريف بعد أبيه لمدة سبع وخمسين سنة ونصف ، سمع وحدث وناب في القضاء بمكة المكرمة عن القاضي نجم الدين الطبري وابنه القاضي شهاب الدين. تولى منصب الحسبة بمكة المكرمة وكانت فيه صرامة ، وهمة . توفي في يوم الأحد العشرين من جمادى الآخرة سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م ودفن بالمعلاة[4] .

لقيه ابن بطوطة وترجم له بشكل واسع وهي موافقة لما ذكره الفاسي عنه وزاد عليه بأنه بغدادي الأصل مكي المولد[5] .

محمد بن عبدالله بن أحمد الطبري :

محمد بن عبدالله بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد ابن إبراهيم الطبري المكي الشافعي المعروف بالبهاء ، تولّى الخطابة في مكة

---

(١) اسم الكتاب الروضة الفردوسية والحضرة القدسية. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص٩٢٨.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٣٠٩ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص٤٦٠ ـ ٤٦٥.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٤٠.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥١.

المكرمة عقب أبيه منذ سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م . واستمر فيها إلى أن توفي . عرف بفضله ومروءته وكرمه وحسن خلقه . إضافة إلى كونه ناظماً للشعر والنثر والخطب . ولد سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م بمكة المكرمة وتوفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م(١) .

مدحه ابن بطوطة كثيراً وبالرغم من قلة معلوماته عنه إلا أنه يوافق ما ذكره الفاسي حول بلاغته وحسن بيانه ، وأضاف أنه يكتب لكل جمعة خطبة خاصة بها(٢) .

عز الدين الحسن بن علي الواسطي :

الحسن بن علي بن إسماعيل بن إبراهيم العز أبو علي بن أبي الحسن العراقي البغدادي المولد الواسطي المنشأ الشافعي . جاور بمكة سنوات . جلس للفتوى خلالها وحج مراراً . أحد المجاورين بالمدينة المنورة . تولى الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي الشريف عقب سفر الخطيب سراج الدين إلى مصر . وهو حسن السيرة محبوب بين الناس عابد صالح مكثر لتلاوة القرآن الكريم حسن الهيئة ساع لقضاء حاجات الناس ووصف " بالإمام الولي " ولد سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م أو ٦٥٤هـ/١٢٥٦م . ومات في شعبان سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م(٣) .

ذكره ابن بطوطة من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة . ولكن يبدو أن إقامته بمكة أكثر ، موضحاً بذلك سيرته من متابعته لها فمن ذلك قوله عنه :" من أصحاب الأموال الطائلة يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي "(٤) .

وعندما ذكره بالمدينة المنورة لم يزد على قوله "عزالدين الواسطي خطيب المسجد النبوي "(٥) .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٤٦ ـ ٤٩ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص ٤٦٦.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٣) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥٣.

(٥) المصدر السابق ، ص١٢٠.

بينما ذكره ابن جابر الوادي آشي بأنه من علماء المدينة المنورة ونائب الصلاة بها[1] .

أحمد بن محمد بن أحمد زين الدين :

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر القاضي زين الدين أبوطاهر ابن القاضي جمال الدين بن محب الدين الطبري المكي : رجل خير وصلاح ، جواد شفوق . نزل مصر واشتغل بالعلم . ولد سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م وتوفي بمكة المكرمة سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م[2] .

اقتصر ابن بطوطة في ذكره بقوله " الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين من أهل الفضل والإحسان للمجاورين "[3] .

أبوالعباس أحمد بن إبراهيم الشافعي :

أحمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الإمام شهاب الدين أبوالعباس ويقال أبو المكارم ابن الإمام رضي الدين الطبري المكي الشافعي . خلف والده في الإمامة وتلقّى العلم عن علماء مكة المكرمة والقادمين إليها وناب في القضاء عن ابن أخته القاضي شهاب الدين الطبري ودرس بالمدرسة المجاهدية بمكة المكرمة واستمر أمام المقام إلى وفاته.

ولد في المحرم سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م وتوفي سادس المحرم سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م وقيل سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م أو سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ودفن بالمعلاة[4] .

ترجم له البلوي واصفاً إياه برجاحة العقل ، كان واضح الأسلوب ذا علمٍ وذكاء وحلم شديد ، عابداً متفقهاً فاضلاً . وقد أثنى عليه تلاميذه وألف معجماً لشيوخه[5] .

---

(١) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٢٧٧.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١١٩.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥٢.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٩ ـ ١٠.

(٥) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣١٤.

دانيال العجمي :

دانيال بن علي بن سليمان بن محمود اللرستاني[1] الكردي من كبار مشايخ العجم المجاورين بمكة . له سعي مشكور لإجراء عين بازان[2] .

حيث قصد مصر ثم العراق وحثّ جوبان نائب العراقين[3] على عمارتها فتم ذلك وجرت بها الماء سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م واستدان لعمارتها عدة مرات وقيل إن وفاته سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ببلاد العجم[4] .

ذكره ابن بطوطة وأشار إلى حمله لصدقات العراق في عهد أبي سعيد إلى مكة المكرمة[5] .

أحمد بن قاسم بن عبدالرحمن الحرازي :

أحمد بن قاسم بن عبدالرحمن بن أبي بكر العمري شهاب الدين الحرازي الشافعي يكنى بأبي العباس . قدم مكة المكرمة وتصدر للتدريس والإفتاء . درّس بالمدينة المنورة وله معرفة بالفقه مع إلمامه بعلوم شرعية أخرى . ولد سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م وقيل ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م ، وتوفي ثاني عشر شوال سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م بمكة المكرمة ودفن بالمعلاة[6] .

---

(١) بلد بين خورستان وأصفهان يسكنها الأكراد يقال لهم اللر.انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥، ص ١٦.

(٢) تعرف الآن بعين زبيدة عمّرها جوبان سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م وعم نفعها الناس بمكة المكرمة بعد أن كانوا في عناء عظيم لقلة الماء بمكة المكرمة وكان الساعي في إنجاز عمارتها والحاث على ذلك دانيال العجمي وقد صرف على عمارتها مائة وخمسين ألف درهم وعمّر العين قبل جوبان عدد من الخلفاء والملوك. انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص ١٢٣ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٥٥٤ ، حاشية ٣ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٤٧ ؛ ج٤ ، ص ٣٤٣.

(٣) جوبان بن توران نائب السلطنة بالعراقين عن السلطان أبي سعيد بن خزنبدا دبر المملكة مدة طويلة على السداد وتغير عليه أبوسعيد فقتل ابنه وقتله وحمل إلى المدينة المنورة ودفن بالبقيع له مآثر بمكة المكرمة منها عمارته لعين بازان في سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧.

(٤) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٣٤٣.

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٤٠.

(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٣٥ـ٢٣٦ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١١٦ـ١١٨.

ولم يذكره ابن بطوطة بأكثر من " إمام الشافعية شهاب الدين ابن برهان "(١) .

شهاب الدين ابن نجم الدين الطبري :

أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر ابن محمد بن إبراهيم القاضي بمكة المكرمة شهاب الدين أبوالفضل ابن القاضي نجم الدين ابن القاضي جمال الدين ابن الشيخ محب الدين الطبري المكي الشافعي . ولد سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م . تلقى تعليمه على يد كبار علماء مكة المكرمة والقادمين إليها . تصدّر للتعليم بها وتولى القضاء بعد وفاة أبيه بأمر من الشريف عطيفة أمير مكة المكرمة في سنة٧٣٠هـ/١٣٢٩م ثم جاءه بتفويض ثان بولاية القضاء من المجاهد ملك اليمن وتلاه في سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م تفويض من الملك الناصر ملك مصر بولاية القضاء أيضاً. وبجانب عمله في القضاء كان إمام وخطيب المسجد الحرام بتفويضٍ من الملك الناصر تولاها في أول شهر رمضان سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م ولم يلبث أن منع من الخطابة بسبب دسائس بعض أعدائه الذين وشوا به لدى السلطان حسن ملك مصر(٢) فصادف أن جاء عسكر إلى مكة المكرمة من مصر سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م فخاف عليه أهل مكة المكرمة من أن يلحقوا الأذى به ولكنه سلم منهم لمرضه ووفاته بعد ذلك سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م بمكة المكرمة ودفن بالمعلاة وقد عمل في قضاء مكة المكرمة ثلاثين سنة وستة أشهر إلا أياماً تحلّى بالشهامة وقوة النفس .

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥١.

(٢) الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون أبو المحاسن تولى عرش مصر صغيراً بعد قتل أخيه حاجي المظفر سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م وكان اسمه قماري فلما ولي تسمى حسناً واستمر إلى سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م فثار عليه بعض أمراء الخبر وخلعوه وسجنوه بالقلعة وولوا أخاه صالحاً ثم خلعوه سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م وأعيد الناصر حسن وقبض على زمام الأمور بحزم وخافه الناس وكمن له مملوكه يلبغا محاولاً قتله ولكنه فشل وأراد السفر إلى الشام متنكراً فقبض عليه في المطرية وهو آخر العهد به ومدة حكمه ست سنين وتسعة أشهر وأياماً وكان شجاعاً مهيباً عالي الهمة محباً للرعية غير أنه عمل على عزل ومصادرة أموال كبار رجال الدولة وعرف عنه ميله إلى اللهو والطرب . ولد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م وتوفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م . انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج٢ ، ص ١٩٥-١٩٨ ، ٢٠٧ - ٢١٥ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج٢ ، ص ٢١٦.

ومن مآثره تجديد بئر رمّة ونزحها سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م وقيل ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م . وكانت له معاملات تجارية واسعة من رهن وبيع مع الناس الذين يقترضون منه وخاصة موظفي المسجد الحرام وقد يستغرق ما يدفعونه إليه أحياناً وفاءً لدينهم جميع مستحقاتهم المالية من القاهرة .

وقيل إنه عقب موته ترك أموالاً طائلة منها : مائة وخمسون داراً بمكة ولم يبارك في تركته حيث أُثر عنه التعامل بالربا(١) .

ولم يذكره ابن بطوطة إلا بقوله " هو الآن قاضي مكة المكرمة "(٢) .

أبوعبدالله محمد بن عبدالرحمن المشهور بخليل :

خليل بن عبدالرحمن بن محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن الحسن ابن عبدالله القسطلاني المكي المالكي إمام المالكية بالحرم الشريف يكنى بأبي الفضل ويلقب بالضياء ويسمى محمداً واشتهر بخليل .

تفقه أولاً على المذهب الشافعي على يد خاله قاضي مكة المكرمة نجم الدين الطبري ثم تحوّل إلى المذهب المالكي(٣) تلقى العلم عنه عدد كبير من التلاميذ مع قيامه بالإفتاء اتصف بالفضل والصلاح والورع وهابته الخاصة والعامة كأهل المغرب وبلاد التكرور والسودان وحرصوا على لقائه وعرف بكثرة الإحسان وحملت إليه الأموال لتفريقها .

ومما يروى عنه ابتلاؤه بالوسواس في الطهارة والصلاة حتى قيل إنه " يعيد الصلاة بعد أن يصلي بالناس وربما قام يصلي من بعد صلاة الظهر إلى آذان العصر " وقد أوصى بكفارات كثيرة بعد موته خوفاً من تقصيره واستمرت إمامته بالمسجد الحرام سبعاً وأربعين سنة حيث تولاها بعد أبيه سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١٦١ ــ ١٦٦؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٩.

(٣) انظر ما سبق ، ص ٢٥٧.

ولد في شوال سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م وتوفي ليلة الإثنين لعشر بقين من شوال سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م بمكة المكرمة ودفن بالمعلاة(١) .

لقيه ابن بطوطة والبلوي ونعتاه بالعديد من الألقاب والصفات الحسنة وهي في مضمونها متفقة مع ما أورده الفاسي من علمه وفضله وعظم مكانته وزهده وسعيه في قضاء حوائج الناس ولم يؤثر عنه أن رد قاصديه أبداً . وأضاف ابن بطوطة أن عائلته من كبار أهالي بلاد الجريد(٢) إفريقية ويعرفون ببني حيون وتمت ولادته بمكة المكرمة(٣) .

أحمد بن علي بن يوسف شهاب الدين الحنفي :

أحمد بن علي بن يوسف بن أبي بكر بن أبي الفتح السجزي يكنى بأبي العباس ويلقب بالشهاب الحنفي المكي إمام مقام الحنفية بالحرم الشريف . تلقى العلم على يد علماء مكة وغيرهم وتولى إمامة مقام الحنفية بعد أخيه كما قام بالتدريس في المدرسة الزنجيلية وأُثر عنه إحسانه وكثرة عطائه . ولد بمكة سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م وتوفي بها سنة ٧٦٣هـ / ١٢٧٤م(٤) .

قال عنه ابن بطوطة إنه من كبار أئمة مكة المكرمة وفضلائها وكرمائها قام في كل عام باستدانة أربعين أو خمسين ألف درهم لإطعام المجاورين وأبناء السبيل ويبدو أن أمراء الأتراك قد قاموا بتسديد تلك المبالغ عنه لمكانته الكبيرة لديهم(٥) .

المدينة المنورة :

كبار العلماء :

حفلت المدينة المنورة بالعديد من العلماء القائمين على التعليم إضافة إلى العلماء القادمين إليها أثناء فترة الحج لزيارة قبر الرسول ﷺ وربما جاور

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٣٢٧ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٢٢.

(٢) (الجريد) تقع الآن بتونس وهي عبارة عن أرض سبخة.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٤٠ ، ١٥٠ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣١٣.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١١١ ـ ١١٣.

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥١.

بعضهم واستقر بها. ومما يلاحظ في المدينة المنورة قوة التأثير الشيعي الأمر الذي انعكس على تقليص دور علماء السنة في تصديهم للعلم والتعليم ، وأصبح ذلك مقصوراً على فترة الزيارة في أثناء موسم الحج . حيث إنها مناسبة طيبة للطلبة في تلقي العلم على يد كبار العلماء الوافدين مثل :

صدر الدين الخجندي :

عبداللطيف بن محمد بن عبداللطيف بن ثابت بن حسن الخجندي أبوالقاسم صدر الدين كبير العلماء بأصبهان معظم لدى السلاطين والملوك والعامة . كان فقيهاً فاضلاً وأديباً شاعراً متصفاً بالهيبة، حسن الأخلاق متواضعاً سمع على علماء أجلاء توفي بهمذان ودفن بأصبهان سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م[١] .

تلقى العلم عنه ابن جبير ووصفه برئيس الشافعية بأصبهان ، ونعته في مكان آخر برئيس العلماء . وأشار إلى إجادته الحديث باللسان العربي والأعجمي . كما وصف حاله التي يغلب عليها الطابع الملوكي من حيث : العُدة والعتاد وكثرة الأتباع والعبيد والخدم . عرف بالسماحة وطلاقة الوجه والبشر عند لقاء زائريه كريماً مهيباً عالماً[٢]. وما أورده ابن جبير موافق لما ذكره ابن شاكر في عظم مكانته وعلمه .

عبدالسلام بن محمد بن مزروع :

عبدالسلام بن محمد بن مزروع بن أحمد بن عرفة العفيف : أبو محمد المصري البصري المكي نزيل المدينة المنورة ومحدثها سمع بالمدينة المنورة والبصرة وغيرها. أثنى عليه كل معارفه له إلمام بأنواع العلوم ، ظاهر العبادة والصلاح ناظم للشعر ، حج أربعين حجة متوالية واستقر بالمدينة المنورة مجاوراً مدة خمسين سنة وله بها ذرية . ولد بالبصرة شوال سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م وتوفي بالمدينة المنورة في ثالث عشر من صفر سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م وقيل ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م ودفن بالبقيع[٣] .

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ، ج٢ ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ١٧ ـ ١٨.

لقيه ابن رشيد والعبدري بالمدينة المنورة وأثنيا عليه وما أورداه حوله كان موافقاً لما ذكره الفاسي والسخاوي[1] .

عماد الدين أبو نصر الشقاري :

أمير الحاج يوسف بن أبي نصر بن أبي الفرج الدمشقي . روى عن جماعة من العلماء وحدّث . قدِم للحج عدة مرات توفي سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م وعمره تسعون سنة[2] .

والشقاري من العلماء الوافدين أثناء المواسم إلى المدينة المنورة . وقد أثنى عليه ابن رشيد ووصفه بالشيخ الجليل الفاضل[3] .

أبوالقاسم خلف القبتوري :

أبو القاسم خلف بن عبدالعزيز بن محمد بن خلف الغافقي القبتوري الأشبيلي المولد والنشأة . ولد في شوال سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م . كان كاتباً لأمير سبتة . جلس للتدريس بتونس وجاور مدة ، وتوفي بالمدينة المنورة سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م . وحج مرتين[4] .

لقيه التجيبي بمكة المكرمة وفي المدينة المنورة في ذي القعدة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م. مدحه بالكثير من الصفات الطيبة التي تدل على مدى صلته به مثل " شيخنا وسيدنا وعمدتنا وذخيرتنا وبركتنا ورفيقنا إمام الكتاب ... "[5] .

غير أن التجيبي لم يشر إلى سنة مولده بينما ذكر ابن جابر الوادي آشي سنة مولده ووفاته في ترجمته له حيث تلقى العلم عنه في تونس[6] . وهي تتفق مع ما ذكر سابقاً .

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٤١ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٧.

(٢) الذهبي : العبر في خبر من غبر، ج٣، ص ٤٠٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ، ج٣ ، ص٤٥٥.

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٦٥.

(٤) ابن جابر : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ؛ المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٩٥.

(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٤٥٠ ـ ٤٥١ ؛ التجيبي : البرنامج ، ص ٣٥ ، ١٤٩ ، ٢٤٨ ، وغيرها.

(٦) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٦٧ ـ ٦٨.

أم الخير فاطمة البطائحي :

فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البطائحي ولدت سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م سمعت وحدثت قديماً. ماتت ليلة خمس وعشرين من صفر سنة ٧١١هـ/١٣١١م وقد نعتها الذهبي بالمسندة ، وتوفيت وعمرها ست وثمانون سنة[١] .

لقيها ابن رشيد بالمدينة المنورة ووصفها بالشيخة الصالحة الكاتبة أم الخير وأم محمد[٢] .

فيلاحظ أن وفود العلماء على المدينة المنورة لم يكن قاصراً على الرجال بل شمل النساء اللواتي حرصن على أداء الفريضة وزيارة المدينة المنورة .

سراج الدين عمر بن أبي العباسي الأنصاري :

عمر بن أحمد بن الخضر بن ظافر بن طراد بن أبي الفتوح القاضي سراج الدين الأنصاري الخزرجي الدمنهوري السويداوي الشافعي . ولد سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م أو ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م .

خطيب وقاضي المدينة المنورة قام الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر بتقليده القضاء ، وبعث إليه بخلعة وألف درهم . كان فقيهاً فاضلاً صالحاً . خطب بالمدينة المنورة مدة أربعين سنة وناله الأذى من الشيعة بسبب تعيينه كأول خطيب سنّي فيها سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م[٣].رحل إلى مصر للعلاج عقب إصابته بمرض، وأدركته الوفاة قبل دخوله مصر بنحو يومين بالسويس سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م .

ذكره ابن رشيد دون الإشارة إلى التقائه به قائلاً " إمام مسجد الرسولﷺ وخطيبه "[٤] .

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٤ ، ص ٤٩٥ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢١.

(٣) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٣١٢ ـ ٣١٧.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٨٧.

والتقى به ابن جابر الوادي آشي بالمدينة المنورة وترجم له وذكر حضوره لمجلسه بالمدرسة الشهابية وقرأ عليه المنتخب والتنبيه (١) وبعض كتب التفاسير. كما روى عنه بعض الأحاديث وعاب عليه في قوله الشعر عدم قدرته على وزنه لاستعماله بحرين مختلفين في القصيدة الواحدة . ولم يقم بلفت نظره إلى ذلك لحدة طبعه.ولا تختلف سنة وفاته ومكانها عما ذكره السخاوي(٢).

وأشار إليه ابن بطوطة بقوله : قاضي وخطيب المدينة المنورة ظل قاضي وخطيب المدينة المنورة نحو أربعين سنة(٣).

جمال الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد العبادي :

محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى بن عباس بن يوسف بن علي ابن عثمان جمال الدين أبوعبدالله الأنصاري الخزرجي العبادي السعدي الشافعي . رئيس المؤذنين بالحرم النبوي الشريف ونائب القاضي والخطيب والإمام في المدينة . كان عالماً فذاً أخذ عن جمع غفير من العلماء . منهم أبو اليمُن ابن عساكر ، وجلس للتدريس في الحرمين الشريفين . له باع في العلوم الشرعية عالم بالأنساب وكان شاعراً ذا خلقٍ حسن وزهد وعبادة . ألف تاريخاً للمدينة المنورة سماه " التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة ".

ولد سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م أو ٦٧٣هـ / ١٢٧٣م وتوفي في السابع من ربيع الآخر سنة ٧٤١هـ / ١٢٤٣م(٤) .

أشار البلوي إلى عظم قدره مادحاً إياه بالشيخ العالم الرئيس الصالح القائم بتدريس الحديث(٥) . ولعل نعته إياه بالرئيس إشارة إلي شغله منصب رئيس المؤذنين .

---

(١) كتاب في الفقه على المذهب الشافعي للشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن على الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية. انظر حاجي خليفه : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٤٨٩.

(٢) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٤٥.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٢٠.

(٤) الحسيني : ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ، ص١١٠ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٤٦٦.

(٥) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٩٣ ــ ٢٩٤.

لقيه ابن بطوطة أيضاً ولم يذكره إلا بقوله " جمال الدين المطري رئيس المؤذنين بالحرم النبوي الإمام المحدث الفاضل "(١).

محمد بن محمد بن أحمد كمال الدين الأميوطي :

محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يحيى بن أبي المجد عبدالله اللخمي الشافعي شرف الدين أبوالفتح ابن عزالدين بن كمال الدين الأميوطي . نبغ في الفقه وسمع الحديث . تولّى قضاء نابلس ثم القضاء والخطابة والإمامة بالمدينة المنورة . عرف عنه شدته على الشيعة حيث قام بتوبيخ فقهاء الإمامية على المنبر وفي المجالس وأبطل صلاة النصف من شعبان والمغالاة في كثرة الإيقاد بالمسجد ، فحدّ من الفساد والهياج فيه ولكنه لم يستطع إلغاء وجود الإمامية بالمدينة المنورة بالرغم من كثرة خطبه فيهم .

كان شهماً مهاباً مدافعاً عن السنة حاضاً إياهم على الجدّ في العبادة ومما يحكى عنه صلاته عند الجهة اليسرى من المحراب وعدم دخوله فيه إجلالاً للمقام الشريف .

ولد بالقاهرة في ذي القعدة سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م وتوفي بالمدينة المنورة في صفر سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م(٢) .

لقيه ابن بطوطة قائلاً إنه من مصر وأشار إلى تولّيه الخطابة والقضاء بالمدينة المنورة ويبدو أن هناك تصحيفاً في اسمه لدى ابن بطوطة فذكره بجمال الدين الأسيوطي(٣) .

أبوعبدالله محمد بن محمد الغرناطي :

أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد الغرناطي . جاور بالمدينة المنورة ، وأخذ الحديث ، وأتقن الفرائض والحساب ، واشتغل بصناعة الدهان وأتقنها .

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢١.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢١.

اتصل بخدم المسجد النبوي الشريف وأصبح مؤذناً به وأميناً على مخازنه اشتهر بالعفة والمعرفة واكتسب مالاً كثيراً برٌّ به أقاربه .

ومما يروى عنه أنه في بداية حياته قد جب[1] نفسه ثم ندم على ذلك فلما توفي خلّف أموالاً طائلة وأوقف كتبه وأعتق مماليكه قبل وفاته سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م . وعمره إحدى وثمانون سنه[2] .

لقيه ابن بطوطة وأورد له ترجمة مفصّلة حيث أثنى عليه ونعته بالشيخ المجاور المعروف بالتراس وكان قد جّب نفسه خوفاً من الفتنة حيث كان يعمل عند شيخ يدعى عبدالحميد العجمي الذي أحسن الظن به وأوكل إليه القيام بشؤون أهله وماله خلال فترة سفره . وسبب قيامه بذلك هو محاولة إقدام زوجة الشيخ العجمي وقت غياب زوجها على استدراجه للفاحشة فخاف على نفسه فأقدم على جّب نفسه وقد أصبح فيما بعد أحد القائمين على خدمة المسجد النبوي الشريف ومؤذناً به ... [3] ونلحظ على غير عادة ابن بطوطة إسهابه في الحديث عن هذا الشيخ والتركيز في ترجمته على هذه الحادثة الغريبة ويعود ذلك إلى تعلّق ابن بطوطة بكل ما هو غريب وخارج عن المألوف .

محمد بن فرحون بن محمد بن فرحون :

محمد بن فرحون بن محمد بن فرحون الشمس أبوعبدالله الجياني التونسي المولد والمنشأ ، المدني المالكي . يعرف بابن فرحون أنجب أبناءً علماء منهم البدر عبدالله المؤرخ[4] .

عكف على طلب العلم وتلقاه على شيوخ بلده ، وبرع في الفقه وأصوله والعربية ملماً بعلوم عديدة . سمع الحديث وعُرف بحسن الخط والضبط .

---

(١) المجبوب هو الخصي الذي استؤصل ذكره وخصيتاه والجب القطع. انظر ابن منظور : لسان العرب، ج١ ، ص ٢٤٩.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ٣٣٦.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٤) انظر ترجمته فيما بعد ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

جاور بالمدينة المنورة وسكن المدرسة الشهابية التي اشترطت على ساكنيها المواظبة على حضور دروسها فظهر علمه وفضله وإتقانه في مختلف العلوم فعلت مكانته في أعين الناس وذاع صيته وأصبح له تلاميذ يلازمونه يلقي عليهم دروسه في الفقه والعربية والنحو وغيرها .

برع في علم الميقات وفاق جميع المشتغلين به ووصف بالشيخ العالم الصالح الورع. مات يوم الخميس رابع عشر ربيع ... سنه ٧٢١هـ/١٣٢١م[١].

أشار ابن بطوطة إلى عمله نائباً للقاضي سراج الدين وله العديد من الأبناء بالمدينة المنورة ومنهم أبوعبدالله[٢] .

عفيف الدين الخزرجي السعدي العبادي :

عبدالله بن محمد بن أحمد بن خلف[٣] بن عيسى بن عساس بن يوسف ابن بدر بن علي بن عثمان الخزرجي العبادي من نسل سعد بن عبادة الأنصاري . المؤذن عفيف الدين أبوجعفر وأبو محمد ابن جمال الدين المطري أبوالسيادة رئيس المؤذنين بالحرم النبوي الشريف .

رحل وجاب البلاد طلباً لسماع الحديث واعتنى بالتاريخ وألف كتاباً سماه الإعلام فيمن دخل المدينة من الأعلام " . عرف بالصلاح والتقوى وكرم النفس والإحسان والإيثار .

امتحن في سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م ونُهبت داره وأُخذ منها ما قيمته مائة ألف درهم ثم حُبس وأطلق . ولد سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م . وتوفي بالمدينة المنورة في شهر ربيع الأول سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م[٤] .

ولم يذكره ابن بطوطة إلا بعفيف الدين عبدالله عند إشارته إلى والده[٥] .

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٧٠٦ ـ ٧١٠. ويلاحظ أنه لم يوضح أي الربيعين.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) ذكره السخاوي " خليفه " أنظر السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٣٨٤.

(٤) الحسيني : الذيل على تذكره الحفاظ للذهبي ، ص ١٤٣ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص ٢٨٤ـ٢٨٥ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٣٨٤ ـ ٣٩٠.

(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢١.

أبومحمد بن أسعد اليافعي :

عفيف الدين أبومحمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني شيخ الحجاز . نشأ محباً للعلم فبعثه أبوه إلى عدن فأخذ عن علمائها وحفظ القرآن الكريم وحج صغيراً وعاد إلى بلده وآثر الخلوة وساح في الأرض متنقلاً بين الشام والقدس والخليل ومصر والصعيد مواظباً على الحج وجاور بالمدينة المنورة ثم استوطن مكة وتزوج بها .

له كرامات اشتهرت عنه وله شعر كثير ومنها قصيدة مشتملة على عشرين علماً . شاع ذكره وتصدر للتدريس والتأليف إلا أن معظم مؤلفاته امتازت بقصر مواضيعها مع عِظَم فائدتها وعرف بتواضعه وترفّعه عن أرباب الدنيا كثير الصدقة مع قلة ذات يده . ولد سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م وتوفي في جمادى الآخرة سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م بمكة المكرمة[١] .

لقيه البلوي بالمدينة المنورة وأضفى عليه الصفات الجليلة فقال : إن له ما ينيف على الخمسين حجّة . وما ذكره البلوي يتفق مع ما جاء في المصادر الأخرى[٢] .

عبدالله بن محمد بن فرحون :

عبدالله بن محمد بن أبي القاسم فرحون بن محمد بن فرحون البدر أبومحمد بن أبي عبدالله بن أبي الفضل اليعمري الأيدي الجياني التونسي . قاضي المالكية ومؤرخ المدينة المنورة. ولد يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م وهو بكر أبويه أخذ العلم على يد علماء عصره .

استوطن المدينة المنورة ولم يخرج منها إلا للحج . حيث حج أكثر من خمسين حجة . عمل نائباً للقاضي مدة أربع وعشرين سنة ، ثم انفرد بقضاء المالكية ودرس بالمدرسة الشهابية .

---

(١) الحسيني : الذيل على تذكرة الحفاظ للذهبي ، ص ١٥٢ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ ، ص ١٠٤ـ١١٠ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧ ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ؛ ج٦ ، ص٢١٠ ـ ٢١٢.

(٢) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ١٩١ ـ ١٩٣. انظر الهامش السابق.

كان عالماً بالحديث ومعانيه ، والقرآن الكريم وتفسيره ، والعربية وأصول الدين ، وله العديد من المؤلفات التي تدل على سعة علمه وفهمه. لازم المسجد النبوي الشريف يعلم الحديث أكثر من خمسين سنة ، وانفرد بآخر عمره بعلو الإسناد فلم يكن بالمدينة المنورة أعلى إسناداً منه . تصدّى للدفاع عن أهل السنة مما أدى إلى قيام محاولة فاشلة لاغتياله .

عمل نائباً للقاضي سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م وسعى لعزل قضاة الشيعة فنادى بإبطال أحكامهم والإعراض عنها فأسفرت محاولاته عن ازدياد قوة أهل السنة وعلو شأنهم . قام بإمامة الناس في الصلاة وعُرِض عليه العمل نائباً للإمام والخطيب فرفض ذلك .

يتميز بحسن الخلق وإحسانه إلى الفقراء والصدقة عليهم لكثرة ماله وعقاره . كان ذا كلمة مسموعة لدى الناس حسن العشرة بشوشاً صبوراً على الأذى توفي في رجب سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م[١] .

ذكره ابن بطوطة بقوله " أبومحمد عبدالله مدرس المالكية ونائب الحكم"[٢]. ويبدو أنها عبارة تطلق على منصب نائب القاضي .

البهاء بن سلامة :

لم نعرف اسمه كاملاً وكل ما ذكر عنه : أنه البهاء بن سلامة المصري قام بالخطبة والإمامة بالمدينة المنورة مدة سنتين ولم يلبث أن طلب الإعفاء منها [٣].

أشار ابن بطوطة إلى إمامته للمسجد النبوي وقت قدومه إلى المدينة المنورة قائلاً من أكابر المصريين[٤] .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص٣٠٠ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٩.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٣) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ص ج١ ، ص ٥٤.

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٢٠.

شرف الدين قاسم بن سنان :

قاسم بن سنان بن عبدالوهاب أحد قضاة الشيعة[1] .

أشار إليه ابن بطوطة بقوله قاضي الزيدية وقد صحبه في أحد أسفاره[2]. ولم يزد على ذلك .

ومما سبق يتضح لنا بجلاء أن المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة قد حفلتا بالعديد من العلماء الأجلاء الذين أسهموا بدور كبير في الحركة العلمية فيهما . بالإضافة إلى القادمين إليهما والمجاورين بهما مما كان له الأثر الكبير في النشاط العلمي . واستطاع الرحالة المغاربة والأندلسيون الالتقاء بعدد كبير منهم ، والاستفادة من علمهم ، وحضور حلقات دروسهم المعقودة في المسجدين الشريفين .

ومما لاشك فيه أن تمتع مكة المكرمة والمدينة المنورة بمكانة عظيمة في نفوس المسلمين جميعاً ، وتقاطر العلماء والمتعلمين إليهما بصفة مستمرة بوّأهما لأن تكونا من أهم المراكز التي تشد إليها الرحال وتضرب إليها أكباد الإبل في سبيل العلم والعبادة . وقد تبين لنا أن الكثير من العلماء آثر المكوث فيهما على العودة إلى ديارهم متخذين منهما مكاناً للمجاورة ، مع قيامهم إلى جانب علمائهما بدور كبير في الحركة العلمية على الرغم مما مرّتا به من ظروف سياسية واقتصادية صعبة .

ولاريب أن ترجمة الرحالة المغاربة والأندلسيين لهؤلاء العلماء أوضحت نمط حياتهم . وهذا الجانب كان خافياً على كتّاب التراجم لبعد الفترة الزمنية . فالرحالة وثيقو الصلة بهم ، وعلى علم بالكثير من تفاصيل حياتهم وشؤنهم اليومية ، فاستطاعت كتاباتهم أن تحمل لنا الكثير من التفاصيل والتي انفردوا بها عن غيرهم من المؤرخين .

---

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص٤٠٠.

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٧.

وعلى الرغم من تقارب الفترة الزمنية بين الرحالة العبدري وابن رشيد والتجيبي ثم فيما بعد ابن جابر الوادي آشي وابن بطوطة والبلوي ، يلاحظ من ذلك اتفاقهم على أسماء شيوخهم حيناً واختلافهم حيناً آخر. ومنهم من أنكر وجود علماء أثبتت كتابات غيره وجودهم : مثل العبدري مما يحملنا على عدم قبول أقواله في ذلك . فالمدينتان المقدستان جمعتا العديد من العلماء الأفذاذ في تلك الفترة ، وقمنا بإيراد المعلومات الوافية عنهم من خلال تراجم الرحالة لهم وبعض المصادر القريبة العهد بهم .

رابعاً : أشهر العلوم وأهم الكتب :

لاريب أن أكبر جامعتين إسلاميتين بالحجاز إن لم يكن بالعالم الإسلامي كله : هما المسجد الحرام والمسجد النبوي . شهدت ساحاتهما إلقاء دروس في جميع فنون العلوم الإسلامية الشرعية والعربية . وقد أسهمت معهما في أداء دورهما العلمي المدارس المقامة بالمدينتين المقدستين إلى جانب الكتاتيب القائمة على تعليم القراءة والكتابة للصغار .

ولم يكن دور المدارس والكتاتيب واضحاً في كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين بقدر وضوح دور المسجدين المكي والمدني . إذ أبرزت كتاباتهم مكانتهما العلمية ، وما عقد بهما من حلقات علمية ، وأماكنها، وأنواع العلوم الملقاة فيها . ومن هذه العلوم التي ذكرها الرحالة :

أ ـ علم القراءات :

حرص الرحالة المغاربة والأندلسيون على تلقي هذا العلم من منبعه وداره. ومن أشهر علمائه أبو محمد عبدالله الدلاصي الذي تصدر للإقراء وأشار إليه التجيبي وابن جابر الوادي آشي(١) .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ ؛ ابن جابر الوادي آشي . البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٧٩ ـ ٨٠ .

ب ـ علم الحديث :

تكاد لا تخلو رحلة من الرحلات المغربية والأندلسية من ذكر علماء الحديث. حيث لقيهم الرحالة وسمعوا منهم وقاموا برواية ما سمعوه بأسانيده ؛ دلالة على مدى تعلقهم بهذا العلم وحبهم له ، بالإضافة إلى قيامهم بالتنبيه لحالة بعض رواة الحديث ،وإظهارهم لأوهام البعض الآخر[1] .

وحظي علم الحديث بالمكانة الأولى في كثير من الحلقات العلمية . وقام بتدريسه بالمسجد الحرام علماء أجلاء . إذ كانت النظرة إلى عالم الحديث نظرة احترام وإجلال[2]. ومن أشهر هؤلاء العلماء محب الدين الطبري . وقد اعتنت كتب الرحالة بتدوين أسماء أشهر الكتب . ومنها على سبيل المثال :

١ ـ صحيح البخاري[3] .

٢ ـ صحيح مسلم[4] .

٣ ـ سنن أبي داود[5] .

٤ ـ جامع الترمذي .

٥ ـ كتاب السنن للنسائي[6] .

٦ ـ مسند الإمام أبي عبدالله الشافعي[7] .

٧ ـ ثلاثيات جامع الإمام أبي عبدالله البخاري[8] .

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص٥٠ ، ص١٦٠.

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ص ٣٥٥.

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٦٢ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨١ ؛ ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٨٨.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٧٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٣ ؛ ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٩٢.

(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٣٧ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٣ ، ٣٧٦ ـ ٣٦٦ ، ٣٦٣.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٤ ـ ٣٨٤ ـ ٣٨٨.

(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٥ ، ٣٨٤ ؛ الإمام أبوعبدالله محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٦٨٣.

(٨) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٣٧ ، ٦٩ ، ١٦٢.

٨ ـ شرح السنة لأبي محمد الحسين بن سعود البغوي[١] .
٩ ـ كتاب الجُنة المختصر في شرح السنة لرضي الدين الطبري[٢] .
١٠ـ كتاب الصحيح المسمى التقاسيم والأنواع لأبي حاتم بن حيان السبتي[٣].
١١ـ كتاب الأربعين في قواعد الدين لأبي سعيد إسماعيل بن أبي صالح أحمد ابن عبدالملك بن علي بن عبدالرحمن النيسابوري[٤] .
١٢ـ كتاب الطبقات لابن الجوزي[٥] .
١٣ـ الأربعين المختارة في فضل الحج والزيارة لأبي بكر محمد بن يوسف ابن مسدي[٦] .
١٤ـ كتاب الأربعين من رواية المحمدين المستخرج من صحيح البخاري ، تخريج أبي بكر بن على بن ياسر الأنصاري الجياني ، قسّمه أربعة فصول في كل فصل عشرة أحاديث وحكاية[٧] .
١٥ـ الفوائد المسلسلات الأسانيد تخريج ابن مسدي[٨] .

---

(١) المصدر السابق والجزء ، ص١٧٠ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٦ ؛ ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٢٠٧ توفي البغوي سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م. انظر إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ، ج٥ ، ص ٣١٢.
(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٣ ؛ وهو مجلدان. انظر إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ، ج٥ ، ص ١٣.
(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٩١ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٥ ؛ ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٢٠٤ ؛ إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ، ج٦ ، ص ٤٤ ــ ٤٥.
(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٢٤ ؛ عمر رضا كحاله : معجم المؤلفين ، ج٢ ، ص ٢٧٦.
(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٥٧ ؛ عبدالرحمن بن على بن محمد بن على بن عبدالله ابن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر القرشي التميمي البكري البغدادي المعروف بابن الجوزي وذكر اسم الكتاب بجامع المسانيد. انظر عمر رضا : معجم المؤلفين ، ج٥ ، ص ١٥٧.
(٦) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٣٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٢ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٨ ؛ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، ج ١٢ ، ص١٤٠.
(٧) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص١٤٠ ؛ كحاله : معجم المؤلفين ، ج١١ ، ص ٢٤.
(٨) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٤٤ ، ٢٣١ ؛ كحالة : معجم المؤلفين ، ج١٢ ، ص ٢٤.

١٦ـ جزء فيه مسلسل يوم العيد تخريج ناصر السنة أبي القاسم علي ابن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي الدمشقي[١] .

١٧ـ كتاب معرفة أنواع علم الحديث لأبي عمرو عثمان بن عبدالرحمن بن عثمان ابن أبي نصر المعروف بابن الصلاح[٢]. وقد فصل ابن جابر الوادي آشي أكثر في وصف الكتاب فقال " كتاب معرفة أنواع الحديث وبيان أصوله وقواعده وإيضاح فروعه وأحكامه وكشف أسراره وشرح مشكلاته وإبراز نكته وفوائده وإبانة مصطلحات أهل الحديث ورسومهم "[٣] .

١٨ـ كتاب الملخص في معرفة علوم الحديث وبيان أصوله وقواعده لأبي إسحاق الطبري .

١٩ـ كتاب المنتخب انتخب من كتاب الملخص في معرفة الحديث لأبي إسحاق الطبري[٤] .

٢٠ـ كتاب معالم السنن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي السبتي[٥] .

٢١ـ كتاب عوارف المعارف لأبي حفص وأبي عبدالله عمر بن محمد السهروردي[٦] .

٢٢ـ الأربعين حديثاً التي خرجها الإمام الحافظ علم الدين البرزالي الدمشقي من كتاب الزيارة لأبي اليمن بن عساكر[٧] .

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٥٨.

(٢) المصدر السابق ، ج٥ ، ص١٧٠.

(٣) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص٢٦٩ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١١٦١ ـ ١١٦٢.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٣.

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ؛ ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٢٢٠ ؛ الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب المتوفي سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م وكتابه شرح لطيف فيه نكت لطيفة ولطائف شريفة. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٤٥.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٧ ؛ ابن جابر الوادي أشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م، ص ٢٣٢ ؛ إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ، ج٥ ، ص ٧٨٦.

(٧) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٩٤.

٢٣ـ أربعينات في المناسك مختصرة الإسناد لمحب الدين الطبري[١] .
٢٤ـ جزء أبي طاهر المخلص والمعروف بانتقال البقال[٢] .
٢٥ـ مجلس السجلات برواية أبي القاسم حمزة بن علي الكناني[٣] .
٢٦ـ فهرسة رضي الدين أبي إسحاق الطبري[٤] .
٢٧ـ كتاب الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز وفضل الأولياء والناسكين والفقراء والمساكين لأبي محمد بن أسعد بن علي اليافعي اليمني الشافعي[٥] .
٢٨ـ كتاب الملخص للإمام أبي الحسن علي بن أبي بكر محمد بن خلف المعافري المعروف بالقابس[٦] .
٢٩ـ كتاب السنن للإمام أبي عبدالله الشافعي[٧] .
٣٠ـ كتاب اختلاف الحديث للشافعي[٨] .
٣١ـ إتحاف الزائر وإطراء المقيم والسائر لأبي اليمن بن عساكر[٩] .
٣٢ـ جزء أبي الحسين أحمد بن أبي بكر بن العالي[١٠] .

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٤٩ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦٤ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٥.
(٢) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٢٤٦ ؛ أبى طاهر حسن بن أحمد ابن إبراهيم الأسدي البالسي. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٨٥.
(٣) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ؛ سمى الكتاب مجلس البطاقة. انظر كحالة : معجم المؤلفين ، ج٤ ، ص ٨١.
(٤) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٣٢١.
(٥) البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٩٢ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٦٨.
(٦) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ؛ وهذا الكتاب ٥٢٠ حديثاً. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٨١٨.
(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٦.
(٨) المصدر السابق والصفحة ، ص ٣٨٥ ،٣٩٠. ؛ الإمام محمد بن إدريس الشافعي. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٣٢.
(٩) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٢٣ ؛ ورد اسم الكتاب إتحاف الزائر فقط . انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٦.
(١٠) ابن رشيد : ملء العيبة ، ص ج٥ ، ص ٢٩.

٣٣ـ الأجزاء العشرة العوالي المعروفة بالثقفيات للرئيس أبي عبدالله القاسم ابن الفضل الثقفي[١] .

٣٤ـ سنن أبي محمد الدارمي[٢] .

٣٥ـ كتاب الجمع بين صحيحي البخاري ومسلم تصنيف الإمام أبي عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله بن فتوح بن حميد الحميدي الأندلسي الظاهري[٣] .

٣٦ـ كتاب المعلم بفوائد مسلم للشيخ الفقيه الإمام أبي عبدالله المازري[٤] .

٣٧ـ الغيلانيات[٥] .

٣٨ـ كتاب الاعتبار في ناسخ الحديث ومنسوخه للإمام أبي بكر الحازمي محمد ابن موسى بن الحازمي الهمذاني[٦] .

٣٩ـ كتاب تنبيه أهل الرسوخ في علم الناسخ والمنسوخ مختصر من كتاب الاعتبار اختصار أبي إسحاق الطبري .

٤٠ـ كتاب المجالس المكية في الأحاديث النبوية لأبي حفص عمر بن عبدالمجيد ابن عمر الميانشي .

٤١ـ جزء الجواهر المنظمة في فضل الشهور المعظمة لمحب الدين الطبري .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ٣٦٧ ، ٣٩٠ ؛ ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٢٤٩ ؛ حاجي خليفه : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٨٦.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٦ ، ٣٨٦.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٦٧ ؛ توفي سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م رتب أحاديث الكتاب على حسب فضل الصحابي الراوي فقدم أحاديث أبي بكر وباقي الخلفاء الأربعة ثم تمام العشرة. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٩٩.

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٧ ؛ محمد بن على بن عمر بن محمد التميمي المازري المالكي أبوعبدالله. انظر كحالة : معجم المؤلفين ، ج١١ ، ص ٣٢.

(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨١ ؛ أجزاء الغيلانيات من حديث أبي بكر عبدالله بن محمد ابن إبراهيم الشافعي وروايه أبي طالب محمد بن محمد بن إبراهيم ابن غيلان المتوفى سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٨٨.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٧ ؛ الاعتبار في بيان ناسخ الحديث ومنسوخه من الحديث. انظر كحالة : معجم المؤلفين ، ج ١٢ ، ص ٦٤.

٤٢ـ كتاب المصابيح تصنيف أبي محمد الحسين بن سعود البغوي الفراء الملقب بمحيى السنة[١] .
٤٣ـ جزء أبي الجهم العلاء بن موسى الباهلي[٢] .
٤٤ـ كتاب تحفة عيد الأضحى تأليف أبي القاسم زاهر أبي طاهر بن محمد الشحامي[٣] .
٤٥ـ جزء البانياسي أبي إسحاق إبراهيم بن عبدالصمد بن موسى الهاشمي[٤].
٤٦ـ جزء محمد بن هشام بن ملاس ، أبوالعباس محمد بن جعفر بن محمد ابن هشام بن قسم بن ملاس النميري الدمشقي[٥] .
٤٧ـ عُمدة الثقات في معرفة الأوقات لمحب الدين الطبري[٦] .

فهذه بعض الكتب التي كانت متداولة سواء بمكة المكرمة أو المدينة المنورة. ولا ريب أنه كانت هناك كتب أخرى ربما لم يستطع الرحالة ذكرها لضيق المجال ، أو لعدم وجودها لديهم واطلاعهم عليها .

الفقه :

والفقه من العلوم التي حرص الرحالة على إتقانها وإجادتها، وخير مثال على انتشار علم الفقه بالحجاز ما جاء في رحلتي ابن رشيد والتجيبي من مسائل فقهية . ومن أشهر القائمين بتعليمه محب الدين الطبري المحدث والفقيه له فيه عدّة مؤلفات[٧] .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ ، ٣٦٨ ؛ مصابيح السنة في ٤٧١٩ حديثاً. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٥ ، ص ٣١٢.
(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٣ ؛ العلاء بن موسى بن عطية الباهلي المتوفى سنة ٢٢٨هـ / ٨٤٢م. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٨٤.
(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٤٧ ؛ ذكر اسم الكتاب تحفه عيد الأضحى. انظر إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ، ج٥ ، ص ٣٧٢.
(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص٢٣٠ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٨٦.
(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٢٦ ؛ جزء محمد بن هشام بن ملاس النميري. انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٥٨٩.
(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٤ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦٣. اسم الكتاب العُمدة وهو مختصر جمع فيه أحكام الصحيحين.
(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٣ـ٣٩٤ ، ٤١٥ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص٢٤٠ـ٢٤٧.

وقد تضمنت بعض كتب الرحالة أسماء لكتب فقهية مشهورة منها :

١ ـ كتاب رسالة القشيري إلى الصوفية[١] أو رسالة التصوف[٢] .

٢ ـ كتاب التنبيه . تصنيف الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي[٣] .

٣ ـ مختصر كتاب التنبيه والمهذب للشيرازي، اختصار محب الدين الطبري[٤] .

٤ ـ كتاب قمع الحرص بالقناعة والصبر تحت حكمها بالطاعة ، تأليف أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي[٥] .

٥ ـ جزء مسألة الإجارة للمجهول والمعدوم (وهو جزء لطيف) ، تصنيف أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي[٦] .

٦ ـ كتاب الدر النضيد فيما ورد في العيد ، لمحب الدين الطبري[٧] .

ونلاحظ قلة كتب الفقه بالنسبة لكتب الحديث مما قد يعني أن الحديث حظي بالاهتمام أكثر من العلوم الأخرى .

علم التفسير :

نشطت دراسة التفسير بالحجاز وسارت جنباً إلى جنب مع العلوم الأخرى لارتباطه بالقرآن الكريم والحديث . ومن أشهر مؤلفاته التي أشار إليها الرحالة المغاربة والأندلسيون هي :

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٧٢.

(٢) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٢٣١ ؛ كحالة : معجم المؤلفين ، ج٦ ، ص ٦.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٩ ، ٣٨٧ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٤٨٩ وهو من الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية ؛ كحالة : معجم المؤلفين ، ج٥ ، ص ٦.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٤٩ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦٣.

(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ٣٦٩ ؛ إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ، ج٩ ، ص ١٥٤ ؛ كحالة: معجم المؤلفين ، ج٦ ، ص ٣٤.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩١ ؛ ولم يرد هذا الكتاب ضمن مؤلفاته. انظر الزركلي : الأعلام ، ج١ ، ص ١٧٢.

(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٣ ؛ ولم يرد هذا الكتاب ضمن مؤلفاته. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦٤.

١ ـ كتاب عين المعاني في التفسير للسجاوندي[1] .
٢ ـ الوسيط في التفسير للواحدي[2] .

هـ - علم التاريخ :

لم تخل كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين من الإشارة إلى كتب السير والتاريخ ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ مكة المكرمة . وتكثر الإشارة إلى مؤلف أبي الوليد الأزرقي[3] المتوفى حوالى سنة ٢٥٠هـ/٨٦٥م ومن أشهر الكتب التي كانت متداولة في هذا المجال وأشارت إليها كتب الرحالة هي :

١ ـ كتاب الشمائل للترمذي[4] .
٢ ـ كتاب سيرة الرسول ﷺ لمحمد بن إسحاق رواية عبدالملك بن هشام واختصاره[5] .
٣ ـ كتاب خلاصة سير سيد البشر لمحب الدين أبي العباس أحمد بن عبدالله الطبري المكي[6] .
٤ ـ كتاب أبي الوليد الأزرقي في أخبار مكة[7] .
٥ ـ السيرة الشامية " سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد " لمحمد ابن يوسف الدمشقي الصالحي الشامي[8] .
٦ ـ مختصر مولد الرسول ﷺ لأمين الدين أبي اليمن بن عساكر[9] .

---

(١) محمد بن طيفور الغزنوي السجاوندي أبوعبدالله المفسر اسم كتابه عين المعاني في تفسير السبع المثاني. انظر التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٢ ؛ كحالة : معجم المؤلفين ، ج١٠ ، ص ١١٢.
(٢) علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري أبوالحسن. لم يرد لهذا الكتاب ذكر. انظر كحالة : معجم المؤلفين ، ج٧ ، ص ٢٦.
(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٥ ، ٣٩٢ ـ ٣٧٦ ، ٣٦٨.
(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٧١ ؛ التجيبي: مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٤ ـ ٣٧٦ ـ ٣٨٤ ، ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص٢١٠ ؛ إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ، ج٦ ، ص ١٩.
(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٧٢ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٨٥.
(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٢ ؛ ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م، ص ٢٢٣ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦٤ ولم يورد له هذا المؤلف.
(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦٨.
(٨) المصدر السابق ، ص ٣٨٥ ؛ كحالة : معجم المؤلفين ، ج١٢ ، ص ١٣١.
(٩) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٢٣٨. ولم يرد ذكر هذا المؤلف ضمن مؤلفاته.

و- الشعر والأدب :

لم تخل رحلة من الرحلات المغربية والأندلسية من الشعر . فقد كان للشعرنصيب وافر فيها، وخاصة المدائح النبوية . ويظهر أن الذي أدى إلى ازدهارها هو الشوق لزيارة المسجد النبوي الشريف . فنرى أن بعض مؤلفي كتب الرحلات أوردوا قصيدة أو أكثر في مدح الرسول ﷺ: منها ما هو من تأليفهم ومنها ما هو منسوب لغيرهم . وتحمل تلك القصائد مشاعر الشوق واللهفة لزيارة المصطفى ﷺ وقد حصل العديد من الرحالة على إجازات في رواية تلك القصائد من العلماء الحافظين لها .

فالعبدري مثلاً نظم قصيدة في مدح النبي ﷺ . كما وجدت أشعار مكتوبة على أستار الروضة الشريفة(١) . إضافة إلى أشعار مرتجلة قيلت في ذلك الموقف(٢) ، أو عند قرب الوصول للمدينة المنورة ومكة المكرمة(٣) .

وقد أخذ ابن رشيد إجازات في إنشاد المدائح النبوية وغيرها من الأشعار المنشودة في المناسبات عَقِب كل مجلس . وقام ابن رشيد بنظم أبيات من الشعر في وصف عرفات وجبلها وعَقِب انتهائه من أداء فريضة الحج . ومن العلماء الذين نال إجازاتهم في الشعر أبواليمن بن عساكر . إلي جانب أن بعض الإجازات العلمية كتبت شعراً(٤) مثل إجازة أبي اليمن بن عساكر للوزير أبي عبدالله :

أحمد الله وهو للحمد أهل	وأثني أثني عليه شكري
وأصلي على الذي خُصّ حقا	بالمقام المحمود يوم الحشرِ
أحمد المصطفى وعترته الغُر	وأصحابه النجوم الزهرِ
وسلام على الألى شيدوا العلم	وشادوا بناه من كل حبرِ
العدول الأيقاظ من كل جيل	الثقات الحفّاظ في كل عصرِ

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٨ ـ ٢١٣ ، ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ١٩٦ ـ ١٧٠.

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ٢٨ ، ٣٣ ، ٨٨ ، ١٠٤ ـ ١٠٥ ، ١٦٥ ـ ١٦٨ ، ١٨٥ ـ ١٨٧.

أثـــروه وآثـــروه وأنوه ... كـمـا حـمـلـوه جـوزوا بـخـيـرِ

نـضـرت مـنـهـم الـوجـوه وحـازوا ... قـصـب السـبق من وجـوه الـبـرِ

بـلـغـوه كـمـا دعـوه وقـرت ... يالـعـمـري عـيـونـهـم بالـنشـرِ

حبذا فعلهم ، وشكرًا لمسعا ... هـم ونـبـلاً بهـم ، ورفـعـة قـدرِ

قد أجزت اللخمي محمدًا الخير ... ربيب الحجى ، رفيع الذكرِ

ما اقتضاه استدعاؤه من سماع ... ومـجـاز وكـل نـظـم ونـثـرِ

دأب أهل الأداء بالشرط في التصـ ... ـحيح والضبط وابتغاء التحري

لافـظـاً الـذي أجـزت عـلاه ... زاده الـلـه مـن عـلاء وفـخـرِ

ومـبـيـحـاً لـه الـروايـة عـنـي ... حـسـبـمـا قـد رويت غـيـر مـورّي

غـيـر راوٍ مـن غـيـر أصـل ولا نـوع ... لأصـل بـغـيـر عـلـم وخـبـرِ

شـكـر الـلـه سـعـيـه وتـولـ ... اه ووقـاه كـل سـوء وضـرِ

وعـلـيـه ـ إذا روى ذاك عـنـي ... طـاب ذكـراه ـ أن يطيب ذكـري

لست أعني الثناء لكني عساه ... أن يـوالـي بـغـفـر ذنـب وسـتـرِ

هـذه نـفـثـة لِمُضْنَى وأثّـنـي ... لـي بالشـعـر بعد وخط الشعـرِ

زبـرتـهـا يـد أبـي اليـمـن جـار الـ ... ـلـه ما بـيـن زمـزم والـحـجـرِ

نجل عبدالوهاب، والحسن الجدّ ... وسـقى الله تربهم صـوب قطرِ

عـام سـبـعـين قـد تـقـضـت مـئـيا ... ثـم يـاأربـع مـضـيـنـا وعـشـرِ

حـامـدًا ربـه مـنـيـبـاً إلـيـه ... مـسـتـعـيـنـاً بالـلـه فـي كـل أمـرِ(١)

ونال التجيبي إجازة على قصيدة قيلت في مدح الرسول ﷺ عند السلام عليه. ومنها ما يروى عن رضي الدين أبي إسحاق الطبري في مدح الرسول ﷺ وفي الشوق للبيت الحرام. وهناك أشعار التوسل لله تعالى وأناشيد مكية(٢) .

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ . كما أورد غيرهما ، ص ١٨٦ ـ ١٨٨ .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٠٦ ، ٤١٢ ـ ٤١٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

فنرى أن للشعر مكانة بارزة في بلاد الحجاز خاصة. ومن بين العلماء هناك القائل له والراوي . وحفلت بعض كتب الرحلات بالعديد من القصائد الشعرية ؛ إذ أن من بين مؤلفيها الشعراء والأدباء .

وقد نال الرحالة إجازات في بعض كتب الأدب المتداولة في ذلك الوقت ومنها :

١ ـ مقامات الحريري(١) .

٢ ـ كتاب القُبَل والمعانقة والمصافحة للشيخ أبي سعيد أحمد بن محمد ابن سعيد بن زياد بن بشر بن الأعرابي(٢) .

٣ ـ قصيدة العقد الثمين في مدح سيد المرسلين لمحب الدين الطبري(٣) .

وأورد ابن رشيد نص إجازة كتبها أبواليمن وهي :

" بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وصلواته على سيّدنا محمّد رسوله الكريم وعلى آل محمّد وصحبه وسلمّ تسليما.

المملوك المستحق بالفضائل التي يعجز عن شكرها لسانهُ ، ولو أربى على الغاية بيانه ، محمد بن عبدالرحمان بن إبراهيم بن يحيى اللخمي ابن الحكيم ـ وفقه الله تعالى إلى العمل بطاعته ـ يرغب من شيخه وإمامه ومفيده جار الله أبي اليمن رعى الله جواره ، ورفع في أعلى منازل أوليائه المتقين مقداره ، وجزاه خير ما به جزى أهل الإحسان وتغمّده في الآخره والأولى بالرحمة والرضوان ، وبلغ به وبلغه ، وأضفى عليه لبوس اعتنائه وأسبغه ، أن ينعم عليه ويسدي الجميلة إليه بأن يخطّ فيما تيسر من هذه الأوراق بيده الكريمة مكتوباً

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج٥ ، ص ١٨٤.

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٣٩٠ ؛ ولم يرد ذكر هذا الكتاب ضمن مؤلفاته. انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١٣٧ ؛ الزركلي : الأعلام ، ج١ ، ص ٢٠٨.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٩٤ ؛ أورد الفاسي اسمها الدرر الثمينة . انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦٤.

يتضمن إطلاق الإذن للمملوك في الرواية العامة عنه لجميع ما يرويه وينقله ويدريه ، ويحمله من العلوم الدينية التي خصّ بها ووصل أسباب الأعمال الصالحة بسببها ، وأن يسمي من أمكن من مشاهير أعلام شيوخه الذين بهم يقتدي ، وبأنوار معارفهم في ظلمات الجهل يهتدي ، وأن يعّين وقت مولده ، وأن يكون ذلك كله بخط الكريمة المباركة يده ، ليجد المملوك إن شاء الله تعالى بركة ذلك في الحال والمآل ، والحلّ والترحال . والله يبقي إنعام مولاي على من قصده، ولجأ إليه في طلب العلم واعتمده ، بمنه وكرمه ، والسلام الكريم يخص مقامه الكريم كثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته ، كُتب في الرابع لذي الحجة ـ عرفنا الله بركته ـ من سنة أربع وثمانين وستمائة "(1) .

المجالس العلمية :

حفلت بلاد الحجاز بوجود المجالس العلمية وعلى الرغم من قلّة المادة العلمية المتوفرة لدينا في هذا الصدد فنستطيع القول بإسهامها بدور كبير في حركة التعليم في تلك الفترة . كما نستطيع أن نلاحظ من خلال ذلك تنوع تلك المجالس ومنها على سبيل المثال مجالس علمية تقوم بتدريس الحديث كمجلس أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الطبري الذي عكف فيه على تعليم وتدريس الحديث(2) .

وخلاصة القول يلاحظ ازدهار الحركة العلمية في بلاد الحجاز بفضل جهود هؤلاء العلماء الذين أسهموا في ازدهار هذه الحركة العلمية لا سيما وأن مؤلفاتهم تناولت مختلف الفنون والعلوم . ولكن يبدو أن الكثير من هذه الكتب قد فُقِد .

---

(1) ابن رشيد : ملء العيبة ، ج5 ، ص 184 ـ 185.
(2) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص 393 ـ 394.

ولاريب أن مكة المكرمة والمدينة المنورة كانتا تتنافسان كبريات العواصم الإسلامية في العلم بما ضمتا من علماء وأدباء ومكتبات وإن صغرت ومدارس كان يدرس فيها فقه جميع المذاهب دون تعصّب ؛ مما حدا بالرحالة والعلماء إلى الرحلة لمكة المكرمة والمدينة المنورة بجانب الحج والزيارة .

والملاحظ فيما سبق وجود العلوم الدينية بجميع أنواعها في بلاد الحجاز من خلال ما أورده الرحالة حيث لم نلحظ أية إشارة إلى العلوم الأخرى . وهذا ربما يرجع إلى عدم اهتمام الرحالة . أنفسهم بها ، إضافة إلى قلة المعلومات وعدم اكتمالها عن وجود العلوم العلمية الأخرى . حيث إن بلاد الحجاز عامة لابد من احتياجها إلى العلوم الأخرى . فربما كانت موجودة ولكن اقتصر اهتمام الرحالة على العلوم الدينية دون سواها .

الفصل السادس

المشاهدات الجغرافية والعمرانية من خلال كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين

١ - المشاهدات الجغرافية.

٢ - العمارة الدينية.

٣ - العمارة المدنية.

٤ - العمارة الحربية.

٥ - الزخارف والنقوش.

٦ - مشاريع المياه.

أولاً : المشاهدات الجغرافية :

نال الوصف الجغرافي اهتمام الرحالة المغاربة والأندلسيين ، خاصة الرحالة الوصفيين منهم فرحلاتهم إلى الحجاز أتاحت لهم إبراز نبوغهم وتفوقهم فيما كتبوه ، فخلفوا لنا تراثاً تناول جميع الموضوعات التى استأثرت ميولهم واهتماماتهم مما جعلهم يركزون على موضوع دون آخر . ويغلب على جميع الرحالة الوصفيين اتباع منهج واحد تقريباً وهو البدء بالوصف الجغرافي عند بداية دخولهم أو خروجهم من المدن والقرى التي هبطوا فيها، سواء أقاموا بها أو كانت محطات لرحلاتهم أثناء سيرهم ، ووصفهم هذا مبني على المشاهدة المباشرة وعلى بعض ما سمعوه من روايات أو أساطير مع حرصهم على التفريق بين ما شاهدوه وما سمعوه دون أن يؤثر في سردهم ووصفهم بقدر ما هو معبرٌ عن أفكار ومعتقدات الناس في تلك البقعة والفترة .

وهذا بلا شك من أهم الخصائص التي قامت عليها الرحلات المغربية والأندلسية والتي أكسبتها قيمتها كمصدر مهم من مصادر تاريخ الحجاز .

فالرحالة المغاربة والأندلسيون سجلوا ما رأوه وما سمعوه بدقة . فهم شديدو الملاحظة حريصون على التعرف والتعريف بما مروا به من بلاد وعباد ، إضافة إلى كتابة ذلك بأسلوب رفيع رقيق العبارة مع دقة في الوصف والتعبير جعلهم في جملة الأدباء بسبب ما زخرت به كتب رحلاتهم بجميع المقومات الأساسية التي اشتمل عليها الوصف الجغرافي . وسار عليها معظم الرحالة فمنهم من تعرض لهذا الوصف تارة وأهمله بعضهم تارة أخرى أو تناوله لماماً بحسب ميله وتركيزه .

المشاهدات الجغرافية :

وصف المدن :

مكة المكرمة :

اختص الرحالة المغاربة والأندلسيون بالوصف الكلي ومن ثم الجزئي للمدن التي نزلوا بها وعلى رأسها مكة المكرمة لمكانتها الدينية والعلمية في نفوس المسلمين .

فنجد أن أغلب الرحالة المغاربة والأندلسيين يصدرون الآية القرآنية الكريمة ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع ﴾[١] في بداية حديثهم عنها إشارة إلى جغرافيتها . ثم يتناولون وصفها الجغرافي بأنه وادٍ مجدب ليس فيه زرع ولا ماء تحيط بها الجبال بحيث لا يراها قاصدها إلا عند اقترابه منها ، وعلى الرغم من تكوينها الجغرافي إلا أنها عامرة بالسكان امتدادها آخذ في الاستطالة[٢]. ووصفها التجيبي بأن شكلها أشبه بالمثلث[٣]، ومع كل ما سبق فقد استجاب الله لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام فأصبحت بلدة عامرة ومحط الرحالة المسلمين من كل مكان . ويلاحظ أن معلومات الرحالة الجغرافية عنها مشابهة تماماً لأوصاف الجغرافيين[٤] .

أما حدود الحرم فقد ذكر التجيبي أنها تختلف في القرب والبعد عن مكة فقال : « إن حد الحرم من طريق اليمن من طرف إضاءة لبن في ثنية لبن[٥] على سبعة أميال من مكة ومن طريق جدة منقطع الأعشاش على عشرة أميال منها ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمرة على أحد عشر ميلاً ومن طريق العراق على ثنية الخل[٦] بالمقطع على سبعة أميال منها ومن طريق الجعرانة في شعب آل عبد الله بن خالد بن أسيد على تسعة أميال

---

(١) القرآن الكريم : سورة إبراهيم ، ١٤/٣٧ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٧ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ؛ ص ٢٣٠ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣١ ؛ البلوي : تاج المفرق ؛ جـ ١ ، ص ٣٠٧ ؛ انظر الرسم رقم (١) .

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٣٠ .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٣٥ ـ ٣٧ ؛ عرام بن الأصبغ السلمي : أسماء جبال تهامة وسكانها ، ص ٤١٨ ـ ٤١٩ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٨٧ ؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٥ ، ٩ ؛ البغدادي : مراصد الاطلاع ، جـ ٣ ، ص ١٣٠٣ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٢٣ ؛ القطبي : إعلام العلماء ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٥) وهي حد من حدود الحرم على طريق اليمن ويبدو أنها ما يسمى اليوم بلبين فعنده حد الحرم اليماني ؛ انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ ٣ ، ص ١٤٢ .

(٦) منتهى حد الحرم من طريق العراق وهو ما يعرف اليوم بخل الصفاح . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ ٣ ، ص ١٤٢ .

منها»[1] وما ذكره التجيبي في حدود الحرم موافق لما ورد في الأزرقي وابن خرداذبه وابن رسته[2] .

وقد وصف الرحالة المغاربة والأندلسيون الجبال المحيطة بمكة وتاريخها وأسماءها المشهورة ومنها :

جبل أبي قبيس :

وهو أقرب الجبال للمسجد الحرام يحيط به من الجنوب والشرق يشرف على الحجر الأسود . ويقع الصفا في أصله ويرقى إليه من ثلاثة مواضع : من شعب عمر وشعب علي وشعب أجياد الصغير ، وقد رأى التجيبي فيه كهفاً صغيراً يقصده الناس قيل : إنه الموضع الذي حفظ فيه الحجر الأسود من الطوفان حيث ظل به إلى حين بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة ، ويقال إن به قبر آدم عليه السلام وعلى هذا الجبل كان انشطار القمر للنبيﷺ . وهو أحد الأخشبين[3]، وما ذكره الرحالة موافق لما جاء في الأزرقي[4] .

جبل قعيقعان[5] :

يسمى الأحمر ويسمى هو وأبو قبيس الأخشبان والحبحبان ويقع قعيقعان شمال مكة[6]، وأضاف العبدري أنه متصل بالحجون بجزء يشرف منه على المقبرة.

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٣٣ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ؛ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٣٢ ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، جـ ٧ ، ص ٥٧ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٠ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣١ ـ ١٤٤ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٢ .

(٤) الأزرقي : اخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٥) الجبل الضخم المشرف على المسجد الحرام من الشمال والشمال الغربي ممتداً بين ثنيتي كَدَاء وكُدَىً مشرفاً على وادي ذى طُوى غرباً ولا يعرف اليوم بهذا الاسم ولكنه يسمى بأسماء كثيرة فطرفه الشمالي الغربي يسمى جبل العبادي والشرقي المشرف على ثنية كداء ومقبرة المعلاة يسمى جبل السليمانية والجزء الأكبر في الجنوب يسمى جبل هندي وشرقه يسمى جبل الفلق ويسمى طرفه المشرف على حارة الباب جبل المطابخ وطرفه المشرف على ثنية كُدى بريع الرسام ويعرف اليوم بقرن وطرفه الغربي مما يلي بئرطوى يسمى جبل السودان . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ ٧ ، ص ١٤٦ . ويسمى جبل قعيقعان الآن عند أهل مكة جبل هندى .

(٦) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٠ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٤ ؛ البلوى : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٢ .

جبل الخندمة[1] :

وهو المشرف على شعبي أجياد الأكبر وأجياد الأصغر[2] .

جبل ثور[3] :

على بعد فرسخ من مكة على طريق اليمن . وهو الجبل المشهور الذي أوى إليه النبي ﷺ وأبو بكر عند هجرتهما إلى المدينة . وسماه ابن جبير والبلوي بأبي ثور[4] ، وقد أسهب التجيبي في الحديث عنه ووصفه بالعلو الشديد إذ يشاهد منه بحر جدة وتميز بكثرة حجارته وصعوبة الصعود عليه وسماه الأطحل[5] ، وأضاف العبدري في وصف الغار الموجود به قائلاً بأن له بابان أحدهما ضيق ويقع الجبل على مسافة يوم أو نحوه من مكة[6] ، فالعبدري بالغ في ذكر بعده عن مكة فهو لم يقم برؤيته لقصر إقامته بمكة وانشغاله بأداء فريضة الحج فربما هو في هذه الحالة يعد ناقلاً لمعلوماته مع عدم إشارته لمصدرها .

ولم يرد وصف لجبل ثور لدى بعض الجغرافيين ولكن ما قيل في وصفه لديهم يوافق ما ذكره الرحالة[7] .

جبل حراء[8] :

جبل عالٍ في الجهة الشرقية من مكة مشرف على منى وهو على مسافة فرسخ تقريباً من مكة ، وحدد التجيبي وصفه أكثر من حيث تميزه بحمرة اللون

---

(١) الخندمة جبال مكة الشرقية التي تبدأ من أبي قبيس متجهة شرقاً إلى المفجر الذى يفصل بين جبال منى وجبال مكة وتمتد جنوباً حتى تشرف على المفجر الغربي الذى يفصلها عن جبل ثور. انظر البلادي: معجم معالم الحجاز ، جـ٣ ، ص١٦٠. وهو الآن نهاية شعب عامر وفيه أنفاق العزيزية وأجياد.

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٤ .

(٣) وهو الآن يقع داخل عمران مكة ويشرف على حي الهجرة .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٥ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٢ ؛ إن هذا من الأمور التي تطابق فيها قول ابن جبير مع البلوي والتي تشير إلى نقله عنه في بعض الأمور .

(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٥ .

(٦) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٦ .

(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٨) يقع على يسار الذاهب إلى الطائف الآن .

كما حدد المسافة بينه وبين مكة بثلاثة أميال[1] . وهو المكان الذي قصده النبيﷺ للعبادة فيه . أما غاره فسهل المدخل وجوفه يشبه الحوض[2] . وأكد التجيبي المسافة التي ذكرها ياقوت[3] .

ويعرف الآن أيضاً بجبل النور ولعل ذلك تيمناً بنزول أول آيات الذكر الحكيم على النبيﷺ في قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾[4] وهو الذي اهتدت بنوره البشرية جمعاء . وقد أصبح داخل عمران مكة المكرمة وأطلق على الحي الذي حوله بحي جبل النور .

جبال التنعيم :

سماها الرحالة جبال الطير وهي أربعة تقع على طريق التنعيم اثنان من الجهة اليمنى واثنان من الجهة اليسرى وعليها أربعة أعلام من الحجارة يقال إنها الجبال التي وضع عليها إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير[5] .

وانفرد التجيبي بذكر الجبل الواقع يمين المتجه من مكة إلى التنعيم سماه بالبكاء لزعم العوام أن الحجارة تنحدر منه يوم عرفة في كل سنة دون سائر الأيام لذا سمي البكاء[6] .

منى والمزدلفة وعرفات[7] :

منى :

تميزت منى بطولها الممتد نحو ميلين وضيق عرضها ، محاطة بالجبال المقبل منها من منى والمدبر ليس منها[8] ، ووصفها التجيبي بشبه قرية مقامة

---

(١) يقدر الميل بألف باع ويساوي ٦١٥ متراً . انظر أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص٦٠ ـ ٦١ هامش ١ .
(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٠ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٥٧ .
(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣ .
(٤) القرآن الكريم : سورة العلق ، ٩٦/١ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٩ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٦١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ ؛ انظر ما سبق ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .
(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ١٦١ .
(٧) انظر الرسم لمنى والمزدلفة وعرفات رقم ٢ ، ٣ .
(٨) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٠٥ .

على جانبي الوادي بين عرفات ومكة وفيها القليل من نبات الأدر[1] ، بينما شبهها ابن جبير بالمدينة لما حوته من آثار قديمة لم يبق من معالمها سوى القليل من الدور المستخدمة في سكن الحجيج على جانبي الطريق[2] .

وما ذكره الرحالة في وصف منى مشابه لما ورد في كتب ياقوت والمحب الطبري والفاسي إلا أن وصف ابن جبير لها بالمدينة الكبيرة قد يعود إلى ازدحامها في أيام الموسم[3] .

وذكر ابن جبير والبلوي أن ما بين جمرة العقبة والجمرة الوسطى قدر غلوة[4] عليها علم منصوب[5] .

وحدد التجيبي المسافة بنحو أربعمائة ذراع[6] ، وذكر ابن جبير والبلوي أن ما بين الجمرة الوسطي والأولى قدر غلوة أيضاً[7]، وحدد التجيبي المسافة هنا أيضاً بثلاثمائة وخمسين ذراعاً وهاتان الجمرتان تقعان في وسط منى تقريباً[8] .

ونجد اختلافاً بسيطاً في المسافة فيما أورده الرحالة وما ذكره الأزرقي حيث قال : إن المسافة ما بين جمرة العقبة والوسطى أربعمائة وسبعة وثمانون ذراعاً واثنتا عشرة أصبعًا ومن الجمرة الوسطى إلى الأولى ثلاثمائة وخمسة

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤٢ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٥ ــ ١٣٦ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٥ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٩٨ ؛ المحب الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٤٣ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥١٠ .

(٤) الغلوة قدر مسافة رمية السهم . انظر ابن منظور : لسان العرب ، جـ ١٥ ، ص ١٣٢ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٦ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٦ .

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤٣ . والذراع يساوي أربعة وعشرين أصبعاً . انظر أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٦٠ ــ ٦١ ، هامش ١ .

(٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٦ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٦ .

(٨) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤٢ ــ ٣٤٣ .

أذرع[1] ، ولعل سبب الاختلاف عائد إلى عدم تمكن الرحالة من القياس بدقة بسبب شدة الازدحام في أيام الموسم .

المزدلفة :

وصفها ابن جبير وابن بطوطة والبلوي بأرض منبسطة فسيحة تقع بين جبلين ، وقدروا المسافة بين منى وعرفات بمثل المسافة بين منى ومكة[2] ، وأشار ابن رشيد إلى ندرة الماء بها ومحاولته معرفة طريق مسير النبيﷺ فيها ، وحدد موقع جبل قزح بأنه آخر المزدلفة وعاب على الناس واستنكر منهم استبدالهم الوقوف عليه اتباعاً لسنة الرسولﷺ ببناء مستحدث بوسط المزدلفة وأضاف أن المأزمين ووادي محسر ليسا من المزدلفة . فمحسر واد بين منى والمزدلفة[3] ، وأشار العبدري إلى أن المزدلفة أكثر اتساعاً من منى وأن المسافة بين مسجد المزدلفة ومسجد عرفة أربعة أميال[4] .

واختلف الرحالة في اهتمامهم بوصف المزدلفة فمنهم المهتم بوصفها ومنهم المتتبع لطريق النبي ﷺ فيها أثناء تأديته فريضة الحج كابن رشيد مثلاً الذي اتفق مع المحب الطبري في استنكاره البدع الموجودة بها[5] .

وقام الأزرقي والحربي والفاسي بتحديد مسافة المزدلفة وحدودها التي اتفقت مع أقوال الرحالة[6] .

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ ؛ وذكر الحربي أن ما بين العقبة والوسطى أربعمائة وثمان وخمسون ذراعاً وما بين الجمرة الوسطى والدنيا مائتان وستون ذراعاً . انظر الحربي : المناسك وأماكن طرق الحج ، ص ٥٠٤ .

(٢) ابن جبير: الرحلة ، ص ١٥٠ ؛ ١٥٥ ؛ ١٥٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٩ ؛ البلوي : تاج المفرق؛ جـ ١ ، ص ٣١٦ .

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٤ .

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٥) المحب الطبرى : القرى لقاصد أم القرى ، ص ٤٢٠ .

(٦) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ؛ الحربي : المناسك وأماكن طرق الحج ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٨ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٤٩١ ؛ ٤٩٢ ـ ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ؛ ٥٠٤ ـ ٥٠٦ .

عرفات :

تميزت عرفات بانبساط أرضها وإحاطة الجبال بها حيث يقع جبل الرحمة في طرفها بعيداً عن الجبال الأخرى . فهو عبارة عن حجارة منقطعة بعضها عن بعض يصعب الصعود عليه فشيدت له درج بأمر الوزير الجواد في جهاته الأربع فأصبح الصعود إليه بالدواب أمراً سهلاً .

وأسفل الجبل وعلى مكان غير بعيدٍ منه مكان وقوف الرسولﷺ . وهو عبارة عن جبل قليل الارتفاع .

وحول جبل الرحمة جباب وصهاريج للماء ، وعلى يسار العلمين اللذين وضعا حداً لعرفة لمستقبل القبلة يمتد وادي الأراك[1] .

أما ابن رشيد فنعته باسمه القديم حيث أشار إليه بجبل الإل والذي يقع في وسط عرفات والمعروف بذلك منذ القدم فهو جبل مرتفع . وقد اتفق مع ابن جبير من وجود درج فيه ، كما شاهد موقف الرسولﷺ خلف مصلى الإمام . وأوضح أن هناك صخرات عند الجبل يحرص الحجاج في الصعود عليها ؛ وأضاف أن عرفة هي الأرض التي تحيط بها الجبال وأن جبل عرفة يسمى أيضاً جبل الرحمة وجبل الدعاء والإل ، واتفق في وصفه مع ابن جبير[2] .

وأشار العبدري إلى وجود غار أسفل جبل عرفة يسمى نمرة يقال إن النبي ﷺ نزل به ، وقد أرشد العبدري شيخ حجازي عالم بالأماكن إلى أعلام حد عرفة والتي قام الأمراء بوضعها في داخلها احتياطاً لخروج الحجيج منها قبل غروب الشمس لإيهامهم أن العلمين نهاية عرفة وهما في الحقيقة في وسطها ، كما شاهد موقف النبيﷺ في آخر عرفة عند جبالها الشرقية[3] ،

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٩٦ ـ ١٧٠ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٨٧ ؛ ٨٩ ؛ ٩٢ .

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

وقد وافق المحب الطبري ابن رشيد فيما ذهب إليه من أسماء جبل عرفة[1] . أما الفاسي فقد وافق الرحالة فيما ذكروه من وصف عرفة[2] .

المدينة المنورة :

مدينة مشرقة جميلة أرضها سبخة مشرفة على وادٍ مليء بالنخل وبظاهرها حرة سوداء وعرة[3] ، ويظهر أنها أكثر تنظيماً وترتيباً من مكة ، فشوارعها المحيطة بالمسجد مفروشة ومبلطة بالحجر المنحوت[4] . ولم يتطرق ابن بطوطة لوصفها العام بينما اتفقت معلومات البلوي وابن جبير بشأنها[5] . ولعل البلوي اعتمد على ابن جبير في وصفها .

جبل أحد :

أشار ابن جبير إلى جبل أحد والواقع على بعد ثلاثة أميال من المدينة . وبجوار الجبل من الناحية القبلية قبر حمزة رضي الله عنه الذي بني عليه مسجد بحيث أصبح القبر بداخله وقبور الشهداء بجواره . وقد ذكر ابن جبير وجود غار أسفل جبل أحد بجانب قبور الشهداء قيل إن الرسول ﷺ اعتصم به، وحول قبور الشهداء تربة حمراء منسوبة لحمزة رضي الله عنه يتبرك الناس بها[6] ، وهي من البدع الشائعة والتي أشار بعض الرحالة إليها والدالة على معتقداتهم وحالتهم الدينية في تلك الفترة .

وما وصفه ابن جبير من آثار موافق لما ذكره السمهودي مؤرخ المدينة . أما ما ذكره حول الغار فقد نفى ابن النجار والسمهودى ذلك فالرسول ﷺ لم يذهب لغار بأحد وليس لدينا تفاصيل مؤكدة في هذا الصدد[7] .

---

(١) المحب الطبري : القرى لقاصد أم القرى ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٧ .
(٢) القاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٨ .
(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٣ .
(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٦ .
(٥) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .
(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٣ .
(٧) ابن النجار: أخبار مدينة الرسول ، ص٥٨ ؛ السمهودي : وفاء الوفا، جـ٣ ، ص٩٢٧ ؛ ٩٢٨ ، ٩٣٠ .

البقيع :

يقع بقيع الغرقد شرقي المدينة والمخرج إليه من باب البقيع[1] ، أحد أبواب المدينة الأربعة فالبقيع خارج حدود عمران المدينة في ذلك الوقت .

قباء :

تقع في الجهة القبلية من المدينة المنورة على مسافة نحو ميلين منها . وهي كبيرة ومتصلة بالمدينة المنورة وأكمل ابن جبير وصفها مشيراً إلى وجود النخيل على طول الطريق منها إلى المدينة . وإلى جانب إحاطة أشجار النخيل بالمدينة وخاصة الجهة القبلية والشرقية مع قلتها في الجهة الغربية[2] .

وقد أشار ابن جبير أنه في آخر قباء يوجد تل يسمى عرفات يفضي إلى دار الصفة . أما سبب تسميته بعرفات فقيل : إنه موقف النبي ﷺ به يوم عرفة في السنة ٩هـ/٦٣٠م فزويت له الأرض حتى رأى الناس بعرفات[3] ، غير أن ما قاله ابن جبير حول هذا التل يفتقر إلى نص صريح يؤكد أنه موقف النبي ﷺ[4]. وأما قوله أن التل يفضي إلى دار الصفة فهذا غير صحيح إذ أن مكان أهل الصفة في مؤخرة المسجد النبوي وليس في ذلك المكان .

وقد أشار ابن جبير إلى وجود الخندق من الجهة الغربية من المدينة على مسافة غلوة منها[5] .

أما العبدري فحدد مكان البقيع في شرق المدينة على بعد ثلاثة أميال منها وجبل أحد شمالها وأشار إلى ارتفاعه وميل لونه إلى الحمرة[6] .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٤) الفيروز أبادي : المغانم المطابة في معالم طابة ، هامش ص ٣٢٥ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٥ .
(٦) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٣ ؛ ذكر عبد القدوس الأنصاري أن سبب هذا اللون يدل على احتوائه على نفيس الجواهر وكريم المعادن وأورد عدة روايات مفادها العثور على بعض هذه الأحجار الثمينة . انظر عبد القدوس الأنصاري : آثار المدينة ، ص ١٩٥ .

وما جاء به البلوي من وصف المدينة نقله حرفياً عن ابن جبير ؛ لذا لن نفصل القول فيه فهو قد أعاد وصف شيء قد مضى عليه أكثر من قرن ونصف من الزمان حيث إنه لم يظل الوضع كما كان سابقاً إذ رأينا بعض التغييرات في وصف العبدري لها وعليه فالبلوي لم يقدم شيئاً جديداً يفيد البحث .

جُدَّة :

ورد ذكرها في رحلة ابن جبير والتجيبي وابن بطوطة ، وكانت في زمن رحلة ابن جبير ضئيلة الشأن . فهي عبارة عن قرية على ساحل البحر ، وخارج حدودها مصانع وصهاريج قديمة دالة على قدم إنشائها . إذ قيل إنها من آثار الفرس كما أشار إلى وجود الجباب المحفورة في الحجر متصلة ببعضها كثيرة العدد . وهي داخل جُدَّة وخارجها ووصل عددها إلى ما يزيد على ثلاثمائة وستين جُباً داخلها ومثلها خارجها(١) .

وتميزت جدة بقلة وضآلة اقتصادها وعمرانها على الرغم أنها كانت محطة استقبال الحجيج ومركزاً لجباية المكوس والضرائب التي لم تصرف على تحسين أوضاعها .

وخلال رحلة التجيبي لم يطرأ تحسن على أحوال جُدَّة إلا أنه قام بضبط اسمها وجزم بأنه بالضم لا غير(٢) .

وحدد المسافة بينها وبين مكة المكرمة بأربعين ميلاً . وأكد أنها من بناء الفرس، وأن ملوكها امتهنوا التجارة. فهي محطة للسفن القادمة من الهند وعدن

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٤ .

(٢) أجمعت المصادر على أنها بالضم لا غير وتلى ذلك بحث قدمه الاستاذ عبد القدوس الأنصاري يحتم فيه ضمها أيضاً . انظر البكري : معجم ما استعجم ، جـ ٢ ، ص ٣٧١ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ١١٤ ؛ ابن منظور : لسان العرب ، جـ ٣ ، ص ١٠٨ ؛ عبد القدوس الأنصاري : موسوعة تاريخ جدة ، جـ ١ ، ص ٤٥ ــ ٥٣ ؛ عبد القدوس الأنصاري وعبد الفتاح أبو مدين وأبو تراب الظاهري : التحقيقات المُعدة بحتمية ضم جيم جدة ، ص ١٥ ــ ١٦ وما تلاها ؛ نوال ششة : جدة في مطلع القرن العاشر الهجري ، ص ٢١ ــ ٢٢ .

وعيذاب والقلزم وغيرها ، ولم يشر التجيبي إلى مصدر معلوماته عنها ، وكل ما أورده حولها يتفق مع ما أورده ابن جبير وخاصة في تعليله لكثرة الآثار التي تدل على علو شأنها قديماً .

وبالرغم من ضآلة شأنها الاقتصادي والعمراني إلا أنها كما أشار التجيبي محطة مهمة لإقلاع ورسو السفن المتجهة من وإلى اليمن وسواكن وعيذاب[1] .

ولا تختلف حالة مدينة جُدة زمن رحلة ابن بطوطة عما رأيناه سابقاً[2] .

القرى وبعض منازل الحجيج :

مر الرحالة المغاربة والأندلسيون القادمون بطريق البر إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة بعددٍ من القرى التي كانت تقع على الطريقين اللذين سلكهما الرحالة وهما[3] :

الطريق الأول : يمر قرب ساحل البحر الأحمر ويسلكه من قدم رأساً من مصر إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة ويبدأ هذا الطريق من العقبة . ومن الرحالة الذين سلكوه قدوماً وقفولاً العبدري .

أما الطريق الثاني : فإلى الداخل قليلاً ويسلكه القادمون من الشام ويبدأ من تبوك . ومن الرحالة الذين سلكوه ابن رشيد وابن بطوطة والبلوي . ويلتقي طريق الساحل وطريق الداخل في بدر حيث يجتمع به ركب حجيج الشام ومصر ويسيران مجتمعين إلى أن يصلا إلى مكة المكرمة[4] .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٣) انظر رسماً للطرق التي سلكها الرحالة رقم ٤ .

(٤) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

الطريق الأول :

عدد العبدري منازل الحجيج منزلاً منزلاً ومسافاته على هذا الطريق فبدأ بمكان سماه المنهلة[1] :

المنهلة :

على نصف يوم من عقبة أيلة[2] تقع على ساحل البحر وبوابة وادي القر[3] مياهها أحساء[4] تميزت بعذوبتها وغزارتها[5]، وقد ذكرها الورثيلاني ولكنه لم يسمها وحدد المسافة بينها وبين العقبة باثنتي عشرة ساعة ووصفها بأنها واد على شاطىء البحر وبجانبه مغائر عذبة المياه وآبار يتزود منها الناس بالماء[6].

وادي القر :

آخذٌ بالاستطاله نادر المياه متصل بمغارة شعيب[7] . تميز بشدة برده ، وبه قبرُ رجل من العرب امتهن قطع الطريق على الحجاج لا يكاد يسلم منه أحد

---

(١) أغلب الظن أنها حقل الآن فقد ذكر القثامي أن حقل تبعد عن العقبة ٢٧ كم وتقع على الساحل وهو ما ينطبق على ما ذكره العبدري . انظر القثامي : معجم المواضع والقبائل والحكومات ، جـ ٢ ، ص٥٧ ـ ٥٩ .

(٢) (ايلة) مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام هى آخر الحجاز وأول الشام وهى مدينة صغيرة بها زرع قليل . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٢٩٢ . (وهى الآن ميناء بحرى واسمها إيلات) .

(٣) (وادى القـرى) وليس القـر وتدعى العُلا الآن وهى أودية وليست وادياً واحـداً . انظر الحربي : المناسك وطرق وأماكن الحج ، ص ٤١٣ وربما يكون العبدري قد اطلق هذا الاسم عليه نسبـة إلى برودته الشديدة . وهذا يقودنا إلى القول أن الرحالة ربما يقومون باطلاق أسماء على بعض الأماكن نسبة إلى ما أحسوه أو شاهدوه بها .

(٤) (الاحساء) نبث التراب لخروج الماء . هي المياه المتجمعة بعد هطول الأمطار تحت طبقات الرمل واحتباسها على طبقة الحجر الصلد ويمنع الرمل جفاف الماء ويحفر في هذه الأماكن لإستخراجه . انظر ابن منظور : لسان العرب ، جـ ١٤ ، ص ١٧٧ .

(٥) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٠ .

(٦) الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

(٧) (مغارة شعيب) وهو ما يعرف اليوم بالبدع وهو من أشد المناطق برودة حتى يقال أن الثلج يشاهد على قمم الجبال لارتفاعها ؛ شديد الهواء . انظر القثامي : معجم المواضع ، جـ ٢ ، ص ٢١ ؛ حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص ٤٥٣ . وهو موافق لما ذكره العبدري .

لترصده إياهم، واستمر على طريقته إلى أن مـرض مرضه الذي توفي به . وفي أثناء مرضه وصل إلى مسامعه مجيء بعض الحجاج فاستدعى أولاده الذين ظنوا أنه سيأمرهم بعدم التعرض للحجاج والسماح لهم بالمرور وإكرامهم ، فأشار إليهم بالنفي فمازالوا يماطلونه ويذكرونه بما حل به حتى ضجر منهم ورفع يده بإشارة إليهم أن سفوهم سفاً فسمي الرجل بالسفاف وقبره بقبر السفاف . ولما توفي رجم قبره من ذلك الحين إلى وقت قدوم العبدري حيث شاهد كوماً عظيماً من الحجارة عليه(1) .

وأوضح الورثيلاني أن هذا الموضع يسمى أم العظام أو شرفات بني عطية أو عش الغراب وجاء على ذكر السفاف ونسب حكايته للعبدري ولكنه سماه بقبر الشفاف(2) ، ويعرف هذا المكان اليوم بلفظ قبور شفاف(3) .

مغارة شعيب :

حدد العبدري المسافة بينها وبين المنهلة بيومين وبعض يوم . وصفها بالكبر والارتفاع . متسع مدخلها مع ارتفاع بسيط مضيء داخلها بسبب اتساعها واتساع مدخلها. تكونت هذه المغارة من الحجر الصلد وتميزت بغزارة الماء بها الذي يظهر من بابها ولكنه ماء راكد متميز بعذوبته ينبع من أصل المغارة وقدر العبدري المسافة بين باب المغارة وقعرها بستين أو سبعين ذراعاً وأضاف أنها آخر وادي القرى . كما ذكر أن الماء بها يشوبه عفن بسبب الماء المتبقي من أحواض السقي والذي يعود إلى المغارة مرة أخرى(4) .

وقد وصفها ابن رشيد الذى سلك هذا الطريق ومر بمغارة شعيب قبل العبدري بأربع سنوات واتفق في وصفه لها مع العبدري وزاد عليه بإشارته لوجود درج بها وتشبيهه لها بالصهاريج(5) .

---

(1) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٠ .

(2) الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .

(3) حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص ١٨٥ .

(4) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٠ ؛ وهذه المغارة قريبة من عينونا ووادي القرى ويطلق عليه اليوم العلا . انظر حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ، ص ٦٠٣ ؛ محمد عبد الحميد مرداد : مدائن صالح تلك الأعجوبة ، ص ٦١ .

(5) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠ .

عيون القصب[1] :

حدد العبدري المسافة بينها وبين مغارة شعيب بيومين . وأشار إلى وجود الماء العذب الجاري فيها رغم قلته وهو ينبع من شعب بين جبلين يقع على يسار الذاهب إلى الشرق تميزت مياهه بسهولة استخراجه دون مشقة[2] . وقد مر ابن رشيد بها أيضاً وأشار إلى طيب مياهها ووجود نبات القصب بها[3] ، وربما أخذت اسمها مما ينبت بها من قصب .

الكفافة[4] :

وحدد العبدري المسافة بينها وبين عيون القصب بيومين وبعض يوم . وأشار أن الكفافة اسم جبل على يسار الطريق برز منه نتوءات شبهها بالأضراس لقربها من بعضها، وذكر أن أسفل الجبل مياه متجمعة أسفل الرمال يحفرون لاستخراجها . ويسمى هذا الموضع وادي سلمي . ووصف الماء المستخرج بعذوبته وغزارته وصفائه حتى أنه قطع بعدم وجود ما يماثله عذوبة في الطريق ويقال : إن الكفافة منتصف الطريق من مصر إلى مكة[5] .

أما ابن رشيد فقد سمى الموضع سلمى ولم يتحدث عنه[6] ، ويجدر التنبيه إلى أن هذا الموضع غير جبل سلمى الموجود في بلاد طيء فهذا وادٍ من منازل الحجاج القادمين من مصر وذلك جبل وربما يعود امتزاج التسميتين إلى أن الكفافة مورد لتزويد أهل الركب وسلمي داخل الوادي بها آبار عذبة

---

(١) (عيون القصب) يطلق عليها الآن اسم عينونا بالقرب من مغاير شعيب [البدع الآن] فيها عين ونخل على مرحلتين من البدع كان في السابق ينبت بها القصب الفارسي وغيره ويرتفع فيها الماء حتى يتجاوز قامة الرجل . انظر الحربي : المناسك ، هامش ص ٦٥١ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، جـ٢ ، ص ١٣٧٠ ، البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ ٦ ، ص ٢٠٩ .

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦١ .

(٣) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٢٧٩ .

(٤) جبل على يسار الطريق يقصد بعد المويلح إلى المدينة يقال أنها منتصف الطريق من مصر إلى مكة . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ ٧ ، ص ٢٢٢ .

(٥) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦١ .

(٦) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٢٧٩ .

وهـي أبعد من الكفافة بنصف مرحلة تقريباً[1] ، ولعل الركب ينزل بها سنة هنا وسنة هناك بحسب وفرة المياه في أحد المكانين .

الوجه :

تبعد عن الكفافة مدة ثلاثة أيام ؛ يوجد ماؤها أسفل جبلٍ هناك . وامتاز بعذوبته وعدم غزارته . وعلى جهة اليسار من طريق الحجاج يوجد موضع ماء كثير يعرف بالشعبين ويوجد قبل الوجه وتميز أيضاً بوجوده تحت الرمال ، صعب الاستخراج وربما جف في بعض الأوقات .

اكرا[2] :

بعد الوجه بمدة ثلاثة أيام وصفها العبدري بأنها وادٍ كبير وماؤها أحساء ولكنه غزير وعذب لا يُنال إلا بعد الحفر في الرمال قدر قامة[3] ، وقد أبدى ابن عبد السلام استغرابه من مدح العبدري لماء أكرا وقال ربما يكون نزل بها بعد هطول المطر[4] .

وأضاف العبدري أن على يمين ماء أكرا من جهة البحر على مسافة ليست بالكبيرة أحساء غزير في واد يسمى اليعبوب . وقيل له : أن اليعبوب يطلق على وادى أكرا من أسفله[5] .

---

(١) الجزيري : الدرر الفرائد ، جـ ٢ ، ص ١٣٨٥ ؛ المرحلة المنزلة يرتحل منها وما بين المنزلين مرحلة . انظر ابن منظور : لسان العرب ، جـ ١١ ، ص ٢٨٠ .

(٢) فضاء واسع ومرعى ماؤها حفائر غير سائغة منها ما هو مالح جداً ومنها ما دونه وإذا لم تمطر تزداد الملوحة والعكس واكرا أرض مدورة الشكل فلعل اسمها مشتق من شكلها وأرضها سبخة وهي محطة قديمة ذكرها العديد من الرحالة شمال الحنك وقد أوشك اسمها أن ينسى وأطلق على موضعها بئر القصير وهي في مفيض وادي الحمض . انظر الجزيري : الدرر الفرائد ، جـ ٢ ، ص١٤٠٠ ـ ١٤٠١ ؛ سيد بكر : الملامح الجغرافية ، ص ١٣٧ .

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦١ .

(٤) الدرعي : ملخص رحلتي ابن عبد السلام ، ص ٨١ .

(٥) الدرعي : ملخص رحلتي ابن عبد السلام ، ص ٨١ .

ونرجح قول ابن عبد السلام في أن العبدري كان قدومه إثر هطول المطر مما يعلل كثرة المياه العذبة في طريقه وفي أماكن أخرى اشتهرت بملوحة مياهها .

الحوراء :

بينها وبين أكرا ثلاثة أيام . تقع على ساحل البحر مياهها عبارة عن أحساء غزيرة مالحة ذات رائحة منكرة[1] . واكد ابن رشيد رداءة مائها أيضاً[2].

وأشار العبدري إلى وجود جزيرة أمام الحوراء يقطنها بعض العرب يعتمدون على السمك في غذائهم . وبمجرد مرور الركب بمحاذاتهم يبادرون بإحضاره لبيعه لهم . كما أشار العبدري إلى أن أهل ينبع يتقدمون إلى الحوراء حاملين التمر لبيعه هناك .

المغيرة[3] :

تأتي بعد الحوراء على مسافة يومين والمغيرة تصغير لفظ المغارة أخذت شكل وادٍ لوقوعها بين جبلين . تميز مدخلها بضيقه ولوجود المغيرة في بطن الوادي استعمل الدرج للوصول إليها والأخذ من مائها الذي أشار العبدري إلى قلته ، كما أوضح أن الحجاج يتزاحمون عليه لري عطشهم حتى هداهم الله للحفر في الوادي نحو القامتين وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الماء فأحدث هذا العمل القضاء على التزاحم والمشقة التي كان الحجاج يلاقونها في سبيل الحصول عليه[4] .

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٢ .

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٢٧٩ .

(٣) (المغيرة) : هى نبط منهل مشهور قديماً فيها مغارة تسمى نبط وهى حد جهينة من بنى الحسن يصل إليها عبر مضايق وإنحدارات بها شجر كثير من الاثل . والنبط واد بين الحمض وينبع على ٩٠ كم شمال ينبع . انظر الدرعي : ملخص رحلتي ابن عبد السلام ، ص ٨٥ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ ٩ ، ص ٢٠ ؛ سيد عبد المجيد بكر : المشاهدات الجغرافية ، ص ١٣٨ ـ ١٤٠ .

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٢ .

ينبع :

بلدة صغيرة على بعد يومين من المغيرة تميزت بقلة سكانها. وهي محطة مهمة لنزول الحجاج بها. ويوجد في الغرب منها أرض واسعة عبارة عن سبخة لا نبات فيها، فاستخدم هذا الموضع لنزول الركب . واشتهرت ينبع بسوقها الكبير، وبه يتم بيع التمر الذي اشتهرت به المنطقة للركب ، وبها يتم تزويد الركب بجميع ما ينقصه لإكمال مسيرتهم إلى مكة المكرمة . كما اشتهرت بعذوبة وطيب مائها[1].

وقد أكد ابن رشيد والبلوي قول العبدري بوجود السوق بها واعتبارها محطة مهمة يترك بها الحجاج فائض أزوادهم أمانة لحين عودتهم كما أشار إلى جمالها، وكثرة الماء والبساتين والخضرة فيها[2] .

الدهناء :

يصل إليها الركب بعد مسير نصف يومٍ من ينبع ويبدو أنها تتبعها، فالعبدري أشار إلى ذلك . وقد لفت انتباهه فيها ماؤها العذب ونخلها الكثير وسبخة أرضها[3] .

بدر :

تبعد عن الدهناء مسافة يومين ؛ ولشهرة بدر التاريخية دقق الرحالة في وصفها. وأوسع من أمدنا بوصف دقيق مسهب لها ابن جبير ثم العبدري فهي عبارة عن وادٍ مقامة به قرية عامرة محوّطة بحدائق وبساتين النخيل الكثيرة والماء الفياض . وعبر ابن جبير عن كثرة مياهها بقوله : عين فوارة ، كما أشار ابن جبير إلى أن موضع القليب الذي طُرح فيه المشركون بعد المعركة مليء بالنخيل وحدد موضع الشهداء خلفه . أما العبدري فذكر أن قبور الشهداء تقع غربي مسجدٍ ببدر. وخالف ابن جبير في موضع عريش النبيﷺ عندما حدد مكانه في سفح جبل يسمى الطبول الذي يشرف على موضع المعركة[4] . فقد

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(٢) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٢٧٨ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ٢ ، ص ١٢ ـ ١٣ .
(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ .
(٤) ابن جبير : الرحلة . ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

انفرد ابن جبير وابن بطوطة بذكر هذا الجبل وشبهه كل منهما بكثيب رمل ممتد. كما انفردا بذكر جبل يسمى الرحمة يقال : إن الملائكة نزلت عليه يوم بدر ويقع على يسار مدخل بدر[1] .

ووجد ببدر سوق كبير يتحين أهلها وأهل المناطق المجاورة وصول الركب مستعدين لبيعهم التمر والعلف للجمال كما ذكر العبدري . وقد عاب العبدري على أهل بدر انتشار بدع وخرافات لا يوجد ما يدعمها: مثل وجود هضبة غربي المقبرة قيل حولها أشياء لا أصل لها. وبالقرب من هذه الهضبة يوجد غار قيل أن الرسول ﷺ أوى إليه مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه حينما هاجرا من مكة[2] .

الطريق الثاني :

تبوك :

طريق الحاج الشامي يبدأ من تبوك . ووصفها ابن رشيد بأرض خصبة تزخر جناناً ، ويكثر بها النخيل ؛ وذلك لتوفر الماء فيها. حيث توجد فيها عين غزيرة بنيت على هيئة صهريج كبير طويت جوانبها بالحجارة ليجتمع بها الماء الذي يخرج إلى جفر[3] كبيرة. وقد وصف ابن رشيد ماء هذه العين بالعذوبة[4] . وما ذكر عن تبوك يدل على استقرارها الذي انعكس على انتشار جنان النخيل واستيطان بعض العرب وامتهانهم للزراعة خاصة لتوفر الماء .

ثم وافاها ابن بطوطة بعد ما يربوا على الأربعين عاماً فزاد في وصفها وجود سقائين حول العين أقيمت لهم حولها أحواض كبيرة مصنوعة من جلود الجواميس يسقون منها الجمال ويملأون القرب . حيث اختص كل منهم بسد حاجة أمراء الركب بمن يتبعهم ، واختص غيرهم بسقي الحجيج لقاء أجرٍ

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٣) (الجفر) : الحفرة الواسعة المستديرة . انظر ابن منظور : لسان العرب ، جـ ٤ ، ص ١٤٣ .

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٧ .

مــعلوم[1] ولا نتــبين حــالة تبــوك من وصـف ابن بطوطة . وإن كنا نميل إلى استقرار أوضاعها ؛ غير أن البلوى أشار إلى خرابها وعبر عن ذلك بقوله « هي اليوم خراب » بالرغم من وجود الماء وبعض النخيل[2] ، ولا نعلم سبب خرابها لا سيما وأن ما بين ابن بطوطة والبلوي فترة قصيرة .

العُلا :

بينها وبين تبوك ثمانية أيام ، والطريق إليها شاق موحش عديم الماء إلا من بئر بوادي الأخيضر لا يسد رمق الركب المار بها. حتى إن ابن بطوطة وصف وادي الأخيضر بوادي جهنم ونقل نقشاً على أحد صخور الوادى يفيد « أنه أصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها » ، وأشار أيضاً إلى وجود بركة المعظم . ووصفها بالضخامة ونسب بناءها الملك المعظم[3] أحد أولاد أيوب وبها يتجمع ماء المطر ولكنه يجف عند اشتداد الحر.

كما شاهد ابن رشيد بعض أراضٍ منبسطة مليئة بالحصى الأبيض الشبيه بالبلور وحصىً أحمر وأسود .

وبالعلا ماء أحساء كثير يجري بين الرمال فأتاح لأهلها زراعة النخيل وبعض المزروعات الأخرى فأصبحت قرية كبيرة جميلة المنظر انتشرت فيها العديد من الدور. وقد أقيم بها حصن واشتهر أهلها بفضلهم وأمانتهم مما دفع الكثير من الحجاج إلى ترك الفائض عن حاجتهم من الأزواد بها إلى حين قفولهم من الحج . وهي أيضاً سوق كبير حيث يقصده تجار الشام النصارى للبيع والشراء مع الحجاج[4] .

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١١٢ .

(٢) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ .

(٣) أمر ببنائها الملك المعظم عيسى بن العادل الذى ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م وتوفي سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م وله مآثر عظيمة . انظر الحنبلي : شفاء القلوب ، ص٢٧٦ ـ ٢٨٤ ؛ الجزيري : الدرر الفرائد ، جـ٢ ، ص ١٢٦٢ .

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١١ ـ ١٢ ، ١٥ ـ ١٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢ ـ ١٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ .

حِجر ثمود[1] :

تعرف اليوم بمدائن صالح . تبعد عن العلا مسافة نصف يوم تقريباً، وبينها وبين تبوك خمسة أيام . تحدث عنها ابن رشيد وابن بطوطة والبلوي وكل منهم تناول جانباً أسهب في وصفه ؛ فمما عجب له ابن رشيد والبلوي دورها المنحوتة في الجبال بإتقان شديد[2] ، يبدو أغلبها وكأنه نحت حديثاً وبعضها أصابه الضرر بسبب نفوذ ماء المطر إليه .

أما أرض الحِجر فهي رملية واسعة تحيط بها الجبال، ينفذ إليها بواسطة مدخل ضيق يشكل جانباه مصرعًا وبابًا عاليًا لها وفي وسط أرض الحِجر جبال صغيرة يميل لونها إلى الإحمرار وهي التي قاموا بنحتها ونقشها وحفر الغرف بداخلها وعمل أبوابها. وقد شاهد ابن رشيد في بعض دورها عظاماً قال عنها « إن ظاهر أحوالهم أن خلقهم كانت كخلقنا إذ أبواب بيوتهم وزواياها على مقادير أبوابنا المعتادة في الارتفاع » ، فنرى ابن رشيد هنا ينقل الوصف ويدلي برأيه خارجاً من تفحصه وتحليله بنتيجة أحوالهم .

وقد سمى ابن بطوطة ديار ثمود ببئر الحِجر أو حِجر ثمود ، وأشار إلى كثرة الماء بها ولكن يمتنع أفراد الركب عن تناوله مع شدة عطشهم اقتداء بالرسولﷺ[3] . وحدد مكان مبرك ناقة صالح عليه السلام بأنه بين جبلين بجانبه أثر مسجد يصلي الناس فيه . بينما شاهد البلوي بئر الناقة وسمى موضعه مبرك الناقة[4] .

---

(١) وقد امتد نفوذ قوم ثمود وسلطانهم الأول على معظم البلاد العربية وبالنسبة لحدودهم الجغرافية قبل نزول العذاب وهلاكهم كانت تمتد من ساحل ايلات بفلسطين حتى ساحل البحر الأحمر المقابل لموانىء الحبشة وتربوا مدنهم على الثلاثين مدينة منها مدينة الحِجر . انظر محمد عبد الحميد مرداد : مدائن صالح ، ص ٤٠ ـ ١٠٠ ؛ القثامي : الآثار في شمال الحجاز ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ـ ١٥٠ .

(٢) انظر الرسم رقم ٥ .

(٣) أمر الرسولﷺ بعدم الشرب والوضوء من مائهـا وإطعام الإبل العجين الذي استخدم ماؤه في عجنه . انظر ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٥٢١ .

(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٤ ـ ١٥ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ .

وادي العطاس[1] :

شديد الحر تهب عليه رياح السموم .

هدية :

آخر وادي العطاس ماؤها أحساء . وصف بمرارته يستخرج بواسطة الحفر ، وينتشر قطاع الطرق حولها مما يضطر الحجيج لقتالهم هناك وبعدها تظهر أعلام المدينة المنورة[2] .

الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة :

ذو الحليفة :

تبعد عن المدينة مسافة ستة أميال أو سبعة . فيها مسجد لم يتطرق الرحالة لوصفه . وأضاف ابن رشيد أن ذا الحليفة تعرف ببئر علي وأرض ذي الحليفة بطحاء سهلة تشرف على وادي العقيق[3] .

الروحاء[4] :

بها بئر تعرف بذات العلم قيل : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتل الجن عندها. ولعل الرحالة عند نقلهم لهذا الخبر لم يتحققوا منه ، فالذي قاتل الجن عند البئر هو عمار بن ياسر فقد روي عن « الأحنف بن قيس قال : قال علي بن أبي طالب والله لقد قاتل عمار بن ياسر الجن والإنس على عهد رسول الله ﷺ فقلنا هذا الإنس قد قاتل فكيف الجن فقال كنا مع رسول الله ﷺ في

---

(١) لم نجد له ذكر في المصادر التي تناولناها وربما يكون وادي القرى خاصة وأن ابن رشيد ذكره ضمن الطريق وقال أكثره خراب . انظر ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٦ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١١٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٧ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠١ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ٥ ، ص ٧١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .

(٤) (الروحاء) قرية صغيرة علـى بعد ٧٣ كم من المدينة على طريق مكة سميت الروحاء لانفتاحها ورواحها . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٧٦ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٤ ، ص ١٢٢٢ ؛ البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ ٤ ، ص ٨٥ .

سفر فقال لعمار انطلق فاستق لنا من الماء فانطلق فعرض له الشيطان في صورة عبد أسود فحال بينه وبين الماء فأخذه فصرعه عمار فقال له دعني وأخلي بينك وبين الماء ففعل ثم أتى فأخذه عمار الثانية فصرعه فقال دعني وأخلي بينك وبين الماء فتركه فأتى فصرعه فقال له مثل ذلك فوفى له فقال رسول الله ﷺ إن الشيطان قد حال بين عمار وبين الماء في صورة عبدٍ أسود وإن الله أظفر عماراً به قال علي فلقينا عماراً فقلت ظفرت يداك ياأبا اليقظان فإن رسول الله ﷺ قال كذا وكذا [فقال عمار][1] أما والله لو شعرت أنه شيطان لقتلته ولكن هممت أن أعض بأنفه لولا نتن ريحه »[2] .

وأخبر السمهودي عن بئر ذات العلم بأنه تجاه الروحاء يقال أن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قاتل الجن بها وهي بئر عميقة . وأضاف في موضعٍ آخر أن البئر المذكورة تقع بذي الحليفة يسميها العوام بئر علي ونسبتها إليه غير معروفة عند أهل العلم[3] .

وادي الصفراء :

على بعد ثلاثة أيام من المدينة . وهو عبارة عن قرى كثيرة متصل بعضها ببعض لمسافة يوم نحو المدينة ، وبه العيون الكثيرة وحدائق النخيل والبساتين التي يزرع بها البطيخ والدباء والقطاني[4] وغيرها .

---

(١) إضافة لاستقامة المعنى .

(٢) بدر الدين الحنفي : غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة ، ص ١٤٧ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٤ ، ص ١١٣٩ ؛ ١١٩٥ .

(٤) (القطاني) هي الحبوب التي تدخر كالحمص والعدس والباقلي والترمس والدخن والأرز والجلبان والقطنية الحبوب التي تخرج من الأرض والقطاني الخِلفَ وخضر الصيف والقطنية اسم جامع لهذه الحبوب التي تطبخ وسميت الحبوب قطنية لأن مخارجها من الأرض مثل مخارج الثياب القطنية ويقال لأنها تزرع كلها في الصيف وتدرك في آخر وقت الحر. انظر ابن منظــور : لسان العرب ، جـ١٣ ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

بدر :

تبعد عن وادي الصفراء قدر بريد[١] . والطريق إليها يمتد في وادٍ تشرف عليه الجبال . فبدر قرية تناثرت بها حدائق النخيل بشكل متصل[٢] .

صحراء البزواء :

صحراء واسعة مسيرتها ثلاثة أيام . مجهولة المسالك عديمة المعالم[٣] . وهذا ولا شك يدل على عدم اهتمام أمراء الحجاز بتحسين الطرق وإنصرافهم لأمور أخرى لا تمت بصلة لراحة الحجيج وخدمتهم .

وادي رابغ :

آخر البزواء بداخله وادٍ آخر يسمى وادي السمك[٤] وهو اسم على غير مسمى كما ذكر ابن جبير ، كما يوجد الكثير من مستنقعات الماء الجارية تحت الرمال يحفر الحجاج لاستخراج الماء النقي منها وفي بعض الطريق عقبة محجرة وتتكون غدران الماء فيها فترة طويلة خاصة بعد هطول المطر[٥] .

عقبة السويق[٦] :

على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل . يقصدها الحجاج لشرب

---

(١) (البريد) يساوي ٤ فراسخ ويساوي ٧٣٧٥م والفرسخ يساوي ٣ أميال والميل يساوي ١٨٤٠م . انظر أحمد رمضان أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٦١ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٧٤ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠١ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٤) (وادي السمك) من ناحية وادي الصفراء يسلكه الحاج أحياناً . انظر ياقوت الحموي :معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٢٥١ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ١٦٤ ـ ١٦٥ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٢٩ .

(٦) لم نجد لها ذكراً في أي من المصادر التي تناولناها . أما ما أورده العبدري وابن بطوطة من مرور الرسول صلى بها فلم نعثر له على خبر ضمن المصادر التي تناولناها إلا ما ذكره ابن عبد السلام . والثابت عن رسول الله ﷺ قيامه بغزوة سميت غزوة السويق وهي تخالف ما ذكره العبدري وابن بطوطة وابن عبد السلام حيث أن سبب التسمية أن قريشاً بعد هزيمتهم ببدر أعادوا الكرة على المدينة فحرقوا بعضاً من نخيلها وأسرعوا بالعودة فلحق بهم رسول الله صلى وأصحابه فطرح القوم أزوادهم وكان أغلبها سويقاً فأخذه المسلمون ولذا سميت غزوة السويق وهناك سويقه مشهورة =

السويق بها . ويذكر أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يكن مع أصحابه طعامٌ فأخذ من رملها فأعطاهم إياه فشربوه سويقاً[1] . ونحن لا ننكر أن للرسول ﷺ معجزات تفوق الحصر ، ولكننا لم نقع على هذا الخبر ضمن المصادر التي تناولناها . وربما تكون هذه ضمن معجزاته عليه الصلاة والسلام .

عُسفان :

منزل آخر في أرضٍ منبسطة تحف بها الجبال متوفر بها أبار عذبة . تنسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وبها الكثير من أشجار المقل وحصن خرب[2] .

خليص :

تقع بين جبلين يكثر بها النخل ، وبها عين دائمة الجريان أحدثت في الأرض أخاديد تبدو على هيئة الآبار يتناول منها أفراد الركب الماء بسبب قلته إلى المدينة بفعل القحط . وأضاف ابن بطوطة إنه يوجد بها بئر تنسب لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه[3] .

بطن مر أو مر الظهران :

آخر منزلٍ قبل الوصول إلى مكة المكرمة . وهى عبارة عن وادٍ خصب يضم قرى كثيرة يزرع بها النخيل والفواكه التي تجلب إلى مكة المكرمة ، وبها عين ماءٍ كبيرة تكفي احتياج تلك المنطقة من الماء وعيون أخرى صغيرة[4] .

= هى منازل الطالبيين وتعرضت للتخريب مرات عديدة بسبب ثورات أهلها . انظر ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ٣ ، ص٤٤ ـ ٤٥ ؛ الدرعي : ملخص رحلتي ابن عبد السلام ، ص ١١٣ ؛ حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص١٥ ـ ١٦ .

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٩ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٠ .

الطريق من جُدَّة إلى مكة المكرمة :

القرين :

به نزول الحجيج وإحرامهم وجد به بئر واحدة عذبة[1].

البرابر :

يسبقه منزل لا ماء فيه وبالبرابر حصن بناه الشريف أبو نمي وسماه الجديد وبنى حوله دوراً جميلة محفوفةً بالنخيل والماء الجاري مزروع فيها كثير من الخضر . والبرابر أرض واسعة كثيرة النخل بها ماء جار على هيئة نهر تأتيه الإبل والأنعام ، وبجانب الماء بستان كبير يدعى حائط قريش يجري في وسطه الماء مزروع به النخيل[2] .

حدة[3] :

نصف الطريق بين مكة وجُدَّة[4] :

ونلاحظ مما سبق أن الرحالة اعتنوا عناية فائقة بوصف ما يصادفهم . ومنهم من كان وصفه مختصراً ، ومنهم من أسهب ومنهم من ذكر قرى أغفلها غيره من الرحالة . وهذا لاشك عائد إلى تقصي الرحالة نفسه عن كل موضعٍ يحط رحاله فيه محاولاً معرفة اسم الموضع مجتهداً في وصفه . ومنهم من لم يعن بمعرفة الأسماء لذلك جاء وصفه مجملاً .

كما نلحظ الاختلاف بين الرحالة في أماكن وجود الماء وصفتها ؛ ولعل ذلك يرجع إلى توقيت الرحلة نفسها، فمنها ما صادف موسم الأمطار وفصل

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة : ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٣) حداء عين جارية بمر الظهران عندها طريق مكة إلى جدة على ٢٩ كم بين الحديبية وبحرة وهي حداء وليست حدة . انظر البلادي : معجم معالم الحجاز ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٢ .

الشتاء أو فصل الصيف وقلة المطر ، وبالتالي تتغير أوصاف أماكن الماء . فالرحالة الذي يصادف قدومه عقب سقوط الأمطار لا شك أنه يرى كثرة المياه وعذوبتها ومن يأتي في موسم قلة الأمطار وفصل الصيف يشير إلى ندرة الماء ومرارته .

ثانياً : العمارة الدينية :

المساجد :

لابد لنا قبل أن نتطرق للحديث عن المساجد التي تناولها الرحالة المغاربة والأندلسيون في مكة المكرمة أن نبدأ الحديث عن المسجد الحرام . فالملاحظ في كتب الرحلات : أن وصف المسجد الحرام أخذ حيزاً كبيراً يناسب مكانته ومنزلته في نفوس المسلمين . فقد اعتنوا بوصفه عناية فائقة تجعل كتبهم من المصادر المهمة في تاريخه خلال القرنين السابع والثامن الهجريين . فمن الرحالة المقل في وصفه ، ومنهم المفصل الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وتناولها بالوصف مثل ابن جبير ، ومنهم الناقل عن الأزرقي لقصر الوقت الذي أمضاه في مكة المكرمة كالعبدري ومنهم من لم يتطرق لوصفه أمثال أصحاب البرامج كالوادي آشي والرعيني .

المسجد الحرام :

وهو عبارة عن ساحة كبيرة تحيط بكل جانب منه ثلاث بلاطات مسقوفة ، وتحملها ثلاث سوارٍ عالية من الرخام بدت كأنها بلاط واحد(1) . أما طوله فقد ذكر ابن جبير أنه أربعمائة ذراع وعرضه ثلاثمائة ذراع(2) ، ونجد أن التجيبي قد أورد إيضاحاً أكثر عن ساحة المسجد الحرام معتمداً في ذلك على شيخه عماد الدين المكي نقلاً عن الأزرقي مشيراً إلى أن طوله من باب بني شيبة إلى

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٧ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٦٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٢٤٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٢ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٧ . انظر الرسم للمسجد الحرام رقم ٦ .

باب بني هاشم عند العلم الأخضر مقابل دار العباس بن عبد المطلب أربعمائة وأربعة أذرع . وعرضه من باب دار الندوة إلى باب الصفا ثلاثمائة وأربعة أذرع وعرضه من منارة المسعى إلى منارة باب بني شيبة مائتان وثمان وسبعون ذراعاً ، وعرضه من منارة باب أجياد إلى منارة باب بني سهم مائتان وثمان وسبعون ذراعاً[١] . وهذا الذرع مشابه لما ورد لدى الأزرقي وابن رستة والفاسي[٢] بينما نجد صاحب الاستبصار يتفق في ذرع طوله معهم ويختلف عنهم في عرضه الذى حدده بمائتين وثمانين ذراعاً[٣] . ويبلغ طول جدار المسجد الحرام عشرين ذراعاً[٤] .

أما سواري المسجد الحرام فمن الرحالة من لم يشغل نفسه بعدّها واكتفى بنقل عددها من الأزرقي أو غيره من الرحالة السابقين له كالتجيبي ، ومنهم من تفرغ لعدها وأيد ما وصل إليه في عددها بما ذكره الأزرقي وغيره من العلماء الذين ألفوا في تاريخ المسجد الحرام مثل ابن جبير، ومنهم من أغفل ذكرها كابن رشيد والعبدري . وأحصى الأزرقي وابن رستة عدد السواري بأنه أربعمائة وأربع وثمانون[٥] بينما ذكر ابن جبير أن للمسجد الحرام سواري رخامية عددها أربعمائة وإحدى وسبعون سارية وأخرى جصية عددها أربعمائه وثمانون سارية نقل عددها من أبي جعفر الفنكى لأنه

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٢ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٨١ ـ ٨٢ ؛ ابن رستة . الأعلاق النفيسة ، ص ٤٤ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٦٨ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٣٢ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ١ ، ص ٣٠٦ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٦٩ .

(٣) مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ٢٤ .

(٤) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٢ .

(٥) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٨٢ ؛ ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٤٤ .

لم يحصها[1] . بينما التجيبي لم يقم بإحصائها وأثبت عددها من الأزرقي وابن جبير[2] .

ولم يكتف التجيبي بما نقله عن الأزرقي وابن جبير بل أضاف قائلاً : إن ابن جبير لم يقم بإحصائها جميعاً ونقل عددها بالكامل من شخص نعته بالشيخ الأديب الفاضل أبي العباس بن عبد الرؤوف[3] .

فأحصى عدد سواريه الجصية وغير الجصية قائلاً : وجميع ما في المسجد الحرام أربعمائة وسبعون سارية في البلاط . وفي أبواب المسجد ست وعشرون . وفي دار الندوة ودار الحنطة مائة وتسع وعشرون فكمل عددها ستمائة وخمساً وعشرين سارية .

وأضاف التجيبي أن أمام البلاط الثالث جهة دار الندوة سارية حمراء رآها بنفسه . وذكر أنها كانت ليهودية فسأل ﷺ ابتياعها فأبت واشترطت بيعها بوزنها ذهباً فأشتراها الرسول ﷺ بهذا الشرط ووضعت السارية في كفة ميزان ووضع رسول الله ﷺ مثقالاً من الذهب في الكفة الأخرى فرجح المثقال . وعزا هذه القصة إلى الأديب الفاضل أبي العباس بن عبد الرؤوف والذي لم نجد لها ذكراً في المصادر التي تناولناها سوى في كتاب الاستبصار[4]. مما يشير إلى

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، ج٢ ، ص٨٢ ؛ ابن جبير: الرحلة ، ص٦٧ ؛ التجيبي: مستفاد الرحلة ، ص٢٤٣ .

(٣) لم نجد فيما بين أيدينا من مصادر تعريفاً لهذه الشخصية والتي يرجح أن تكون لأحد الكتاب في المغرب أو الأندلس الذين قاموا برحلة إلى المشرق وألف كتاباً عن رحلته ولكن من الملفت للنظر أن ما أورده التجيبي من وصف لهذه الناحية في المسجد الحرام وغيرها من الأماكن التي أشار إليها أو لم يشر نجده مطابقاً لفظاً ومعنى مع ما جاء في كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول من القرن السادس فلعل صاحب الاستبصار كان يكنى بأبي العباس بن عبد الرؤوف .

(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٣ .

نقل التجيبي عنه وهذا يشير أيضاً إلى ضعف الرواية وبطلانها إذ لم نجد أي رواية تؤيدها .

وذكر الرحالة المغاربة والأندلسيون أن أرض المسجد الحرام مفروشة برمل أبيض[1] ، ماعدا موضع الطواف والذي كان مفروشاً في زمن ابن جبير بحجارة تشبه الرخام بيضاء وسوداء وسمراء ملتصق بعضها ببعض ممتدة ناحية المقام بمقدار تسع خطوات حتى أحاطت به[2] . وفي عهد ابن بطوطة كانت أرض الطواف مفروشة بحجارة سوداء[3] .

ولعل الإشارة هنا إلى تغيير لون حجارة أرض المطاف دلالة على الإصلاحات والتجديدات بالرغم من أن البلوي أهمل الإشارة إلى ذلك .

مآذن المسجد الحرام :

اتفق ابن جبير والتجيبي في عدد المآذن بالمسجد الحرام والتي بلغ عددها سبع مآذن منها أربع في جوانب المسجد الأربعة والخامسة في دار الندوة والسادسة على باب الصفا لكنها صغيرة . ويبدو أنها عَلَمٌ له وتميزت بالضيق وبصعوبة الصعود عليها والسابعة على باب إبراهيم[4] .

أما العبدري وابن بطوطة فأشارا إلى وجود خمسة مآذن : منها واحدة على باب الصفا والثانية على ركن باب بني شيبة والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدة وهو باب بني جمح والخامسة على ركن أجياد[5] ،

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٣ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص١٧٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٣٧ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ١ ، ص٣٠٤ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٣ .

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٧ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٣ .

(٥) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٩.

ولعل تجاهلهما للاثنتين الباقيتين والموجودتين على باب إبراهيم وعلى باب الصفا عائد لصغرهما ولكون الأخيرة علماً على الباب .

وما ذكره الرحالة حول مآذن المسجد الحرام مختلف في العدد عما أورده الأزرقي ، والذي أشار إلى أربعة فقط[١] ، بينما اتفق صاحب الاستبصار مع العبدري وابن بطوطة في عدد المآذن وأماكنها[٢] .

أما الفاسي فذكر أنها خمس : أربع على كل ركن من أركان المسجد الحرام والخامسة على دار الندوة . وأضاف أن أول مئذنة يعود تاريخها إلى عهد أبي جعفر المنصور على باب العمرة . وشيد ابنه المهدي الثلاث الأخرى . وهى الموجودة على باب بني شيبة وباب على وباب الحزورة ، كما أشار إلى مآذن أقيمت على رؤوس الجبال ضماناً لسماع الأذان في كافة أنحاء مكة[٣] الأمر الذي أغفل ذكره الرحالة .

أبواب المسجد الحرام :

ذكر ابن جبير وابن بطوطة أن للمسجد الحرام تسعة عشر باباً أكثرها يفتح على أبواب كثيرة[٤] .

بينما يذكر العبدري أن للمسجد الحرام تسعة وثلاثين باباً[٥] . أما البلوي فيذكر أنها تزيد على الأربعين باباً[٦] . ولعل سبب الاختلاف في عدد الأبواب بين الرحالة عائد إلى احتمال وجود دورٍ حول المسجد لها أبواب مفتوحة عليه ، فلما هدمت تلك الدور نقص العدد تبعاً لذلك . فقد أشار ابن جبير وابن بطوطة إلى

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .
(٢) مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ٢٤ .
(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧ .
(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٨ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص٣٨١ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ١٣٥ . انظر : الرسم رقم ٦ ، ١٣ .
(٥) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٦ .
(٦) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٦ .

وجود مثل تلك الدور التي كانت أبوابها مفتوحة على المسجد الحرام[1] ، ويضيف الفاسي مؤكداً هذا الأمر بقوله أنه وجد اختلافاً حول أسماء الأبواب وأعدادها منذ عهد الأزرقي إلى عهده[2] .

ولعل الاختلاف في عدد الأبواب بين الرحالة عائد إلى اكتفاء بعضهم بعدد الأبواب الرئسية بينما أهملوا الأبواب الصغيرة الأخرى التي تشرع إليها .

ونجد أن صاحب الاستبصار يختلف مع الرحالة وبعض المصادر الأخرى في عدد الأبواب . حيث حدد عددها بسبعة عشر باباً[3] ، بينما حدد الأزرقي عددها بثلاثة وعشرين باباً . بها ثلاث وأربعون نافذة[4] .

ويشير التجيبي إلى وجود عشرين باباً للمسجد الحرام محتوية على نوافذ كثيرة[5] .

أبواب المسجد الحرام الموجودة بالجهة الجنوبية :

١ ـ باب الصفا : أكبر أبواب المسجد الحرام مبنيّ بأربعة أعمدة تعلوها خمسة عقود وهذا الباب ينفذ منه إلى خمسة أبواب ، ومنه كان خروج النبي ﷺ للمسعى[6] .

٢ ـ باب الخُلُقتين : ويسمى باب جياد الأصغر وهو حديث ويفتح على بابين .

٣ ـ باب أجياد الأكبر : ويفتح على بابين يقال لأحدهما باب بني حكيم والثاني الحناطين .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٠ .
(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٨٤ .
(٣) مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ٢٤ ـ ٢٧ .
(٤) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٨٦ ، وهذا أمر طبيعي إذا أخذنا في الحسبان الفارق الزمني بين هؤلاء الرحالة ومؤرخي مكة .
(٥) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٤ .
(٦) انظر : الرسم رقم ٧ .

٤ ـ باب ينسب لأجياد : يشرع على بابين آخرين وتنسب هذه الأبواب الأربعة الأخيرة إلى الدقاقين[١] .

أبواب المسجد الحرام الموجودة في الجهة الشمالية :

١ ـ باب دار الندوة : يفتح على ثلاثة أبواب منها اثنان في الدار والثالث في الركن الغربي منها . ويعرف أحد أبواب باب الندوة بباب الطبري كما أشار لذلك التجيبي .

٢ ـ باب الرباط : لأن منه الدخول إلى رباط الصوفية كما أشار لذلك ابن جبير. بينما سماه ابن بطوطة السدة .

٣ ـ باب صغير لدار العجلة . حيث فتح لدخول الأساطين التي كانت تجلب على العجل من جُدَّة في عهد المهدي[٢] .

٤ ـ باب السدة : والسدة هي الظلال والسقائف الموجودة حول المسجد[٣] .

٥ ـ باب صغير يسمى سويقة : وكان قديماً يدعى بباب القوارير .

أبواب المسجد الحرام الموجودة في الجهة الشرقية :

١ ـ باب العباس : يفتح على ثلاثة أبواب وفي حده الميل الأخضر وهو عمود مبني بالآجر ومطلي باللون الأخضر .

٢ ـ باب علي : يفتح على ثلاثة أبواب على عامودين .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٤ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٨ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٨ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٧ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص٨٢ ـ٨٣ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص١٧٦ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة، ص٢٤٤ ـ ٢٤٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٣٨ ـ ١٣٩ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص ٣٠٧ .

(٣) وهذه إشارة إلى وجود مظلات وسقائف تقي الناس حرارة الشمس في المسجد أثناء صلاتهم خلافاً لما اعتقد أنها لم تعرف إلا حديثاً . انظر : فوزية مطر : تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف ، ص١٢٦ ـ ١٢٧ .

٣ - باب النبي ﷺ يفتح على بابين وفيه اسطوانة عليها نافذتان تطل على حجرة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها. ومنه كان خروج ودخول النبي ﷺ .

٤ - باب بني شيبة يفتح على ثلاثة أبواب ويقال له باب السيل[1] لدخول السيول منه قبل قيام عمر بن الخطاب بردم الردم الأعلى الواقع في ركن الحائط الشرقي من جهة الشام[2] .

٥ - باب صغير بإزاء باب بني شيبة غير معروف اسمه[3] .

أبواب المسجد الحرام الموجودة في الجهة الغربية :

١ - باب العمرة : وله قوس بلا سارية وإلى جواره المدرسة المنصورية والمفتوح بابها إلى داخل المسجد الحرام وقد وصفه ابن بطوطة بأنه من أجمل الأبواب .

٢ - باب الحزورة : ويفتح على بابين .

٣ - باب ينسب إلى الحزورة أيضاً يليه بابان عليه اسطوانة واحدة بها نافذتان .

٤ - باب إبراهيم : في زاوية كبيرة عليه قبة جميلة البناء متقنة الصنع وينفذ منه إلى الموضع المعروف قديماً بدار الحنطة . وهي دار مربعة طول ضلعها ستة وخمسون ذراعاً . بها أعمدة يعلوها سقف تفضي إلى صحن المسجد الحرام ومنه إلى المسفلة وسمى ابن بطوطة والتجيبي باب إبراهيم بباب القائد أو باب الخياطين وأشار إلى وجود سارية فيه عليها نافذتان[4] .

---

(١) الأزرقي : تاريخ مكة ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

(٢) وهو موافق لما ذكره الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٣٣ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٢ _ ٨٣ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٦ ؛ التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٢٤٤ _ ٢٤٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٨ _ ١٣٩ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ج١ ، ص٣٠٧ .

(٤) نفس المصادر السابقة بأرقام صفحاتها .

الصفا والمروة :

الصفا :

ذكر ابن جبير أن للصفا أربع عشرة درجة عليها ثلاثة أقواس وتشبه الدرجة العلوية المصطبة . وقد أحدقت بها الدور[1] . والمسافة بين الصفا والميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة ؛ وتقع السارية في ركن المئذنة الموجودة في الركن الشرقي من الحرم على جانب المسيل إلى المروة وإلى يسار الساعي إليها. كما يوجد الميلان الأخضران وهما عبارة عن ساريتين بلون أخضر أحدهما بجانب باب علي في جدار الحرم وإلى يسار الخارج من الباب . أما الميل الثاني ففي الجهة المقابلة في جدار دار متصلة بدار الأمير مكثر وعلى كل منهما لوح وضع أعلى السارية على شكل تاج منقوش بالذهب كتب عليه [إن الصفا والمروة من شعائر الله][2] ثم أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .

وبين هذين الميلين والميل الأول الذي يلي الصفا خمس وسبعون خطوة وهي المسافة التي يرمل فيها الساعي وقت السعي .

وأضاف ابن جبير أن ما بين الصفا والمروة سوق كبير في المسيل مليء بالباعة .

كما رأى نقشاً مكتوباً في سارية خارج باب الصفا يقابل إحدى الساريتين اللتين جعلتا علماً على طريق النبيﷺ إلى الصفا داخل الحرم نصه : « أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله تعالى بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة

---

(١) انظر : الرسم رقم ٨ .

(٢) القرآن الكريم : سورة البقرة ، ٢ / ١٥٨ .

سبع وستين ومئة » . وقد أكد ابن جبير أن الكعبة فعلاً في وسط المسجد عقب ما قيل أن بها انحرافاً إلى جهة باب الصفا[1] .

كما شاهد أيضاً تحت النقش السابق نقشاً آخر هو « أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة الباب الأوسط الذي بين هاتين الأسطوانتين وهو طريق رسول الله ﷺ إلى الصفا » ، كما أشار إلى نقش ثالث في أعلى السارية التي تليها نصه « أمر عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله بصرف الوادي إلى مجراه على عهد أبيه إبراهيم ﷺ وتوسعته بالرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره » ، وتحته نقش آخر مذكور فيه توسعة الباب الأوسط إلا أنه أغفل نقل النقش .

وقد أوضح ابن جبير ماهية الوادي : بأنه الوادي المنسوب لإبراهيم عليه السلام ومجراه على باب الصفا حيث كان السيل قد خالف المجرى وأتى على المسيل بين الصفا والمروة داخلاً المسجد الحرام وفي حالة غزارة المطر يكون الطواف حول الكعبة سباحة فأمر عند ذلك المهدي رحمه الله بردم موضعٍ بأعلى مكة يسمى رأس الردم فأصبح السيل يتجه إلى مجراه ثم على باب إبراهيم حتى يصل المسفلة جنوباً ويخرج عن البلد ولا يجري فيه الماء إلا عند هطول الأمطار الغزيرة[2] .

وأضاف التجيبي أن باب الصفا مفتوح على خمسة أبواب . وتظهر الكعبة عند الصعود على الصفا من باب الصفا المقابل لباب المسجد الحرام . في حين لا تظهر من فوق جدار المسجد .

وقد وصف التجيبي الصفا بأنه حجر أزرق عظيم بني عليه درج . وعقب النزول من الصفا قليلاً يوجد الميل الأخضر في ركن المسجد . وقد نحي عن

---

(١) القطبي : إعلام العلماء ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ، وهو موافق لما ذكره ابن جبير .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

مكانه بمقدار ستة أذرع من وقت بعيد[1] . ويقابل هذا الميل ميل آخر لونه أخضر من حائط دار العباس .

المروة :

وقال التجيبي عن المروة : أنها حجر عظيم يبدو وكأنه انقسم نصفين بينهما فرجة مقدارها اثنتا عشرة ذراعاً . وبني فيها درجات[2] ، وقد حدد المسافة بين الصفا والمروة بمقدار سبعمائة وثمانين ذراعاً . قسمها من الصفا إلى الميل الأخضر الأول في ركن المسجد بمائة وثمانين ومن الميل إلى الميل الثاني نحو مائة وخمسة وعشرين . ومن الميل الثاني إلى المروة باقي المسافة[3] .

ومما يلفت النظر التشابه بين وصف التجيبي للصفا والمروة ووصف صاحب الاستبصار مما يشير إلى نقله عنه[4] .

بئر زمزم :

ذكر ابن جبير أن قبة بئر زمزم تقابل ركن الحجر الأسود ، وبينهما أربع وعشرون خطوة ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض . أما تنور البئر فيميل قليلاً عن الوسط إلى جهة الجدار المقابل للكعبة المشرفة . وعمقها إحدى عشرة قامة كما ذرعها ، وعمق الماء سبع قامات كما ذكر له .

ويقع باب القبة جهة الشرق وباب قبة العباس وقبة اليهودية[5] جهة الشمال :

---

(١) أيد الفاسي ما ذهب إليه التجيبي في أنه نحي عن مكانه ، انظر : الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١١٥ .

(٢) انظر : الرسم رقم ٩ .

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٥) لا توجد رواية تؤيد نسبة هذه القبة إلى أي يهودية ممايشير إلى بطلانها ولا يعرف على وجه الدقة سبب نسبتها .

وتقع قبة الشراب المنسوبة للعباس خلف قبة زمزم . أما قبة اليهودية فتقع وراء قبة العباس بانحراف قليل . وهاتان القبتان هما مخزنان لما أوقف على المسجد الحرام من مصاحف وكتب وشموع[١] .

وسبب تسمية قبة العباس بالشراب ؛ لأنها كانت مكان سقاية الحجاج حيث يبرد فيها ماء زمزم .

أما تنور بئر زمزم فمبني من رخام مصبوب بين الرخام رصاص من خارج التنور وداخله . وحول التنور أعمدة مبنية من الرصاص عددها اثنان وثلاثون عموداً لإكسابه قوة ؛ ولهذه الأعمدة رؤوس ملصقة بحافة البئر كله . ووسع دائرة البئر أربعون شبراً وارتفاعه أربعة أشبار ونصف وسمكه شبر ونصف.

وقد بنيت داخل القبة سقاية سعتها شبر ، وعمقها نحو شبرين ، وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار . تملأ ماءً للوضوء ، وحفت بها مصطبة يقف الناس عليها للوضوء[٢] .

واتفق التجيبي مع ابن جبير في معظم ما ذكره . واختلف معه في قياس عمق بئر زمزم حيث زاد عليه بذراع واحد وأضاف أن قبة زمزم كبيرة مبنية على أعمدة عظيمة ، وربما يكون هذا عائداً إلى تعميرها في خلال الفترة التي تفصل بين الرحلتين .

كما أضاف التجيبي أن السقاية الواقعة داخل القبة لها مجار مغطاة بالحجارة يكشف عنها عند الاحتياج إلى إصلاحها. حيث شاهد ذلك بنفسه وقت الكشف عنها للقيام ببعض الإصلاحات بها. وهذه المجاري تنتهي إلى باب الصفا وقد أكد ذلك العبدري أيضاً[٣] .

---

(١) انظر الرسم رقم ٣٣ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٧ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

ويبدو أن القائم بعمارتها على الهيئة التي وصفها ابن جبير أحد الأعاجم حيث ذكر أن من عادة أمراء مكة عدم السماح لأغنياء المسلمين بتجديد أي بناءٍ فيها ؛ وعلى الراغب في ذلك أخذ الأذن من الخليفة ، فإذا كان به نقش أو رسم يصدر الأمر بذكر اسم الخليفة وإغفال ذكر اسم المتولي ؛ لذلك كما وأنه يلزم المتولي للعمارة بذل المال لأمير مكة للسماح له بذلك بحيث يكون المال مساوياً للمبلغ المدفوع في عمارة المسجد .

وذكر ابن جبير حادثة تدل على ذلك فقال : إنه من أغرب ما اتفق لأحد دهاة الأعاجم ذوي الملك والثراء في مكة أثناء حكم جد الأمير مكثر أنه رأى تنور بئر زمزم وقبتها على صفة لم تعجبه فاجتمع بالأمير طالباً السماح له بتجديدها وتجديد القبة والتكفل بنفقاتها من صميم ماله مقابل دفعه للأمير ما يوازي نفقات ذلك البناء ، فطمع الأمير في المال ووافق على إتمام الأمر وبدأ البناء مع تزايد النفقات ، وعقب انتهاء الإصلاح المطلوب سعى الأمير لقبض المال المتفق عليه من الرجل الأعجمي فلم يجده ، حيث فر هارباً ولم يستطع الأمير حيلة لما حدث[1] .

وقد أوضح التجيبي أن لقبة زمزم درجًا مصنوعة من الخشب تفضي إلى أعلاها تقابل باب الصفا يصعد منها المؤذنون السنيون إلى سطحها للآذان[2] .

وأشار التجيبي في رحلته إلى وجود قبة منسوبة إلى زبيدة زوجة هارون الرشيد . تكون فيها لشرب ماء زمزم والاغتسال ، وأغلب الظن أنها أحدثت بعد عهد ابن جبير حيث أغفل ذكرها واكتفى بالإشارة إلى دارها بجوار المسجد كما لم يرد لها ذكر لدى الأزرقي .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .

(٢) كان رئيس المؤذنين يبدأ بالآذان من فوق قبة زمزم إلى بداية العهد السعودي ، انظر : الرسم رقم ١٠ .

كما أشار التجيبي إلى بيت صغير محدث بجانب قبة زبيدة يلازمه شيخه عماد الدين أبو محمد المكي ، وأضاف التجيبي أنه يمكن الانتقال من سطح قبة الشراب إلى سطح قبة اليهودية(١) وهذا يعني قربهما . وأغلب الظن أيضاً أن القبة المنسوبة لليهودية محدثة بعد عهد الأزرقي لأنه أغفل ذكرها .

ولم يضف ابن بطوطة والبلوي شيئاً على ما سبق إلا أن البلوي أشار إلى أن المصاطب الموجودة في داخل قبة زمزم جرى تعميرها سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م(٢) . وقد أورد ابن فهد في حوادث سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م تجديدات قامت بالحرم الشريف : منها المطهرة عند باب بني شيبة وأغفل تجديد هذه المصاطب(٣)، ولعلها جددت ضمن التجديد بالحرم الشريف .

المقام الكريم :

ذكر ابن جبير والتجيبي أن موضع المقام يقابل ما بين باب الكعبة والركن العراقي ولكنه مائل إلى ناحية الباب ، وتوضع عليه قبة خشب بطول قامة الإنسان أو أزيد عليها قفل مفتاحه بيد الشيبيين . وهذه القبة على هيئة أركان منقوشة . والمسافة بين كل ركنين أربعة أشبار ؛ وقد بلطت قاعة القبة بالحجارة وهي على شكل حوض مستطيل ارتفاعه نحو شبر وطوله خمس خطوات وعرضه ثلاث خطوات وبين موضع المقام ووجه الكعبة المقابل للمقام سبع عشرة خطوة والخطوة ثلاثة أشبار .

أما المقام : فهو حجر مغطى بالفضة ارتفاعه ثلاثة أشبار وسعته مقدار شبرين وأعلاه أوسع من أسفله فبدا على هيئة كانون فخار كبير يتسع أعلاه ويضيق أسفله من الوسط .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨١ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٣ .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ ١ ، ص١٨٧ .

ومما يلفت النظر في وصف ابن جبير شكل المقام قوله : إن أثر القدمين والأصابع واضح . في حين أن الرحالة الآخرين لم يذكروا أثر الأصابع . ولعل ذلك راجع إلى كثرة التمسح وشرب الماء فيه حتى زوال أثر الأصابع .

وقد أوضح ابن جبير أن موضع المقام قديم قبل أن يصرفه النبي ﷺ إلى موضعه الحالي حيث يقع بين باب الكعبة المشرفة والركن العراقي ، كما وصفه بقوله : عبارة عن حوض طوله اثنا عشر شبراً وعرضه خمسة أشبار ونصف وارتفاعه نحو شبر . والآن هو مصلى وظل الحوض مصباً لماء البيت إذا غَسل والحوض مفروش برمل أبيض(١) .

وقد ناقش الخطاط محمد طاهر كردي أصل هذه الحفرة ، ومجمل ما ذكره يؤكد أنه مكان موضع المقام الكريم سابقاً موضع مصلى النبي ﷺ . وأضاف أن هذا المكان عُلم بعدم تبليطه بالحجارة وفرش برمل أبيض ليتمكن المسلمون من الصلاة فيه(٢) .

ونلاحظ من وصف ابن جبير لموضع المقام أنه لم يكن مستمراً في مكانه خوفاً عليه . فكان يوضع داخل الكعبة في قبو على يمين الداخل إلى الكعبة . والقبو مكسو بغطاء حريري ملون ، ويخرج في بعض الأحيان ، وتوضع عليه القبة الخشبية . أما في أوقات الحج فيخرج المقام وتوضع عليه قبة حديدية لتكون أقدر على تحمل الإزدحام(٣) .

وأمدنا التجيبي بوصف مخالف ، وأغلب الظن أنه نقله عن صاحب الاستبصار . حيث وصفه بقوله : « حجر لونه بين الدكنة والحمرة منقط بنقط

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٢ ـ ٦٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٩٢ .

(٢) محمد طاهر الكردي : التاريخ القويم ، جـ ٤ ، ص ١٢١ ـ ١٢٦ ، أما الآن فموضع المقام السابق ومصلي النبي ﷺ غير معروف ولا توجد علامة تدل عليه .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٦١ ـ ٦٣ ؛ مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٩٢ .

سود وله رأسان وأعلاه أوسع قليلاً من أسفله ووسطه مخروم جداً يضيق عن أسفله وهو مكسو بغاشية من فضة مذهبة منقوشة وفي الشق الواحد من الغاشية مكتوب سبحان الله وفي الثاني والحمد لله وفي الثالث لا إله إلا الله وفي الرابع والله أكبر وقد محي أثر القدمين وإخلولق ولم يبق للأصابع أثر وإنما فيه الآن حفرتان » ، وهو ما عليه الوضع الآن من هيئة المقام .

واستمر التجيبي في إفادتنا بباقي وصف المقام ، فمنه ما هو موافق لما ذكره ابن جبير، ومنه ماهو مشابه لوصف صاحب الاستبصار ؛ لاحتمال وجود نسخة لديه . فقد أشار التجيبي إليه في ثلاثة مواضع من رحلته منها موضعان عندما كان بمصر والموضع الثالث عندما كان بمكة المكرمة[١] .

فقد كان التجيبي منشغلاً في فترة وجوده بمكة المكرمة بالنواحي العلمية أكثر من تسجيل ملاحظاته . حيث أشار لذلك عندما تحدث عن عدد سواري المسجد الحرام وذكر أنه نقل عددها عن الأزرقي وابن جبير وعن شخص يدعى بأبي العباس بن عبد الرؤوف[٢] .

ولم يضف ابن بطوطة الكثير من المعلومات على وصف المقام وموضعه السابق ؛ ولكنه أشار إلى أن المقام أقيمت عليه قبة أسفلها شباك حديد بعيد عن المقام بالقدر الذي يتيح للأصابع الدخول من ذلك الشباك . وهذا الشباك مقفل ، ووراء موضع المقام موضع محاط جُعل مكاناً لصلاة ركعتي الطواف[٣] .

واعتقد التجيبي أن مكان المقام سابقاً معمول ليصب فيه ماء الكعبة عند غسلها منعاً لانتشار الماء في مكان الطواف . فهو قد شاهد نزول الماء فيه وقت غسيل الكعبة . وأورد قولين عن موضع مصلى النبيﷺ : الأول عند الركن

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ١٢ ــ ١٣ ، ٢٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٣٦ ، وقد بقي ذلك حتى العهد السعودي ، انظر : الرسم رقم ١١ .

العراقي حيث توجد علامة سوداء طويلة ولم يحدد مصدر هذه المعلومة . حيث قال : إنه سمع ذلك . أما القول الثاني فمنسوب إلى شيخه رضي الدين وهو مشابه لما أورده الرحالة(١) ، كما أشار ابن ظهيرة إلى موضع مصلى النبي ﷺ وحدده بنفس موضع المقام سابقاً(٢) .

ويبدو أن المقام قد أصبح ثابتاً في مكانه . ويبدو أن ذلك من عمل الملك المسعود صاحب اليمن ومكة الذي بني عليه ذلك البناء(٣) .

الحِجر :

ذكر ابن جبير أن ما بين الركن العراقي وأول جدار الحِجر مدخل سعته أربع خطوات وهى ست أذرع قام بقياسها . وهو الموضع الذي تركته قريش من الكعبة . ويقابله عند الركن الشامي مدخل آخر بنفس السعة وما بين المدخلين ست عشرة خطوة وهي ثمانية وأربعون شبراً(٤) .

أما الأزرقي وابن رستة فذكرا أن مدخل الحِجر العراقي خمسة أذرع وثلاث أصابع ومدخله الغربي سبع أذرع . بينما المسافة بين المدخلين حددها الأزرقي بعشرين ذراعاً . أما ابن رستة فحددها بإحدى وعشرين ذراعاً(٥) ، وربما يعود الاختلاف في الذرع إلى عدم الاعتماد على مقاس محدد . وهو مفروش بالرخام وهناك رخامتان متصلتان بجدار الحِجر مقابلتان للميزاب جميلتا الشكل منقوش فيهما « أمر بصنعها إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر ابن المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٧٩ .

(٢) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٨٧ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ – ٣٣١ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٣ – ٦٤ .

(٥) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ١ ، ص٣٢٠ – ٣٢١ ؛ ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص٣٧ – ٣٨ .

يوسف العباسي » ويقابل الميزاب أيضاً في وسط الحِجر على منتصف جداره رخامة منقوش فيها « مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة » .

الميزاب :

يقع ما بين الركنين العراقي والشامي مطلاً على الحِجر مصنوع من الصفر المذهب خارجاً على الحِجر بمقدار أربعة أذرع . أما سعته فشبر . وفي الأزرقي وابن رستة ورد بنفس الطول . أما سعته فشبر(١) .

ويقع تحت الميزاب في الحِجر قريباً من جدار الكعبة قبر إسماعيل ، ومُعلم برخامة خضراء مستطيلة الشكل على هيئة محراب وتتصل بها رخامة أخرى مستديرة ذات لون أخضر وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر وعلامته رخامة خضراء سعتها شبر ونصف . والمسافة بين القبرين سبعة أشبار .

وتجدر الإشارة هنا إلى خطأ ابن جبير فيما يتعلق بقبري إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر . فالصحيح والثابت أن قريشاً قد قصرت نفقتها عن إتمام بناء الكعبة المشرفة على قواعد إبراهيم عليه السلام . فقاموا بتقصير ستة أو سبعة أذرع منها على اختلاف الروايات . وعندما بناها عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه ردها إلى ما كانت عليه أيام إبراهيم عليه السلام . وبعدها قام الحجاج بهدم الجزء الذي أضافه عبد الله بن الزبير ظناً منه أن ما قام به ابن الزبير بدعة لم تكن موجودة . فقام بهدم الجزء المضاف ؛ وهو بمقدار ستة أو سبعة أذرع مع ملاحظة : أن هذه المسافة داخلة في الكعبة المشرفة ، وعليه فإن ما أورده ابن جبير وغيره من الرحالة والمؤرخين حول أن يكون هذا الموضع خاصة هو مكان دفن إسماعيل وأمه

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٢٩١ ؛ ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٣١ .

هاجر عليهما السلام هو وهم وغير صحيح ؛ إذ لم يرد أن أحداً من البشر دفن داخل الكعبة . ولكن يبدو أن مكان دفنهما بعد حدود الكعبة . وأن القبرين موضعهما في نصف الحجر مما يلي جداره المستدير فالحِجر كان أصغر مما هو عليه الآن أيام إسماعيل عليه السلام إلى أن قامت قريش ببناء البيت[1] .

وقد حفظ لنا ابن جبير نقشاً في جدار الحِجر يشير إلى تاريخ عمارته وتجديده زمن الناصر ونصه « أمر بصنعها على هذه الصفة إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف العباسي رضي الله عنه »[2] .

وقد أيد الفاسي قول ابن جبير حيث ذكر الناصر من ضمن القائمين بتجديد الحِجر[3] .

أما التجيبي وابن بطوطة والبلوي فلم يضيفوا شيئاً إلى ما ذكره ابن جبير حول وصف الحِجر والميزاب ؛ غير أن التجيبي شاهد شبه خط من رخام أحمر يمتد من الركن العراقي إلى الركن الشامي بينه وبين جدار الكعبة سبعة أذرع ذكر له بعض المجاورين أنه علامة على حد البيت ، بينما أشار البلوي إلى وجود نقشٍ يدل على عمارة المطاف ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سيدنا ومولانا الإمام الأعظم المفروض الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين[4] بلغه الله آماله

(١) محمد طاهر الكردي : التاريخ القويم ، جـ ٣ ، ص ١١٥ ـ ١١٩ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٤٦ .

(٤) أبو جعفر عبد الله بن الظاهر محمد بن الإمام الناصر بويع بالخلافة يوم وفاة والده في رابع عشر رجب سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٣م ، ومات في ثاني وعشرين جمادى الآخرة سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م ، وقيل ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ؛ انظر : ابن دقماق : الجوهر الثمين ، جـ ١ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

وزين بالصالحات أعماله وذلك في شهر[1] وسنة إحدى وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله »[2] .

وقد أيد الفاسي ما ذكره البلوي حول تجديد المستنصر للحِجر[3] .

المنبر :

لقد أغفل الرحالة الإشارة إلى منبر الخطيب بالمسجد الحرام غير أن ابن جبير أفرد له وصفاً تفصيلياً فذكر أنه منبر واحد غير ثابت في أسفله أربع بكرات مغلفة بالحديد لتسهيل حركته . والمنبر أربع درجات وبه حلقتان توضع فيهما الرايتان أثناء الخطبة . أما موضع المنبر فبجانب المقام ويجر إلى موضعٍ بقرب جدار الكعبة مقابل المقام بين الركن الأسود والعراقي فيسند إليه أثناء الخطبة[4] ، ثم أشار البلوي فيما بعد إلى وجود منبرين كبيرين جميلين أحدهما جديد صنع سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م منقوش من جميع جهاته له تاج مذهب منقوش مثبت بمسامير من الفضة المذهبة ومطعم بصفائح الفضة[5] .

درج الكعبة :

وصف كل من ابن جبير والتجيبي وابن بطوطة درج الكعبة ، وشبهوه بكرسي كبير يشبه المنبر مصنوع من الخشب له تسع أدراج مستطيلة تسع أربعة أشخاص للصعود عليه في صف واحد . وبه قوائم من خشب بها أربع

---

(١) أغفل ذكر الشهر وربما يكون شهوراً وليس شهراً وحدث تصحيف في الكلمة ؛ انظر الشيبي : إعلام الأنام ، ص ٧٤ ، تكملة هامش الصفحة السابقة .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٨٠ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٥ ــ ١٣٧ ، البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٤٦ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٠ ــ ٧٤ .

(٥) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ .

بكرات كبار مغلفة بالحديد لتسهيل حركته وجره من مكانه بقرب المقام إلى باب الكعبة . حيث تلامس أعلى درجة منه أرض عتبة الكعبة المشرفة[1] .

الكعبة المشرفة :

هى قريبة من التربيع . ويضيف العبدري أن بها نتوءًا بسيطًا للمتأمل . بناؤها متقن من الحجارة المنحوتة ، يميل لونها إلى الحمرة مع دكنة بسيطة وأضاف ابن جبير أن الحجارة صم سُمر وقد تصدعت قطعة من الركن اليماني فثبتت بمسامير فضية فأعيدت إلى حالها[2] .

ارتفاعها :

اختلف الرحالة في مقدار ارتفاعها فابن جبير ذكر أن ارتفاع الجهة التي بها الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً وسائر جوانبها ثمان وعشرون بسبب ميلان السطح نحو الميزاب وعزا هذا الخبر إلى زعيم آل الشيبي محمد بن إسماعيل[3] .

بينما العبدري ذكر أن ارتفاعها ثلاثون ذراعاً كما قيل له . أما التجيبي فيحدد ارتفاعها بسبع وعشرين ذراعاً من الجهتين الواقعتين بين الركنين الشاميين ، أما جهة الركنين اليمانيين فبلغ ارتفاعهما ثمانية وعشرين ذراعاً بسبب ميل السطح إلى جهة الميزاب ، ويبدو أن ما ذكره دون تحقيقٍ منه كما أشار لذلك[4] .

أما الأزرقي فحدد ارتفاعها بسبعة وعشرين ذراعاً . وذكر الفاسي أن طول جدارها الشرقي ثلاثة وعشرون ذراعاً وثمن وطول جدارها الشامي ثلاثة

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٠ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٦٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٤؛ انظر : الرسم رقم ١٢ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٠ ـ ٧٥ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٨ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٩ .

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

وعشرون ذراعاً إلا ثمن ذراع وطول جدارها الغربي ثلاثة وعشرون ذراعاً وطول جدارها اليماني ثلاثة وعشرون ذراعاً وثمن ذراع[1] ، بينما ذكر ابن رستة أن ارتفاعها سبعة وعشرون ذراعاً وارتفاع الجهة التي بين الركنين الأسود والشامي خمسة وعشرون ذراعاً وارتفاعها من الركنين اليماني والغربي خمسة وعشرون ذراعاً[2] .

وذكر ابن جبير أن باب الكعبة المشرفة في الجهة الواقعة بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود وهو أقرب إلى الحجر الأسود وبينهما عشرة أشبار. ويسمى هذا الموضع الملتزم والباب مرتفع عن الأرض بمقدار أحد عشر شبراً ونصف . وباب الكعبة وعضادتاه مصنوعتان بإتقان من الفضة المذهبة .

قد لبست عتبة باب الكعبة بلوح من الذهب سعته شبران وركب على الباب حلقتان كبيرتان يعلق عليهما قفل الباب . ويقع الباب في جهة الشرق وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبراً وسمك جدار الباب خمسة أشبار .

وشاهد التجيبي نقشاً بالذهب جميل الخط في باب الكعبة نصه « مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الإمام أبو عبد الله محمد المقتفي[3] لأمر الله أمير المؤمنين صلى الله عليه وعلى الأئمة آبائه الطاهرين وخلد ميراث النبوة لديه وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين في سنة خمسين وخمسمائة » .

وأضاف ابن جبير أن حول دفتي الباب دعامتين غليظتين من الفضة المذهبة الجميلة النقش تبدأ من عتبة الكعبة المشرفة إلى أعلى الباب وتحيط

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

(٢) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٣٠ .

(٣) أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المتقي عبد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم عبد الله بن القادر أحمد بن المتقي بويع بالخلافة سنه ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م ، ولقب المقتفي ومات سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ، ومدة خلافتة أربع وعشرون سنة وثلاثه أشهر وواحد وعشرون يوماً ؛ انظر . ابن دقماق : الجوهر الثمين ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .

بجانبيه . كما توجد دعامة أخرى بين دفتيه من الفضة المذهبة بطولهما متصلة بالدفة اليسرى[1] .

ويبدو أن هذا الباب من عمل الوزير الجواد فقد أكد الفاسي أن صانع باب الكعبة المشرفة هو الجواد وليس المقتفي . وأورد أن ابن الأثير ذكر في حوادث سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م أن الخليفة المقتفي أمر بخلع باب الكعبة وصنع آخر بدلاً عنه مصفحاً بالذهب . واستفاد من الباب المخلوع في عمل تابوت يدفن فيه عقب موته . وأضاف أن ما ذكره ابن الأثير من نسبة الباب للمقتفي لا يتعارض مع نسبته للجواد لأن الجواد إنما صنعه بأمر من المقتفي وأضاف إليه اسم المقتفي وقال : إنما نبهنا على ذلك لئلا يفهم أن كلاً منهما صنع باباً للكعبة إذ يستبعد أن يقوم كل منهما بعمل باب للكعبة في وقت واحد ولنفس السبب . أما الباب القديم فقد استفيد منه في عمل تابوت للجواد دفن فيه[2] .

أما داخل الكعبة المشرفة فمفروش بالرخام المجزع ، وجدرانها بالرخام ، كما يوجد بداخلها ثلاثة أعمدة من خشب الساج طويلة . والمسافة بين كل عامود والآخر أربع خطى والأعمدة على طول البيت متوسطة به وأول الأعمدة يقابل الجهة التي بها الركنان اليمانيان وبينه وبين الجدار مسافة ثلاث خطوات . أما العمود الثالث فيقابل الجهة التي بها الركنان العراقي والشامي ومحيط الكعبة كلها من النصف الأعلى مطلي بالفضة المذهبة ، وسقف الكعبة المشرفة مكسو بالحرير الملون . أما خارج الكعبة فمكسو بالحرير الأخضر

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٩ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥٧ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ٥١ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ١٦٨ .

المبطن بالقطن(١) . كتب في أعلاها رسم بالحرير الأحمر كتب فيه ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة ﴾(٢) ، واسم الإمام الناصر لدين الله . وسعته ثلاثة أذرع يحيط بها ، وجميع كسوتها الخارجية بديعة النقش متنوعة الأشكال من محاريب وكتابات مليئة بذكر الله تعالى وبالدعاء للناصر العباسي الآمر بإقامتها وجميع ما بها من رسوم وكتابات اتخذت لون الكسوة ذاتها .

أما عدد ستائرها من الجوانب الأربعة أربع وثلاثون ستارة . منها في الجانبين الكبيرين من الكعبة ثماني عشرة ومن الجهتين الصغيرتين ست عشرة .

ويوجد بداخل الكعبة خمسة أماكن للإضاءة عليها زجاج عراقي(٣) جميل النقش أحدها في وسط السقف والأربعة الأخرى في الجوانب الأربعة منها وواحدة منها لا تظهر بسبب وقوعها تحت القبو الموضوع فيه المقام . وبين الأعمدة كاسات من الفضة يبلغ عددها ثلاث عشرة . منها واحدة من الذهب .

ويوجد في يسار الداخل إلى الكعبة صندوقان يحفظ بهما المصاحف ويليهما بابان صغيران كأنهما نافذتان ألصقتا بزاوية الركن مرتفعة عن الأرض بأكثر من القامة ، أما الركنان الشامي والعراقي فموجودان . وفي الركن اليماني مثلهما ولكن لا وجود لهما زمن رحلة ابن جبير .

---

(١) ذكر الفاسي ان الخليفة الناصر قد كسا الكعبة في سنة من السنين الحرير الأخضر ، انظر : الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ٥٨ .

(٢) القرآن الكريم : سورة آل عمران ، ٣ / ٩٦ .

(٣) ليس زجاجاً وإنما مرمر يشبه الزجاج أتى به عبد الله بن الزبير من اليمن ليدخل منه الضوء دون الماء إلى الكعبة المشرفة ؛ انظر : الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ ، ٢٩٣ ؛ ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ؛ مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ١٥ ـ ١٦ .

وفي يمين الركن العراقي باب يسمى باب الرحمة[1] يصعد منه إلى سطح الكعبة وقد بني له قبو فيه درج متصل بسطح الكعبة وبسبب وجود هذا القبو بدا و كأن الكعبة لها خمسة أركان .

وفي هذا القبو يوضع مقام إبراهيم قبل استقراره في مكانه وبناء القبة عليه ، وهذا القبو مكسو بالحرير الملون .

وفي عهد التجيبي أصبحت الكعبة تكسى بالسواد حيث صادفت السنة التي حج فيها ابن جبير كسوتها باللون الأخضر ويوضع على باب الكعبة ستارة من الحرير متقنة النسج والصنع مشغولة بالحرير الأبيض والأسود وتحت هذا الستر ستر آخر من الحرير الأخضر[2] ، وهذه أول إشارة عن ستارة باب الكعبة المشرفة[3] .

ونلاحظ أن ابن جبير وصف داخل الكعبة بدقة شديدة ، فهو قد أمضى فترة طويلة نسبياً بمكة أتاحت له دخول الكعبة عدة مرات والتدقيق فيها ؛ لذا كان اعتمادنا عليه أكثر من غيره . فالرحلات الأخرى أغفلت الحديث عن هذا الجانب إما لعدم دخول الرحّالة للكعبة المشرّفة أو لعدم تمكّنهم من وصفها بدقّة لقصَر بقائهم بداخلها .

---

(١) سماه الشيبي باب التوبة ، كما أنه يطلق عليه في الوقت الحالي باب التوبة . انظر : الشيبي : أعلام الأنام ، ص٧٢ ، حاشية الصفحة السابقة ؛ إسماعيل حافظ : باب الكعبة المعظمة على مر العصور، مجلة الدارة ، الرياض ، العدد ٣ ، السنه ٧ ربيع الآخر ، ١٤٠٢هـ / فبراير ١٩٨٢م ، ص ٢٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٩ ــ ٦٢ ، ٦٩ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٨ ، التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٥ ، ٢٥٦ ــ ٢٥٩ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، ١ ص ٢٠٠ ؛ السيد محمد الدقن : كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ ، ص١٦٢ ــ ١٦٦ .

والملاحظ أن وصف الرحّالة لداخل الكعبة في تلك الفترة وما وجد فيها من أشكال رخامية وغيرها نجده مخالفاً لما ورد عند الأزرقي وابن رستة وصاحب الاستبصار والفاسي(١) . وربما يعود هذا إلى قيام بعضهم بتجديدات داخل الكعبة المشرفة .

كما نجد أن الكعبة المشرفة ما زالت إلى الوقت الحاضر تكسى من الداخل بالحرير الأخضر . أما وضع داخل الكعبة المشرّفة في الوقت الحاضر فمختلف بعض الشيء عما سبق ، فأرض الكعبة المشرفة مفروشة بالرخام الأبيض وهو نفس الرخام المفروش به صحن الطواف . أما السلّم الموصل لسطح الكعبة فأصبح الآن عبارة عن درجات من الألمنيوم أو النيكل فقط موضوع عليه ستارة . وهذه الدرُج تفضي إلى سطح الكعبة عن طريق فتحة مشابهة لغطاء الخزانات يفتح إلى الأعلى ولا توجد بها فتحات للإنارة كما كان على عهد الرحالة ، فبمجّرد قفل الباب يسود الظلام الدامسِ داخل الكعبة . وتعتمد الإضاءة داخلها على الشموع المحمولة على الشمعدانات الفضية ـ كما يربط بين الأعمدة الثلاثة بداخل الكعبة والتي لا تزال موجودة إلى الآن ـ قضيب من الحديد لتعليق القناديل الفضية وبعض التحف الفضية والذهبية .

ويوجد بين العامود الثاني والثالث صندوق من الخشب لوضع الأباريق والأدوات المستعملة في غسل الكعبة المشرفة . ويلاحظ أن مقتنيات الكعبة وهداياها الثمينة قد سرقت منذ عهود سابقة ولم يبق إلا بعض المباخر والقناديل.

ويغطّي الجدار الأعلى من الكعبة قماش أخضر أما النصف الأسفل فهو من الرخام الأبيض .

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ١ ، ص٢٩٠ ـ ٣٠١ ؛ ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص٣٠ ـ ٣٧ ؛ مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص١٣ ـ ١٦ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ١ ، ص١٦٢ ـ ١٦٧ ، ١٧٣ ـ ١٧٤.

أما الأعمدة الموجودة في داخل الكعبة فأعلاها مغطى بقماش أخضر مزّين بالآيات القرآنية والجزء الظاهر من الأعمدة أشبه ما يكون بالخشب ولونه بلون خشب العود وهذا راجع إلى كثرة دهنه بالطيب .

وما زالت الكعبة إلى الآن تحتوي على سقفين وربما كانت الأعمدة الثلاثة موضوعة لدعم السقف الأول من جهة أرض الكعبة . ويعد أعلى السقف الأول مخزناً للكعبة الآن بعد أن كان فجوة بداخلها(١) .

المقامات بالحرم المكي الشريف :

أشار ابن جبير إلى وجود أربعة مقامات بالمسجد الحرام : منها مقام للإمام المالكي ويقع أمام الركن اليماني وهو على شكل محراب مبني بالحجارة .

أما مقام الإمام الحنفي فيقع أمام الميزاب . بينما الإمام الحنبلي يصلي ما بين الحجر الأسود والركن اليماني إذ ليس له مقام كبقية الأئمة ؛ إذ أن حطيمه(٢) هدمه مرجان الخادم خادم الخليفة المقتفي تعصباً منه ضد المذهب الحنبلي فقد حكي عنه قوله : قصدي أن أقلع مذهب الحنابلة فلما حجّ أمر بهدمه ومنع إمامهم من الصلاة(٣) ونسب ابن جبير هذا المقام لرامشت .

أما الإمام الشافعي فمقامه خلف مقام إبراهيم ، وهو مقام عظيم البناء . وقد وصف ابن جبير هذه المقامات فقال : خشبتان موصول بينهما بأذرع تشبه السلم تقابلهما خشبتان على تلك الصفة قد عقدت هذه الخشب على عامودين صغيرين من الجص قليلة الارتفاع وفي أعلى

(١) حصلنا على جميع هذه المعلومات الخاصة بالحالة داخل الكعبة المشرفةالآن من ابنين من أبناء سادن الكعبة المشرفة السابق وهما الأستاذ عبد القادر طه الشيبي والأستاذ حسين طه الشيبي بواسطة الهاتف .

(٢) الحطيم : الجدار . انظر ابن منظور : لسان العرب ، جـ ١٢ ، ص ١٤٠ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢١٣ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ .

الخشب خشبة عارضة مثبتة فيها علق بها خطافات حديد علقت بها قناديل من الزجاج وأحياناً يوصل بالخشبة المعترضة العليا شباك بطول الخشبة . وأضاف أن الحطيم الحنفي محراب بين القائمتين الجصيتين المنعقدتين على الخشب[1] .

المساجد الموجودة بمكة المكرمة :

اكتفى الرحالة المغاربة والأندلسيون بذكر عدد من المساجد حددوا مواضعها والإشارة إلى سبب نسبتها. بينما لم يقوموا بإمدادنا بمعلومات مفصّلة عن الوصف المعماري لهذه المساجد . ويبدو من إشارات الرحالة أن أغلب هذه المساجد ارتبطت بحوادث تاريخية معينة في صدر الإسلام ، أقيم المسجد بعد ذلك بفترة من الوقت للدلالة عليها وللتذكير بها .

مسجد فوق جبل أبي قبيس :

أشار إليه كلّ من ابن جبير وابن بطوطة والبلوي ولم يقوموا بوصفه ، وذكروا أن سطحه مشرف على مكة ؛ وزاد ابن جبير أن موضعه هو موضع موقف النبيﷺ عند انشقاق القمر . وأضاف ابن بطوطة أن الملك الظاهر[2] أراد عمارته[3] ، وربما يكون هذا المسجد هو المعروف بمسجد بلال وأغلب الظن

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٨ ـ ٧٩ . انظر الرسم لموقع المقامات رقم ٦ ، ١٣ .

(٢) الملك الظاهر بيبرس البندقداري العلائي بويع بالسلطنة وتلقب بالظاهر القصير وذلك يوم السبت خامس عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م توفي بدمشق في الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م وعمره نحو سبع وخمسين سنة ومدة حكمه سبع عشرة سنة وشهران وكان رحمه الله ملكاً جليلاً كريماً مشهوراً بالفروسية والإقدام له مآثر كثيرة منها تعميره للمسجد النبوي وله فتوحات كثيرة وقد قدم الحجاز لأداء فريضه الحج انظر ابن دقماق : الجوهر الثمين ، جـ٢ ، ص٦٦ـ٨٤ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص٨٥ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٤٤ ؛ البلوي :تاج المفرق ، ج١ ، ص٣١٢ .

أن نسبته إليه غير صحيحة(1) ، وقد نسبه الأزرقي لرجل يسمى إبراهيم القبيسي(2) ، مما يؤكد عدم نسبته لبلال .

مسجد الجن :

يقع على يمين المستقبل لمقبرة المعلاة في وادٍ بين جبلين(3) . وقد أشار إليه الأزرقي بقوله « مسجد بأعلى مكة يقال له مسجد الجن لأنهم بايعوا رسول اللهﷺ في ذلك الموضع »(4) ، وحدد القرطبي الموقع الذي بايعت فيه الجن الرسول ﷺ بأنه في الحجون(5) . ويبدو أن المسجد كان مهدماً في زمن رحلة ابن بطوطة لإشارته إلى خرابه(6) .

مسجد على طريق التنعيم :

يبعد عن مكة المكرمة بنحو ميل بجانبه حجر على الطريق كالمصطبة فوقه حجر آخر مسند عليه فيه أثر نقش ويقال : إن موضع المسجد هو موضع جلوس النبيﷺ عند عودته من العمرة مستريحاً . فاتخذه الناس مزاراً يفدون إليه ويتمسّحون به لذلك ، ونجد أن التجيبي أطلق عليه المتكأ(7) . وهو غير معروف الآن .

---

(1) البلادي : معالم مكة التاريخية والأثرية ، ص ١١ . وقد أزيل هذا المسجد الآن ؛ انظر تفاصيل بنائه. سيد بكر : أشهر المساجد في الإسلام ، ص ١٢١ ـ ١٢٣ .

(2) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ . انظر الرسم رقم ١٤ ـ ١٥ .

(3) ابن جبير:الرحلة ، ص٨٨ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٤٢ ؛ البلوي:تاج المفرق ، جـ١ ، ص٣٠٨ .

(4) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(5) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١٩ ، ص ٤ .

(6) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٢ . وهو الآن معروف بالقرب من مبنى البريد المركزي ومجاور لباب المقبرة ؛ انظر تفاصيل عمارته في سيد بكر : أشهر المساجد في الإسلام ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ .

(7) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٩ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٤٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ١ ، ص ٣٠٩ .

مسجد إبراهيم :

يقع قرب آبار الشبيكة بوادي طوى[1] ذكر الأزرقي أن زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد بنته لأن الرسـول ﷺ نزل بذي طوى معتمراً فبات فيه وصلّى الصبح وأضاف أن مصلى الرسـول ﷺ أسفل منه[2] . والظاهر أن المسجد لم يشيد في مكان مصلى النبي ﷺ بل قريباً منه وهذا المسجد غير معروف الآن[3] ولكن جدد مسجد بالقرب من بئر طوى فربما يكون هو .

مساجد التنعيم وهي :

عدة مساجد مبنيّة بالحجارة منها مسجد يقال له مسجد عائشة زوج النبي ﷺ خارج حدود الحرم ، كما يوجد مسجد أمام مسجد عائشة يُنسب لعلي بن أبي طالب[4] . ولم يتعرّض الأزرقي لذكره وذكره الفاسي ولكنه لم يظهر حقيقه نسبته . أما ابن ظهيرة فقال « لم أقف على شيء من خبره »[5] فهذه الأقوال إنما توضح لنا حقيقة مهمة وهي أن أغلب المساجد التي تنسب لأشخاص بعينهم شيدت عقب عهودهم بفترة طويلة ، أو لعل بناء هذه المساجد في الموقع الذي اعتمرت فيه السيدة عائشة رضي الله عنها . ولعل تعدد هذه المساجد في هذا المكان هو اعتناء المقتدرين من أهل الخير من أبناء المسلمين بتتبع أثر الصحابة طمعاً في الأجر والثواب من جراء بناء مثل هذه المساجد في الأماكن التي يرجّح نزولهم بها .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٩ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٣) البلادي : معالم مكة التاريخية والأثرية ، ص ٢٧٢ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٠ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ١٤٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٠ .

(٥) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٢٩ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٢١٠ .

وهناك العديد من المساجد الأخرى منتشرة حول الأعلام ذكر ابن بطوطة إنها ثلاثة وجميعها تنسب لعائشة رضي الله عنها . ونجد أن ابن رشيد لم يذكر إلا مسجد عائشة(١) .

ولم يعد لهذه المساجد في الوقت الحاضر أثر سوى مسجد عائشة رضي الله عنها والذي يطلق عليه مسجد التنعيم فهو باقٍ إلى اليوم وقد بني بناية حديثة وجميلة . والأصل في وجود هذا المسجد كما أورده الأزرقي أن الرسول ﷺ أمر عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أن يذهب مع السيدة عائشة لتعتمر من التنعيم(٢) .

مسجد أقيم في الدار التي ولد بها النبي ﷺ :

ذكر ابن جبير والبلوي أنهما لم يريا أعظم بناءً منه . وأضاف التجيبي أنه شارع في الزقاق الذي يقال له زقاق المولد(٣) . وذكره الفاسي وحدد مكانه بموضعٍ في سوق الليل وأسهب في وصفه(٤) . وهو غير موجود الآن .

مسجد منسوب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه :

يقع في أسفل مكة فيما يعرف الآن بحي المسفلة وبجانبه تقع دار صغيرة اتُّخذ بها محراب قيل إنها كانت مخبأ أبي بكر الصديق رضي الله عنه(٥) . غير أنه من الملاحظ أن مؤرخ مكة الأزرقي أغفل ذكره ، ولعل ذلك إشارة إلى احتمال عدم وجوده على عهده وإنما استحدث فيما بعد . بينما أشار إليه كلٌّ من الفاسي

---

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٨٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٣ .
(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٠٨ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٢ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٣٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١١ .
(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٣١ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٣ ؛ وروي عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر ابتنى مسجداً بفناء داره كان يصلي فيه ويقرأ القرآن بعد أن أصبح في جوار ابن الدغنة ، انظر البخاري : صحيح البخاري ، جـ ٢ ، ص ٣٣١ .

وابن ظهيرة . ونجد أن إشارة الفاسي إليه اعتمدت على ابن جبير مما يؤكد أهمية كتب الرحالة كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز حتى بالنسبة لمؤرخي مكة القدماء ، بينما ابن ظهيرة أشار إليه بقوله « مسجد بأسفل مكة منسوب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه يقال إنه من داره »[1] وفي هذا دلالة على احتمال اعتماده على الطريقة الشفوية المتواترة مما يضعف الدليل على وجوده فضلاً عن نسبته لأبي بكر الصديق ، وعلى كل حال فقد تعارف أهل مكة على وجود هذا المسجد بالموضع المشار إليه إلا أنه هدم لصالح مشروع توسعة الحرم الشريف .

مسجد منسوب لعلي بن أبي طالب :

وقد ذكره كلٌّ من ابن جبير والتجيبي والبلوي ويقع في دارٍ بمقربة من جبل أبي قبيس وبه نقش مكتوب عليه « هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وفيه تربّى رسول اللهﷺ وكان داراً لأبي طالب عّم النبيﷺ وكافله »[2] وحدد الفاسي مكانه بالقرب من مكان مولد النبيﷺ من أعلاه مما يلي الجبل[3] . وربما يقصد جبل أبي قبيس فالبلوي أشار إلى أنه بسفح جبل أبي قبيس . وأكّد التجيبي ذلك بقوله إنه في شعب بني هاشم[4] ، ويعرف الآن بشعب علي وقد أزيل أكثره بسبب مشاريع الأنفاق .

وعلى كل حال فالدار هذه مشهورة لدى أهل مكة على أنها مكان مولد علي بن أبي طالب ، ولكن الأزرقي أغفل ذكره مما يوضح أنه لم يشيد ولم يعرف في هذا الوضع إلا بعد عهد الأزرقي . وهذا المسجد قد هدم ضمن التوسعة التي تجرى حول الحرم الشريف .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤١٩ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٢٠٦ ؛ انظر تفاصيل عمارته في سيد بكر : أشهر المساجد في الإسلام ، ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤١ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٣٤ .

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٣٦ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٢ .

مسجد بقرب باب المعلاة :

انفرد بذكره التجيبي ووصفه بأنه محاط بحجارة يبلغ ارتفاعها نحو شبر عمل في قبلته محراب للصلاة فيه[1] . إلا أنه لم يشر إلى الشخص المنسوب إليه . وربما يكون هذا المسجد هو مسجد الشجرة وبحذائه مسجد الجن إذ ذكر الأزرقي أن النبيﷺ كان بمسجد الجن فدعا شجرة كانت في موضع هذا المسجد وكلمها فأقبلت تخطّ بأصلها وعروقها الأرض حتى وقفت بين يديه فسألها عما يريد ثم أمرها فعادت حتى انتهت إلى موضعها الأول[2]

وأورد ابن ظهيرة خبر هذا المسجد ضمن مساجد الدراسة في ذلك الوقت[3] .

مسجد دار الندوة :

وقد وصفه العبدري بأنه شارع في المسجد الحرام ومضاف إليه من جهة الحِجر والميزاب ، وقد دخله فوجده مليئاً بالأوساخ والقانورات وبه الكثير من الصناع[4] ، وأغفل ذكره باقي الرحالة .

المساجد بالمشاعر المقدسة :

مسجد البيعة أو العقبة :

يقع على يسار الذاهب لمنى[5] ، ونقل التجيبي نقشاً في المسجد مكتوباً

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٣٦ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ .

(٣) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ،ص٢٠٩ ـ ٢١٠ ، وهذا يفسر وجود المسجد بالقرب من مسجد الجن.

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٤ ـ ١٧٦ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٦ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٨٦ .

على حجر « هنا كانت أول بيعة كانت في الإسلام » وأضاف إن علم جمرة العقبة ملصق به[1] .

وهذا المسجد يفضي إلى جمرة العقبة وهي علم منصوب مماثل لأعلام الحرم[2] ، وأضاف التجيبي قائلاً : قيام زوجة هارون الرشيد بتبليط موقع جمرة العقبة[3] ، ويلاحظ أن المسجد صغير المساحة فلم يحظ بمعلومات مفصّلة عن عمارته في حين تشابهت أقوال الرحالة في تحديد موقعه مع المؤرخين الدارسين لتاريخ مكة المكرمة[4] .

مسجد منحر الذبيح :

بني عليه مسجد وموقعه بالقرب من جبل ثبير بعد الجمرة الأولى بعيداً عن الطريق قليلاً . وقد وصف موضع المنحر بأنه حجر لاصق بجدار المسجد وهذا الحجر فيه أثر قدمٍ صغيرة يقال : إنها أثر قدم الذبيح عندما تحرك فألانه الله تعالى بقدرته ، وسمى التجيبي هذا المسجد بمسجد الكبش . ولعل التسمية عائدة إلى ما نقله التجيبي من نزول الكبش الذي فدى الله به الذبيح . ويبدو أن موضع الحجر الموجود به الأثر قد تغيّر مكانه ، فقد ذكر التجيبي أنه حجر غامق اللون قائم في حائط صحن المسجد ، وأضاف أنه بجانب هذا الموضع رأى إبراهيم الخليل عليه السلام الرؤيا[5] .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤٨ والعلم هنا علامة توضع على حدود المشاعر المقدسة لمعرفة أماكنها .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٦ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٥ .

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤٨ .

(٤) الحربي : المناسك ، ص ٥٠٣ ، حاشية رقم ٢ ؛ المحب الطبري : القرى لقاصد أم القرى ، ص٥٤٣ ؛ القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٥٥ ؛ ولمزيد من التفاصيل عن مكانة وبداية بنائه وكيفيته ، انظر ناصر البركاتي ومحمد نيسان : دراسة تاريخية لمساجد المشاعر ، ص ٢٢٦ ـ ٢٤٦ ، انظر الرسم رقم ١٠.

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٦ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤٨ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٦ .

والواقع إننا لا نؤيّد ذلك نظراً للفارق الزمني بين وقت الذبح وبناء المسجد. فالمسجد بنته لبابة بنت علي بن عباس[١] ، وقد أغفل الرحالة وصف المسجد واتفق الفاسي مع الرحالة في ذكر موقعه ثم قيامه بوصفه وإشارته إلى الأثر وبيان خرابه[٢] وقد اتفق الحربي والقطبي في تحديدهما لموقع المسجد[٣] .

مسجد الخيف :

حدد ابن جبير والبلوي موقعه في آخر منى ثم تليه آثار قديمة ممتدة لمسافة طويلة[٤] ، وقد نال المسجد عناية الرحالة من حيث وصفه فقال ابن جبير باتساعه ووقوع المئذنة في وسط الصحن ، كما له أربع بلاطات مسقوفة في قبلته[٥] ، وأشار ابن رشيد إلى قربه من مكة ، ويبدو أن المسجد قد أصابه التلف فابن رشيد أكّد على كبر مساحته وعدم وجود أبواب له وأشار إلى أن الباقي من سقفه جزء يسير في آخر القبلة إلى جانب وجود الأحجار بالقرب من وسطه ذكر أنها علامة على مكان مصلى النبي ﷺ ، ويظهر أن الناس تركت الصلاة فيه فيقول « أقمنا به سُنّة بَعُد العهد بإقامتها »[٦] .

وأكّد العبدري على تردّي حالة المسجد بأكثر مما ذكر ابن رشيد حيث أصبح مطرحاً للأقذار وبقايا الجزارة التي نتج عنها روائح كريهة به . وكان الناس يوقدون فيه النار فأسوّد جداره وصار كالمطبخة على حّد قوله[٧] .

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ .
(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ .
(٣) الحربي : المناسك ، ص ٥٠٣ ؛ القطبي : إعلام العلماء ، ص ١٥٣ .
(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٧ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٦ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٧ .
(٦) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٠٥ ، ١٢٦ .
(٧) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٧ .

ولكن يبدو أن الأيدي امتدت إليه بالتعمير والتجديد بعد ذلك ، ففي موقعه يقول التجيبي : على يمين الذاهب إلى المزدلفة مستطيل الشكل طوله مائتان وخمس وسبعون ذراعاً واشتملت قبلته على وجود أربع بلاطات مسقوفة بالإضافة إلى وجود سقائف أخرى في جوانبه الباقية محمولة على أقواس من الآجر ، كما احتوى على العديد من الأبواب .

أما موضع مصلى النبي ﷺ فأمام المنارة في وسط الصحن[1] ونلاحظ أن وصف التجيبي لمسجد الخيف مشابه تماماً لما ذكره صاحب الاستبصار عن المسجد نفسه مما يشير إلى نقله عنه في بعض المعلومات[2] ، كما وأن وصف صاحب الاستبصار يقارب من وصف ابن جبير لاقتراب الفترة الزمنية بينهما. بينما نجد أن البلوي من حيث وصفه للمسجد مطابق لوصف ابن جبير إشارة إلى نقله عنه في تحديد موقعه وصفته لذا لم يأت بجديد فيه[3].

أما الأزرقي فلم يشر إلى وجود أربع بلاطات في قبلته وإنما أشار إلى وجود السقائف في جهاته الأربع وأفاض في وصفه الشيء الكثير[4]. ويبدو أن نمط بنائه قد طرأ عليه التغيير عند قدوم ابن جبير عما كان عليه في زمن الأزرقي .

أما مكان مصلى النبي ﷺ فالأزرقي والطبري والفاسي ذكروا قربه من مواجهة المنارة ووضعت الأحجار للدلالة على موضع المصلّى ، وقد أفاض الفاسي في وصف المسجد[5] .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤٣ .

(٢) مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ٣٣ .

(٣) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٦ .

(٤) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٥ .

(٥) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ ؛ المحب الطبري : القرى لقاصد أم القرى ، ص ٥٣٩ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٩ .

ومما ذكره الفاسي حول عمارة مسجد الخيف قوله بعدم توفر المعلومات الوافية عن المسجد عقب فترة الأزرقي إما لفقدها وإما لعدم التدوين مع التأكيد على قيام الوزير الجواد بعمارته وأن أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي قد أسهمت في عمارته أيضاً حيث وجد اسمها مكتوباً على بابه الكبير ، كما أسهم في عمارته المظفر الرسولي ملك اليمن سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م(١) .

وبيّن الفاسي مدى اهتمام الوزير الجواد بعمارته مما أدى إلى حسن حالته زمن رحلة ابن جبير والسؤال المتبادر إلى الذهن عن عمارة المظفر له في السنة المذكورة إذ نلاحظ أنها معلومة غير مؤكدة ولو كان كذلك لظهر في وصف ابن رشيد والعبدري والأرجح أنها تمت عقب سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م وقبل وفاة المظفر الذي توفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م(٢) .

ونخلص مما سبق إلى أن المسجد قد أصابه التلف والخراب في عهد ابن رشيد والعبدري بينما نجده في حالة جيدة في زمن رحلة التجيبي . وقد سبقت الإشارة إلى توافق وصف التجيبي وصاحب الاستبصار وهناك احتمال بإعادة المظفر لبنائه وفق حالته زمن صاحب الاستبصار وأن التجيبي اعتمد عليه في معلوماته عن المسجد . وكان هذا حال المسجد إلى وقت قريب وقد تغير الآن بسبب التوسعة الجديدة وهذا يقودنا إلى نتيجة مهمة وهي أن معظم المباني المعمارية بقيت على حالها زمن إنشائها لم تتغير من حيث المساحة وطراز البناء إلا حديثاً وما كان يقوم به الأمراء والملوك المسلمون من تعمير بها إنما كان ترميماً وتجديداً فقط .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٢٨ ؛ ولمزيد من التفصيلات حول مسجد الخيف انظر ناصر البركاتي ومحمد نيسان . دراسة تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة ، ص ٥٤ ـ ١٩٩ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ ١ ، ص ٢٣٢ . انظر الرسم رقم ١٧ .

غار المرسلات :

يقع قرب مسجد الخيف على يمين الذاهب إلى عرفات ذكر ابن جبير وجود حجر كبير مرتفع عن الأرض يظل أسفله قيل إن النبيﷺ جلس ناحيته للاحتماء من الشمس فمسّ رأسه الحجر فأصابته ليونه تاركة فيه أثراً يشبه الرأس[1] . في حين أشار التجيبي إلى أن الأثر المذكور في غار بجبل قرب مسجد الخيف يعرف بغار المرسلات بسبب نزول سورة المرسلات على النبي ﷺ به وقد عاين الأثر بالغار . وقيل إن ذلك الأثر من أثر عمامة النبيﷺ عقب جلوسه تحته[2] ، وأشار المحب الطبري إلى الغار ولم يعلّق عليه وحدد موقعه خلف مسجد الخيف ناحية الجبل[3] ، ويبدو أن هذا المكان أصبح مسجداً بعد ذلك ؛ إذ يشير الفاسي إلى وجود مسجد المرسلات يمين مسجد الخيف ولكن مع عدم الإشارة إلى الأثر، في حين نقل خبر الأثر من ابن جبير[4] وورد ذكره أيضاً لدى القطبي الذي أوضح خبر الأثر وأكّد على عدم توفّر المعلومات الدقيقة لديه عن ذلك مع تحديده لنفس موقع الغار[5] .

مسجد المزدلفة :

يقع بوسط المزدلفة وعليه قبة وتظهر أنواره ليلاً من بُعد ، ويبدو أن المسجد مرتفع عن الأرض فابن جبير أشار إلى صعود الحجيج إليه من جهتين بهما درج[6] وقد أغفل ابن رشيد ذكر هذا المسجد في رحلته .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

(٣) المحب الطبري : القرى لقاصد أم القرى ، ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٢٥ ؛ مما يعني اعتماد مؤرخي مكة على ما جاء في كتب الرحلات عند كتابتهم لتاريخ مكة مما يبرز أهمية كتب الرحلات كمصدر مهم من مصادر تاريخ الحجاز في تلك الفترة .

(٥) القطبي : أعلام العلماء ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٩ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٦ .

مسجد بأعلى جبل الرحمة :

في أعلى جبل الرحمة قبة تنسب لأم سلمة رضي الله عنها ولا يعرف مدى صحة ذلك وقد جعل جزء من القبة مسجداً اشتملت قبلته على عدة محاريب يصلي الناس فيها وباقي القبة عبارة عن سطح يشرف على عرفات . وقد ذكر الفاسي هذه الدار نقلاً عن ابن جبير ويبدو أن نسبتها إلى أم سلمة وهم لا شك فيه ، فمؤرخو مكة قد أغفلوا ذكرها عندما وصفوا جبل الرحمة ولم يذكروا أن عليه مسجداً أو قبة وأغلب الظن أن الذي بنى هذا المسجد الحسين بن سلامة في أواخر القرن الثالث الهجري وقد حرف الاسم إلى أن أصبح أم سلمة(١) .

مسجد بالقرب من جبل الرحمة :

وصف بالصغر ويقع على يسار مستقبل القبلة بالقرب من جبل الرحمة .

مسجد إبراهيم عليه السلام :

يقع بمقربة من العلمين حدّ عرفة عن يسار المستقبل للقبلة مسجدان الأول صغير والثاني قديم وكبير لم يبق من بنائه إلا جدار قبلته وينسب هذا المسجد إلى إبراهيم عليه السلام وفيه يخطب الخطيب يوم الوقفة ويصلي جامعاً بين الظهر والعصر(٢) .

والملاحظ تغير حال مسجد إبراهيم عليه السلام زمن رحلة ابن رشيد فالمسجد كما يبدو يقع آخر عرفات من جهة مكة المكرمة ، وقيل إن حائط قبلته مقام على بطن عُرنة ولو وقع لا يقع إلا فيه وقيل أيضاً إن مقدمة المسجد تقع في عُرنة ومؤخرته بعرفة أي أن قسماً منه بعرفة وجزءاً ليس بعرفة . وأضاف ابن رشيد أنه ربما زيد فيه لهذا القول ، وقد تسلّق ابن رشيد جداره حيث إنه

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٤٨٨ ؛ أحمد عمر الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص١٣٣ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص١٥٠ ـ ١٥٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٩ـ١٧٠ ؛ البلوي : تاج المفرق جـ١ ، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ . انظر الرسم رقم ١٨ .

بدون سقف وشاهد جميع أرجائه إلى جانب حِجارة كبيرة وضعت إلى جانب المسجد تقرب من حائط القبلة كعلامة دخول هذا الجزء من المسجد في عرفة لما اشتهر من أن جزءاً من المسجد يقع خارج حدود عرفة وقدر المسافة بين المسجد وموقف الرسولﷺ بنحو ميل .

ونستخلص مما ذكره ابن رشيد أن مسجد إبراهيم عليه السلام قد أصبح خرباً ولا تقام الصلاة فيه بدليل عدم استطاعته الدخول إليه خوفاً من السلب والقتل ، فقام بتسلق حائطه أثناء مرور جيش أبي نمي إضافة إلى أسفه على ترك سنة الجمع في وقتها وموضعها وأصبح الإمام يقيم الصلاة بغير معرفة بالسنة فهو لا يصلي مكان مصلّى النبيﷺ بل يتقدم عليه إضافة إلى تأخيره الظهر إلى قرب العصر فينتظره كثير من الجهلة ويصلي أهل العلم فرادى أو مجتمعين في رحالهم[1] .

أما العبدري فوصف المسجد بأنه مستطيل الشكل من الشرق إلى الغرب ويُعرف بمسجد إبراهيم ويقع أول عرفة مع قلة معرفة الحجاج لمكانه لبعده عن موقف الرسولﷺ والمقدر بنحو ميل واتفق العبدري مع ابن رشيد في موقع حائطه القبلي على حد عُرنة[2] .

ومما سبق يتضح أنه بالرغم من قدم وتهّدم مسجد إبراهيم زمن رحلة ابن جبير إلا أن الصلاة تقام فيه . وما ذكره ابن جبير موافق تماماً لما أورده ابن بطوطة والبلوي ؛ ولعل ذلك عائد إلى نقلهما عن ابن جبير إذ أنه من غير المعقول ثبات أحواله مدة تزيد على قرن ونصف من الزمان ، إضافة إلى الاختلاف الذي أورده ابن رشيد والعبدري والذي وضح منه اختلال عمارة المسجد ، إضافة إلى ابتعاد الناس عن اتباع السنة .

(١) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٥ ــ ٩٦ .

(٢) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .

المدينة المنورة :

المسجد النبوي :

أرّخ ابن جبير لحالة المسجد النبوي قبل حريقه سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ، لذا يعد وصفه مهماً في تلك الفترة ، وقد وصفه : بأنه مسجد مستطيل الشكل يحيط به من جوانبه الأربعة بلاطات . أما وسطه فصحن مفروش بالرمل والحصى ، وفي الجهة الشمالية منه قبة حديثة تعرف بقبة الزيت تستخدم كمخزن لاحتياجات المسجد وبجانبها خمس عشرة نخلة .

وفي جهة القبلة خمس بلاطات مستطيلة من الغرب إلى الشرق ، والجهة الشمالية بها خمس بلاطات والجهة الشرقية بها ثلاث بلاطات والجهة الغربية بها أربع بلاطات[١] .

وتقع الروضة[٢] في آخر جهة القبلة ناحية الشرق بنيت حولها خمسة جدران بخمسة أركان منها أربعة جدر محرفة عن القبلة بحيث يستحيل استقبالها في الصلاة وذكر أن بناءها بهذه الطريقة من عمل عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي عندما كان والياً على المدينة بأمر من الخليفة الوليد ابن عبد الملك مخافة أن تتخذ مصلى . أما أطوال جهاتها فقد حدد ابن جبير منها الجهة القبلية بأربعة وعشرين شبراً والجهة الشرقية بثلاثين شبراً وما بين الركن الشرقي إلى الركن الشمالي مسافة خمسة وثلاثين شبراً ، ومن الركن الشمالي إلى الركن الغربي مسافة تسعة وثلاثين شبراً ومن الركن الغربي إلى الركن القبلي مسافة أربعة وعشرين شبراً ، وفي هذه

---

(١) انظر الرسم رقم ١٩ .

(٢) يطلق على مكان قبر الرسول صلى لفظ روضة . انظر السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٢ ، ص ٥٦٩ ؛ وورد على لسان النبي صلى قوله (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) انظر البخاري : صحيح البخاري ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ .

(٣) ذكر السمهودي أنه لا يعلم متى بدأ أمره . انظر السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ، ص ٥٧٤ .

الجهة صندوق أبنوس[٣] مختوم بالصندل ومطعّم بالفضة موضوع قبالة رأس النبيﷺ طوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وارتفاعه أربعة أشبار .

وفي الجهة الواقعة بين الركنين الشمالي والغربي موضع عليه ستر يقال : إنه كان مهبط جبريل عليه السلام . وأضاف ابن جبير أن مجموع مسافات الروضة من جميع جهاتها مئتان واثنان وسبعون شبراً[١] .

وقد زينت الروضة بالرخام الجميل المنظر بارتفاع الثلث أو أقل قليلاً أما الثلث الثاني فمنه مقدار شبر قد علاه المسك والطيب المتراكم على طول الأزمنة ويليه شبابيك من الخشب متصلة بسقف المسجد حيث أن الروضة لا سقف لها ولكنها متصلة بسقف المسجد ، ومن سقف المسجد إلى بداية الرخام الموجود بالروضة تنتهي الستائر الموضوعة عليها وهي لازوردية اللون جميلة النقش محاكة على هيئة مثمنات ومربعات .

كما يوجد في الجهة القبلية أمام وجهة النبيﷺ مسمار من الفضة[٢] يقف الناس أمامه .

وحدد ابن جبير رأس أبي بكر بأنه عند قدم النبيﷺ ورأس عمر بعد كتفي أبي بكر[٣] .

وأمام هذه الجهة نحو عشرين قنديلاً من الفضة المعلقة اثنان منها من الذهب ، وفي شمال الروضة حوض صغير من الرخام في قبلته شكل محراب قيل إنه كان بيت فاطمة الزهراء وقيل هو قبرها[٤] ، وطوله أربع عشرة خطوة

(١) انظر الرسم رقم ٢٠ .

(٢) لا يعرف ابتداء امره . انظر السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ، ص ٥٧٦ .

(٣) تعددت الروايات في كيفية ترتيب القبور الثلاثة .انظر ابن النجار: أخبار مدينة الرسول ، ص١٣٥ـ ١٣٨ .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٢٢١ وما يأتي ص ٤٢٧ .

وعرضه ست خطى وارتفاعه شبر ونصف وبينه وبين الروضة الواقعة بين القبر الكريم والمنبر ثماني خطوات .

ويقع المنبر على يمين الروضة بينهما اثنان وأربعون خطوة ومن جهة القبلة عمود يقال إن به بقية الجذع الذي حنّ للنبي صلى وشاهد ابن جبير قطعة منه في وسط العمود ظاهرة(١) ، يقوم الناس بتقبيلها والتبرك بلمسها ومسح خدودهم بها(٢) .

المنبر :

ارتفاعة قدر قامة أو أكثر وسعته خمسة أشبار وطوله خمس خطوات وعدد درجاته ثماني وله باب على شكل الشباك مقفل يفتح يوم الجمعة وطوله أربعة أشبار ونصف . والمنبر مغطى بخشب الأبنوس ومكان جلوس النبيﷺ ظاهر في أعلاه ولكنه غطي بلوح من الأنبوس صيانة له من الجلوس عليه(٣) ، واعتاد الناس إدخال أيديهم إليه للتبرك به .

ويوجد في رأس قائم المنبر الأيمن حلقة من فضة مجوفة مكان وضع الخطيب يده وقت الخطبة قيل إنها لعبة الحسن والحسين رضي الله عنهما حين خطبة جدهماﷺ(٤) .

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ ؛ العبدري:الرحلة المغربية ، ص ٢٠٥ ؛ابن بطوطة : الرحلة ، ص١١٤ وهذه من الأمور التي لا يجوز فعلها وكانت منتشرة في تلك الفترة بشكل بدت وكأنها من القربات إلى الله .

(٣) وجدت اختلافات في وصف منبر الرسول ﷺ مما يؤكد امتداد الأيدي إليه بالتعمير والتجديد . انظر السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٧ .

(٤) وهذا أمر غير صحيح وإنما كان من جملة ما انتشر بين الناس في ذلك الوقت . انظر : ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٠ .

أما طول المسجد النبوي فمائة وست وتسعون خطوة ، وعرضه مائة وست وعشرون خطوة ، وفيه من السواري مئتان وتسعون سارية . وهي أعمدة متصلة بسقف المسجد دون أقواس فكأنها دعائم له . وهي من حجر منحوت قطع بشكل مستدير مركبة بعضها فوق بعض وصب بين كل قطعة وأخرى الرصاص المذاب فأصبحت عاموداً قائماً مغطى بالجيار[1] اللين التي اتقنت دلكاً وصقلاً حتى بدت كأنها رخام أبيض[2] أما البلاط المتصل بالقبلة ففيه المقصورة والمحراب ويقيم الإمام الصلاة في الروضة الصغيرة إلى جانب الصندوق وبينها وبين الروضة والقبر محمل كبير مدهون عليه مصحف كبير في غشاء مقفل يقال إنه أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى البلدان . ويبدو أن هذا المصحف ليس أحد المصاحف التي أرسلها عثمان ابن عفان إلى الامصار وإنما هو مصحف بعث به الحجاج بن يوسف إلى المدينة ضمن المصاحف التي بعث بها إلى أمهات الأمصار[3] وبجانب هذه المقصورة من جهة الشرق خزانتان كبيرتان تحتويان على الكتب والمصاحف الموقوفة على المسجد ، كما يوجد أمام الروضة شباك من الحديد مفتوح على الروضة وفي البلاط الثاني من جهة الشرق توجد فتحة مغطاة تؤدي إلى سرداب ينفذ إليها بواسطة درج تحت الأرض تفضي إلى خارج المسجد هي موضع الخوخة المفضية لدار أبي بكر التي أمر النبي صلى بإبقائها[4] .

ويوجد أمام الروضة صندوق كبير لوضع الشمع المستخدم للإنارة أمام الروضة كل ليلة ، وفي أعلى المحراب الموجود في جدار القبلة بداخل المقصورة

---

(١) الجيار : النورة . انظر ابن منظور : لسان العرب ، جـ٤ ، ص ١٥٧ .

(٢) إن وصف ابن جبير لحالة المسجد النبوي المعمارية يوضح لنا مدى مهارة البنائين وإتقانهم لعملهم في ذلك الوقت .

(٣) انظر ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ١٠٦ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٢ ، ص ٦٧٠ .

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٢٢١ .

حجر مربع أصفر سعته شبر في شبر ذو بريق قيل : إنه مرآة كسرى وفي أعلاه داخل المحراب مسمار مثبت في الجدار به شبه علبة صغيرة غير معروفة قيل : إنها كأس كسرى[1] .

وغطي جدار القبلة السفلي برخام مجزع متعدد الألوان والنصف الأعلى منه مغطى بالفسيفساء اتخذت هيئة أشجار مختلفة الأشكال ذات أغصان مائلة محملة بالثمار وشمل ذلك جميع المسجد في حين حظي جدار القبلة والجدار المواجه للصحن من جهة القبلة والجهة الشمالية بالنصيب الأكبر . أما الجهتان الغربية والشرقية فهما بيضاوان مزينتان بأنواع كثيرة من الأصباغ .

وفي الجهة الشرقية من المسجد بيت مصنوع من أعواد خاص ببعض السدنة القائمين على حراسة المسجد وقد جعل مكاناً لنومهم .

أبواب المسجد النبوي :

وللمسجد تسعة عشر باباً لم يبق منها مفتوحاً سوى أربعة[2] ، في الغرب اثنان يعرف أحدهما بباب الرحمة والآخر بباب الخشية ، وفي الشرق اثنان يسمى أحدهما باب جبريل والثاني باب الرجاء[3] ، ويقابل باب جبريل دار عثمان بن عفان رضي الله عنه التي استشهد فيها ، كما يوجد باب صغير واحد من جهة القبلة مغلق وفي الجهة الشمالية أربعة أبواب مغلقة وفي الغرب خمسة

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢٢١ .

(٢) ربما سدت هذه الأبواب عقب المحاولات الرامية للتعدي على قبر الرسول ص والتي كانت إحداها زمن نور الدين زنكي والأخرى زمن صلاح الدين الأيوبي والأرجح أن تكون سدّت عقب المحاولة الأولى ، انظر أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص٣٥ ـ ٣٧ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ، ص٦٤٨ـ٦٥٤ .

(٣) ربما وقع تصحيف في اسم هذا الباب فالأرجح أن يكون باب النساء وليس الرجاء خاصة وأن العبدري يذكره بباب النساء وجميع ما ذكره ابن جبير عن هذه الأبواب يوافق تماماً ما ذكره السمهودي واختلف في بعضها وذكرها بأسمائها القديمة ابن النجار . انظر ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ١٠٩ ؛ العبدري : الرحلة المغربية،ص ٢٠٤ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٢ ، ص ٦٨٦ ـ ٧٠٦ .

أخرى مغلقة وفي الشرق خمسة مغلقة أيضاً[1] ، فكمل عددها بالأربعة المفتوحة تسعة عشر باباً[2] .

مآذن المسجد النبوي :

للمسجد النبوي ثلاث مآذن إحداها في الركن الشرقي المتصل بالقبلة والاثنتان الباقيتان في الجهة الشمالية وهما صغيرتان على هيئة برجين[3] .

كان هذا حال المسجد النبوي المعماري قبل الحريق . ويأتي وصف المسجد النبوي عقب التعمير والتجديد القائم بعد الحريق مباشرة فيمدنا العبدري بوصفٍ للحال التي أصبح المسجد النبوي عليها بعد إجراء التجديدات والترميمات ويتبين لنا من خلال وصفه مدى التغييرات التي حدثت للمسجد وسد ما كان مغلقاً من الأبواب وقت رحلة ابن جبير .

وما ذكره العبدري لا يختلف في هيئته العامة عن وصف ابن جبير وإن اختلف معه في بعض الأمور : منها ارتفاع سقف المسجد والذي صبغ باللون الأبيض وصحن المسجد محاط بسقائف جميلة المنظر كما حلّ الرمل الأحمر بدلاً من الحصى والذي كان مفروشاً بصحن المسجد على عهد ابن جبير ، وحلول الفضة بدلاً من الجيار على الأساطين العالية الممسكة بسقف المسجد ، واستبدلت القبة الموجودة في صحن المسجد والخاصة بتخزين أدوات المسجد

---

(١) سدت الأبواب جميعها ماعدا الأربعة الرئيسية في عهد العبدري . انظر العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٣) اختلفت الحال بعد الحريق والأرجح أنها بنيت مرة أخرى لتماثل المئذنة الأولى . انظر ابن جبير : الرحلة ، ص١٧٣ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص٢١٧ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ، ص٥٢٦ ـ ٥٢٧ .

ببيت صغير مربع جميل استخدم كمخزن لأدوات المسجد وبجواره بعض أشجار النخيل الصغيرة(١) .

وقد سدت جميع أبواب المسجد النبوي ، وأشار العبدري إلى وجود باب بقرب الروضة عبارة عن نفق في الأرض يصل إليه بواسطة درج يفضي إلى حُجر في قبلة المسجد قيل : إنها حجر أزواج النبيﷺ ونبه على بطلان ذلك(٢) .

ويبدو أن مآذن المسجد قد جددت حيث ذكر العبدري وجود ثلاث مآذن بشكل واحد الأولى في مؤخرة المسجد واثنتان في الركنين الجنوبيين .

وأشار العبدري أيضاً إلى عدد سواري المسجد النبوي بأنها مائتان وست وسبعون بدون تحقيق منه فهو لم يقم بإحصائها لانشغاله بالنواحي العلمية وقصر مدة إقامته بالمدينة(٣) .

وأوضح العبدري أن هناك ممراً ضيقاً بين الروضة والجدار الشرقي محلّى بالرخام الأبيض من أسفله إلى أعلاه بإتقان ، وأشار أيضاً إلى وجود صندوق مبني في جدار الروضة أمام رأس النبيﷺ . كما يوجد علم أمام رأس أبي بكر وآخر أمام رأس عمر رضي الله عنهما(٤) . كما لفت انتباهه جمال كسوة الروضة المجددة في كل عام مثل كسوة الكعبة المشرفة(٥) .

---

(١) يبدو أن النخلات التي أشار إلى وجودها ابن جبير قد حرقت فزرع بدلاً منها هذه النخلات الصغار ، وذكر السمهودي أن غرسها هناك بدعة . انظر السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٢ ، ص ٦٨٢ . انظر الرسم رقم ٢١ .

(٢) نجد أن العبدري نبه في حينه على بطلان ذلك ونلاحظ مدى اختلاق العامة أموراً قد يصدقها الحجاج فمعروف أن حجرات النبي صلى قد دخلت في المسجد في الزيادة التي قام بها الوليد بن عبد الملك كما وأن اختلاق مثل هذه الأمور كانت متفشية بسبب استجلاب الأموال من الحجاج .

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

(٤) لا شك أن الصندوق جدد فقد تلف أثناء الحريق . كما نلاحظ وجود علم عند رأس كل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وهو ما لم يذكره ابن جبير مما يعني وجود إضافات بالمسجد النبوي حدثت أثناء تجديده . انظر السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٢ ، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ .

(٥) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٥ .

المنبر :

أوضح العبدري أن الحريق أصاب المنبر ضمن النفائس المحترقة في المسجد النبوي ولم يبق منه إلا قطعة صغيرة فاستبدل بمنبر آخر شاهده وجعلت القطعة المتبقية في داخل المنبر الجديد الذي أحدث به ثقب يدخل الناس أيديهم فيه للمس القطعة المتبقية والتبرك بها[1] .

أما ابن بطوطة والبلوي فلم يضيفا شيئاً جديداً لما سبق ؛ بل ولعلهما اعتمدا في وصفهما على ابن جبير . إلا أن البلوي أورد نصاً منقوشاً يشير إلى أن الملك الظاهر قدم المدينة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م وقام بالخدمة في الروضة ونص النقش « بسم الله الرحمن الرحيم خدم بهذه الدار بزينة للحرم الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبر الصالحي قسيم أمير المؤمنين في سنة ثمان وستين وستمائة »[2] ، وذكر ابن كثير وابن دقماق قدوم الملك الظاهر إلى الحجاز في سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م وزيارته للمدينة المنورة وخروجه منها حاجاً إلى مكة المكرمة ويضيف ابن كثير أنه عاد مرة أخرى إلى المدينة بعد أدائه فريضة الحج[3] .

ونلاحظ إن تاريخ النقش يزيد سنة عن السنة التي حج فيها الملك الظاهر ولعل هذا يرجع إلى أن القيام بالنقش إنما تم في سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م خاصة وأن الملك الظاهر قد أرسل من مصر في رجب سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م درابزينات

---

(١) هذه من الأمور المبتدعة التي لا يقرها الشرع حتى لو سلمنا أن هذه القطعة من المنبر ، خاصة وأن جميع أخشاب المسجد ومنه المنبر قد احترقت فكيف عرف أن هذه القطعة هي من المنبر فيكون تحايلهم للمسه في غير محله .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١١٤ ـ ١١٩ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، جـ٢ ، ص ٧٥.

الحجرة النبوية وأمر أن تقام حول القبر صيانة له وعمل أبواباً لها تفتح وتقفل فركب ذلك عليها[1] .

المساجد بالمدينة المنورة :

مسجد حمزة رضي الله عنه :

أشار إليه ابن جبير وحدد موقعه في قبلي جبل أحد وأغفل وصفه[2] ، ووصفه ابن النجار بأنه قريب من مشهد حمزة بأحد وأشار باتفاق أهل المدينة في أن موضعه مكان استشهاد حمزة رضي الله عنه[3] . بينما ذكر السمهودي أن تاريخ بنائه عائد إلى المائة الثانية من الهجرة وسماه مسجد العسكر[4] .

مسجد قباء :

وصفه ابن جبير وابن بطوطة بأنه مسجد مربع الشكل له مئذنة طويلة بيضاء تظهر من بعد ، وهو حديث البناء ، وفي وسطه روضة صغيرة هي مكان مبرك الناقة بالنبي ﷺ . ويحرص الناس على الصلاة فيها . كما يوجد في صحنه من ناحية القبلة شبه محراب على مصطبة هو أول موضع ركع فيه النبي ﷺ . واحتوت القبلة على عدة محاريب وله باب واحد في الجهة الغربية والمسجد به سبع بلاطات في الطول ومثلها في العرض[5] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٣ .

(٣) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٥٨ .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٨٤٩ ، ٨٢٢ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٤ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٥ .

وقد أشار ابن النجار أن الوزير الجواد قام بتجديده بعد تجديد وتوسيع عمر بن عبد العزيز له بعدة قرون[1] ، لذا فعندما شاهده ابن جبير ذكر بأنه مجدد لقرب العهد بين تجديده ورحلته .

وأضاف البلوي أن بأعلى المحراب نقش به [« بسم الله الرحمن الرحيم لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين »[2] هذا مقام النبي ﷺ جدد هذا المسجد في تاريخ سنة إحدى وسبعين وستمائة] وأكد البلوي أن للمسجد مئذنة مرتفعة بحيث يراها الناس من بعد[3] .

ويظهر من كلام السمهودي أن المسجد قد جدد مرتين إحداهما سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م والأخرى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م ، وهي المرة التي أشار إليها البلوي ، إلى جانب ذكره لوجود المحاريب في قبلته ، أما مكان مبرك الناقة بالرسول ﷺ فلم يفصّل السمهودي فيه برأي قاطع[4] .

ولكننا نلاحظ اختلافاً واضحاً بين وصفه هنا وبين وصف صاحب الاستبصار حيث يقول إنه مسجد مربع به ثلاث بلاطات وله ثلاثة أبواب[5].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٤ ؛ ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ١١٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٥ .

(٢) القرآن الكريم : سورة التوبة ، ٩ / ١٠٨ .

(٣) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ . انظر الرسم رقم ٢٢ .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٨٠٧ ـ ٨١٠ .

(٥) مؤلف مجهول : الاستبصار ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ، وربما يكون وصفه قبل تجديده للمرة الأولى أي قبل سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وعليه فيكون قدومه للحجاز قبل هذا التاريخ .

مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

يقع في طريق أُحد أشار إليه ابن جبير وابن بطوطة دون وصفه[1] ، وذكره ابن النجار دون نسبته لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث عده ضمن ثلاثة مساجد أشار إلى خرابها أمام مسجد الفتح[2] .

وأكد السمهودي إصابته بالتلف على عهده وتجديده فيما بعد وأضاف إنه منسوب لعلي ابن أبي طالب لانتشار ذلك بين الناس ، كما أشار إلى صلاة الرسول ﷺ به[3] .

وأوضح علي حافظ أن سبب نسبته لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أمّ الناس فيه وقت صلاة العيد عندما كان عثمان بن عفان رضي الله عنه محصوراً بمنزله[4] .

مسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه :

اكتفى كل من الرحالة ابن جبير وابن بطوطة والبلوي بذكره دون وصفه[5] ، ولعل السبب في ذلك أنه كان خراباً في ذلك الوقت ، إلا أن آثار بنائه مازالت باقية إضافة إلى ماتناقلته الشائعات على ألسنة الناس حول نسبته إلى سلمان الفارسي وذكره ابن النجّار ضمن الثلاثة مساجد الواقعة أمام مسجد الفتح ، واستمر على حاله في عهد السمهودي وفيما يبدو أنه قد امتدت إليه يد البناء والتعمير فيما بعد . وأكد السمهودي على شهرة نسبته لسلمان الفارسي

---

(١) ابن جبير: الرحلة ، ص١٧٦ ؛ ابن بطوطة: الرحلة ، ص١٢٥ ؛ البلوي: تاج المفرق ، جـ١ ، ص٢٨٨ .

(٢) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ١١٤ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٨٣٦ ـ ٨٣٧ . انظر الرسم رقم ٢٣ .

(٤) على حافظ : فصول من تاريخ المدينة المنورة ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٥) ابن جبير: الرحلة ، ص١٧٦ ؛ ابن بطوطة: الرحلة ، ص١٢٥ ؛ البلوي: تاج المفرق ، جـ١ ، ص٢٨٨ .

حسب معلومات الناس[١] ، وأضاف أن الرسولﷺ قد أقام الصلاة فيه وفي المساجد الأخرى التي تنعت بمساجد الفتح[٢] .

مسجد الفتح :

أغفل وصفه ابن جبير وابن بطوطة والبلوي ولكنهم أكدوا نزول سورة الفتح فيه على النبيﷺ[٣] . وذكر ابن النجار أن الرسولﷺ دعا فيه يوم الخندق على الأحزاب ، وأشار إلى تشييده مع إغفاله ذكر السنة التي تمّ فيها ذلك[٤] ، وأضاف السمهودي أن الرسولﷺ أقام الصلاة فيه وفي المساجد الموجودة حوله وهي المسجد المنسوب لعلي بن أبي طالب والمسجد المنسوب لسلمان الفارسي ومسجد منسوب لأبي بكر رضي الله عنهم والأخير لم يبق له أثر .

وقد جدد مسجد الفتح زمن عمر بن عبد العزيز عند بناء المسجد النبوي وجدد عقب ذلك سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . كما تم تجديد المسجدين المنسوبين لعلي ولسلمان سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م . وذكر السمهودي في سبب تسميته بمسجد الفتح روايتين لم يرجح أيّا منهما : الأولى قيل : إن ذلك راجع لإجابة دعاء الرسولﷺ على الأحزاب فيه فكانت فتحاً على الإسلام ، وقيل لنزول سورة الفتح به[٥] .

---

(١) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ١١٤ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٨٣٦ ـ ٨٣٧ ؛ وقد حدد علي حافظ مكانه بأنه بعد مسجد الفتح من جهة الجنوب . انظر علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٤٣ .

(٢) انظر الرسم رقم ٢٣ .

(٣) ابن جبير: الرحلة ، ص١٧٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٢٥ ؛ البلوي: تاج المفرق ، جـ١ ، ص٢٨٨ .

(٤) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ١١٤ .

(٥) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٨٣٥ ـ ٨٣٧ .

بينما ذكر القرطبي وابن كثير أن سورة الفتح نزلت في الحديبية[١] ، وعلى كل حال فقد أجمعت كتب التفاسير على أن سورة الفتح قد نزلت بالحديبية .

المساجد بجُدة :

لم يذكر ابن جبير بجُدة إلا مسجدين الأول نسبه إلى عمر بن الخطاب دون إيراد أوصافه المعمارية ، ونسب الآخر لهارون الرشيد إلى جانب تفاصيله المعمارية حيث أشار إلى وجود ساريتين كبيرتين من خشب الأبنوس فسمي مسجد الأبنوس .

وأكد التجيبي معلومات ابن جبير حول مسجد الأبنوس في سبب تسميته بذلك . وذكر روايتين الأولى حول نسبته إلى عمر بن الخطاب مع إشارته إلى ضعفها، أما الرواية الثانية فتنسب إلى عمر بن عبد العزيز ولعلها الأرجح في ذلك[٢] .

وعلى ضوء ما سبق يمكن قبول ما ذهب إليه التجيبي باعتبار أن جُدة لم تصبح ذات شأن كبير وميناءاً لمكة المكرمة إلا في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه[٣] ، وذكر ابن فرج أن أوّل مسجد شيد في جُدة كان بأمر من عمر ابن الخطاب ويماثله في القدم مسجد آخر يسمى مسجد الأبنوس[٤] ، ويحمل قول ابن فرج عدم تأكيد بناء عمر بن الخطاب لهذا المسجد ، ويحمل مسجد الأبنوس الآن اسم مسجد عثمان بن عفان رضي الله عنه[٥]، وتبدو نسبته إلى عثمان ابن

---

(١) انظر مثلاً القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، جـ ١٦ ، ص ٢٦٠ ــ ٢٦١ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٨٢ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ١٤١ .

(٤) ابن فرج : السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة ، ص ٥١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ عبد القدوس الأنصاري : موسوعة تاريخ جدة ، ص ٤٢٩ .

عفان رضي الله عنه أرجح على اعتبار أنه أول من جعلها ساحلاً ومرفأ لمكة المكرمة وبالتالي قيامه بإنشاء مسجد فيها ينسب إليه .

أما ما أورده التجيبي من نسبته إلى عمر بن عبد العزيز فربما يرجع ذلك إلى قيامه بإصلاحات فيه أدت إلى نسبة المسجد إليه ، وربما نسب لهارون الرشيد للسبب ذاته ، وقد ناقش عبد القدوس الأنصاري الأقوال في نسبة المسجد[1] .

أما ابن بطوطة فأشار إلى وجود مسجد الأبنوس في جدة[2] .

ومما يلفت النظر أن الرحالة لم يتعرضوا لذكر المساجد في طريق الحجاز إلا مسجداً بينبع ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وهذا المسجد يقع خارجها وقد وصف بأنه ذو بناءٍ محكم جميل[3] ، ومسجد آخر ببدر وصف بالصغر والجمال ويقال إنه أقيم على موضع مبرك ناقة الرسول صلى عند نخيل القليب[4] ، كما يوجد مسجد متهدم بالقرب من مبرك ناقة صالح عليه السلام في حجر ثمود[5] وبذي الحليفة مسجد آخر[6] ، ويشير العبدري إلى المساجد الموجودة في الطريق ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة بأنها غير معمورة[7] .

---

(١) عبد القدوس الأنصاري : موسوعة تاريخ جدة ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٣ .

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٤ ـ ١٥ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ .

(٦) ابن جبير :الرحلة ، ص ١٦٧ ؛ العبدري :الرحلة المغربية ، ص ٢٠١ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ٧١ .

(٧) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٩١ .

ثالثاً : العمارة المدنية :

المدارس :

سبق الإشارة لهذا الموضوع في الناحية العلمية وما يهمنا هنا هو إيراد التفاصيل المعمارية لتلك المدارس . والواقع أن معلوماتنا في هذا الصدد شبه معدومة ولا نعرف سبباً واضحاً لإغفال الرحالة إيراد تلك الأوصاف . وأما ما يتعلق بالمدرسة المظفرية في مكة المكرمة والمشيدة باسم الملك نور الدين عمر ابن رسول ملك اليمن والواقعة عند باب العمرة[1] ؛ حيث استأثرت باهتمام المؤرخين وأسبغوا عليها عبارات العظمة وعلو الشأن في ذلك الوقت[2] ، فنستطيع القول إن مردّ ذلك الاهتمام عائد إلى دورها العلمي في خدمة القادمين إليها من مختلف بقاع الأرض . والأرجح أن عظم شأنها يرجع كما نرى إلى دورها العلمي الكبير . ولا ننسى أن بلاد الحجاز كانت محطاً للكثير من العلماء في مختلف بقاع الأرض . أما في المدينة المنورة فتوجد مدرسة تقع مقابل باب الرحمة ولا يعرف اسمها في حين أطلق عليها ابن جابر اسم الشهابية[3] ، وأيضاً ليست لدينا أية تفاصيل عن أوصافها المعمارية .

الأربطة :

الأربطة في مكة المكرمة :

أورد الرحالة المغاربة والأندلسيون أسماء عددٍ من الأربطة بمكة المكرمة ولكن على اختصار شديد فمنها :

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٤ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٦ ، ٢٦٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣٩ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ ١ ، ص ٨٢ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٦٠ . انظر ما سبق ، ص ٢٦٦ .

(٣) ابن جابر الوادي آشي : البرنامج ، طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ .

رباط الصوفية :

يقع بجوار باب بني شيبة وله باب ينفذ منه إلى المسجد الحرام يسمى باب الرباط وهو باب صغير بجوار باب بني شيبة ، وأشار إليه التجيبي بينما سماه ابن بطوطة رباط السدرة وذكر أن بابه يفتح على المسجد الحرام بجانب باب بني شيبة وسماه باب الرباط أيضاً[١] .

وذكر الفاسي أن هذا الرباط واقع بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل إليه من باب بني شيبة وسماه رباط السدرة وأرخ لسنة وقفه بسنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م دون ذكر القائم بذلك[٢] .

رباط بأعلى جبل أبي قبيس :

أغفل ذكره ابن جبير وذكره ابن بطوطة وأشار إلى عزم الملك الظاهر تعميره[٣] . ويبدو أن ابن بطوطة انفرد بذكر هذا الرباط ، حيث لم نقع على خبر له ضمن المصادر التي تناولناها .

رباط مراغة :

أشار إليه ابن رشيد دون وصفه وتحديد موقعه[٤] ، في حين قام الفاسي بتحديد موقعه قائلاً : إنه ملاصق لرباط السدرة بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل إليه من باب بني شيبة ونسبه إلى قاضي القضاة أبي بكر محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المراغي[٥] .

---

(١) ابن جبير :الرحلة ، ص ٨٢ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٢٤٥ ؛ ابن بطوطة :الرحلة ، ص١٣٩ .
(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٥٢٧ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٥ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٤ .
(٤) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٤٤ ، ٢٣١ .
(٥) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٥٢٧ .

وأصل الرباطين دار القوارير. وقد تداولت الأيدي هذه الدار حتى أصبحت رباطين متلاصقين أحدهما يعرف برباط المراغي والآخر برباط السدرة[1] .

رباط الموفق :

أشار إليه التجيبي دون وصفه أو تحديده ، بينما ذكر ابن بطوطة أنه بالقرب من باب إبراهيم ، وأنه من أفضل الأربطة[2] . أما الفاسي فذكر أنه بأسفل مكة وقد أوقف سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م ، وذلك من نقش على حجر وجد به[3] .

رباط العباسي :

انفرد بذكره ابن بطوطة الذي أوضح أنه خصص لسكنى المجاورين . وقد شيده الملك الناصر بين الصفا والمروة سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م[4] . وأضاف الفاسي أن فيه العلم الأخضر وكان مطهرة عملها الملك المنصور رباطاً ونقش اسمه عليه[5] .

رباط الشرابي :

يقع عند باب بني شيبة ذكر ابن بطوطة أن رميثه أمير مكة قد جعله داراً له[6] ، ونسب الفاسي عمله إلى إقبال الشرابي المستنصري العباسي الذي قام بتشييده إلى جانب منارة باب بني شيبة على يمين الداخل من باب السلام إلى

---

(١) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٤٥٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٠ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١٢٢ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥٣٦ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤١ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥٣٢ .

(٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٨ .

المسجد الحرام وتاريخ عمارته سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م . وقد وهبت له الكثير من الكتب إلى جانب تزويده بالمياه[١] . وأكد ابن فهد أن الكتب الموقوفة عليه ذات قيمة علمية كبيرة في مختلف أنواع العلوم[٢] ، وهذا يدلنا على ما للأربطة من دور في نشر العلم بسبب محتوياتها النفيسة من الكتب العلمية في تلك الفترة.

رباط ربيع :

يقع بأجياد[٣] وهو من أحسن الأربطة بمكة . وأشار ابن بطوطة إلى وجود بئر عذبة بداخله[٤] . وحدد الفاسي سنة وقفه بسنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م ، وأوقف على المسلمين الفقراء الغرباء وقام السلطان الأفضل نور الدين علي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بوقفه[٥] .

رباط كلالة :

لم يفصل ابن بطوطة في حديثه عن هذا الرباط[٦] ، بينما حدد الفاسي وابن فهد موقعه بالمسعى وذكرا سنة وقفه بسنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م وواقفه أبو القاسم ابن كلالة الطيبي[٧] .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥٢٨ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١١٨ .
(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٦٠ .
(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ ٢ ، ص ٥٦٤ .
(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥٤ .
(٥) الفاسي :شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ؛ الفاسي :العقد الثمين ، جـ١ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ؛ فواز على الدهاس : بحث لم ينشر الأربطة ودورها العلمي والاجتماعي بمكة المكرمة ؛ المدارس في مكة المكرمة في العهدين الأيوبي والمملوكي ، بحث لم ينشر .
(٦) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥٤ .
(٧) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥٣٢ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ٦٤ .

الأربطة بجُدَّة :

لم يرد ذكر الأربطة بجُدة في كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين سوى رباط واحد ينسب لأبي هريرة[1] ، أشار إليه التجيبي ؛ ومن العجيب أنه لم يقم بمشاهدته مع بقائه بجُدَّة عدة أيام ولعل نسبته لأبي هريرة على سبيل التقدير والذكرى[2] . كما لم يشر إلى هذا الرباط أحد من المؤرخين أو الجغرافيين المسلمين الذين اطلعنا على مؤلفاتهم سوى الحميري وذلك بقوله « وبجُدَّة رباط لأبي هريرة معروف »[3] .

ولم يرد ذكر للأربطة بالمدينة المنورة .

المباني :

المباني بمكة المكرمة :

انفرد ابن جبير وابن بطوطة بوصف مبانيها، وخاصة القريبة من الحرم . حيث تميزت بارتفاعها واتصال سطوحها بسطح المسجد الحرام . حيث كان أهلها يخرجون منها إلى المسجد الحرام ، كما يمكن الوصول إلى داخل المسجد الحرام عن طريق بعض أبوابها المفضية إليه[4] .

وقد حرص الرحالة المغاربة والأندلسيون على مشاهدة دور بمكة المكرمة وخاصة تلك المرتبطة ببداية الإسلام ، ولها علاقة بالرسول ﷺ والتي منها :

دار خديجة رضي الله عنها :

ذكر بداخلها أربعة مواضع هي :

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ .

(٢) عبد القدوس الأنصاري : موسوعة تاريخ جدة ، ص ٤٣٦ .

(٣) الحميري : الروض المعطار ، ص ١٥٧ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٢٣ ، ٨١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦٦ ، ١٤٠ ، وهذه إشارة إلى أن الحرم ليس له بوابات تغلق وإنما عبارة عن ممرات الحارات التي بين الدور .

١- قبة الوحي .

٢ ـ مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما .

٣ ـ مختبأ النبيﷺ .

٤ ـ قبة مولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

سماها ابن جبير قبة الوحي وأطلق عليها التجيبي اسم دار خديجة وبداخلها قبة تسمى قبة الوحي ، أما ابن بطوطة فسماها قبة الوحي ودار خديجة(١) ، وبهذه الدار كان زواج النبيﷺ بالسيدة خديجة رضي الله عنها ، كما وجد بها قبة أخرى هي علامة على مكان مولد السيدة فاطمة الزهراء ، وبهذه الدار مولد الحسن والحسين ابني فاطمة الزهراء رضي الله عنهم ، وهذا ولا شك وهم من ابن جبير فالحسن رضي الله عنه ولد بالمدينة في سنة ٣هـ/٦٢٤م وقيل بعد غزوة أُحُد بسنة أو سنتين ، وولد الحسين رضي الله عنه سنة ٦هـ/٦٢٧م بالمدينة أيضاً(٢) .

ويبدو أن هذه الدار قد طرأ عليها العديد من الإصلاحات ، وجُعلت مسجداً ولم يستخدم للصلاة إلافي أوقات معينة ، ويتم فتحه عادة يوم مولد النبي ﷺمن كل سنة(٣) . وأحياناً في أيام الموسم فالتجيبي دخلها في تلك الأيام . وبداخل الدار موضع صغير مشابه للصهريج مائل للطول وفي وسطه حجر أسود للدلالة على مكان مولد السيدة فاطمة رضي الله عنها .

وحدد ابن جبير مكان مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما بأنهما موضعان متلاصقان عليهما حجران مائلان للسواد وضعا علامة على مكان

---

(١) ابن جبير:الرحلة ، ص٩١ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص٢٣٤ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٠ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ١ ، ص ٤٨٨ ، ٤٩٦ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٢ .

ولادتهما[1] . ومع إشارة ابن جبير لهذا فقد قـام التجيبي بنفيه[2] . والواقع أننا لا نعرف شيئاً عن كيفية توصل أهل مكة المكرمة لتعيين مكان مولد السيدة فاطمة رضي الله عنها ولا الأساس الذي اعتمدوا عليه في ذلك . فالأزرقي في وصفه للدار لم يشر إلى مكان مولد السيدة فاطمة . ومالدينا من معلومات في هذا الصدد هو ولادة السيدة خديجة لجميع أولادها بها[3] .

وذكـر ابن بطوطة أن مكان هذه الدار بمقـربة من باب النبيﷺ[4] . ولم يضف البلوي شيئـاً على مـا سبق سوى نقش في قبـة الوحي يدل على تاريخ عمارتها[5] . وقد أيد الفاسي قيام الملك المظفر ملك اليمن بتشييد القبة حسبما جاء في النقش[6] .

وعلل التجيبي السبب في تسمية قبة الوحي بذلك لنزول الوحي فيها على النبيﷺ[7] ، وفي داخل البناء يوجد مكان يشبه القبة تحته فتحة داخل الجدار عليها حجر يقال إنه مقعد الرسولﷺ ، والحجر المبسوط فوقها هو الحجر الذي غطى النبيﷺ عند اختبائه من مرمى الأحجار المقذوفة عليه[8] .

ويبدو أن الخبـر قديم لإشارة عوام الناس إليه على حسب قول الأزرقي الذي استنتج من خلال حديثه مع كبار أهل العلم بمكة المكرمة عند سؤالهم عن

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩١ . انظر الصفحة السابقة .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٣٤ .

(٣) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٠ .

(٥) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١١ .

(٦) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ .

(٧) التجيبي : مستفاد الرحلة ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

(٨) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩١ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١١ . وهذا غير صحيح لأنه لو كان هذا المكان معرضاً للحجارة لانتقل النبي صلى لمكان آخر يكون فيه بعيداً عن مرماها ولم يبق في مكانه معرضاً نفسه لقذف الحجارة ومختبئاً داخل الجدار .

هذا الخبر وإجابتهم بعدم علمهم بذلك ، وعلل الأزرقي وجود المكان قائلاً : إن أهل مكة اعتادوا اتخاذ صفائح من الحجارة في منازلهم تستخدم كأرفف يوضع عليها المتاع والآنية من الصيني وغيره وقلّ أن يخلو بيت من تلك الأرفف(١) .

وأضاف ابن جبير أن على كل موضع من مواضع الموالد الثلاثة قبة خشب متحركة يقوم الزائر بتنحيتها ولمس الموضع تبركاً(٢) ، والجدير بالذكر عدم وجود معلومات مفصلة عن عمارة المسجد الموجود بالدار .

دار مولد النبي ﷺ :

تحدث كل من ابن جبير والبلوي عن التفاصيل المعمارية لموضع مولد النبي ﷺ بقولهم إنه مكان مجّوف يبلغ اتساعه ثلاثة أشبار وتوجد في وسطه رخامة خضراء محاطة بالفضة سعتها شبر وسعة الرخامة ثلثا شبر ، وبجانب الموضع محراب محلى بالذهب وتقع هذه الدار شرقي الكعبة(٣) .

وأشار التجيبي إلى وجود أثر كوّة في حائط الدار يقال : إنها أثر عمامة النبي ﷺ لاستناده إلى الحائط تاركاً أثرها بعد أن لان له .

وفي أحد الأركان موضع يصعد إليه بدرجات ، حفظ فيه الحجر الذي كلم النبي ﷺ وحمل إلى الدار من جبل أبي قبيس(٤) .

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ . انظر الرسم رقم ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤٢ . وهذا الأمر كان في فترة كثر فيها مثل هذه الأفعال . وتقع هذه الدار في الوقت الحاضر في الزقاق المعروف بزقاق الحجر أو زقاق العطارين بسوق الليل المعروف بسوق الصاغة . انظر فيصل عراقي : الأماكن المأثورة في مكة المكرمة ، مجلة المنهل ، العدد ٤٧٥ ، المجلد ٥١ ، الربيعان ١٤١٠هـ/اكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩م ، ص ٥٦ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤١ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ وتقع هذه الدار في زقاق الصوغ بالقشاشية بجوار البنك الأهلي وهذه الدار لا تزال موجودة إلى الآن وتعرف اليوم بمكتبه مكة المكرمة . انظر البلادي : معالم مكة التاريخية ، ص ٢٧١ .

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٣٣ . ونلاحظ تعدد الروايات من قبل الرحالة أنفسهم حول هذا الحجر الذي كلم النبي ﷺ فنجد أن التجيبي يذكر أنه من جبل أبي قبيس ونقل إلى دار مولد النبي=

ونقل البلوي نقشاً من الدار يدل على عمارة الناصر الخليفة العباسي لها سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م(١) وقد ذكر الفاسي هذه الدار بسوق الليل وأيد خبر عمارة الناصر لها في هذا التاريخ(٢) .

دار الخيزران :

وصفها ابن جبير بمنشأ الإسلام وتقع بجوار الصفا ملتصق بها منزل صغير كان مسكناً لبلال ، قام بتجديده جمال الدين الوزير الجواد بمبلغ قدره ألف دينار . وعلى يمين الداخل إلى الدار باب يفضي إلى موضع مقبب بديع البناء هو موضع جلوس النبيﷺ بجوار صخرة يستند إليها تخترق الدار بهيئة المحراب ، وعن يمين موضع جلوس النبيﷺ موضع جلوس أبي بكر وعلى رضي الله عنهما .

= ﷺ وابن رشيد يذكر أنه موجود بجهة باب النبي أمام دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه بارز عن الحائط قليلاً وكذلك ابن جبير وابن بطوطة . بينما يذكر البلوي أن في هذا المكان مصطبة فيها متكأ يقصده الناس ويصلون فيه ويتمسحون بأركانه لأنه موضع جلوس النبيﷺ. انظر ابن جبير: الرحلة، ص ٩٢ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٣١ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٠ ؛ البلوي : تاج المفرق ، ص ٣١١ . ومجمل القول إنه لا يوجد ما يشهد بصحة معرفة مكان الحجر في السنة علاوة على التمسح والتبرك به فهذه من الأمور التي غالى فيها أهل تلك الفترة ولم يثبت فعل شيء من هذا القبيل في الأحاديث وقد ورد في ذكر الحجر ما رواه جابر بن سمرة عن النبيﷺ قال « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » . انظر مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ، جـ ١٥ ، ص ٢٦ فقول النبيﷺ هنا واضح وصريح ولم يعين لأحد مكانة ولاشتهار هذا الأمر بين أهل مكة يردد بعضهم قول شاعر على لسان الحجر :

أنا الحجر المسلم كل حين ... على خير الورى فلي البشارة

وتلك مزية من فضل ربي ... خصصت بها وإن من الحجارة

ولم نستطع الحصول على مصدر قائل هذه الأبيات .

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٢ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ .

وقد أعلن عمر بن الخطاب إسلامه في هذه الدار وقام النبي ﷺ بتعليم المسلمين الأوائل مبادىء الإسلام بها سراً[١] وحدد التجيبي موقعها عند الصفا وكانت للأرقم ابن أبي الأرقم ثم صارت ملكاً للخيزران من قبل المهدي وكانت لأبيه المنصور الذي قام بشرائها من أولاد الأرقم مقابل مبلغ كبير من المال[٢] ، وقد أيد الفاسي أقوال الرحالة في مكانها ومتولي عمارتها وتاريخه[٣] .

دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

وهي تقع بالقرب من دار الخيزران ووصفت بأنها دارسة الأثر[٤] ولم يأت الأزرقي على ذكرها في ذلك الموضع دلالة على أنها إحدى الشائعات التي تحاك حولها بعض الروايات التاريخية .

وذكر الفاسي أن هذه الدار شيدت زمن نور الدين عمر بن رسول سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م[٥] ، في حين أشار إليها ابن رشيد ولكن دون تفاصيل[٦]. وذكر البلوي أنها دار سكة الأمير[٧] مما يدل على أن نقوداً خاصة بالأشراف كانت تسك بمكه في ذلك الوقت .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٢ ، ١٤٥ .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٣٦ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٤٠ ؛ وكانت تقع على جانب جبل الصفا الأيمن فوق أنفاق الصفا المؤدية إلى جنوب العزيزية وقد هدمت ومكانها في ساحة موقف السيارات شرقي المسعي وأكثر الناس الآن لا يعرف موقعها . انظر البلادي : معالم مكة التاريخية ، ص ٢٧٢ ؛ حسين عرب : المساجد المأثورة في مكة المكرمة ، مجلة المنهل ، العدد ٤٧٥ ، المجلد ٥١ ، الربيعان ١٤١٠هـ/ اكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩م ، ص ٥٣ .

(٤) ابن جبير: الرحلة ، ص٩٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٤٠ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ١ ، ص ٣١ .

(٥) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

(٦) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ٥ ، ص ١٣١ .

(٧) البلوي : تاج المفرق ، جـ١ ، ص ٣١٣ .

قبة الصفا والمروة :

انفرد ابن جبير بذكر قبة بين الصفا والمروة تنسب لعمر بن الخطاب يجلس فيها للحكم . واستدرك قائلاً في نسبتها إلى عمر بن عبد العزيز على اعتبار أنه أصح وهي قريبة من دار تنسب إليه[1] . ثم أشار إلى وجود بئر قديمة لم تكن موجودة زمن رحلته[2] .

موضع صلب عبد الله بن الزبير :

حدد ابن جبير وابن بطوطة مكانه عند مقبرة المعلاة حيث شاهدا بقية أثر بناء مرتفع هدمه أهل الطائف بسبب لعن الناس للحجاج المنتسب إليهم[3]. في حين ذكر التجيبي وجود حائط في هذا المكان كتب عليه « هنا صلب الحجاج ابن يوسف عبد الله بن الزبير »[4] ولا يحمل النص أيه معلومات عن القائم بتشييد الحائط . ويبدو أن هذا الحائط أقيم كعلم للمكان .

الدور بالمشاعر المقدسة :

عرفات :

وجد أسفل جبل الرحمة على يسار القبلة دار قديمة ذات غرف ونوافذ عديدة تنسب لآدم عليه السلام[5] .

وأشار الفاسي إلى الدار المنسوبة إلى آدم عليه السلام وذكر بأن من أمر

---

(١) وكأنه يلمح بوجود دار لعمر بن عبد العزيز في ذلك الموضع ولكنه لم يذكرها .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٢ ـ ٩٣ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٧ ـ ٨٨ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٢ ، وهنا تشابه تام في الوصف مما يشير إلى نقل ابن بطوطة عنه .

(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٣٩ .

(٥) إن نسبة هذه الدار لآدم عليه السلام وهم فالأزرقي لم يصف شيئاً كهذا في عرفات وأغلب الظن أنها من المستحدثات التي بنيت بعد ذلك .

ببنائها أم المقتدر بالله العباسي لوجود النقوش الدالة على ذلك في حجر في حائطها القبلي(١) .

الدور بالمدينة المنورة :

وجدت بالبقيع دار « نسبت لفاطمة بنت الرسولﷺ قيل إنها اعتصمت بها حزناً بعد وفاة أبيهاﷺ »(٢) .

الدور بجُدّة :

استعمل سكان جُدّة في بناء بيوتهم الأخصاص . كما وجدت بها فنادق بنيت بالحجارة والطين في أعلاها غُرف من أخصاص إضافة إلى سطوحها . فهذه الغرف والسطوح اتخذت كوسيلة لتفادي الحر . وقد ذكر ابن جبير أن بُجّدة آثار قبة قديمة قيل أنها منزل حواء أم البشر .

وذكر ابن جبير أن الجباب والصهاريج مصدر الماء لأهل جُدّة . كما أشار ابن جبير والتجيبي إلى تهدم أكثر دورها(٣) .

الدور في قرى الحجاز :

أقام الشريف أبو نمي حول حصنه بالبرابر دوراً جميلة محفوفة بالنخيل والماء الجاري مزروع بها الكثير من الخضر(٤) .

رابعاً : العمارة الحربية :

الأسوار :

أسوار مكة المكرمة :

بالرغم من وقوع مكة المكرمة بين جبال قام أهلها بتشييد أسوار على

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٤٨٢ ــ ٤٨٨ .
(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٣ ــ ١٧٤ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٤ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .
(٤) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٢ ــ ٢٢٣ .

مداخلها الثلاثة حيث شاهد ابن جبير آثاره من جهة المعلاة والمسفلة والعمرة[1] وهي المداخل المستخدمة في دخولها . وأغلب الظن أن هذا السور يعود بناؤه إلى زمن المقتدر بالله[2] . ولعله أول سور أقيم عليها إذ لم تشر المصادر إلى وجود سور قبل ذلك . ويبدو أنه قد أصابه التلف أو السقوط إذ يلاحظ آثار تجديد له فيما بعد فقد رأى العبدري سوراً جديداً من الصخور عبارة عن « حائطين من الصخور لا ملاط[3] له قطعا الوادي عرضاً في أعلى مكة وأسفلها »[4] .

ويبدو أن الشريف أبا عزيز قتادة هو القائم بتجديده من قبل المظفر[5] . صاحب إربل سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م[6] .

وجعل لهذا السور أبواب منها باب المعلاة في أعلى مكة للوصول إلى الحجون ، فالحجون فيما يبدو من أقوال الرحالة كانت خارج مكة لم يمتد إليها العمران بعد . ومنها باب المسفلة جهة الجنوب وباب يسمى الزاهر أو العمرة أو الشبيكة في الجهة الغربية[7] .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩١ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٢٦ .

(٣) الملاط الطين الذي يجعل بين البناء ويملط به الحائط . انظر ابن منظور: لسان العرب ، جـ٧ ، ص٤٠٦ .

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٣ .

(٥) كوكبري بن أبي الحسن على بن بكتكين الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل له مآثر حسنة بمكة ولد بقلعة الموصل ليلة الثلاثاء سابع عشر المحرم سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وتوفي ليلة الجمعة رابع عشر رمضان سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م بقلعة إربل ودفن بها ثم حمل ليدفن بمكة بوصية منه في سنة ٦٣١هـ/١٢٢٣م فرجع الحاج ولم يصلوا مكة فردوه ودفنوه بالكوفة . انظر الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٧ ، ص ١٠٠ ـ ١٠٧ .

(٦) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٩ ـ ١٠ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٢٦ .

(٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٧ ـ ٨٩ ؛ العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣١ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، =

وما ذكره الرحالة في أسوار وأبواب مكة أيده مؤرخو مكة في ذلك الوقت[1] .

أسوار المدينة المنورة :

أشار ابن جبير إلى وجود سورين متقابلين اشتملا على أربعة أبواب متقابلة مصنوعة من الحديد يسمى أحدها باب الحديد والآخر مغلق يسمى باب القبلة وأيضاً باب الشريعة وباب البقيع المفضي إلى البقيع شرقي المدينة[2] . وقام الوزير الجواد بتشييد هذا السور[3] .

ويبدو أن السور قد أصابه الإهمال في زمن رحلة العبدري . حيث إنه لم تمتــد إليه يد العمران طوال الفترة بين ابن جبير والعبدري والتي تقّدر بأكثر من قرن ، كما وأن العبدري لم يشر إلى عدد أبواب المدينة مكتفياً بالقول باشتمالها على عدة أبواب[4] .

وقد ذكر السمهودي وجود أربعة أبواب للمدينة ولكن بأسماء غير الأسماء التي ذكرها الرحالة[5] . أما ابن بطوطة فلم يتطرق لوصفها العام

= ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ؛ وذكر التجيبي أن باب العمرة يعرف الآن بالشبيكة وقديماً بالذاهد ولعله أخطأ في اسمه فهو الزاهر وأرجع تسميته بالشبيكة إلى بئر بذلك الموضع معروف هناك . انظر ، التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٣٣ ؛ وسماه العبدري الشبيكة . انظر العبدري : الرحلة المغربية ، ص ١٧٣ ؛ اما ابن بطوطة فسماه بالشبيكة والعمرة . انظر ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٣١ ؛ وسماه البلوي بالزاهر أو العمرة . انظر البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ . وربما يكون اسم الشبيكة نسبة إلى آبار تعرف بالشبيكة هناك . انظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٩ .

(١) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٩ ـ ١٠ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٢٦ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٣ ، ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٢ ، ص ٧٦٨ . انظر الرسم رقم ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٣ .

(٥) وهي باب بالغرب يعرف بدرب المصلى أو سويقه والباب الثاني في الغرب أيضاً يعرف بالدرب الصغير . والباب الثالث يعرف بالدرب الكبير أو الشامي والرابع يعرف بالبقيع في الشرق . =

بينما اتفقت معلومات البلوي وابن جبير بشأنها[1] ، ولعله اعتمد عليه في وصفه .

أسوار جُدَّة :

عليها سور محيط بها أشار إلى آثار ابن جبير، وذكره ابن المجاور وقال : إن أول القادمين إلى جدة من الفرس قاموا بتشييد سورٍ حولها به أربعة أبواب[2] ، وقد يكون اهتمام الفرس بجدة يرجع إلى رغبتهم في السيطرة على طريق التجارة بهذه المنطقة .

الحصون :

الحصون الموجودة بطرق الحجاز :

حصن بناه الشريف أبو نمي بالبرابر سماه بالجديد ذو بناء محكم شاهده التجيبي[3] . كما وجد بعُسفان حصن قديم ذو أبراج ولكنه لقدمه وخرابه غير مأهول[4] . وبخليص حصنان أحدهما ذو عمارة جديدة مبني على ربوة والآخر متهدم يقع أسفل منه[5] .

وفي بدر حصن على ربوة مرتفعة على مدخل بدر أغفل وصفه ابن جبير[6] ، وبالعلا حصن حوله دور كثيرة[7] .

= انظر السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٢ ، ص ٧٧٠ .

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٤ ؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٤٣ . انظر الرسم رقم ٢٨ .

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٢٢ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٢ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٩ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٣ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٧) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٥ .

أما الصفراء فقد أشار الرحالة إلى وجود حصون كثيرة بها منها حصنان يسميان التوأمين وآخر يعرف بالحسنية ورابع يعرف بالجديد وغيرها حصون كثيرة(١) .

الحصون بمكة المكرمة :

شيد الأمير مكثر بن عيسى حصناً فوق جبل أبي قبيس للتحصن فيه ولكن هدمه أمير الحاج العراقي إذ اعتبر بناء شيء كهذا خروجاً عن أوامر الخليفة(٢) . وقد أورد ابن الجوزي خبر هذه القلعة التي بناها أمير مكة كما فصل ابن فهد في خبر حادثة هدمها في حوادث سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م(٣) .

الحصون بالمدينة المنورة :

ورد ذكر حصون بالمدينة في كتب الرحلات منها حصن متهدم على حافة الخندق سماه ابن جبير وابن بطوطة بحصن العُزاب ونسبوا بناءه لعمر بن الخطاب الذي قام بإسكان عزاب المدينة فيه(٤) ، ولم نجد لهذا الحصن ذكراً في كتب المصادر التي تيسر لنا الاطلاع عليها وليس بمستبعد قيام عمر بن الخطاب ببنائه .

ومما سبق نجد أن أهل الحجاز قد عرفوا بناء القلاع والحصون وإن كنا لا نعرف الكثير عن تفاصيلها المعمارية أو أية تفاصيل أخرى عن المواد المستخدمة في بنائها .

ولا ننسى الخندق الموجودة آثاره بالمدينة بالجهة الغربية منها كما أشار إلى ذلك ابن جبير(٥) .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٥ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٥٢ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٦٠ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ ٢ ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٨ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص١٧٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٢٦ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٥ .

القبور :

قبر السيدة خديجة رضي الله عنها بمكة المكرمة :

جاء أول ذكر لقبرها لدى التجيبي الذي أشار إلى وجوده بالمعلاة دون تحديد لمكانه(١) . ومما يلفت النظر هنا أنه خلال وجود التجيبي بمكة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م لم يتوصل لتحديد مكانه خاصة وأن السابقين من الرحالة أغفلوا الإشارة إليه . بينما أشار ابن بطوطة إلى وجوده بجانب قبر الخليفة أبي جعفر المنصور(٢) . وعلى ذلك فهي أول رواية تقوم بتحديده دون إثبات الطريقة المتبعة في ذلك من إرجاع أصل الخبر إلى أهل العلم ، إضافة إلى أن أبا جعفر المنصور لم يعُرف على وجه الدقة القبر المدفون فيه(٣) .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو عن كيفية معرفة أهل مكة المكرمة لقبر السيدة خديجة رضي الله عنها ثم قبر الخليفة أبي جعفر المنصور مع ملاحظة الفارق الزمني بين الاثنين وقد عقّب الفاسي بالقول في هذا الموضوع : « ليس في القبر الذي يقال له قبر خديجة بنت خويلد أثر يعتمد »(٤) .

القبور بالمدينة المنورة :

قبر حمزة رضي الله عنه وقد بني عليه مسجد وتنتشر قبور الشهداء بجواره . بالإضافة إلى وجود تربة حمراء منسوبة لحمزة رضي الله عنه يتبرك الناس بها(٥) ، وهو من البدع الشائعة والتي أشار بعض الرحالة إليها والدالة على معتقداتهم وحالتهم الدينية في تلك الفترة .

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٤١ ويعرف الآن جزء من قبور المعلاة والتي تقع على يمين الصاعد إلى الحجون بقبور السيدة . انظر الرسم رقم ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٤٤ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ٤٥٦ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٣ .

كما أشار ابن جبير إلى وجود مشهد صفية عمة الرسولﷺ على يسار الخارج للبقيع أمام قبرها قبر مالك بن أنس وعليه قبة صغيرة وأمام قبره قبر إبراهيم ابن النبيﷺ وعليه قبة بيضاء أيضاً وعلى يمينه قبر عبد الرحمن ابن عمر بن الخطاب وبجواره قبر عقيل بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر الطيار رضي الله عنهم . وبجوارهم روضة فيها قبور أزواج النبيﷺ وبجانب الروضة روضة صغيرة فيها قبور ثلاثة من أولاد النبيﷺ[1] وتليها روضة العباس ابن عبد المطلب والحسن بن علي رضي الله عنهما وعليها قبة عالية وموقع هذه الروضة على يمين الخارج من باب البقيع وموضع قبريهما متسع وقد دفن الحسن قرب قبر العباس رضي الله عنهما ، أما صفة القبرين فإنهما مرتفعان ويغطي كلا منهما ألواح من الصفر تمسكها بعض المسامير وينطبق الأمر كذلك على قبر إبراهيم ابن النبي ﷺ .

وفي آخر البقيع قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه وعلى قبره قبة صغيرة وعلى مقربة منه مشهد لفاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما ونقش على قبرها « ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد »[2] .

واتفق ابن جبير مع ابن النجار حول مواضع قبور الصحابة ، إلا أن ابن جبير زاد عليه بتعيين قبر عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب وقبور أولاد النبيﷺ ، كما اختلف ابن النجار مع ابن جبير في أن قبر العباس عليه طين ، كما أن قبر الحسن بن علي عليه قبة كبيرة مرتفعة قديمة البناء عليها بابان ودفن الحسن بجوار قبر أمه فاطمة الزهراء بناء على طلبه فتم له ذلك[3] .

---

(١) من المعروف أن النبي صلى توفي أولاده صغاراً بمكة ولكن ربما المقصود هنا بنات النبيﷺ أو تكون من جملة الأخطاء التي وقع فيها الناس في ذلك الوقت ولم يسلم من الوقوع فيها الرحالة أنفسهم بسبب اشتهارها .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٣) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ١٥٣ ؛ حمد الجاسر : رسائل في تاريخ المدينة ، ص ١١ .

أما القول بأنها مدفونة بالمسجد النبوي في دارها فليست لدينا معلومات واضحة بصدده ، وخاصة أنها دفنت ليلاً ولم يعلم أحد بمكان دفنها . وقد يكون القبر الموجود بالمسجد النبوي هو قبرٌ لإحدى بنات الرسول ﷺ[١] ، فالرحالة أشاروا بوجود قبر بالمسجد النبوي نسبوه لفاطمة الزهراء[٢] .

كما ذكر ابن النجار أن على قبر إبراهيم ابن النبي ﷺ قبة ساج وعلى قبر عثمان بن عفان قبة مرتفعة[٣] .

كما أشار ابن رشيد إلى قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه وقبر فاطمة بنت أسد وقد قرأ النقش الموجود على قبرها « ما ضم قبر أم أحد كفاطمة بنت أسد »[٤] ، ثم زار قبر إمام الهجرة مالك بن أنس ولم يتعرض لوصف أحوال تلك القبور[٥] .

ونجد أن العبدري لفت انتباهه المميزات التي اختصت بها تلك القبور فقال واصفاً : إن القبور الموجودة بالبقيع والتي تخص الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين وجد على أكثرها قبابٌ ومبانٍ وأشهر القباب وأعلاها وأجملها وأكبرها قبة عثمان بن عفان رضي الله عنه[٦] ، ويلاحظ هنا اختلاف عما أورده ابن جبير. حيث يبدو أن القبة قد طرأ عليها التجديد حتى بدت بهذا المنظر الذي وصفه العبدري .

ثم تأتي قبة العباس في الجمال والعلو والاتساع بعد قبة عثمان بن عفان رضي الله عنهما . وأكد العبدري أن على كل عدة قبور قبة أو مبنى إلا قبر

---

(١) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٩٠٢ .
(٢) انظر فيما سبق ، ص ٢٢١ ، ٣٩٣ .
(٣) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ١٥٣ ـ ١٥٦ .
(٤) نلاحظ زيادة كلمة أم في النقش عما ذكره ابن جبير ولعل ذلك دلالة على تجديد النقش .
(٥) ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٩ .
(٦) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٣ .

الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، وفي موضع رأسه حجر كتب فيه « توفي الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ومولده في ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين » .

وقد قام العبدري بالتبرك بالقبور مثل عامة الناس في ذلك الوقت وحمل معه بضع حصيات من قبر الإمام مالك على سبيل البركة والذكرى(١) . ونلاحظ هنا أن العبدرى بالرغم من نقده اللاذع لما يفعله المسلمون من أمور تخالف الشرع نجد أنه انزلق هو أيضاً في هذا الأمر وكأنه تناسى ما كان يقوله لمن يفعل مثل هذه الامور عندما قام بأخذ هذه الحصيات .

القبور بجُدّة :

شاهد ابن جبير خارج جُدّة قبة مبنية قيل : إنها منزل حواء أم البشر في حين قال التجيبي في رحلته بأنه قبرها . ولكن التجيبي أشار إلى أن أهل العلم ينفون ذلك ويذكرون أنه مكان نزولها فبني ذلك البناء تشهيراً عليه لبركته وفضله وأضاف التجيبي أنه رأى بداخلها هيئة قبر(٢) .

الآثار المعمارية القديمة بالحجاز :

تحدث الرحالة المغاربة والأندلسيون عن الآثار المعمارية في جدة المستحدث منها والقديم الخرب وسواء ما كان منها في العصور الإسلامية أو قبلها . ومن هذه الآثار القديمة ما ذكره ابن جبير والتجيبي وابن بطوطة والتي تدل على أن جدة كانت مدينة قديمة من مدن الفرس ذات الشأن الكبير(٣) ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٤ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ . ولا يزال إلى الآن الاعتقاد بأن هذا المكان هو قبرها ولا يزال الموضع معروفاً بجدة . انظر الرسم رقم ٣١ ، ٣٢ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٣ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

وهذا ليس بمستبعد إذ له دلائل تؤيده أفاض بذكرها عبد القدوس الأنصاري[1] ، إضافة إلى أن الفرس قد عرفوا الحجاز قديماً وخاصة مكة وكان ملوكها يعظمون الكعبة المشرفة ويأتون للطواف حولها كما كانوا يهدون إليها الهدايا والتي منها الغزالان اللذان وجدهما عبد المطلب في البئر عندما حفر زمزم[2] ، وعليه فربما كانت الفرس منذ تلك الأيام تأتي لمكة إما عن طريق البر أو عن طريق البحر عبر جُدَّة التي ذكر ابن المجاور قدمها[3] .

ولنا أن نشير إلى أن سبب تعظيم الفرس للكعبة المشرفة لما قيل : إن أسلافهم يرجع نسبهم إلى إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام فكانوا يحجون إلى الكعبة المشرفة وكان آخر من حج من ملوكهم ساسان بن بابك[4] .

وقد سبقت الإشارة إلى قدم سورها والجباب المحفورة في الحجر الصلد والتي أشير إلى كثرة عددها وفيها يقول ابن المجاور : إن الفرس بعد أن أتموا بناء جُدَّة وسورها خافوا من قلة الماء فبنوا هذه الصهاريج لتسد حاجتهم من الماء[5] . وأضاف أن الفرس هم الذين بنو ضريحاً على قبر حواء أم البشر وبقي متماسكاً إلى سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م[6] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه من غير المعروف قبر أحدٍ من الأنبياء يقيناً إلا قبر المصطفى ﷺ مما يضعف كون هذا الموضع قبر أم البشر حواء .

---

(١) عبد القدوس الأنصاري : موسوعة تاريخ جُدَّة ، ص ٥٨ ـ ٧٣ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ١٤٦ ؛ المسعودي : مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

(٣) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٢٤٢ .

(٥) ابن جبير :الرحلة ، ص ٥٣ ؛ التجيبي :مستفاد الرحلة ، ص ٢١٩ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص٢٤٢؛ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٥٣ .

(٦) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

خامساً : الزخارف والنقوش :

استعمل أهل الحجاز النقوش والزخارف وسجّل الرحالة المغاربة والأندلسيون عدداً ليس بالقليل منها ، فمن هذه النقوش ما كتب على واجهات الأبنية سواء منها الدينية أو المدنية ، ومنها ما كتب على شواهد القبور ، ومنها ما كتب لتسجيل حادثة أثبت النقش فناء أصحابها والطريقة التي تم بها هلاكهم فمن هذه النقوش :

نقش بداخل قبة الوحي بدار السيدة خديجة رضي الله عنها :

سجل البلوي نقشاً وجد في داخل قبة الوحي يدل على أن الدار كانت محط عناية ملوك وأمراء المسلمين من حيث تجديدها وعمارتها والعناية بها . كما يشير النقش إلى عناية واهتمام ملوك المسلمين بالتلقب بلقب خادم الحرمين الشريفين ونص النقش « بسم الله الرحمن الرحيم تقرب إلى الله تعالى بعمارة هذا الموضع الشريف المنسوب إلى خديجة رضي الله عنها ومسكن رسول الله ﷺ ومهبط الوحي الكريم العبد المفتقر إلى رحمة الله تعالى مولانا السلطان ابن السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي خادم الحرمين الشريفين بلّغه الله تعالى غاية آماله وتقبّل منه صالح أعماله وذلك بتاريخ شهر صفر سنة ست وثمانين وستمائة »[1] .

ويبدو أن أول من حمل هذا اللقب السلطان صلاح الدين الأيوبي لأنه وجد نقش في بيت المقدس مؤرخ بسنة ٥٨٧هـ/١١٩١م[2] ، وممن تلقب به أيضاً السلطان حسام الدين أبو الفتح لاجين المنصوري سلطان مصر فقد سمع التجيبي الدعاء له على قبة بئر زمزم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتلقيبه

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١١ .

(٢) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، ص ٢٦٨ .

بـ « ملك البـرين والبـحـرين خـادم الحـرمين الشـريفين »[1] . وذلك في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م .

وتلقب به بعد ذلك السلطان الناصر محمد بن قلاوون . فقد شاهد البلوي نقشاً في سقف الروضـة الشريفـة ، بدأ بقصـيدة شعـرية وانتهى بسبغ وابل الألقاب على الملك الناصر . وقد أثبت البلوي نص النقش في رحلته فقال « اللهم أدم العـز والتـمكين والنصـر والفـتح المبين لعـبدك المسكين الذي أوليتـه أمـور المسلمين واخترته على كثـير من العـالمين السلطان الملك الناصـر ناصر الدنيا والدين وأبو المعالي محـمد قسم أمـير المؤمنين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفـرة والمشـركين قـاهـر الفـجرة والمتمـردين حـامي حـوزة الدين سلطان الديار المصرية والعراقية والبلاد الشامية ملك البحرين خادم الحرمين الشريفين ولد السلطان المرحوم الملك المنصـور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي أدام الله أيامه ونشر في الخافقين رايته وأعلامه وجعل السعد والإقبال حيثما توجه أمامه وكان ابتداء العمل في شهر ربيع الأول وانتهاؤه في جمادى مستهل الأخير سنة إحدى وسبعمائة للهجرة النبوية »[2] .

ومـا سبق يدل على مـدى أهمـيـة هذا اللقب وتنافس الملوك في حمله من مـصـر واليـمن . ويبدو أن هـذا اللقب أصبح من ضـمن الألقـاب الرسـمـيـة لملوك مصر المماليك[3] .

نقش عمارة دار مولد النبيﷺ :

وكـعـادة البلوي في الحـديث عن النقـوش قام بتسـجـيل نقشٍ يدل على عمارة مكان مولد النبيﷺ ونصه « هذا ما أمر بعمله عبد الله وخليفته الإمام

---

(١) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٠٤ .

(٢) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ ٦ ، ص ١٢٠ .

الناصر لدين الله أبو العباس أحمد أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره في سنة ست وسبعين وخمسمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله»[1] .

نقش مسجد البيعة :

نقل التجيبي نقشاً في مسجد البيعة يدل على مكانه وقد كتب النقش على حجر بواجهته « هنا كانت أول بيعة كانت في الإسلام »[2] .

نقش رباط الموفق :

أشار هذا النقش إلى تحديد تاريخ وقفه فقد شاهد الفاسي النقش على حجر به ونصه « رباط القاضي الموفق جمال الدين علي بن عبد الوهاب الاسكندري وقفه على فقراء العرب الغرباء ذوي الحاجات المتجردين ، ليس للمتأهلين فيه حظ ولانصيب في سنة أربع وستمائة »[3].

وفي هذا إشارة إلى احتواء الأربطة على نقوش تحدد سنة وقفها وواقفها .

نقش مسجد علي بن أبي طالب :

سجل ابن جبير نقشاً نقله من واجهة مسجد يشير إلى أن هذا المسجد أصله دار أبي طالب ونصه « هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وفيه تربى رسول الله ﷺ وكان داراً لأبي طالب عم النبي ﷺ وكافله »[4].

---

(١) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٢ .

(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٨ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥٣٦ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٤١ .

نقش المصحف المنسوب لزيد بن ثابت رضي الله عنه :

أمدنا التجيبي بوصف مفصل للمصحف المنسوب لزيد بن ثابت وقال : إنه كتب على ظهره بخط حديث ما نصه « كتب عام ثمانية عشر لوفاة الرسولﷺ » وذكر أن خط المصحف يشبه الخط الكوفي وكل ورقة من أوراقه عبارة عن جلد كبش كامل قطعت أطرافه . وأضاف أن المصحف أصابه البلل في معظم أجزائه بسبب السيول التي داهمت الحرم عقب التسعين وستمائة[1] .

وقد مُحي كثير من الخط ، وفيه أوراق كتبت بخط حديث ، وإن جميع الخط خالٍ من الضبط سوى أحرف يسيرة معجمة رأى منها الفاء منقوطة وعاين لفظ « الربوا »[2] هكذا مكتوبة بالواو والألف كما رأى في أول السور عدد آي السور بالخط القديم[3] .

النقوش بالمسجد الحرام :

نقوش المسعى :

شاهد ابن جبير نقشاً على الميل الأخضر يثبت عمارة المهدي له مكتوب على لوح وضع في أعلى السارية وقد نقش بالذهب فيه [« إن الصفا والمروة من شعائر الله »[4] ثم أمر بعمارة هذا الميل عبد الله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره في سنة ثلاث وسبعون وخمسمائة] (هكذا ورد النص سبعون) كما نقل نقشاً آخر كتب على سارية

---

(١) لم يدخل المسجد الحرام سيل كبير في هذه الفترة وربما كان السيل الذي حدث سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م وحدث تصحيف للستين فأصبحت تسعين . انظر الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٢) القرآن الكريم : سورة البقرة ٢/٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، ٢٧٨ .

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

(٤) القرآن الكريم : سورة البقرة ٢/١٥٨ .

خارج باب الصفا مسجل فيه أمر المهدي بتوسعة المسجد الحرام بحيث تكون الكعبة في وسطه ونصه « أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله تعالى بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين ومئة » ، وكتب أسفل هذا النقش نقش آخر نصه « أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة الباب الأوسط الذي بين هاتين الاسطوانتين وهو طريق رسول الله ﷺ إلى الصفا » .

وقد أشار ابن جبير إلى نقش ثالث في أعلى السارية التي تلي السارية السابقة منقوش عليها ما نصه « أمر عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أصلحه الله بصرف الوادي إلى مجراه على عهد أبيه إبراهيم ﷺ وتوسعته بالرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمّاره » وتحته نقش يشير إلى أمر المهدي بتوسعة الباب الأوسط[1] .

نقوش وزخارف الحِجر :

وصف ابن جبير جدار الحِجر بأنه من الرخام المركب بأشكال جميلة على هيئة مربعات ودوائر مثبتة بواسطة أسلاك من الصفر المذهب . أما أرض الحجر ففرشت بالرخام ووضعت رخامتان بجدار الحجر مقابل الميزاب وهي ذات شكل جميل نقش بها « أمر بصنعها إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف العباسي » وفي رخامة في وسط الحِجر أمام الميزاب نقش فيها « مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمائة » .

كما حفظ ابن جبير لنا نقشاً في جدار الحِجر يشير إلى تجديده زمن الناصر ونصه « أمر بصنعهما على هذه الصفة إمام المشرق أبو العباس أحمد

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

الناصر بن المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف العباسي رضي الله عنه »(١) .

بينما أشار البلوي إلى نقشٍ يدل على عمارة المطاف ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة المطاف الشريف سيدنا مولانا الإمام الأعظم المفروض الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلّغه الله آماله وزيّن بالصالحات أعماله وذلك في شهر وسنة إحدى وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله »(٢) كما أشار البلوي أيضاً إلى الزخارف والنقوش الذهبية الجميلة الصنعة المطعّمة بالفضة التي كانت بمنبر المسجد الحرام(٣) .

النقوش بالكعبة المشرفة :

حظيت الكعبة المشرفة بالكثير من النقوش الجميلة المكتوبة بالذهب والتي منها ما كتب على باب الكعبة المشرفة ويشير إلى القائم بتجديده ونصه « مما أمر بعمله عبد الله وخليفته الإمام أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين ﷺ وعلى الأئمة آبائه الطاهرين وخلّد ميراث النبوة لديه وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين في سنة خمسين وخمسمائة »(٤) .

أما كسوة الكعبة المشرفة فقد نالت العناية الكافية من النقوش حيث أشار ابن جبير إلى نقش كتب بأعلى الكسوة برسم من الحرير الأحمر فيه « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة »(٥) واسم الإمام الناصر لدين الله . كتب هذا

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٤ . انظر مناقشة النقش ما سبق ، ص ٣٧٠ ، هامش ٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٩ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٥٩ . انظر مناقشة النقش فيما سبق، ص ٣٧٣ .

(٥) القرآن الكريم : سورة آل عمران ٩٦/٣ .

النقش في مساحة سعتها ثلاثة أذرع كما وإن جميع كسوتها الخارجية ذات زخارف ونقوش بديعة متنوعة الأشكال من محاريب وكتابات مليئة بذكر الله تعالى والدعاء للناصر العباسي الآمر بإقامتها وجميع ما بها من رسوم وكتابات اتخذت لون الكسوة نفسها[1] .

النقوش بالمسجد النبوي :

حظي المسجد النبوي بالكثير من النقوش والزخارف ذات الألوان المتعددة الجميلة . فقد أشار ابن جبير إليها وقال واصفاً إن جدار القبلة منه قد غطي من أسفله برخام مجزع متعدد الألوان والنصف الأعلى منه مغطى بالفسيفساء موضوعة على شكل أشجار مختلفة الأشكال مائلات الأغصان ومحملة بالثمار .

وقد شملت هذه الزخارف جميع أرجاء المسجد إلا أن جدار القبلة منه كان له النصيب الأوفر، ويليه الجدار المواجه للصحن من جهة القبلة والجهة الشمالية . أما الجهة الغربية والشرقية فقد غلب عليهما اللون الأبيض مع إضافة أنواع كثيرة من الألوان عليه لتزيينه[2] وأورد البلوي نقشاً ينص على أن الملك الظاهر قدِم المدينة وخدم بالروضة ونصّه « بسم الله الرحمن الرحيم خدم بهذه الدار بزينة للحرم الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبر الصالحي قسيم أمير المؤمنين في سنة ثمان وستين وستمائة»[3].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٩ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٣) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧ .

النقوش ببعض مساجد المدينة المنورة :

نقش مسجد قباء :

سجل البلوي نقشاً وجد بأعلى محراب مسجد قباء يشير إلى تاريخ تجديده ونصه « بسم الله الرحمن الرحيم لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين[1] . هذا مقام النبي ﷺ جدد هذا المسجد في تاريخ سنة إحدى وسبعين وستمائة »[2] ولم يحدد النقش شخصية متولي التجديد .

نقوش شواهد القبور :

امتازت كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين بتقصي كل الأمور المتعلقة بالمدينتين المقدستين حتى أنهم سجلوا ما وجدوه من نقوش على شواهد القبور ومن ذلك ما سجله العبدري من نقش وجد على قبر الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه كتب فيه « توفي الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ومولده في ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين »[3] .

كما سجل ابن جبير وابن رشيد نقش قبر فاطمة بنت أسد ونصه « ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد »[4] .

النقوش بطرق الحجاز :

تظهر أهمية النقوش التي كتبت على بعض الصخور في طرق الحجاز لإيضاح بعض الحوادث التي يتم فيها فناء قافلة من الحجيج ، فهذه النقوش

---

(١) القرآن الكريم : سورة التوبة ١٠٨/٩

(٢) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

(٣) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢٠٣ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ ٥ ، ص ١٩ .

يكتب فيها سبب هلاك القوم ومن هذه النقوش ما نقله ابن بطوطة عن نقشٍ وجد بوادي الأخيضر وفيه سجل سبب موت الحجيج في إحدى السنين ونصه « إنه أصاب الحجاج بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها »[١] .

سادساً : مشاريع المياه :

مشاريع المياه في المشاعر المقدسة :

المزدلفة وعرفات :

وجدت بعض مشاريع لتوفير المياه أيام الموسم ، منها صهاريج ومصانع لتجميع المياه قامت بعملها زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد ، ولكن بالرغم من ذلك فقد كانت الشكوى من ندرة المياه بها كما أشار لذلك بعض الرحالة[٢] .

كما أنشئت جباب وصهاريج لحفظ الماء بعرفات أسفل جبل الرحمة لم يعرف القائم بعملها[٣] .

مشاريع المياه بمكة المكرمة :

الآبار وأماكن الوضوء :

تحدث ابن جبير عن آبار عذبة تسمى الشبيكة على طريق التنعيم كما وجد بالزاهر آبار دلت عليها البساتين المنتشرة هناك . وأضاف إن بذي طوى آباراً تعرف بالشبيكة[٤] ولعله اختلط عليه أمرها فعدها اثنتين وهي في واقع

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢ ـ ١٣ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص١٥٠ ـ ١٥٢ ؛ ابن رشيد : ملء العيبة ، جـ٥ ، ص١٠٠ـ١٠٤ ؛ ابن بطوطة: الرحلة ، ص ١٦٩ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣١٦ .

(٣) ابن جبير :الرحلة ، ص ١٥٢ ؛ ابن بطوطة :الرحلة ، ص ١٩٦ ـ ١٧٠ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٨ ـ ٨٩ . وتعرف الان بجرول .

الأمر منطقة واحدة تسمى الشبيكة ولازالت تعرف بهذا الاسم حتى العصر الحاضر ، كما أكد ابن بطوطة والبلوي على وجود آبار بطريق التنعيم تعرف بالشبيكة وقد أكد ابن بطوطة على وجود بساتين غنّاء في منطقة الزاهر مما يوكد وجود آبار لسقيها[١] .

أما التجيبي فقد خص بالذكر بئراً بجانب باب العمرة أحد أبواب مكة المكرمة والذي كان يعرف زمن رحلته بباب الشبيكة اتخذت منه اسماً لها وذكر له أنه كانت هناك آبار أخرى مما يعني زوالها زمن وجوده بمكة إذ لم ينص إلا على بئر الشبيكة[٢] .

وانفرد ابن جبير بذكر بستان بالمسفلة[٣] مما يعني توفر الماء هناك خاصة وأن الفاسي قد ذكر بئراً هناك[٤] .

وأشار ابن بطوطة إلى وجود بئر عند باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام وبئر آخر بداخل رباط ربيع[٥] . وأكد التجيبي وجود بئر إبراهيم وانفرد بذكر بئر عذبة بمكة المكرمة تسمى بئر عسيلة وقال « لقد وافق اسمها مسماها إذ ليس حول مكة بئراً أشد حلاوة منه » وتوجد هذه البئر قرب المتكأ بطريق التنعيم ضمن آبار تعرف بالزاهر[٦] . وقد أكد ذلك الفاسي[٧] .

ونجد أن استمرار وجود مثل هذه الآبار إنما يعبر عن توالي التعمير والصيانة لها من قبل أمراء وملوك المسلمين وهو ما أوضحه الفاسي عند إيراده لذكر الآبار[٨] .

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٣ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ .
(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٣٣ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٣ .
(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥٤٦ .
(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤٣ ، ١٥٤ .
(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ .
(٧) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥٤٦ ـ ٥٥٢ .
(٨) المصدر السابق والجزء والصفحات .

أماكن الوضوء بمكة المكرمة :

أشار العبدري إلى عزم المنصور أبي الفتح لاجين سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م في إنشاء ميضأة عند باب إبراهيم ولكن حدوث فتنة في تلك السنة حال دون إنشائها ، وأضاف التجيبي إنها شيدت في عهد الناصر سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م[١].

ويذكر ابن بطوطة أن الملك الناصر بنى داراً للوضوء سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م بجوار رباط العباس بالمسعى وجعل لها بابين الأول في سوق الصفا والآخر في سوق العطارين وفوقها سكن القائمين على خدمتها وخدمة الرباط[٢] ، غير أن الفاسي ذكر عمارتها عند باب بني شيبة وأكد ابن فهد على عمارتها سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م[٣] .

عين بازان : أجراها دانيال العجمي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م بدعم من جوبان نائب العراق[٤] .

مشاريع المياه بالمدينة المنورة :

الآبار والعيون :

بئر في رحبة مسجد قباء :

حوضها متسع استعمل ماؤها للوضوء في زمن رحلة ابن جبير ، أما زمن البلوي فذكر أنها تقع أمام المسجد وقال إنها كبيرة ذات ماءٍ عذب يحمل ماؤها إلى المدينة[٥] .

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢١٨ ؛ التجيبي : مستفاد الرحلة ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٤١ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٥٥٩ ، ٥٣٢ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١٢٠ ؛ ابن فهد : إتحاف الورى ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ٢٨٥ ، هامش ٤ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٥ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٨٨ .

ويبدو أن هذه البئر خاصة بالمسجد ولعلها ليست من الآبار المشهورة إذ لم يرد لها ذكر في كتب مؤرخي المدينة التي اطلعنا عليها إلا في كتاب المغانم والذي نقل خبرها من ابن جبير[1] الأمر الذي يؤكد أهمية كتب الرحالة كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز حتى لمؤرخي القرون السابقة لنا .

بئر أريس[2] :

تقع بالقرب من مسجد قباء ولم يقم ابن جبير وابن بطوطة بوصفها[3] بينما أفاض في وصفها وابتداء أمرها والتجديدات المتوالية عليها وفضلها معظم مؤرخي المدينة[4] ، وأضاف عبد القدوس الأنصاري : أن البئر الآن ليس بها ماء سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م وأضاف علي حافظ : أن ملكية البئر الآن آلت إلى البلدية بعد أن قامت بعمل ميدان مسجد قباء في أواخر سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م وتبعد البئر عن باب المسجد اثنين وأربعين متراً جهة الغرب وهي الآن ناضبة ويمكن إخراج مائها بالإرتوازي[5] .

بئر بضاعة[6] :

أغفل وصفها ابن جبير وابن بطوطة[7] ، وقد جاء ذكرها وما ورد فيها من

---

(١) الفيروز أبادي : المغانم المطابة ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

(٢) هي البئر التي سقط فيها خاتم النبيﷺ من يد عثمان بن عفان وتعرف ببئر الخاتم . انظر ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤١ ـ ٤٣ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٥ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤١ ـ ٤٣ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٩٤٨ ؛ الفيروز أبادي : المغانم المطابة ، ص ٢٥ ـ ٢٩ .

(٥) عبد القدوس الأنصاري : آثار المدينة المنورة ، ص ٢٣٩ ؛ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

(٦) بئر بضاعة بصق فيه الرسول صلى ودعا وقال فيه « إن الماء طهور لا ينجسه شيء » . انظر ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٤ .

(٧) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٦ .

أثر النبي ﷺ لدى بعض مؤرخي المدينة[1] وذكر عبد القدوس الأنصاري وعلي حافظ أنها لا تزال موجودة إلى الآن[2] .

بئر رومة[3] :

انفرد ابن بطوطة بذكرها وأغفل وصفها وحدد موقعها في جهة الغرب من حصن العزاب بالقرب من الخندق[4] ، وقد نزحت وجددت في سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م وقيل سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م على يد شهاب الدين الطبري[5] .

العيون :

عين تتسب للنبي ﷺ :

حدد ابن جبير والبلوي موقعها بين المدينة المنورة والخندق على يمين الطريق ، مبني عليها جدار كبير مستطيل وتقع العين في وسطه ، أما فوهة العين فهي عبارة عن حوض مستطيل يخرج منها سقايتان بني بينهما جدار ينزل إلى وسطها بواسطة درج عددها خمس وعشرون درجة وماء هذه العين كثير وغزير ، ويعتمد أهل المدينة على مائها في غسل ملابسهم وشربهم ، وقد أشار ابن جبير إلى استعمال طريقة الاستقاء لتناول الماء منها صيانة وحفاظاً

---

(١) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٩٥٦ ـ ٩٥٩ ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٣١ ـ ٣٥ .

(٢) عبد القدوس الأنصاري : آثار المدينة المنورة ، ص ٢٤٦ ؛ علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص١٨١ ـ ١٨٣ . ويذكر أن هذه البئر موجودة الآن داخل إحدى عمارات تلك المنطقة . انظر الشنقيطي: الدر الثمين ، ص ١٦٧ .

(٣) بئر رومة ابتاعها عثمان بن عفان وتصدق بها . انظر ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٨ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٦ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ ١ ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ؛ العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ١٦١ ـ ١٦٦ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

على نظافة الماء[1] ، وذكر ابن النجار مبتدأ أمرها بقوله « كانوا أيام الخندق يخرجون برسول الله ﷺ ويخافون البيات فيدخلون به كهف بني حرام فيبيت فيه حتى إذا أصبح هبط فنقر رسول الله ﷺ في العينية التي عند الكهف فلم تزل تجري حتى اليوم وأضاف إن هذه العين ظاهر المدينة وعليها بناء وهي مقابلة المصلى »[2] .

ولم تعد تعرف هذه العين زمن السمهودي حيث دثرت ومحي أثرها وأوضح السمهودي الاختلاف في كونها العين التي تنسب للنبي ﷺ أو عين الأزرق ، وبين أنه يحتمل أن تكون عين النبي ﷺ كانت تجري إلى هناك وكذلك عين الأزرق ثم انقطعت الأولى وبقيت الثانية ، وأضاف إن اتفاق وصف ابن جبير وابن النجار لها يبعد احتمال كونها عين الأزرق[3] .

أما الفيروز آبادي فقد نفى أن تكون عين النبي ﷺ وأكد أنها عين الأزرق[4] .

وذكر علي حافظ أن الكهف معروف لدى أهل المدينة إلى الآن ولكنه لم يوضح هل لا يزال بها ماء أم لا [5] ؟ .

عين داخل باب الحديد أحد أبواب المدينة المنورة :

وهي منخفضة عن مستوى سطح الأرض يُنزل إليها بواسطة درج .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ . ولعله نقل وصفها من ابن جبير .

(٢) ابن النجار : أخبار مدينة الرسول ، ص ٤٩ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٩٨٥ .

(٤) الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٢٩٥ .

(٥) علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

ماؤها عذب ، قريبة من المسجد النبوي[1] ، ولعل هذه السقاية إنما هي عين الأزرق . فقد كان لها مجرى إلى سور المدينة وتخرج من تحت السور بمجريين على شكل درج وتستكمل مجراها إلى رحبة عند مسجد النبي ﷺ من ناحية باب السلام والذي تكفّل بإيصالها إلى باب السلام الأمير سيف الدين الحسين ابن أبي الهيجاء[2] في حدود سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م[3].

قبة حجر الزيت :

بناء عليه قبة تسمى قبة حجر الزيت يذكر أن الزيت رشح للنبي ﷺ من ذلك الحجر وتقع هذه القبة خارج المدينة [4] ، وأشار إليها السمهودي والفيروز آبادي ويذكر السمهودي روايتين تبين أن أحجار الزيت تطلق على موضعين الأول قريب من البزواء والثاني في الحرة في منازل بني عبد الأشهل[5] ، ويبدو من كلام ابن جبير وابن بطوطة أنه الموضع الأول ، وحدد علي حافظ موقعها بالمناخة قرب مشهد مالك بن سنان[6] .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٦ ؛ البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .

(٢) الحسين بن أبي الهيجاء صهر الصالح وزير الملوك المصريين أخذ من العين الزرقاء شعبة أوصلها إلى رحبة المسجد من جهة باب السلام وشعبة صغيرة تدخل صحن المسجد ثم بطل ذلك وعمل للحجرة الشريفة ستارة مكتوب عليها سورة ياسين بكاملها . انظر السخاوي : التحفة اللطيفة ، جـ ١ ، ص٥١٦ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٣ ، ص ٩٨٦ ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٦ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٢٦ .

(٥) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٤ ، ص ١١٢١ ـ ١١٢٢ ؛ الفيروز آبادي : المغانم المطابة ، ص ٩ .

(٦) علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ، ص ٢٧ .

أماكن الوضوء :

أشار العبدري إلى أمر الملك المنصور ببناء دار للوضوء عند باب السلام من ناحية الغرب فأقام داراً واسعة محكمة البناء أجرى إليها الماء وأوصله بالمنازل في حينه[1] وأكد ابن بطوطة والسمهودي ذلك حيث حدد الأخير تاريخ إنشائها بسنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م[2] .

ونخلص مما سبق إلى القول : إن المدينة المنورة كان عمرانها متقناً حسناً نستشف حسنها وترتيب بنائها من قول البلوي بأنها « طيبة الرائحة متسعة الأرجاء مشرقة الأنحاء طيبة الهواء كثيرة النخيل والماء ممتدة التخطيط والاستواء حسنة الترتيب والبناء »[3] .

فيبدو أن المدينة المنورة كانت أحسن حالاً من مكة المكرمة بدليل مشاهدات الرحالة المغاربة والأندلسيين من عمران تمثل في البناء المحكم على الآبار والعيون والسقايات وأماكن الوضوء . وأغلب الظن أن المدينة المنورة نعمت باستقرار سياسي نسبي نظراً لوفرة الماء بها فقد ازدهرت بالزراعة وخاصة النخيل ، كما نشطت حركة البناء والتعمير خاصة وأن أمراء المدينة المنورة أقل تأثراً بأمراء وملوك المسلمين المحيطين بهم ، فهم على الغالب تربطهم بهم روابط جيدة بدليل إنشاء وتعمير أمراء وملوك المسلمين أماكن بها وخاصة إعادة بناء المسجد النبوي بعد حريقه .

ولا يعني هذا أن المدينة المنورة لم تمر بها أوضاع سياسية عصيبة ؛ بل

---

(١) العبدري : الرحلة المغربية ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١١٨ ــ ١١٩ ؛ السمهودي : وفاء الوفا ، جـ ٢ ، ص ٧٠٤ .

(٣) البلوي : تاج المفرق ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ .

على العكس لابد وأن تكون قد عصفت بها خاصة عند تصارع الأمراء الأشراف بها على السلطة كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة [1] .

ويبدو أيضاً أن بعض قرى الحجاز في تلك الفترة نعمت بهدوء سياسي أعقبه استقرار اقتصادي مثل وادي الصفراء .

ونجد أن الحجاز قد عرف جميع أنواع البناء سواء منه المدني أو الحربي أو الديني ، ولمسنا مدى إتقانهم لأنواعه ، إضافة إلى إتقان أهل الحجاز لفنون الزخرفة والنقش التي كانت تزين أهم الأماكن بها مثل المسجدين المكي والمدني، وعليه فإن الحجاز وجد به المقومات الأساسية للدولة ولولا سوء أوضاعه السياسية لأصبح من أعظم الأقاليم الإسلامية عمراناً وحضارة إذا أخذنا في الاعتبار الحركة العلمية الهائلة الموجودة به وما يأتيه من مساعدات اقتصادية كانت كفيلة بانتعاش اقتصاده وجعله من أحسن الأقاليم الإسلامية اقتصاداً .

وعلى العموم فالمدينتان المقدستان قد نعمتا ببعض المشاريع التي توضح حرص واهتمام المسلمين من ملوك وأمراء عامة بالبناء والتعمير بها طلباً وسعياً وراء الأجر والثواب من الله عز وجل .

ونستطيع القول أخيراً إنه لولا سوء أوضاع الحجاز السياسية التي تمثلت في تصارع الأشراف فيما بينهم من ناحية وتصارع الأشراف مع الدول المجاورة من ناحية أخرى ، إضافة إلى انتهاز الأعراب قطاع الطرق لسوء الحالة الأمنية بها في كثير من الأحيان لأصبح الحجاز إقليماً ينعم بالاستقرار والهدوء خاصة بعد ان قيض الله تعالى للحجاز من خارجه أو داخله من يسد فراغ الناحية المعمارية بعد أن انصرف أمراؤه الأشراف عن هذه الناحية .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٧٩ ــ ١٨١ .

الخاتمة

الخاتمة :

حظي الحجاز بالعديد من الدراسات فى الآونة الأخيرة ، لما له من منزلة عظيمة فـي نفوس المسلمـين ، واستخدمت كافة المصادر للإلمام بتاريخ هذه البقعة المهمة . ولكن الاعتماد على كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين وإظهار أهميتها كمصدر مهم من مصادر تاريخ الحجاز لم تحظَ بالدراسة الكافية .

وقد اعتمدنا فى هذا البحث على بعض كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين لإظهار أهميتها والتأكيد على أنها من المصادر المهمة لتاريخ الحجاز ، ولا يجب الاستغناء عنها. فخلصنا إلى عددٍ من النتائج سواء منها ما يتعلق بالجانب العلمي أو الجانب الديني أو الاجتماعي أو الاقتصادى أو السياسي ٠ فمن هذه النتائج التي استخلصت مما كتبه الرحالة المغاربة والأندلسيون :

الجانب العلمي :

١ـ إن الإسلام دينُ علم ومعرفة فبرز من هذه الحقيقة الرحلة لطلبه فالرحلة قديمة قدم الإسلام نفسه ، فتعددت أغراضها وغاياتها خاصة وأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حضا على وجوب السعى لتعلم العلم النافع . فظهرت الرحلة كوسيلة للعلم والإعلام منذ عهد الرسول ﷺ وبدأت تأخذ مساراتها المختلفة منذ تلك الفترة .

٢ ـ إن العلم يتطلب السعي لنيله فقام العلماء بالرحلة لطلبه فلمعت أسماء بعضهم بفضل ما قاموا به من رحلات بجميع أهدافها وأغراضها .

وقد ترتب على ذلك شغف المسلمين بالرحلة وعرفوا واتقنوا مختلف أنواعها. وهذا ينطبق على مسلمي المشرق والمغرب على حد سواء ، إلا أن مسلمي المغرب والأندلس انفردوا بنوع فريد من الرحلات هي الرحلات الحجازية والتي أساسها أداء فريضة الحج والزيارة وطلب العلم ٠ وقد

أفرزت هذه الرحلات مذكرات ومشاهدات لهؤلاء الرحالة تكونت منها رحلاتهم التي أصبحت بمثابة موسوعة علمية مصغرة لما حوته من معلومات مهمة لكافة أحوال المسلمين في تلك الفترة . إضافة إلى كونها سجلاً ضمت قوائم بأسماء علماء المسلمين البارزين الذين تخصصوا فى مختلف العلوم مثل علم القراءات وعلم الحديث والفقه واللغة العربية والتاريخ والشعر والأدب . فالرحالة كانوا عبارة عن عين لاقطة لما حولهم يستقطب اهتمامهم جميع الأمور وإن صغرت .

٣ ـ ضمت مكة المكرمة جميع المذاهب الإسلامية بعلمائها الذين ساروا جنباً إلى جنب لدفع الحركة العلمية ؛ إذ تبين من خلال ما كتبه الرحالة المغاربة والأندلسيون مدى مكانة مكة المكرمة العلمية التى وصل إشعاعها لكافة الأمصار الإسلامية ٠ فمكة المكرمة مبدأ ومنتهى الحركة العلمية وحلقة الوصل بين المشرق والمغرب الإسلامي .

ففيها لمعت أسماء العلماء ومنها تنتشر الكتب إلى المشرق والمغرب على حد سواء وهذا بفضل الوسائل المهيئة لنشر العلم من وجود العلماء والكتب وتبادلها فيما بينهم وانتشار المدارس والأربطة التي كانت عبارة عن مساكن لطلبة العلم أقيمت بها مكتبات حوت نفيس الكتب التي كانت مدار الطلب في ذلك الوقت ٠ فأكبوا على طلب العلم والنهل منه بعدما أمنت حاجاتهم الأساسية من مسكن وغذاء ومرتبات بفضل ما كان يصل مكة المكرمة من الأعطيات والصدقات التي ترسل من ملوك وأمراء وأغنياء المسلمين لتفرق عليهم هناك .

٤ ـ بروز دور المسجد الحرام العلمي فقد كان بمثابة جامعة مفتوحة يتوافد إليه طلاب العلم المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وفضل الكثير منهم المجاورة بمكة المكرمة لفترات قد تطول أو تقصر وذلك لتلقي العلم

على أيدي علماء أفذاذ مثلوا المذاهب الإسلامية وبرعوا في فنون العلم المختلفة .

٥ ـ وجد بمكة المكرمة أعدادٌ هائلة من العلماء الذين لم يكونوا من أبناء الحجاز وحدها حيث لعب العلماء المجاورون دوراً بارزاً فى رواج الحركة العلمية بها. وقد ظهر ذلك جلياً من خلال ما سجل من أسمائهم وترجمة لحياتهم في كتب الرحلات التي ربما زادت عما ورد في كتب التراجم نفسها ؛ بل إن ما كتبه الرحالة المغاربة والأندلسيون عن هؤلاء العلماء اعتمد عليه أصحاب كتب التراجم كالفاسي والسخاوي مثلاً في ترجمتهم لهؤلاء العلماء .

فلقد تهيأ لمكة المكرمة ما لم يتهيأ لغيرها من مدن العالم الإسلامي فقد هفت إليها أفئدة العلماء الذين ذاعت شهرتهم في علمٍ من العلوم التى اختصوا بها إلى جانب العدد الكبير من أبنائها العلماء والذين أدوا جميعاً دوراً بارزاً فى رواج الحركة العلمية بها لتعدد حلقات الدرس فى المسجد الحرام . فكان لكل مذهب من المذاهب الإسلامية زاوية ودرس خاص توفرت بها كتبهم العلمية وجلسوا للمناظرة والفتوى والشرح والإجازة .

٦ ـ مماثلة المدينة المنورة مكة المكرمة في مكانتها العلمية بعد القرن السادس الهجرى وبلغت مكانة عالية في القرن الثامن الهجرى بعد أن خفت وطأة سيطرة الشيعة على مقاليد أمور الناحية العلمية بها بسبب إحكام سيطرة المماليك حكام مصر على الأمور بها وذلك بتعيين الأئمة والخطباء والمؤذنين والقضاة السنيين بها . حيث كان قبل ذلك أهل السنة مضطهدين لا يستطيعون البت فى أمورهم ؛ بل لقد وصل الأمر في بعض الفترات إلى تركهم المدينة المنورة ومصادرة أملاكهم .

الجانب الديني :

١ ـ لقد أدى ضعف الحالة الدينية في الحجاز إلى أن أصبحت مرتعاً خصباً لظهور الكثير من البدع والخرافات : منها ما هو منافٍ للعقيدة مثل العروة الوثقى بالكعبة المشرفة وخرزة فاطمة الزهراء بالمسجد النبوي الشريف وما ذكر عن بيوت زوجات النبي ﷺ بالمسجد أيضاً .

ونجد أن الداعي إلى مثل هذه البدع هو استجلاب الأموال من عوام الناس والحجيج . كما تفشت عادة التبرك بقبور الأولياء والصالحين وكل ما يمت بصلة قريبة كانت أو بعيدة بالرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم .

٢ ـ استفحال تفشي البدع والشائعات بين طبقات المجتمع الحجازي المختلفة الأمر الذي أدى إلى أن صدقها الرحالة المغاربة والأندلسيون وضمنوها رحلاتهم مما يعطينا تصوراً واضحاً لضعف الحالة الدينية .

٣ ـ وجود بعض البدع والشائعات إلى وقتنا الحاضر كانت موجودة منذ تلك الأيام : مثل زيادة ماء زمزم ليلة النصف من شعبان وعدم وقوع الحمام على الكعبة المشرفة .

٤ ـ إن أغلب ما وجد من أماكن نسبت إلى بعض الصحابة رضوان الله عليهم وبنيت عليها مساجد إنما ألحقت نسبتها إليهم بعد فترة طويلة من وفاتهم مما يؤكد عدم صحة نسبتها إليهم في كثير من الأماكن .

٥ ـ ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بعض فترات البحث وما وجد من قائمين به كانوا يعملون به من تلقاء أنفسهم وربما عوقبوا على قيامهم بهذا الأمر . ويبدو أن الأمر تغير إذ أصبح هناك موظفون قائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد وضح ذلك مما أورده ابن بطوطة .

٦ ـ ضعف سلطة القاضي فى بعض الفترات وتغلب سطوة العامة من الناس والحجيج على بعض قراراته وخاصة فيما يتعلق بيوم الوقوف بعرفة .

الجانب الاجتماعي :

١ ـ تعدد الطبقات في المجتمع الحجازى واختلاف تركيبته السكانية بسبب مركزه الديني في نفوس المسلمين . وقد شكل المجاورون بمختلف أجناسهم طبقة منه .

٢ ـ بسبب اختلاف التركيبة السكانية بالحجاز ومكانته الدينية ظهرت عادات وتقاليد خاصة انفرد بها عن سائر الأمصار الإسلامية . لا يزال بعض منها إلى وقتنا الحاضر . كما جرى في بعض العادات تغييرات على مر السنين لاحظناها من رحالة لآخر .

٣ ـ انفراد الرحالة المغاربة والأندلسيين بتسجيل الحياة الاجتماعية بالحجاز والتي أغفل ذكرها المؤرخون الذين اقتصروا على تسجيل الناحية السياسية.

الجانب السياسي :

١ ـ عم الاضطراب السياسي الحجاز داخلياً بسبب تصارع أمراء الأشراف فيما بينهم على الإمرة فقامت الحروب فيما بينهم في سبيل الحصول عليها .

٢ ـ استعانة الأمراء الأشراف بملوك مصر تارة وبملوك اليمن تارة أخرى في سبيل الحصول على الحكم . وربما لجأ كل أمير منهم إلى دولة منهما فأصبحت بذلك الحجاز مسرحاً لتصارع مصر واليمن وإثبات قوتيهما على حساب الحجاز .

٣ ـ منذ قيام الدولة الأيوبية بمصر التزم الأشراف في الحجاز بالدعاء لهم على المنابر وخضوع الحجاز لسيادتهم وأصبح من ضمن الولايات التي أخذ

عليها صلاح الدين الأيوبي تقليداً من الخليفة العباسي المستضيء ثم خضعت مباشرة للأيوبيين عقب استيلاء سيف الإسلام أخو صلاح الدين عليها .

وبالرغم من خضوع الحجاز للأيوبيين إلا أننا لم نلاحظ أن لهم تدخلات مباشرة في تعيين وعزل الأمراء الأشراف ولكن تُرك لهم حرية البت في أمورهم من تلقاء أنفسهم والتفت الأيوبيون إلى تأمين طرق الحج وإسقاط المكوس عن الحجاج وتعويض أمرائها أموالاً وحبوباً أوقفوا عليها القرى والأراضي في مصر لهذا الغرض .

٤ ـ ارتبط أشراف الحجاز ارتباطاً وثيقاً في القرن الثامن الهجرى بالمماليك بمصر الذين تدخلوا فى شؤون الحجاز الداخلية وامتد ليشمل الأمراء أنفسهم من ناحية توليتهم وعزلهم . وأكثر هذه الفترات ارتباطاً هي فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون وخاصة بعد وفاة الأمير أبو نمي وما أعقب ذلك من تصارع أبنائه منذ سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م وما تلى ذلك من السنين.

٥ ـ لم يؤثر عن أشراف المدينة المنورة ارتباطهم بغير ملوك مصر الذين خضعوا لهم خضوعاً مباشراً خاصة عندما يحدث تصارع بين أمرائها ويلجأ أحدهما إلى سلطان مصر .

٦ ـ تراوح ولاء الحجاز بين مصر واليمن تبعاً لحجم الأعطيات التي تصله من أحدهما .

٧ ـ خضوع المدينة المنورة لأمراء مكة المكرمة في بعض الفترات مثلما حدث في جزء من فترة حكم أبي عزيز قتادة وأبي نمي . كما حدث وأن خضعت مكة المكرمة لأمراء المدينة المنورة مثلما حدث في عهد مكثر ابن عيسى أمير مكة المكرمة وهذا الأمر في فترة وجيزة لا يلبث أمراء مكة المكرمة أن ينفردوا بحكمها .

٨ ـ إن محاولات أمراء مكة المكرمة لضم المدينة المنورة تقودنا إلى القول بقوة شخصية أمراء مكة المكرمة وتطلعاتهم لمد نفوذهم وسيطرتهم على المدينة المنورة خاصة وأن بعض أمرائها حمل لقب ملك الحرمين مثل أبي نمي .

٩ ـ بالرغم من حدوث بعض الحروب بين أمراء المدينة المنورة وأمراء مكة المكرمة إلا أن جهودهم تتوحد عند إحساسهم بخطر يهدد إحدى الإمارتين وظهر ذلك جلياً عندما تعاونوا لاسترداد مكة المكرمة فسارعوا لتوحيد جهودهم مثلما حدث في فترة أبي عزيز قتادة لاسترداد مكة المكرمة وفي فترة حكم أبي نمي .

١٠ـ امتداد سيطرة أمراء مكة المكرمة على مناطق شاسعة خارج الحجاز ؛ بل وخارج نطاق الجزيرة العربية ليشمل مملكة سواكن وبلاد البجة . حيث ظهر في فترة البحث شريفان توليا ملكها : هما زيد بن أبي نمي ومبارك ابن عطيفة بن أبي نمي وقد أغفلت المصادر التاريخية الإشارة إلى ذلك ولم نعثر إلا على إشارة عابرة من الفاسي استقيناها من قصيدة تؤكد ما ذكره ابن بطوطة من أن زيد بن أبي نمي كان ملكاً عليها وإشارة أخرى تؤكد أن عطيفة تولى ملكها أيضاً ولكن بدون تفصيل .

ونخلص من هذا إلى أن هناك علاقات خارجية لأشراف مكة المكرمة ببعض الدول والإمارات المجاورة أغفلت ذكرها كافة المصادر التاريخية التي تناولناها لموضوع البحث .

١٠ـ ارتباط أشراف الحجاز بسلاطين كلوه فقد كانت لهم رحلات سنوية إليهم وهذا الأمر أغفل ذكره المؤرخون .

١١ـ التنافس في حمل لقب خادم الحرمين الشريفين من قبل سلاطين مصر واليمن حيث إن أول من حمل لقب خادم الحرمين الشريفين هو صلاح

الدين الأيوبي ثم انتقل اللقب لملوك اليمن أثناء انشغال ملوك مصر بأمورهم الداخلية ولكنه لم يلبث أن أصبح من ضمن ألقاب ملك مصر الذي ظهرت قوته وهيمنته على العالم الإسلامي في ذلك الوقت .

١٢ـ ظهور مبدأ الاشتراك فى الإمرة عوضاً عن ولاية العهد ، ولكن بصلاحيات أكبر تخوله الحكم والبت في الأمور بوجود الشريك وهو مع ذلك مقاسمة في واردات الإمارة الاقتصادية .

١٣ـ تبعت بعض مدن وقرى الحجاز الشمالية سلاطين مصر وارتبطوا معها بروابط اقتصادية فى بعض الأحيان مثل ينبع .

١٤ـ كانت ينبع ووادي نخل المنفى الاختياري لأشراف مكة المكرمة فيقصدها الشريف المنهزم إما ليموت هناك أو لتجميع قوته والعودة مرة أخرى لاسترداد مكة المكرمة من منافسيه بعد أن يكون قد جمع الأتباع فيقوم إما بمهاجمة مكة المكرمة مباشرة أو يلجأ إلى فرض الحصار الاقتصادي عليها وقطع طريق الحجيج وبهذا يمتد الضرر ليشمل أهل الحجاز ومجاوريه وليس فقط الأمراء الأشراف .

١٥ـ سجل الرحالة المغاربة والأندلسيون بتقصٍ بارع جانباً من الوضع السياسي في الحجاز ضاماً ما ذكره بعض المؤرخين الآخرين لبعض الأحداثٍ مما كشف أموراً كانت خافية أسبابها ودوافعها .

١٦ـ انعدام الأمن في داخل مكة المكرمة والمشاعر المقدسة أثناء الموسم وفي الطرق المؤدية إلى مدن الحجاز .

الجانب الاقتصادي :

١ ـ استقرار الأحوال السياسية بالممالك الإسلامية المجاورة للحجاز يعقبه استقرار سياسي واقتصادي بالحجاز بسبب ما يصلها من أعطيات منها بانتظام .

٢ ـ عرف الحجاز مهناً صناعية عدة عمل بها أهل الحجاز وأتقنوها مثل صناعتي الحلوى والبناء اللتين امتدحهما ابن جبير .

٣ ـ وجود جالية مغربية عملت بالزراعة بالحجاز مما نتج عنه رواج هذه المهنة واستصلاح كثير من الأراضي حول مكة المكرمة .

٤ ـ عدم التفات أمراء الحجاز للإصلاح الذي يخدم الحجاج وأهل الحجاز بالرغم من إرسال الكثير من الأموال إليهم ، والتفاتهم إلى تقوية مكانتهم ببناء الاستحكامات الحربية خوفاً من انقضاض غيرهم عليهم وانتزاع الإمرة سواء من داخل الحجاز أو خارجه .

٥ ـ عدم سماح أمراء مكة المكرمة بأي إصلاح بالمسجد المكي إلا بعد دفع أموالٍ توازي تكاليف الإصلاح أو التجديد ، وربما تزيد عليها . إضافة إلى تذييل التعمير أو التجديد برسم الخليفة المعاصر بعد أخذ موافقته أولاً على المراد عمله دون ذكر القائم على العمل .

كما أن معظم ماتم من بناء إنما كان تجديداً أو ترميماً لما هو قائم دون زيادة مساحته وقد اتضح ذلك من بعض المباني التي كانت لا تزال إلى وقت قريب قائمة وانطبق وصفها على ما ذكره الرحالة . إضافة إلى بقاء بعض طرز البناء المعماري إلى الوقت الحاضر .

٦ ـ معرفة أهل الحجاز لأساليب المعاملات التجارية بمختلف أنواعها من بيع وشراء ورهن واستدانة ومقايضة .

ومما استنتج عن الرحالة أنفسهم :

١ ـ انصباب اهتمام الرحالة المغاربة والأندلسيين على تقصي أحوال مكة المكرمة من جميع جهاتها دون المدينة المنورة وباقي مدن وقرى الحجاز وهذا عائدٌ إلى طول مكوثهم بها .

٢ ـ تصدر الرحالة المغاربة والأندلسيين عند العودة إلى موطنهم للإقراء والتدريس وتولي القضاء والإمامة أو الكتابة لدى بعض أمراء المغرب أو الأندلس . فتأهلهم لشغل هذه المناصب التعليمية والدينية بفضل العطاء والأخذ العلمي الذي تم بالمدينتين المقدستين فأهلهم ذلك لاحتلال مثل هذه المناصب . فأغلب الرحالة المغاربة والأندلسيين كانوا أدباء بارعين تولوا قبل مجيئهم إلى المشرق مناصب مهمة في بلادهم مثل الكتابة لأمرائهم .

٣ ـ معظم الرحالة المغاربة والأندلسيين كانوا يحملون كتب الرحالة السابقين عليهم للمقارنة وإضفاء الجديد وتصحيح بعض الأخطاء التي وقع فيها من سبقهم وربما النقل عنهم في بعض الأحيان للأمور التي لم يتسن لهم رؤيتها أو لبعد العهد والنسيان .

٤ ـ كان خروج الرحالة المغاربة والأندلسيين أساساً للحج والزيارة وطلب العلم فلمعت أسماؤهم وذاع صيتهم بما نالوه من علم هناك . إضافة إلى كتابتهم لرحلتهم التي توضح ثاقب نظرهم للأمور وتحليلها وحكمهم على الأحداث التي نقلوها بكل أمانة لبعدهم عن التحيز لجانب دون آخر .

٥ ـ يتم تقييد الرحلة دون إعداد مسبق بل يسير وفق خط سير رحلتهم وما يصادفهم أثناءها .

وختاماً أسأل الله تعالى أن يكون قد حالفني التوفيق في إبراز أهم النتائج التي توصل إليها البحث ومحققة بذلك الهدف منه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا وشفيعنا النبي الأمين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه وأزواجه أجمعين .

الملاحق والرسومات

الملحق رقم (١)

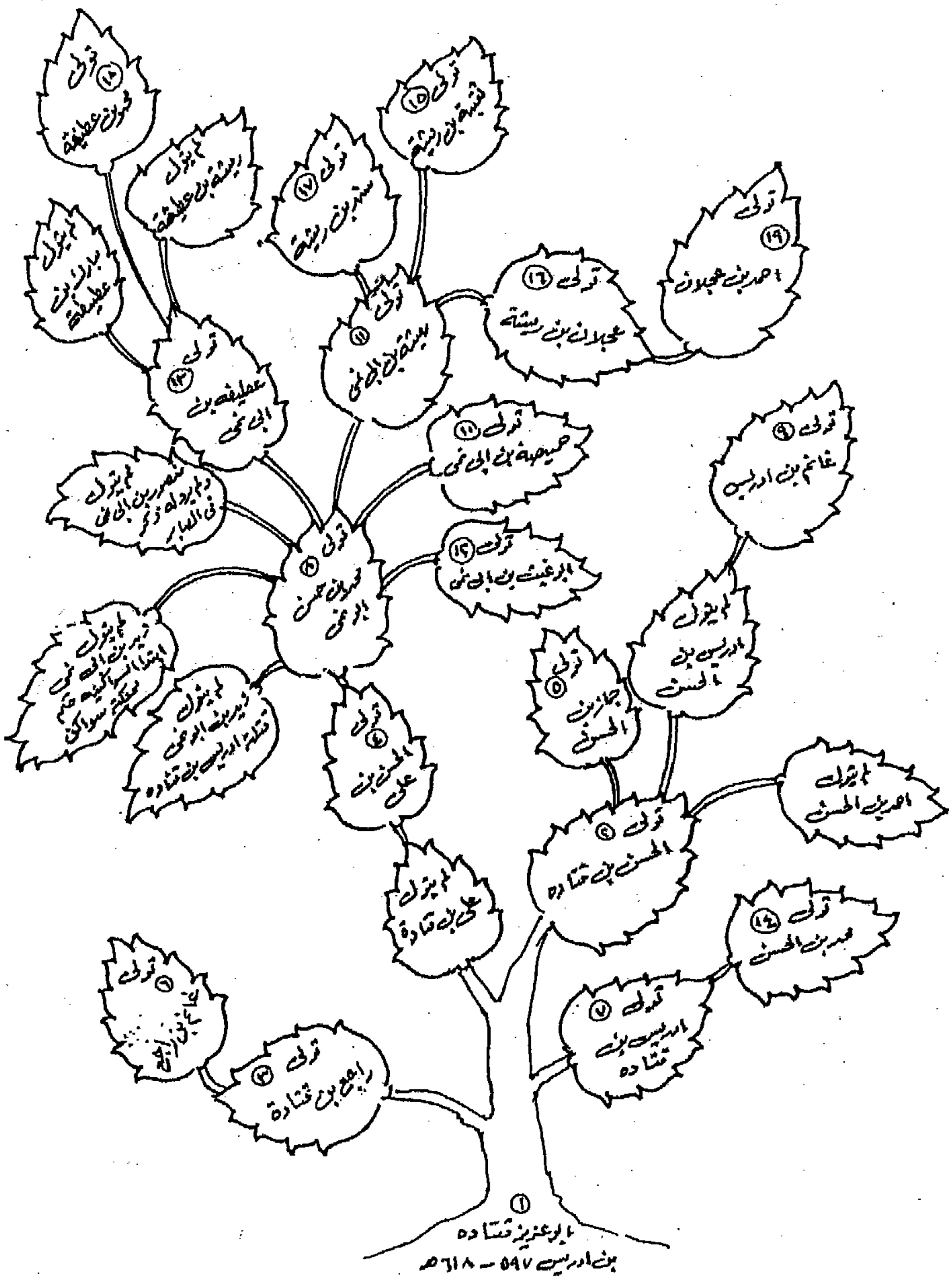
نص كتاب السلطان صلاح الدين الأيوبي لأمير مكة المكرمة مكثر ابن عيسى والذى يأمره فيه بإسقاط المكوس ويحذره من الجور .

" بسم الله الرحمن الرحيم ، اعلم أيها الشريف ، أنه ما أزال نعمة عن أماكنها ، وأبرز الهمم عن مكامنها ، وأثار سهم النوائب عن كنانتها ، كالظلم الذى لا يعفو الله عن فاعله ، والجور الذى لا يفرق في الإثم بين قائله وقابله ، فإما رهبت ذلك الحرم الشريف ، وأجللت ذلك المقام المُنيف، وإلا قوّينا العزائم ، وأطلقنا الشكائم ، وكان الجواب ما تراه لا ما تقرأه ، وغير ذلك ، فإنا نهضنا إلى ثغر مكة المحروسة فى شهر جمادى الأخرى ، طالبين الأولى والأخرى ، في جيش قد ملأ السهل والجبل ، وكظم على أنفاس الرياح ، فلم يتسلسل بين الأسل ، وذلك لكثرة الجيوش ، وسعادة الجموع ، وقد صارت عوامل الرماح تعطى فى بحار الدر "(١) .

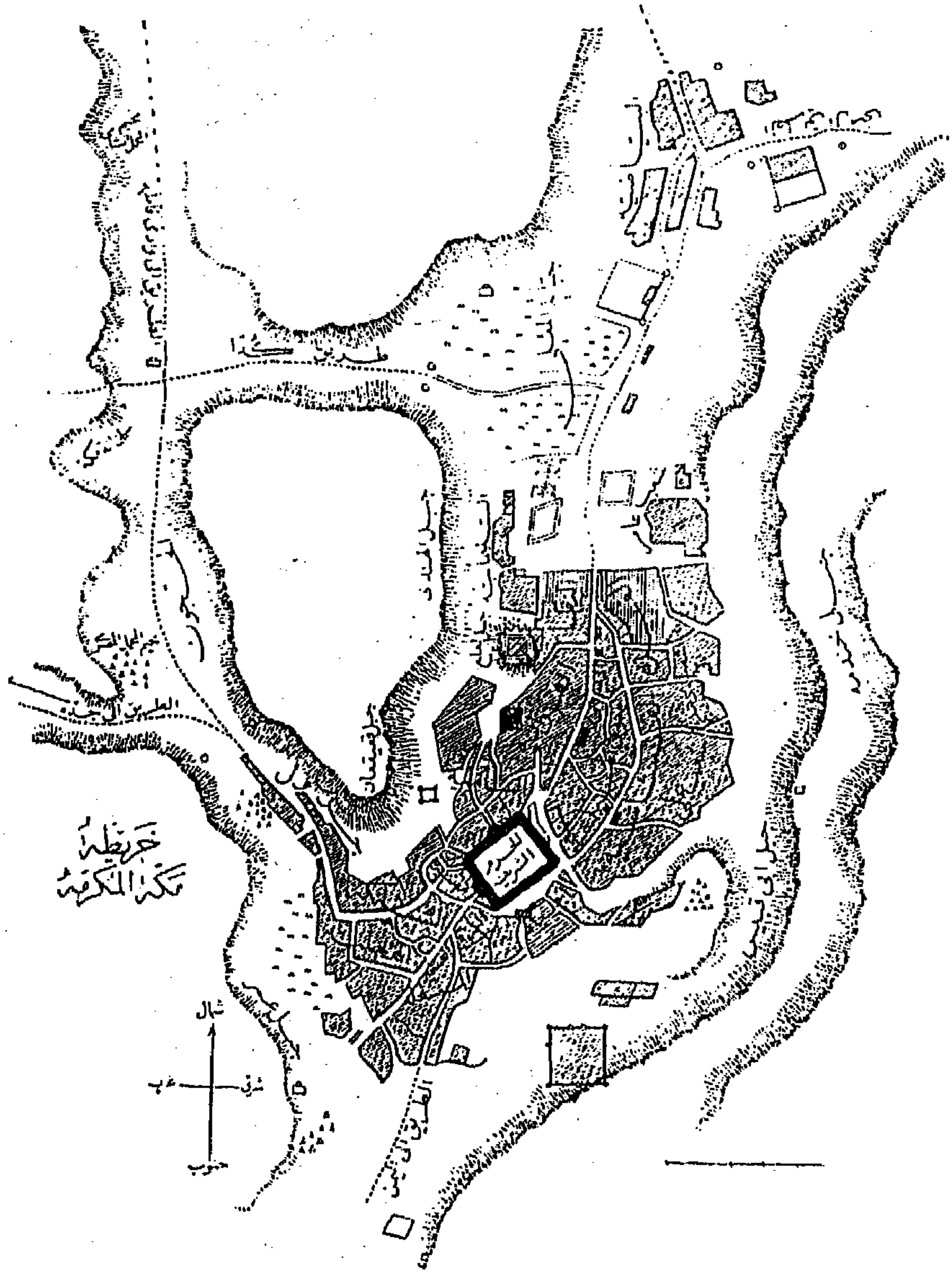
---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ ، ص٢٧٨ ؛ عز الدين ابن فهد : غاية المرام ، ج١ ، ص ٥٤٣ – ٥٤٤ .

الملحق رقم (٢)



أسماء بعض الأمراء الأشراف الذين ورد لهم ذكرٌ في فترة البحث وكان لهم إسهام في احداث مكة المكرمة السياسية

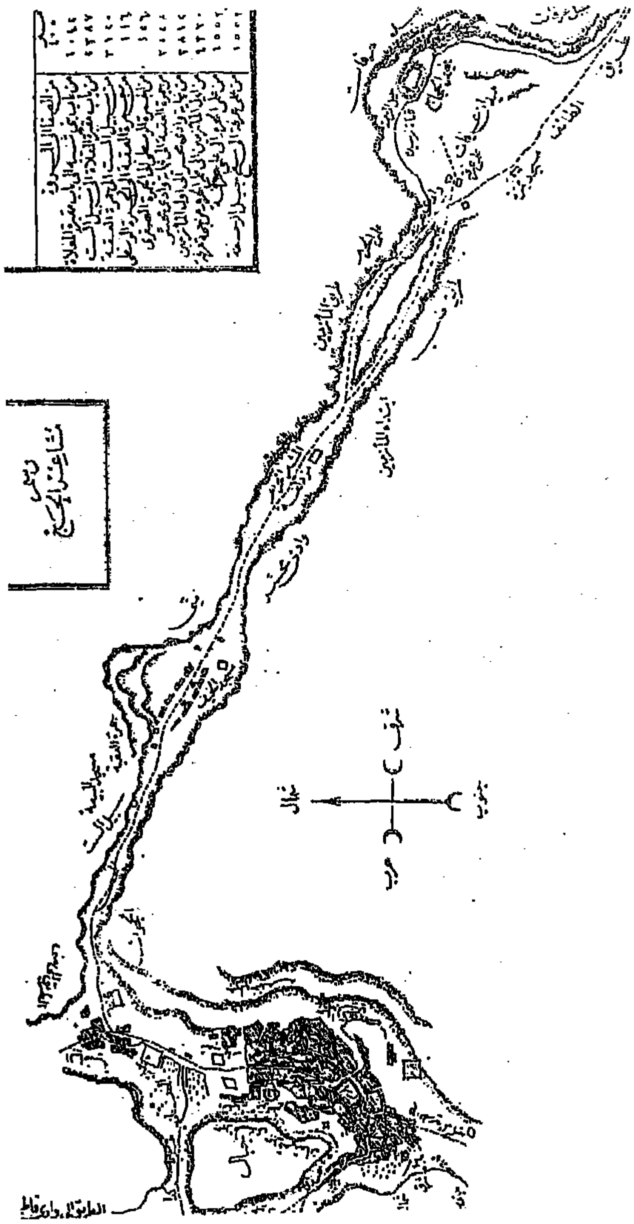


الرسم رقم (١)

رسم تخطيطي لجغرافية مكة المكرمة ويظهر منه إتقان الرحالة

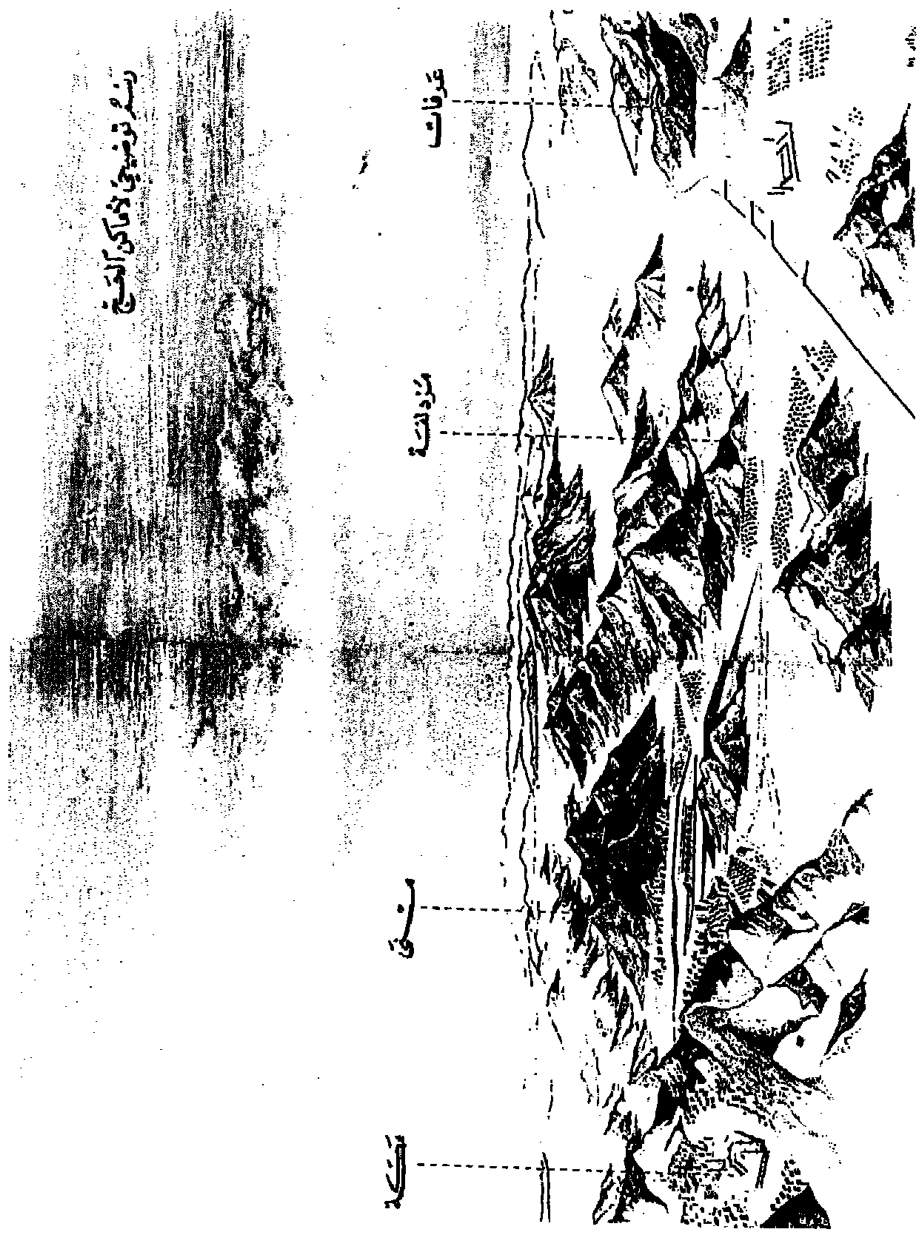
في وصفها حيث نجده مطابقًا .

نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (٢)

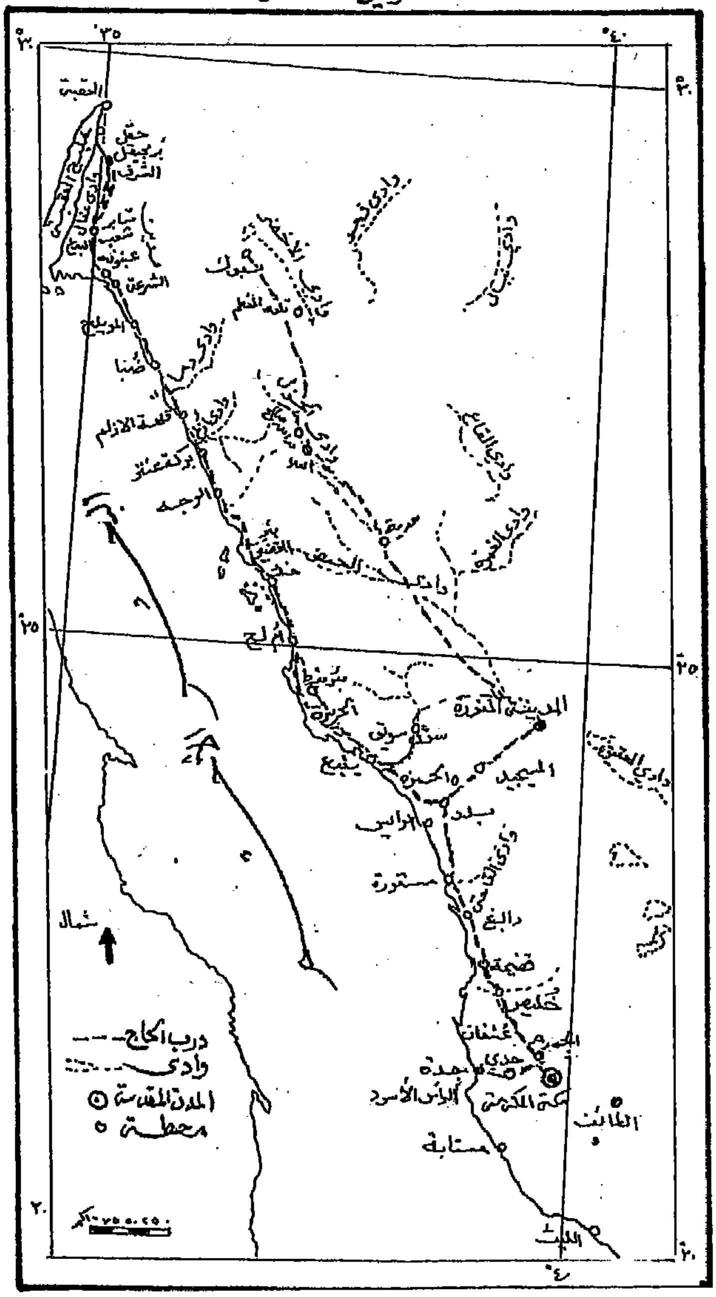
رسم جغرافي لمشاعر الحج يوضح دقة وصف الرحالة لها . نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (٣)

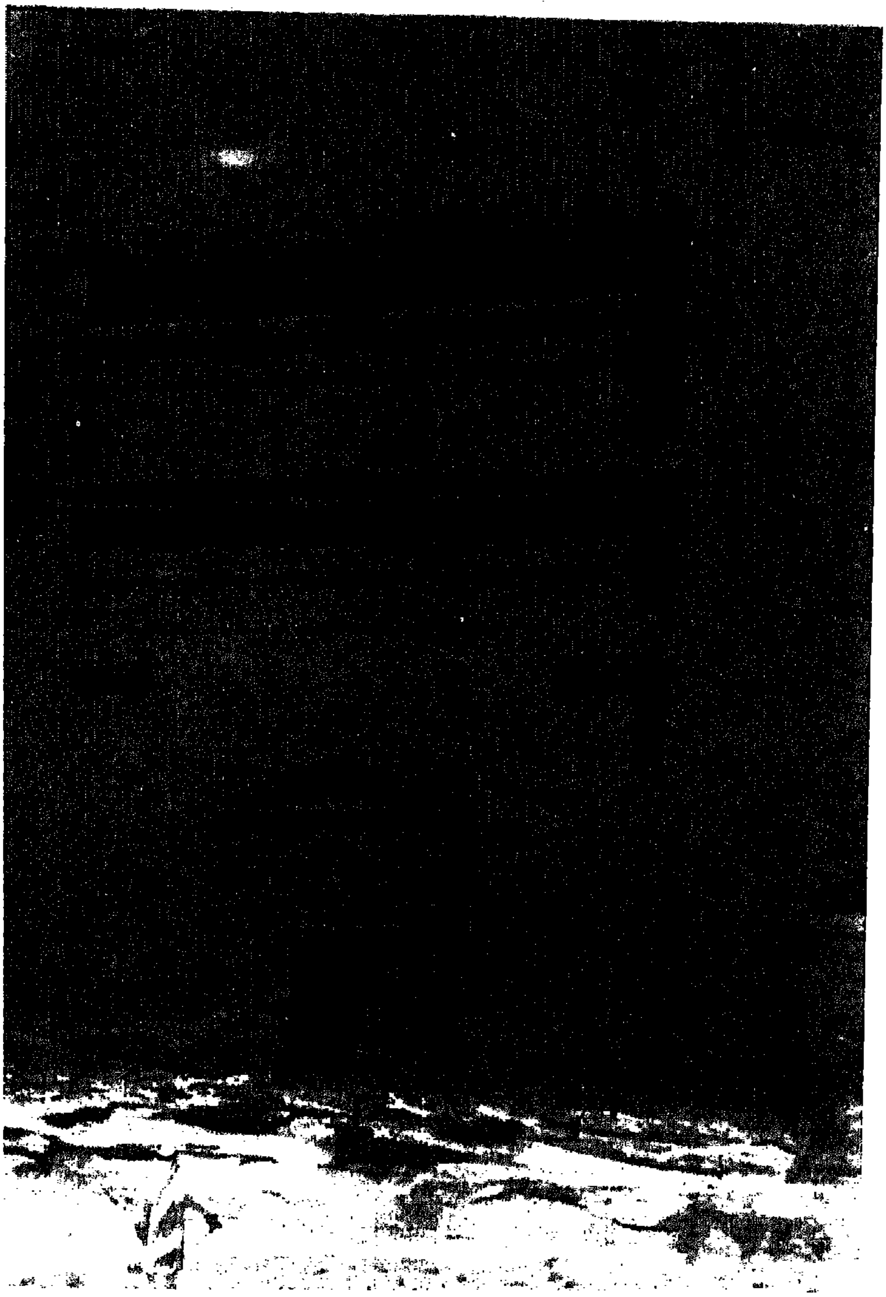
يمثل اماكن الحج كما يظهر جبل عرفات في وسطها مثلما ذكر الرحالة . نقلاً عن الحاج إلى بيت الله الحرام .

درب الحاج المصري
طريق الساحل



الرسم رقم (٤)

طريق الحاج المصري والشامي نقلاً عن الملامح الجغرافية لدروب الحجيج بإضافة طريق الحاج الشامي كما ورد في كتب الرحلات .



الرسم رقم (٥)

يظهر جزءاً من مدائن صالح التي وصفها الرحالة .



الرسم رقم (٦)

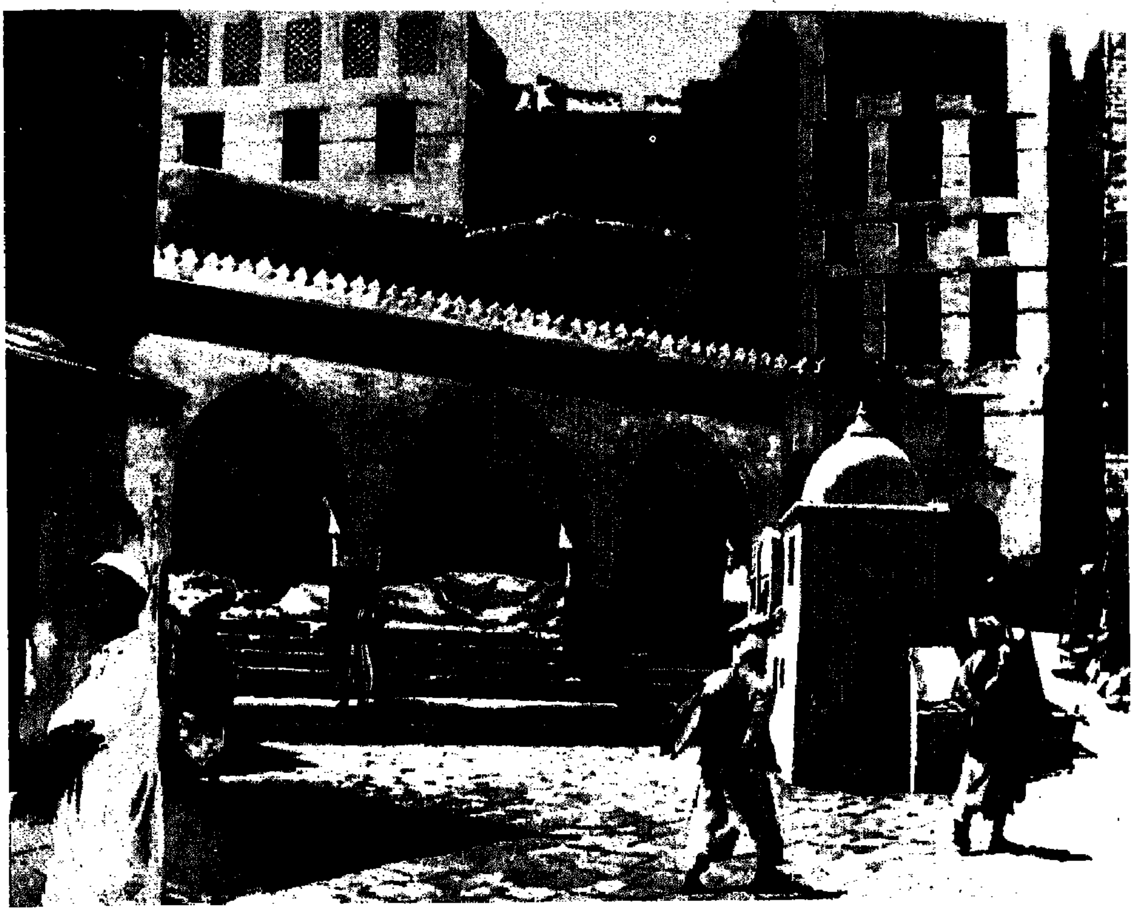
المسجد الحرام ويظهر من الرسم مقدار ما بلط حول الكعبة كما ذكر الرحالة وأماكن المقامات وقبة العباس أو الشراب . نقلاً عن الحاج إلى بيت الله الحرام .



الرسم رقم (٧)

يمثل باب الصفا ويبدو كما وصفه الرحالة من اجمل أبواب المسجد الحرام .

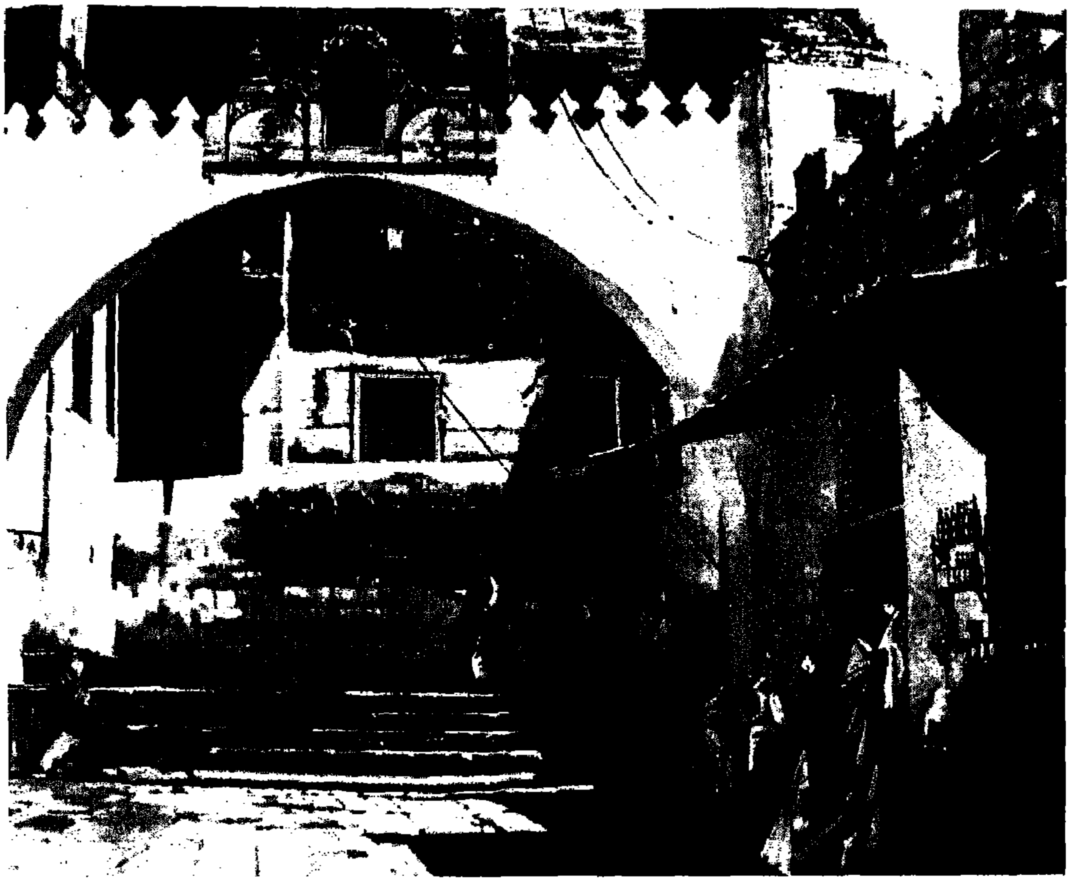
نقلاً عن مكة المكرمة العاصمة المقدسة .



الرسم رقم (٨)

يمثل الصفا وتظهر كما وصفها الرحالة من وجود ثلاثة عقود عليها

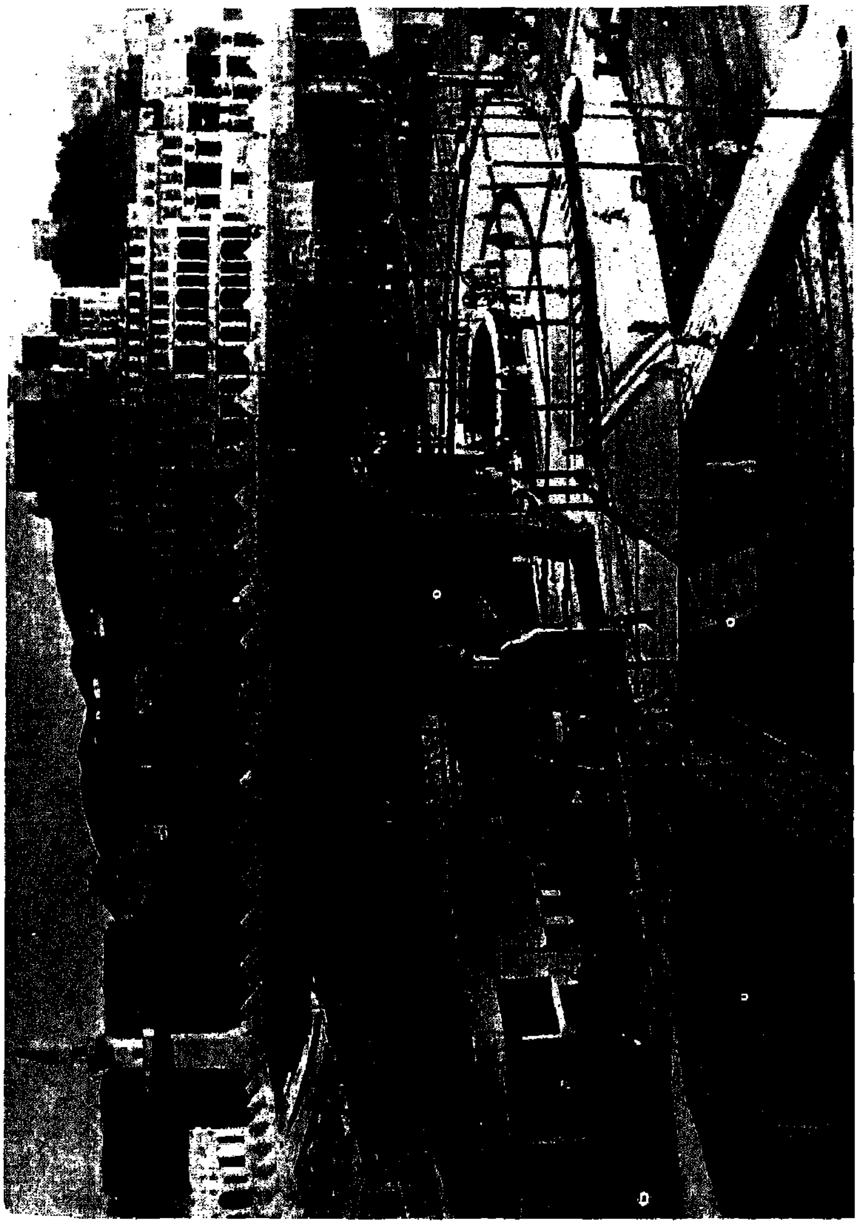
كما تبدو الدور وهي محدقة بها ووجود الدرج بها .



الرسم رقم (٩)

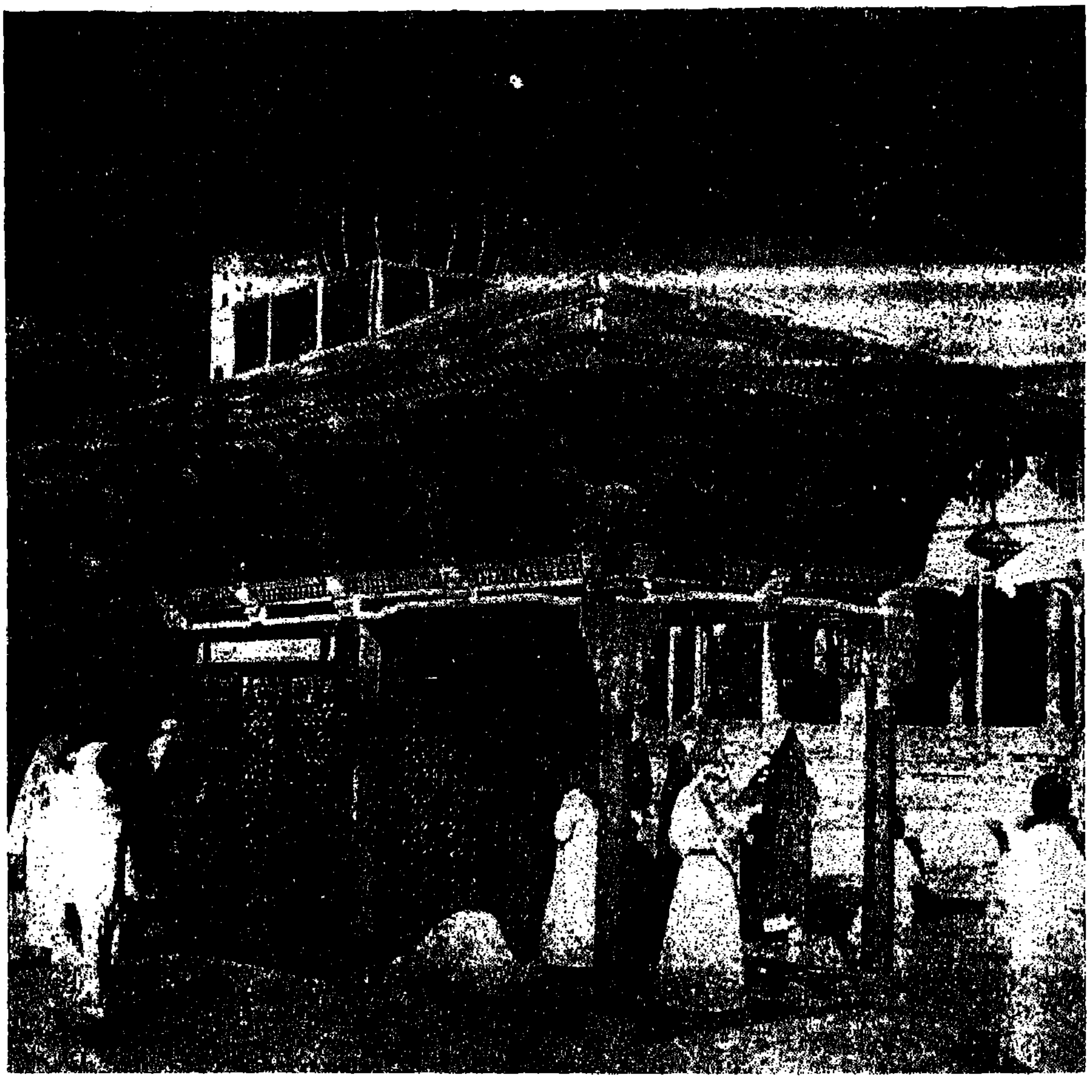
يمثل المروة وتظهر كما وصفها الرحالة من وجود حوانيت الباعة وإحداق الدور

بها ووجود العقد أعلى المروة كما تبدو الدرج والمصطبة أعلاها .



الرسم رقم (١٠)

يمثل المسجد الحرام ويظهر درج الكعبة بجانب قبة زمزم .

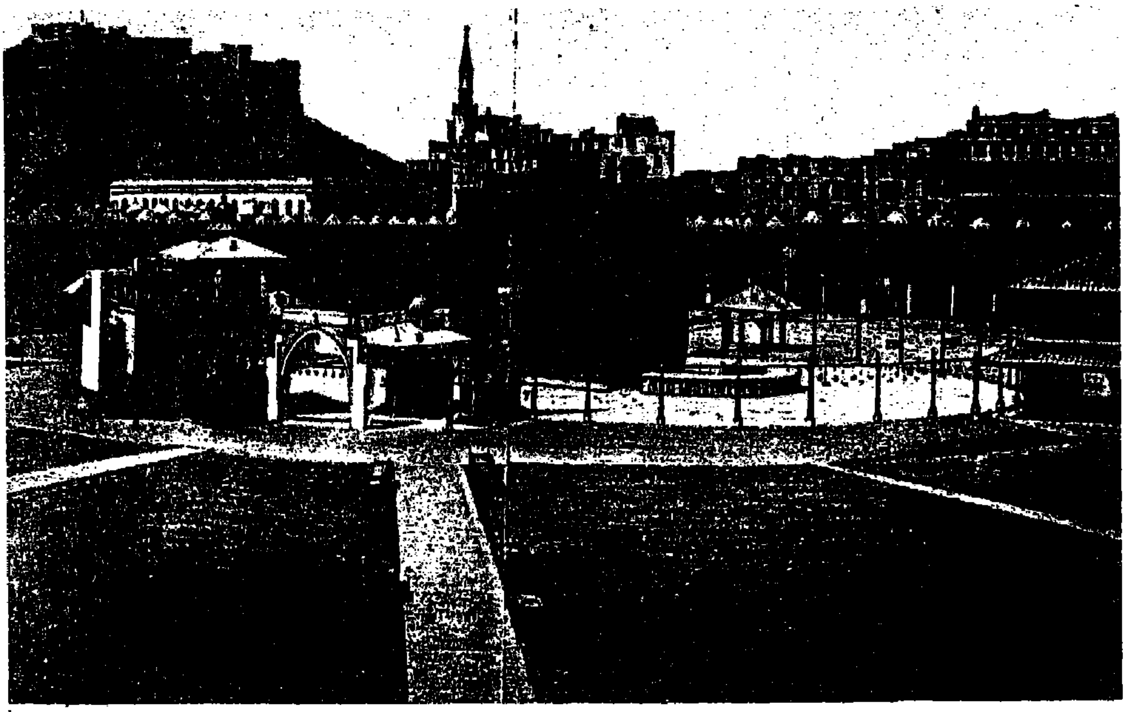


الرسم رقم (١١)

مقام إبراهيم بالمسجد الحرام ويبدو كما ذكر الرحالة

وتمكن المصلين من الصلاة بجانبه .

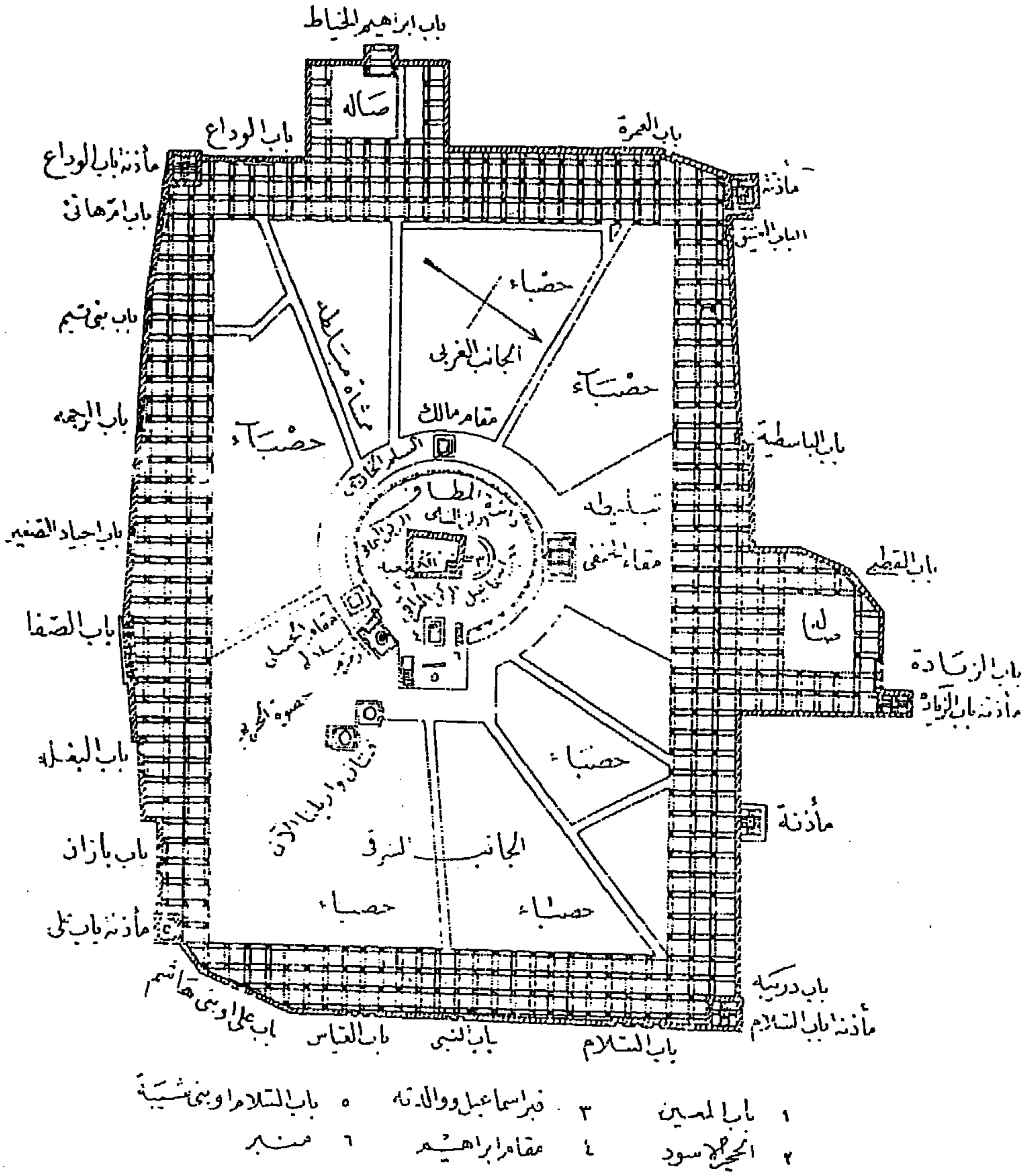
نقلاً عن التاريخ القويم .



الرسم رقم (١٢)

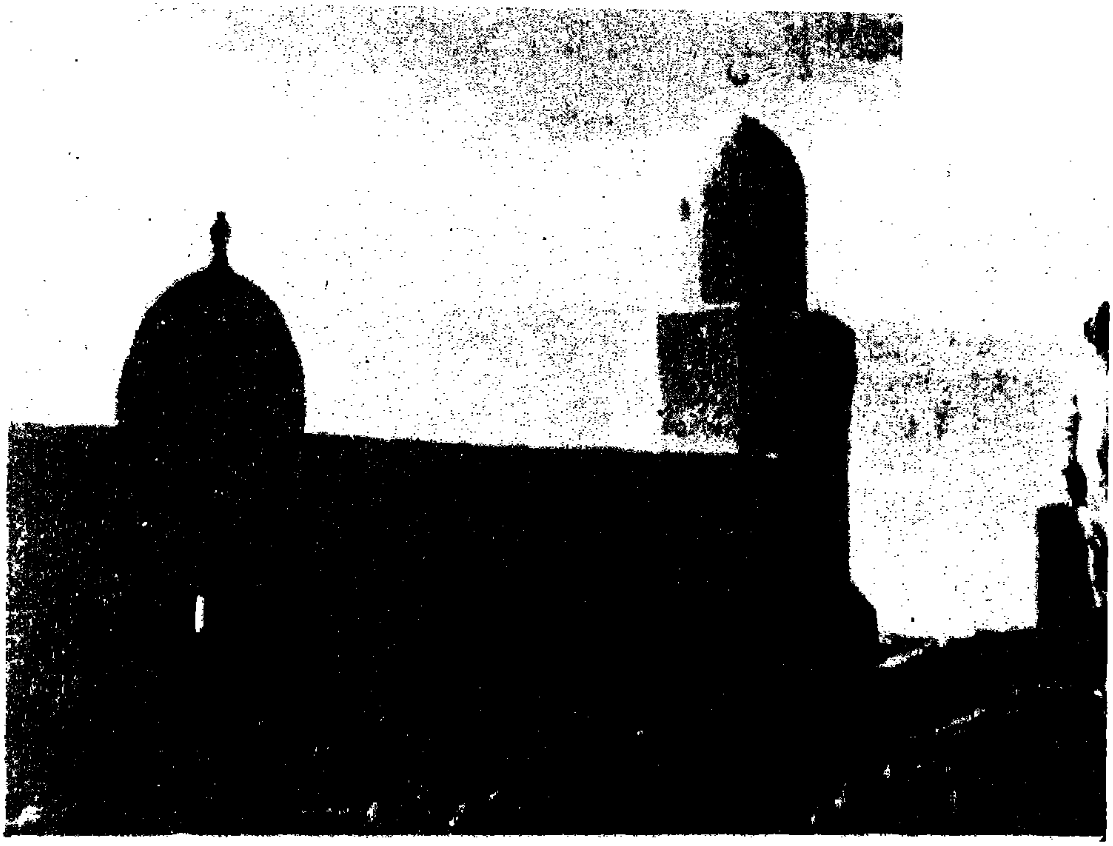
ويمثل المسجد الحرام وتظهر به درج الكعبة بجانب قبة زمزم إلى يسار الصورة .

نقلاً عن مكة المكرمة منذ مائة عام .



الرسم رقم (١٣)

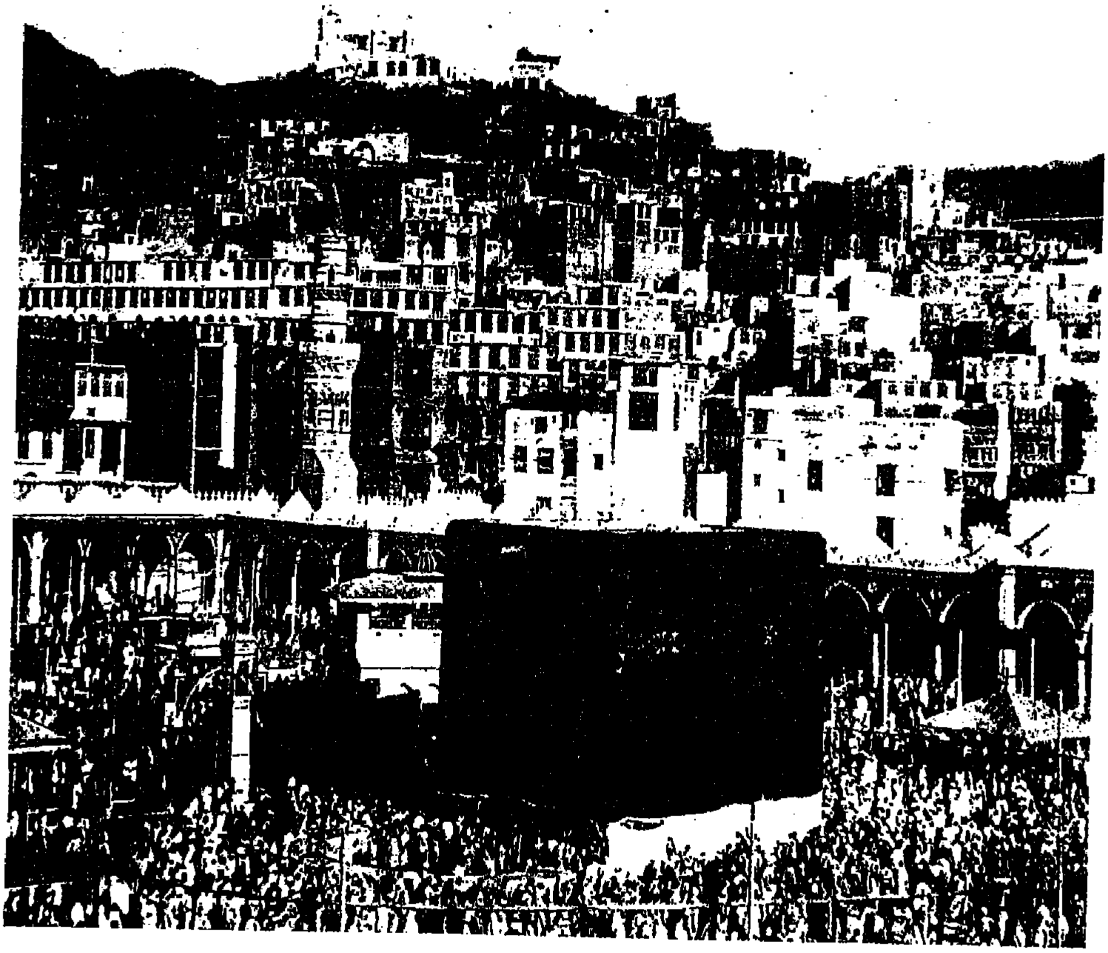
يمثل المسجد الحرام وتظهر به اماكن اغلب الأبواب التي ذكر الرحالة أسماءها نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (١٤)

شكل المسجد المنسوب لبلال فوق جبل أبي قبيس قبل هدمه .

نقلاً عن اشهر المساجد في الإسلام .

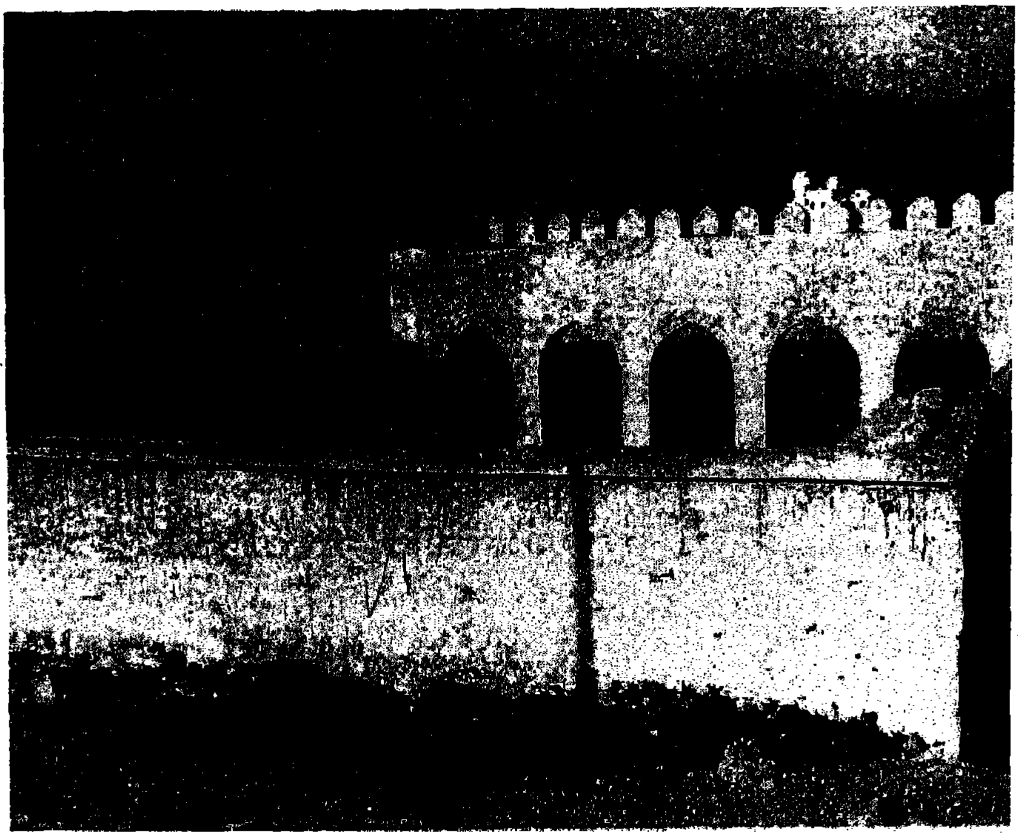


الرسم رقم (١٥)

يمثل المسجد الحرام ويظهر مسجد بلال اعلى جبل ابي قبيس في اعلى الصورة

وهو المسجد الذي ذكره الرحالة .

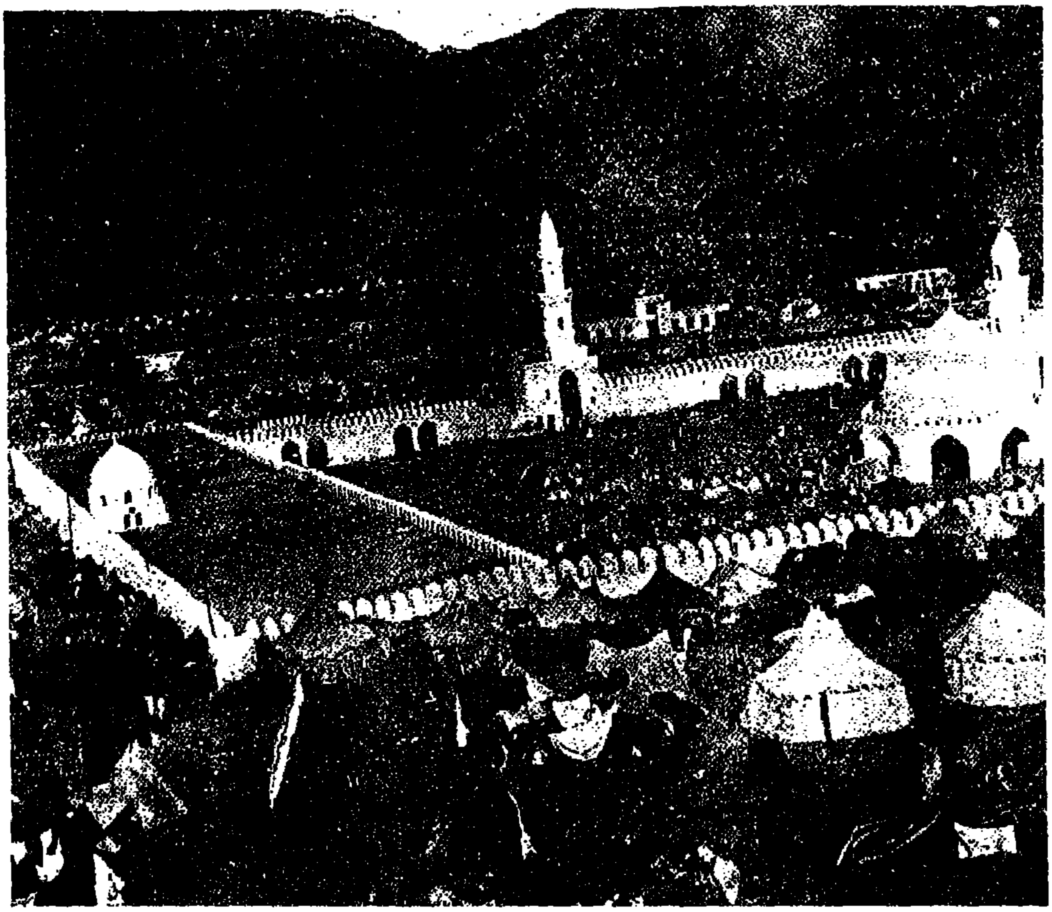
نقلاً عن التاريخ القويم .



الرسم رقم (١٦)

يمثل مسجد البيعة بمنى وهو كما وصفه الرحالة .

نقلاً عن دراسة تاريخية لأشهر المساجد بالمشاعر المقدسة .



الرسم رقم (١٧)

يمثل مسجد الخيف بمنى وهو كما وصفه الرحالة .

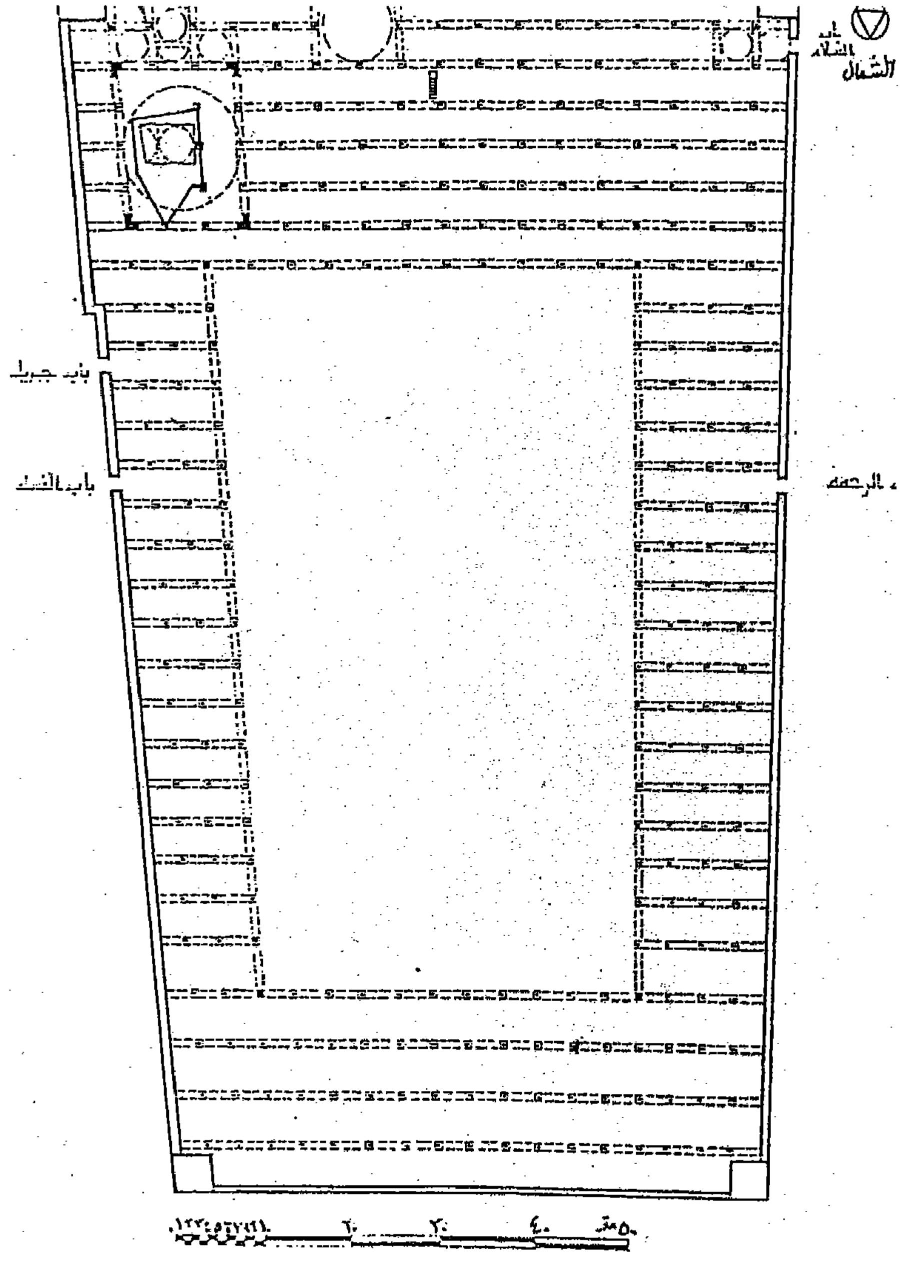
نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (١٨)

ويمثل مسجد إبراهيم بعرفة ويعرف الآن بمسجد نمرة .

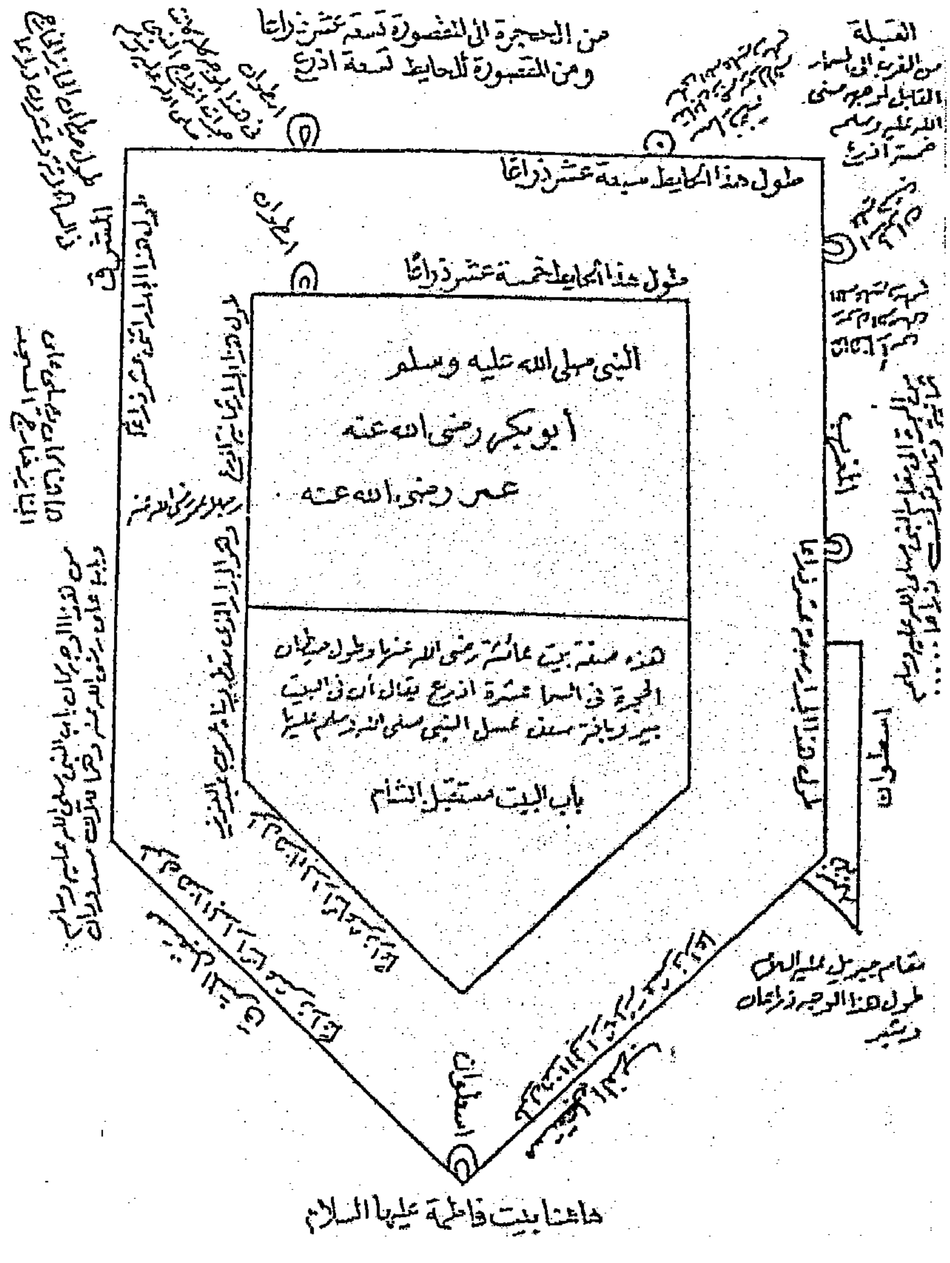
نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (١٩)

رسم تخطيطي يمثل المسجد النبوي بالمدينة المنورة كما تظهر أبواب المسجد بالأسماء التي ذكرها معظم الرحالة.

نقلاً عن المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري .



الرسم رقم (٢٠)

يمثل موضع المقصورة التي دفن بداخلها الرسول صلى الله عليه وسلم

وتبدو كما وصفها الرحالة .

نقلاً عن الدرة الثمينة .



الرسم رقم (٢١)

يظهر جزءاً من المسجد النبوي بالمدينة المنورة وهذا الجزء يظهر النخلات التي حرصوا على زرعها به منذ عهد الرحالة .

نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (٢٢)

يمثل مسجد قباء بالمدينة المنورة وهو كما يظهر ابيض اللون

تبدو منارته عالية من بعد كما ذكر الرحالة .

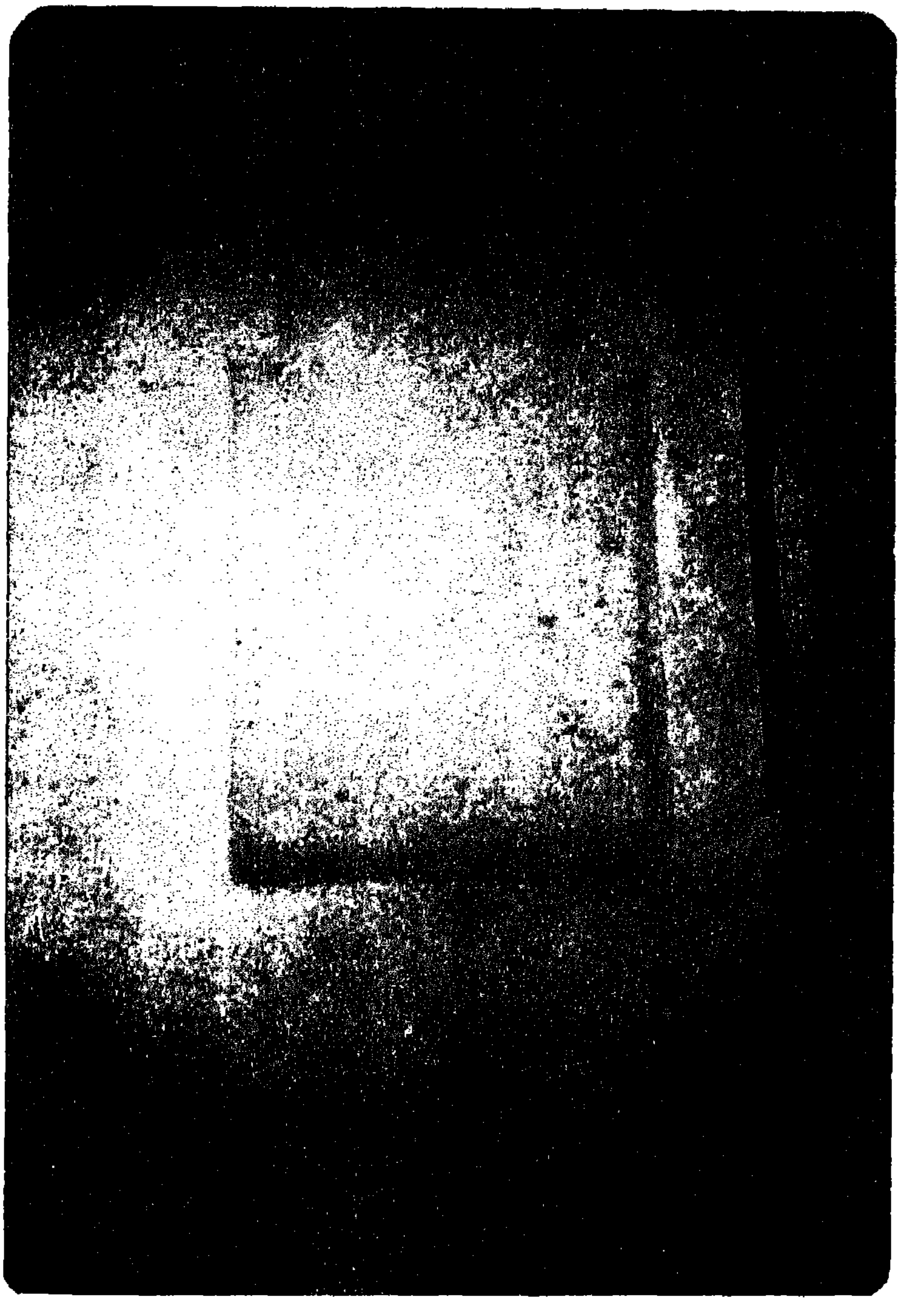
نقلاً عن المدينة المنورة وظهورها العمراني وتراثها المعماري .



الرسم رقم (٢٣)

يمثل مساجد الفتح بالمدينة المنورة

ويظهر صغرها وامتداد بعض الخراب إليها .



الرسم رقم (٢٤)

مثال على ما يعمل في الجدار من رفوف للتزيين الآن

وهو يؤكد أيضًا أن بعض أنماط الطراز المعماري

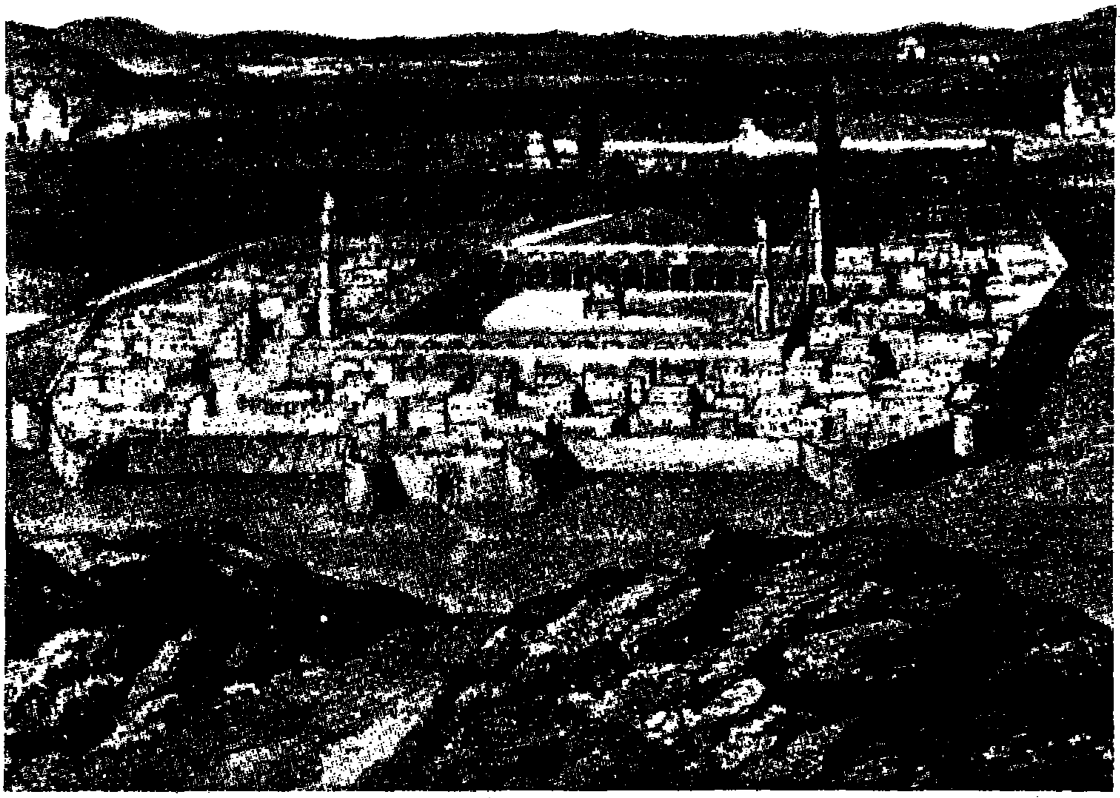
لا تزال موجودة إلى الآن .



الرسم رقم (٢٥)

نموذج آخر للأرفف التي تعمل في الجدار لوضع بعض الكتب

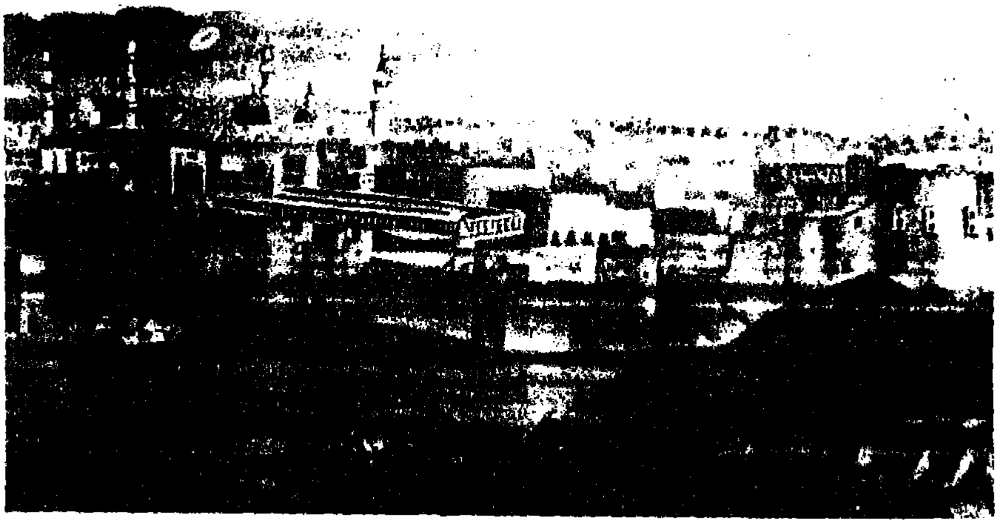
وبعض الأواني للزينة .



الرسم رقم (٢٦)

يمثل المدينة المنورة عام ١٨٥٣م كما يظهر سور المدينة المنورة .

نقلاً عن المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري .



الرسم رقم (٢٧)

يمثل رسمًا للمدينة المنورة المؤرخ عام ١٣٠٠هـ

ويظهر سور المدينة المنورة أيضًا .

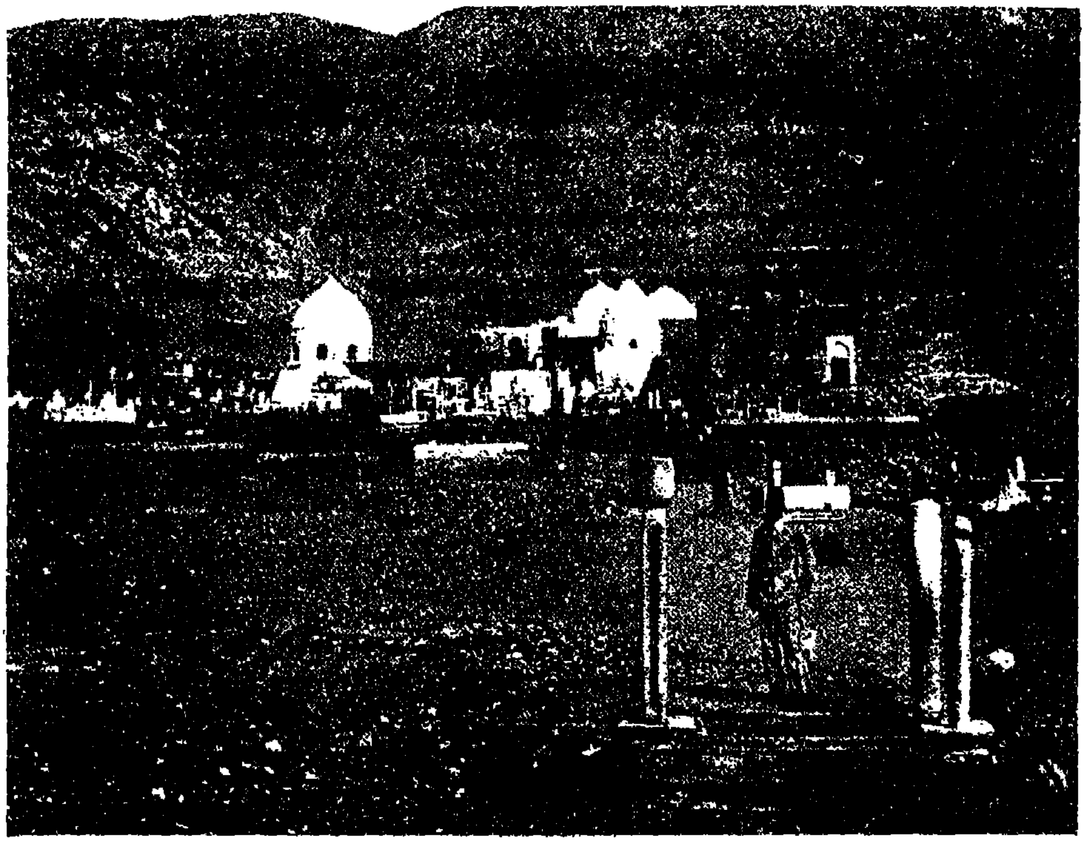
نقلاً عن فصول من تاريخ المدينة .



الرسم رقم (٢٨)

مدينة جدة كما جاءت في تاريخ المستبصر .

نقلاً عن موسوعة تاريخ جدة .



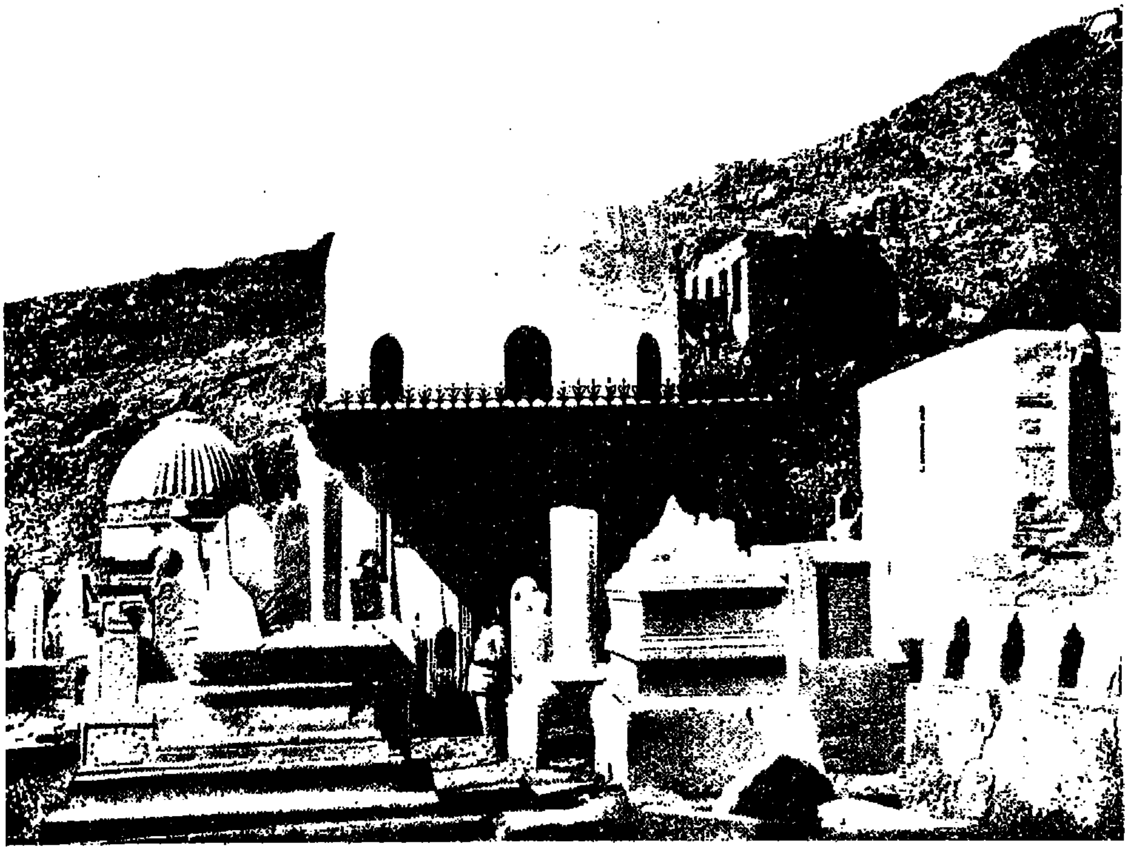
الرسم رقم (٢٩)

يظهر القبة التي بنيت على المكان الذي يعتقد أنه

مكان دفن السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة .

نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (٣٠)

يظهر القبة التي بنيت على المكان الذي يزعم انه مكان دفن السيدة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة .

نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (٣١)

يظهر القبة التي بنيت على قبر حواء أم البشر بجدة .

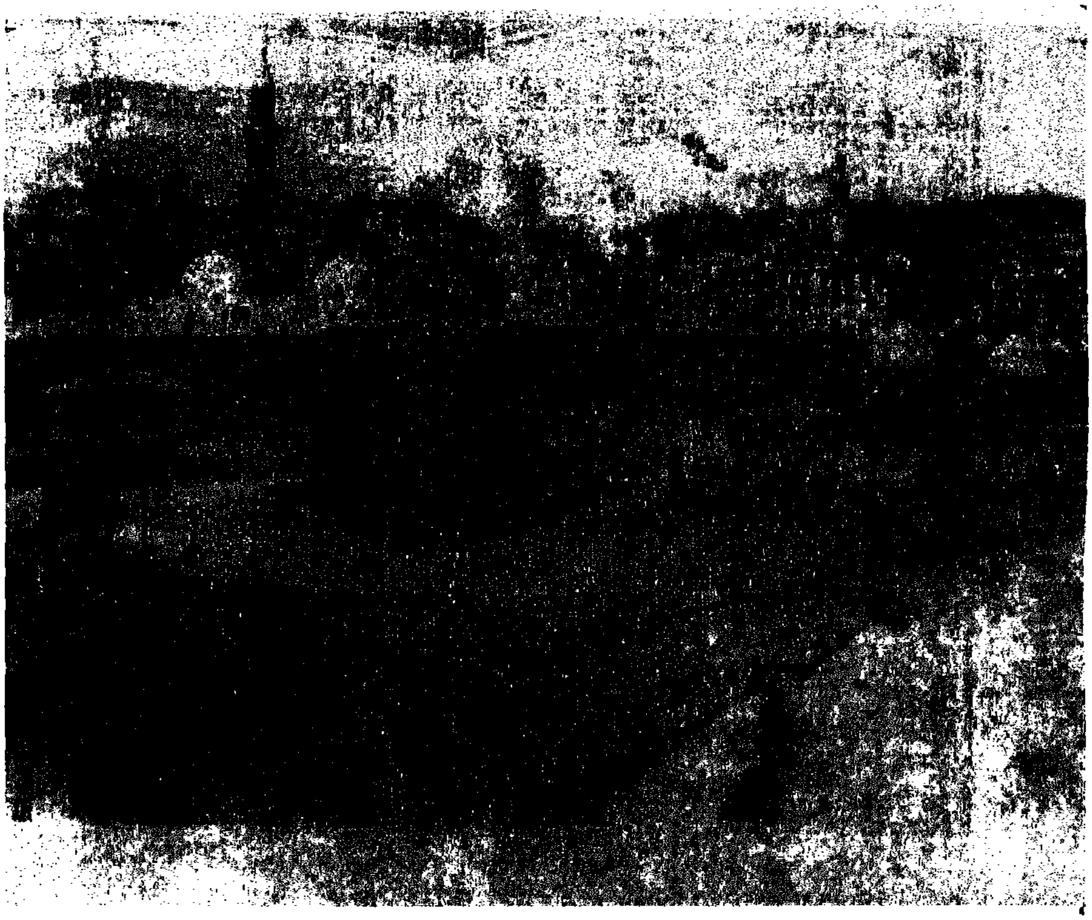
نقلاً عن مرآة الحرمين .



الرسم رقم (٣٢)

يظهر قبة إلى اليسار هي علامة على ما قيل انها قبر حواء ام البشر بجدة.

نقلاً عن مرآة الحرمين



الرسم رقم (٣٣)

يوضح وجود قبتين متلاصقتين باقصى اليمين بجانب قبة بئر زمزم كما وصف ابن جبير حيث كانت هاتان القبتان موجودتين منذ حوالي ٢٠٠ سنة. وهذا بدوره يثبت صدق الرحالة ودقتهم في الوصف مما يؤكد اهمية ما جاء في كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين من معلومات عن الأوصاف المعمارية. وبالتالي اهميتها في النواحي الأخرى.

نقلاً عن مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر المطبوعة :

١ ـ القرآن الكريم

* ابن الأثير، عز الدين ابن الأثير أبو الحسن على بن محمد الجزرى (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) .

٢ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دار الفكر ـ بدون ذكر سنة الطبع .

٣ ـ الكامل في التاريخ ، . ـ ط ٤ ـ . بيروت ـ دار الكتاب العربي ـ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

* ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي عرف بابن الأخوة (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م) .

٤ ـ معالم القربة في أحكام الحسبة ؛ تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦م .

* الأزرقي ، أبوالوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ / ٨٦٤م) .

٥ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ؛ تحقيق رشدي الصالح ملحس . ـ ط ٣ . ـ دار الثقافة ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

* ابن الإصبغ ، عرام الاصبغ السلمي (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) .

٦ ـ أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليه من الأشجار وما فيها من المياه ؛ تحقيق عبدالسلام هارون . ـ ط ١ ـ . القاهرة ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .

* الاصفهاني ، الحسن بن عبدالله (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) .

٧ ـ بلاد العرب ؛ تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، ط ١ ـ دار اليمامة ـ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

* الأنصاري ، عبدالرحمن بن عبدالكريم (ت ١١٢٤هـ / ١٧١٢م) .

٨ ـ تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ؛ تحقيق محمد العروس . ـ تونس ـ ١٩٧٠م .

* ابن إياس ، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) .

٩ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ؛ تحقيق محمد مصطفى . ـ ط ٢ ـ القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

* البخاري ، أبوعبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) .

١٠ـ صحيح البخاري بحاشية السندي . ـ بيروت . دار المعرفة ـ بدون ذكر سنة الطبع .

* ابن بطوطة ، أبوعبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) .
١١ـ تحفة النُظارفي غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) . - بيروت ، دار بيروت - ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
* البغدادي ، أبوبكر أحمد بن علي الخطيب (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠) .
١٢ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام . - بيروت - دار الكتاب العربي ، بدون ذكر سنة الطبع .
* البغدادي ، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) .
١٣ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ؛ تحقيق على محمد البجاوي . - ط ١ . - بيروت ، لبنان . دار المعرفة ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .
* البكري ، عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) .
١٤ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ؛ تحقيق مصطفى السقا . ط ٣ - . بيروت - عالم الكتب ـ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
* البلوي ، خالد بن عيسى (ت ٧٨٠هـ / ١٣٨٧م) .
١٥ـ تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ؛ تحقيق ومقدمة الحسن السائح بدون ذكر سنة الطبع .
* البنداري ، الفتح بن علي ؛ (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) .
١٦ـ سنا البرق الشامي ٥٦٢هـ/١١٦٦م : ٥٨٣هـ/١١٨٧م من كتاب البرق الشامي ؛ تحقيق فتحية البنداري ، مصر ، مكتبة الخانجي . ١٩٧٩م .
* التجيبي ، القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م) .
١٧ـ برنامج التجيبي ؛ تحقيق عبدالحفيظ منصور . - ليبيا - تونس . - الدار العربية للكتاب ـ ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
١٨ـ مستفاد الرحلة والاغتراب ؛ تحقيق عبدالحفيظ منصور . ـ ليبيا ـ تونس - الدار العربية للكتاب ـ ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
* الترمذي ، محمد بن عيسى بن سَورة (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) .
١٩ـ السنن . - ط ٢ ـ بيروت : لبنان ، دار الفكر ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

* ابن تغري بردي ، جمال الدين أبوالمحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .

٢٠ـ الدليل الشافي على المنهل الصافي ؛ تحقيق فهيم شلتوت ، مكتبة الخانجي ـ بدون ذكر سنة الطبع .

٢١ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب ـ بدون ذكر سنة الطبع .

* التنبكتي . أبو العباس سيدي أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أتيت عرف ببابا التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م) .

٢٢ـ نيل الابتهاج بتطريز الديباج . ـ ط ١ ـ . الفحامين مصر ـ طبعة عباس بن عبدالسلام بن شعرون ـ ١٣٥١هـ .

* ابن جابر ، محمد بن جابر الوادي آشي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) .

٢٣ـ برنامج ابن جابر الوادى آشي ؛ تحقيق محمد محفوظ . ـ ط ١ ـ أثينا ـ بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

٢٤ـ برنامج ابن جابر الوادي آشي ؛ تحقيق محمد الحبيب الهيلة . تونس ـ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

* ابن جبير ، أبوالحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) .

٢٥ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار (رحلة ابن جبير) دار صادر ـ بيروت ـ ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* الجزيري ، عبدالقادر محمد بن عبدالقادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي (ت٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م) .

٢٦ـ الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطرق مكة المعظمة ؛ أعده للنشر حمد الجاسر . ـ ط ١ ـ دار اليمامه ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

* ابن الجوزى ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) .

٢٧ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . ـ ط ١ ـ . حيدر أباد ـ الدكن ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ ١٣٥٧هـ .

* ابن حجر ، شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) .

٢٨ـ الإصابة في تمييز الصحابة . ـ بيروت ، دار الفكر ـ ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٢٩ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري ؛ تحقيق عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ومحمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب : بيروت ، دار المعرفة ، بدون ذكر سنة طبع .

٣٠ـ هدي الساري مقدمة شرح صحيح البخاري ؛ أخرجه وصححه محب الدين الخطيب وأشرف على طبعه قصي محب الدين الخطيب . - بيروت ـ لبنان ـ دار المعرفة ، بدون ذكر سنة الطبع .

٣١ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . - بيروت ، دار الجيل ـ بدون ذكر سنه الطبع .

* الحربي ، الإمام أبو إسحاق (ت ٢٨٥هـ / ٨٩٨م) .

٣٢ـ المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ؛ تحقيق حمد الجاسر . - ط ٢ ـ . الرياض ، منشورات وزارة الحج والأوقاف ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* الحريري ، أحمد بن علي (من رجال القرن العاشر الهجري)

٣٣ـ الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ؛ تحقيق سهيل زكار، دارالملاح ـ ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* الحموي ، شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .

٣٤ـ معجم البلدان ، دار صادر ـ بدون ذكر سنة الطبع .

٣٥ـ . معجم المؤلفين . - ط ٣ ـ دار الفكر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* الحميدي ، أبوعبدالله محمد بن أبي نصر الحميدى (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م)

٣٦ـ جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس ؛ تحقيق إبراهيم الأبيارى . - ط ١ ـ . دار الكتاب ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، دار الكتب الإسلامية ـ دار الكتاب المصري القاهرة .

* الحميري ، محمد بن عبدالمنعم (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م .

٣٧ـ الروض المعطار فى خبر الأقطار ؛ تحقيق إحسان عباس . - بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٥م

* الحنبلي ، أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م) .

٣٨ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ؛ تحقيق ناظم رشيد ، بدون ذكر سنة الطبع .

* الحنفي ، بدر الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله الشبلي الحنفي (ت ٧٦٩هـ/١٤٦٤م)
٣٩ـ غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة ؛ تحقيق إبراهيم محمد الجمل . – القاهرة ، مكتبة القرآن ، بدون ذكر سنة الطبع .
* ابن حوقل ، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٨م)
٤٠ ـ صورة الأرض . – بيروت ـ لبنان ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٩م
* ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م) .
٤١ـ المسالك والممالك . – بغداد ، مكتبة المثنى ـ بدون ذكر سنة الطبع .
* الخزرجي ، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م)
٤٢ـ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، تصحيح محمد بن علي الأكوع الحوالي . – ط ٢ ـ صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ـ صنعاء ـ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
* الخشني ، أبوعبدالله محمد بن الحارث الخشني القروي (ت ٦٦١هـ / ٩٧١م).
٤٣ـ قضاة قرطبة ، تحقيق إبراهيم الأبياري . – ط ١. ـ دار الكتاب اللبناني ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
* ابن الخطيب ، ذو الوزارتين لسان الدين (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) .
٤٤ـ الإحاطة في أخبار غرناطة ؛ تحقيق محمد عبدالله عنان . – ط ١ . ـ الشركة المصرية للطباعة والنشر ـ ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
* ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .
٤٥ـ تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . – بيروت – لبنان ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
* ابن خلكان ، ابن العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨١م) .
٤٦ـ وفيات الأعيان وأبناء الزمان ؛ تحقيق إحسان عباس . – بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٩م .
* الدرعي ، ابن عبدالسلام الناصري الدرعي (١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م) .
٤٧ـ ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي ؛ تلخيص وعرض حمد الجاسر . – ط ٢ ـ . دار الرفاعي ـ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

* ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي المعروف بابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)
٤٨ـ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ؛ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي. – ط ١ ــ . عالم الكتب ـ ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

* الحسيني ، شمس الدين أبوالمحاسن محمد بن علي بن الحسن الحسيني الدمشقي (ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م) .

٤٩ـ ذيل تذكرة الحفاظ للإمام أبوعبدالله شمس الدين محمد الذهبي . – بيروت – لبنان ، دار إحياء التراث العربي ، بدون ذكر سنة الطبع .

* الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م) .

٥٠ـ الأخبار الطوال ؛ تحقيق عبدالمنعم عامر ومراجعة جمال الدين الشيال . – ط١ – . القاهرة ، ١٩٦٠م

* الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م) .

٥١ـ سير أعلام النبلاء ؛ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ صالح السمر . – ط ٢ ـ . مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٥٢ـ العبر في خبر من غبر ؛ تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول . – بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية ، بدون ذكر سنة الطبع .

٥٣ـ دول الإسلام ؛ تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

٥٤ـ أسماء الذين راموا الخلافة ؛ نشرها صلاح الدين المنجد . – ط ٢ ـ . بيروت – لبنان ، دار الكتاب الجديد ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م

* ابن رستة ، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) .

٥٥ـ الأعلاق النفيسة . طبع ليدن ـ بريل ـ ١٨٩١م

* ابن رشيد ، أبو عبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهري (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م) .

٥٦ـ ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة . جـ ٢ تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م ، جـ ٣ ـ ١٩٨١م ، جـ٥ . – ط١ . – بيروت – لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

* الرعيني ، أبوالحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الإشبيلي (ت ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م)
٥٧ـ برنامج شيوخ الرعيني . – دمشق . ـ ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م
* الزبيدي ، محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)
٥٨ـ شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس ؛ تحقيق حسين نصار ومراجعة جميل سعيد وعبدالستار أحمد فراج . – الكويت ، دار الجيل ، ١٣٦٩هـ / ١٩٦٩م .
٥٩ـ شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الفكر ـ بدون ذكر سنة الطبع .
* ابن أبي زرع ، علي ابن أبي زرع الفاسي (ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م) .
٦٠ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . – الرباط ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، ١٩٧٢م .
* السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)
٦١ـ طبقات الشافعية الكبرى ؛ تحقيق عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي . – ط ١ . ـ القاهرة : ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .
* السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)
٦٢ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ؛ عني بطبعه ونشره أسعد طرا بزوني الحسيني بدون ذكر سنة الطبع .
* ابن سعد ، محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م) .
٦٣ـ الطبقات الكبرى . – بيروت : دار صادر ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
* السمهودي ، نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .
٦٤ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ؛ تحقيق محمد محيي الدين عبدالمجيد . – ط ٤ . ـ بيروت – لبنان ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
* السنامي ، عمر بن محمد بن عوض (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م) .
٦٥ـ نصاب الاحتساب ؛ تحقيق موئل يوسف عز الدين – . دار العلوم ـ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
* السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .
٦٦ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . – بيروت – لبنان ، المكتبة العصرية ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م

٦٧ـ تاريخ الخلفاء . – دار الفكر ، مكتبة الرياض الحديثة ـ بدون ذكر سنة الطبع .

٦٨ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . – ط ١ ـ . بيروت ، لبنان ، دار إحياء التراث العربي ـ ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

٦٩ـ تدريب الراوي في شرح النواوي ؛ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف . – ط ٢ ـ . بيروت ، لبنان، دار إحياء السنة النبوية . ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

* ابن شاكر ، محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

٧٠ـ فوات الوفيات والذيل عليها ؛ تحقيق إحسان عباس . – بيروت : دار صادر ، بدون ذكر سنة الطبع

* أبو شامة ؛ شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) .

٧١ـ الروضتين في أخبار الدولتين ؛ رواية الشيخ الإمام مجد الدين أبو المظفر يوسف بن محمد ابن عبدالله الشافعي . – بيروت ، – دار الجيل ، بدون ذكر سنة الطبع .

* ابن شهبة ، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد تقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي (ت ٨٨٥هـ / ١٤٤٨م) .

٧٢ـ طبقات الشافعية ؛ صححه وعلق عليه الحافظ عبدالعليم خان ور . – ط ١ ـ . بيروت ، عالم الكتب ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

* الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أحمد (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) .

٧٣ـ الملل والنحل ؛ تحقيق محمد سيد كيلاني . – بيروت : دار المعرفة ، بدون ذكر سنة الطبع .

* الشيبي ، محمد صالح بن أحمد بن زين العابدين الشيبي العبدري الحجبي (ت ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م) .

٧٤ـ إعلام الأنام في تاريخ بيت الله الحرام ؛ تحقيق إسماعيل أحمد إسماعيل حافظ ، ١٤٠٥هـ.

* الصفدي ، صلاح الدين خليل ابن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

٧٥ـ الوافي بالوفيات ؛ اعتناء إحسان عباس . – ط ٢ ـ ، دار النشر فرانز شتايز بفيسادن ـ ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) .
٧٦ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكتاب العربي ـ ١٩٦٧م .
* الطبري ، أبوالعباس أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبى بكر محب الدين الطبري المكي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) .
٧٧ـ القرى لقاصد أم القرى ؛ تحقيق مصطفى السقا . - ط٢ - . مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .
* الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) .
٧٨ـ تاريخ الأمم والملوك . - بيروت : دار الفكر ، بدون ذكر سنة الطبع .
* ابن الطقطقا ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (٧٠٩هـ /١٣٠٩م) .
٧٩ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية . - دار بيروت ـ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
* ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور بن أبي بكر بن علي (ت٩٨٦هـ / ١٥٧٨م) .
٨٠ـ الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف . - ط ٤ ـ . بيروت - لبنان ، المكتبة الشعبية ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .
* ابن عبدالبر ، عمر بن يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي المالكي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م).
٨١ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله . - دار الفكر، بدون ذكر سنة الطبع .
* العبدري ، أبو عبدالله محمد بن العبدري الحيحي (كان لا يزال على قيد الحياة سنة (٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م) .
٨٢ـ الرحلة المغربية ؛ تحقيق محمد الفاسي . - الرباط ، ١٩٦٨م .
* العصامي ، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م) .
٨٣ـ سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي . - المطبعة السلفية ، بدون ذكر سنة الطبع
* ابن عبدالظاهر، محيى الدين بن عبدالظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) .
٨٤ـ تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ؛ تحقيق مراد كامل ومراجعة محمد علي النجار . - ط ١ ـ . الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦١م .

* على ، يحيى بن الحسين بن قاسم بن محمد (ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٩م) .

٨٥ـ غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ؛ تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ومراجعة مصطفى زيادة . – القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

* ابن العماد ، أبوالفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) .

٨٦ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب . – دار الفكر – بدون ذكر سنة الطبع .

* العياشي ، أبو سالم (ت ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م) .

٨٧ـ الرحلة العياشية (ماء الموائد) ، وضع فهارسها محمد حجي . – ط ٢ – . الرباط : مصدره بالاوفسيط ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

* الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م)

٨٨ـ العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ؛ تحقيق محمد حامد الفقي وفؤاد سيد. – ط ٢ – . ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م – ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٨٩ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ؛ تحقيق عمر عبدالسلام التدمري . – ط ١ –. بيروت – لبنان ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

* أبو الفدا ، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

٩٠ـ المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبو الفدا) . – بيروت – لبنان ، دار المعرفة ، بدون ذكر سنة الطبع .

* ابن فرج ، عبدالقادر بن أحمد (ت ١٠١٠هـ / ١٦٠٢م) .

٩١ـ السلاح والعُدة في تاريخ بندر جُدة ؛ تحقيق أحمد عمر الزيلعي وريكس سميث – بدون ذكر سنة الطبع أو دار النشر .

* ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المدني المالكي ، (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) .

٩٢ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ؛ تحقيق محمد الأحمدي أبو النور . – القاهرة :دار التراث ، بدون ذكر سنة الطبع .

* ابن فضلان ، أحمد بن فضلان بن العباس راشد بن حماد (كان على قيد الحياة في مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

٩٣ـ رحلة بن فضلان في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م ؛ تحقيق وتعليق سامي الدهان . ـ دمشق : المجمع العلمي العربي ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
* ابن فهد ، النجم عمر بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) .
٩٤ـ إتحاف الورى بأخبار أم القرى ؛ تحقيق فهيم شلتوت . ـ ط ١ ـ . مكتبة الخانجي ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .
* العز ابن فهد ، عزالدين عبدالعزيز بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م)
٩٥ـ غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ؛ تحقيق فهيم شلتوت . ـ ط ١ ـ . دار المدني ـ ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
* الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) .
٩٦ـ القاموس المحيط ، دار الجيل ـ بدون ذكر سنة الطبع .
٩٧ـ المغانم المطابة فى معالم طابة ؛ تحقيق حمد الجاسر قسم المواضع . ـ ط ١ ـ . الرياض : دار اليمامة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) .
* الفيومي ، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) .
٩٨ـ المصباح المنير في غريب شرح الكبير . ـ بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م
* ابن القاضي ، أبو العباسى أحمد بن القاضيَ المكناسي الشهير بابن القاضي (كان حياً في حوالي منتصف القرن السابع الهجري) .
٩٩ـ جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس . ـ الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة ، ١٩٧٣م.
١٠٠ـ ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال . ـ ط ١ ـ . القاهرة : دار التراث . ـ تونس : المكتبة العتيقة ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م
* القرطبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٢م) .
١٠١ـ الجامع لأحكام القرآن ، بدون ذكر سنة الطبع .
* القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) .
١٠٢ـ آثار البلاد وأخبار العباد . ـ بيروت : دار صادر بدون ذكر سنة الطبع .
* القطبي ، عبدالكريم (ت ١٠١٤هـ / ١٧٠٢م) .
١٠٣ـ إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ؛ تعليق أحمد محمد جمال وعبدالعزيز الرفاعي وعبدالله الحيورى . ـ ط ١ ـ . دار الرفاعي ـ ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

* القلقشندي ، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) .

١٠٤ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ؛ شرح وتعليق ومقابلة نصوص نبيل خالد الخطيب . – ط ١ ـ . دار الفكر ـ دار الكتب العلمية ـ ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

* ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .

١٠٥ـ تفسير القرآن العظيم . بدون ذكر سنة الطبع .

١٠٦ـ البداية والنهاية . – ط ٤ ـ . مكتبة المعارف ـ ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

* ابن ماجه ، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م) .

١٠٧ـ السنن ؛ حققه محمد فؤاد عبدالباقي . دار الفكر ـ بدون ذكر سنة الطبع

* ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي (ت ٦٩٠هـ / ١٢٩١م).

١٠٨ـ تاريخ المستبصر ، ضبط وتصحيح أوسكر لوفغرين طبع بريل ـ ليدن ـ ١٩٥١م .

* الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) .

١٠٩ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية . – بيروت . لبنان ، دار الكتب العلمية ، بدون ذكر سنة الطبع .

* المراكشي ، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك الأنصاري الأوسي (ت٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) .

١١٠ـ الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة ؛ تحقيق إحسان عباس . – بيروت . لبنان ، دار الثقافة ، ١٩٦٥م .

* المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) .

١١١ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ؛ تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد بدون ذكر سنة الطبع

* مسلم ، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٣٠٦هـ/ ٩١٨م) .

١١٢ـ صحيح مسلم بشرح النووي . – ط ٢ ـ ١٣٩٢هـ .

* المقري ، أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) .

١١٣ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ؛ تحقيق إحسان عباس . - بيروت : دار صادر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
١١٤ـ أزهار الرياض في أخبار عياض ؛ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي . - القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م .
* المقريزي ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) .
١١٥ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية . - ط ٢ ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ ١٩٨٧م .
١١٦ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشرة محمد مصطفى زيادة . - القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بدون ذكر سنة الطبع .
* المنذري ، زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم عبدالقوي (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) .
١١٧ـ التكملة لوفيات النقلة ؛ تحقيق بشار عواد معروف . - ط ٢ ـ . مؤسسة الرسالة ـ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
* ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م) .
١١٨ـ لسان العرب . - بيروت : دار صادر ، بدون ذكر سنة الطبع .
* مؤلف مجهول . من كتاب القرن السادس الهجري .
١١٩ـ الاستبصار في عجائب الأمصار ؛ تحقيق سعد زغلول عبدالحميد . - الدار البيضاء : دارالنشر المغربية ، ١٩٨٥م .
* الناصري ، أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م) .
١٢٠ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ؛ تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري . - الدار البيضاء : دار الكتاب ، ١٩٥٦م .
* ابن النجار ، محمد بن محمود (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) .
١٢١ـ أخبار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة ؛ تحقيق صالح محمد جمال . - ط ٣ ـ مكتبة الثقافة ـ ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
١٢٢ـ الدرة الثمينة ملحق بكتاب شفاء الغرام ؛ حقق أصله وعلق عليه لجنة من كبار العلماء والأدباء . - بيروت ، لبنان : دار الكتب العلمية ، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م .

* النباهي ، أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي (ت ٧١٣هـ/ ١٣١٣م).
١٢٣ـ تاريخ قضاة الأندلس المسمى كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ؛ تحقيق لجنة إحياء التراث العربي . — بيروت . دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
* النعيمي ، عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م) .
١٢٤ـ الدارس في تاريخ المدارس ؛ تحقيق جعفر الحسني ، مكتبة الثقافة الدينية ـ ١٩٨٨م .
* الهجرى ، أبو على هارون بن زكريا (عاش في أواخر القرن الثالث الهجري) .
١٢٥ـ أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع ؛ تحقيق حمد الجاسر . — الرياض : منشورات دار اليمامة ، بدون ذكر سنة الطبع .
* ابن هشام ، الإمام أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣هـ /٨٢٨م)
١٢٦ـ السيرة النبوية لابن هشام ، حققها وضبط شرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي ، دار الكنوز الأدبية ـ بدون ذكر سنة الطبع .
* الهمداني ، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) .
١٢٧ـ صفة جزيرة العرب ؛ تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ؛ أشرف على طبعه حمد الجاسر . — الرياض : دار اليمامه ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
* ابن واصل ، جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل الحموي الشافعي (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) .
١٢٨ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ـ عصر صلاح الدين ٥٦٩هـ / ٥٨٩هـ / ١١٧٤ـ ١١٩٣م ؛ حققه وعلق حواشيه جمال الدين الشيال . — القاهرة : المطبعة الأميرية ١٩٥٧م.
* الورثيلاني ، الحسين بن محمد السعيد (ت ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م) .
١٢٩ـ نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهور بالرحلة الورثيلانية . — ط ٢ ـ . بيروت — لبنان ، دار الكتاب العربي ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
* ابن الوردي ، زين الدين عمر الوردي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) .
١٣٠ـ تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) ؛ تحقيق أحمد رفعت البدراوي . — ط ١ ـ . بيروت — لبنان ، دار المعرفة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م .

* اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) .

١٣١ـ تاريخ اليعقوبي ، دار صادر بدون ذكر سنة الطبع .

ثانياً : المراجع العربية :

* أحمد ، أحمد رمضان .

١٣٢ـ الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع ـ بدون ذكر سنة الطبع .

* أرسلان ، شكيب .

١٣٣ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية . ـ ط ١ ـ . مصر، المطبعة الرحمانية ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م .

١٣٤ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية . ـ ط ١ ـ . مصر، مطبعة عيسى البابي وشركاه ، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

* الأنصاري ، عبدالقدوس .

١٣٥ـ مع ابن جبير في رحلته . ـ ط ١ ـ . المطبعة العربية الحديثة ـ ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

١٣٦ـ آثار المدينة المنورة . ـ ط ٤ ـ ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

١٣٧ـ التحقيقات المعُدة بحتمية ضم جيم جُدة ، كتاب المنهل ـ بدون ذكر سنة الطبع .

١٣٨ـ موسوعة تاريخ جُده ـ ج ١ . ـ ط ٣ ـ القاهرة : دار مصر للطباعة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

* با سلامة ، حسين عبدالله .

١٣٩ـ تاريخ عمارة المسجد الحرام . ـ ط ٣ ـ . تهامة : ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* الباشا ، حسن .

١٤٠ـ الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، دار النهضة العربية ـ ١٩٨٧م .

* با قاسي ، عائشة عبدالله .

١٤١ـ بلاد الحجاز في العصر الأيوبي (٥٦٧هـ ـ ٦٤٨هـ/١١٧١ ـ ١٢٥٠م) . ـ ط ١ ـ ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* البرادعي ، أحمد بن محمد صالح الحسيني .
١٤٢ـ المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي . - ط ١ ـ ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م .
* البركاتي ، ناصر عبدالله ومحمد نيسان سليمان مناع .
١٤٣ـ دراسة تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة ـ مسجد الخيف ـ مسجد البيعة بمنى. - ط١ ـ . دار المدني ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
* البستاني ، المعلم بطرس .
١٤٤ـ دائرة المعارف . - بيروت ، لبنان ، دار المعرفة ، بدون ذكر سنة الطبع .
* البغدادي ، إسماعيل باشا .
١٤٥ـ هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين . - بيروت ، لبنان ، دار العلوم الحديثة .
* بكـر ، سيد عبدالمجيد .
١٤٦ـ الملامح الجغرافية لدروب الحجيج . - ط ١ ـ . تهامة ـ ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
١٤٧ـ أشهر المساجد في الإسلام . ج ١ ـ دار القبلة ـ ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
* البلادي ، عاتق بن غيث .
١٤٨ـ معجم معالم الحجاز . - ط ١ ـ . مطبوعات نادي الطائف الأدبي ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
١٤٩ـ معالم مكة التاريخية والأثرية . - ط ١ ـ . دار مكة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
* الجاسر ، حمد .
١٥٠ـ بلاد ينبع ـ لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة . - دار اليمامة ، بدون ذكر سنة الطبع .
١٥١ـ في شمال غرب الجزيرة ـ نصوص ـ مشاهدات ـ انطباعات . - ط ٢ ـ . دار اليمامة ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
١٥٢ـ رسائل في تاريخ المدينة . - الرياض ، دار اليمامة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
* حافظ ، علي .
١٥٣ـ فصول من تاريخ المدينة المنورة . - ط ٢ ـ . شركة المدينة للطباعة والنشر ـ ١٤٠٥هـ .
* الحجي ، عبدالرحمن علي .
١٥٤ـ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ ـ ٨٩٧هـ / ٧١١ ـ ١٤٩٢م.- ط ٢ ـ . دمشق : دار القلم ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

* حسن ، حسن إبراهيم .

١٥٥ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . – ط ٧ ـ . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤م .

* حسن ، زكي محمد .

١٥٦ـ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . – بيروت ، لبنان ، دار الرائد العربي ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

* حسين ، جميل حرب محمود .

١٥٧ـ الحجاز واليمن في العصر الأيوبي . – ط ١ ـ تهامة ـ ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

* حسين ، حسني محمود .

١٥٨ـ أدب الرحلة عند العرب . – ط ٢ ـ . دار الأندلس ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م

* الحسيني ، محمد .

١٥٩ـ الحياة العلمية في الدولة الإسلامية . – الكويت ، ١٩٧٣م .

* حميدة ، عبدالرحمن .

١٦٠ـ أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم . – ط ٢ ـ . دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

* الخربوطلي ، علي حسني .

١٦١ـ الحضارة العربية الإسلامية . – القاهرة : مكتبة الخانجي ، بدون ذكر سنة الطبع .

* الخطيب ، محمد عجاج .

١٦٢ـ السنة قبل التدوين . – ط ٣ ـ . دار الفكر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

* خليفة ، مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي .

١٦٣ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . – بيروت ، لبنان ، دار العلوم الحديثة ، بدون ذكر سنة الطبع .

* الدقن ، السيد محمد .

١٦٤ـ كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ . – ط ١ . – ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

* رفعت ، إبراهيم .
١٦٥ـ مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية . - بيروت : دار المعرفة ، بدون ذكر سنة الطبع .
* الزركلي ، خير الدين .
١٦٦ـ الأعلام ـ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . - ط ٧ ـ . بيروت ، لبنان ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٦م .
* زيادة ، نقولا .
١٦٧ـ رواد الشرق العربي في العصور الوسطى . - ط ٢ ـ . بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٨٦م .
١٦٨ـ الجغرافية والرحلات عند العرب . - ط ٣ ـ . بيروت : المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م .
* زيتون ، محمد محمد .
١٦٩ـ المسلمون في المغرب والأندلس . - دار الوفاء للطباعة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
* الزيلعي ، أحمد عمر .
١٧٠ـ مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١ ـ ٤٨٧هـ) . - ط ١ ـ . مطابع جامعة الرياض ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
* السباعي ، أحمد .
١٧١ـ تاريخ مكة . - ط ٦ ـ . مطبوعات نادي مكة الثقافي ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
* ششة ، نوال سراج .
١٧٢ـ جدة في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي . - ط ١ ـ . مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
* شلبي ، أحمد
١٧٣ـ موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ـ ج ٥ ـ التربية الإسلامية نظمها ـ فلسفتها ـ تاريخها . - ط ٦ ـ . مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨م .

* الشنقيطي ، غالي محمد الأمين .

١٧٤ـ الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ﷺ . ـ ط ٣ ـ . جدة : دار القبلة للثقافة الإسلامية ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

* الصابوني ، محمد بن علي .

١٧٥ـ صفوة التفاسير. ـ ط ٤ ـ . بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .

* الصياد ، محمد محمود .

١٧٦ـ رحلة ابن بطوطة . ـ سوسة ـ تونس : دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٥م

* ضيف ، شوقي .

١٧٧ـ عصر الدول والأمارات ، الجزيرة العربية ـ العراق ـ إيران . ـ مصر : دار المعارف ، ١٩٨٠م .

* العبادي ، أحمد مختار .

١٧٨ـ تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة الثقافة الجامعية .

١٧٩ـ في التاريخ العباسي والأندلسي . ـ ط ١ ـ . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٢م

* عبدالله ، عبدالرحمن صالح .

١٨٠ـ تاريخ التعليم في مكة المكرمة . ـ ط ١ ـ . دار الشروق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م

* عسه ، أحمد .

١٨١ـ المعجزة المغربية . ـ ط ١ ـ . بيروت ، لبنان : دار القلم للطباعة ، ١٩٧٤م ـ ١٩٧٥م .

* علي ، جواد .

١٨٢ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . ـ ط ٢ ـ . بيروت : دار العلم للملايين ، بغداد : مكتبة النهضة ، ١٩٧٨م .

١٨٣ـ تاريخ العرب قبل الإسلام . المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .

* عنان ، محمد عبدالله .

١٨٤ـ تراجم إسلامية شرقية وأندلسية . ـ ط ٢ ـ . القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

* القثامي ، حمود بن ضاوي .
١٨٥ـ معجم المواضع والقبائل والحكومات . مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
١٨٦ـ الآثار في شمال الحجاز . مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
* قطب ، سيد .
١٨٧ـ في ظلال القرآن . ــ ط ٩ ــ . دار الشروق ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م
* الكتاني ، عبدالحي بن عبدالكبير .
١٨٨ـ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ؛ اعتناء د/ إحسان عباس . ــ بيروت ، لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
* كحالة ، عمر رضا .
١٨٩ـ معجم المؤلفين ـ تراجم مصنفي الكتب العربية . دار إحياء التراث العربي ـ بدون ذكر سنة الطبع .
١٩٠ـ المستدرك على معجم المؤلفين . ــ ط ١ ــ . مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .
* الكردي ، محمد طاهر .
١٩١ـ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم . ــ ط ١ ــ . مكتبة النهضة الحديثة ، ١٣٨٥هـ .
* مال الله ، علي محسن عيسى .
١٩٢ـ أدب الرحلة عند العرب في المشرق نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري . ــ بغداد : مطبعة الإرشاد ، ١٩٧٨م .
* المالكي ، سليمان عبدالغني .
١٩٣ـ سلطنة كلوة الإسلامية . ــ ط ١ ــ دار النهضة العربية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م
ط . ــ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
١٩٤ـ مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة من السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية .
١٩٥ـ بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري . ــ الرياض : دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

* مرداد ، محمد عبدالحميد .
١٩٦ـ مدائن صالح تلك الأعجوبة . - ط ٢ ـ . المكتبة الصغيرة ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
* مرزا ، معراج نواب . عبدالعزيز صقر الغامدي ، محمد محمود السرياني ، زهير محمد جميل كتبي .
١٩٧ـ مكة المكرمة العاصمة المقدسة . مطابع الصفا ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
* مصطفى ، صالح لمعي .
١٩٨ـ المدينة المنورة ـ تطورها العمراني وتراثها المعماري . - بيروت : دار النهضة ، ١٩٨١م .
* مطر ، فوزية حسين .
١٩٩ـ تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف إلى نهاية العصر العباسي الأول . - ط ١ ـ . تهامة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
* مليباري ، محمد عبدالله .
٢٠٠ـ المنتقى في أخبار أم القرى . - مكة المكرمة : مطابع الصفا ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م
* مؤنس ، حسين .
٢٠١ـ في معالم تاريخ المغرب والأندلس . - ط ١ ـ . بيروت : القاهرة ، مؤسسة المعارف ، ١٩٨٠م .
٢٠٢ـ تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس . - ط ٢ ـ مدريد ، ١٩٨٦م .
* مورتيل ، ريتشارد .
٢٠٣ـ الأحوال السياسية والاقتصادية في العصر المملوكي . - ط ١ ـ . جامعة الملك سعود ـ ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
* النجار ، عبدالوهاب .
٢٠٤ـ قصص الأنبياء . - بيروت : دار الفكر ، بدون ذكر سنة الطبع .

ثالثاً : المراجع المعربة :

* كراتشكوفسكي ، أغناطيوس يوليا نوفتش .
٢٠٥ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي ؛ نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم وراجعه أيغور بليايين ، طبعة جامعة الدول العربية ـ ١٩٥٧م .

* متز ، آدم .

٢٠٦ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة . – ط ٤ – . بيروت ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

* هير جرونج ، كريستيان سنوك .

٢٠٧ـ مكة المكرمة منذ مائة عام ؛ صاغها مع مقدمة جديدة انجلوبيشي . – لندن ، دار ايميل النشر ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .

٢٠٨ـ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ج٢ ؛ تعريب وتعليق محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا ؛ مراجعة محمد إبراهيم أحمد علي . – ط ١ . – نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

رابعاً : البحوث والدوريات والمؤتمرات العربية :

* الأوسي ، حكمة علي .

٢٠٩ـ يحيى بن الحكم الغزال . – ج٢١ . العراق : مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

* الجاسر ، حمد .

٢١٠ـ موقع عكاظ . مجلة العرب ـ ملحق الجزء الثالث ـ س ٣ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

٢١١ـ من آثار مكة المكرمة . – مجلة العرب ـ ج ١٠ ـ س ٢ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

* حافظ ، إسماعيل .

٢١٢ـ باب الكعبة المعظمة على مر العصور . – مجلة الدارة ـ العدد ٣ ـ س ٧ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

* الحوت ، عبدالرحمن .

٢١٣ـ رسالة المسجد والإمام . – بحوث مؤتمر رسالة المسجد المنعقد في ١٥ ـ ٢٠ رمضان ١٣٩٥هـ / ٢٠ ـ ٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م .

* الدهاس ، فواز بن علي .

٢١٤ـ الأربطة ودورها العلمي والاجتماعي بمكة المكرمة ، بحث لم ينشر .

٢١٥ـ المدارس في مكة المكرمة في العهدين الأيوبي والمملوكي ، بحث لم ينشر .

٢١٦ـ وقفة عند كتاب المنتقى في أخبار أم القرى الجزء الأول والثاني .
جريدة عكاظ ـ العدد ٦٩٦٠ ـ ٢١ شوال ١٤٠٥هـ / ٩ يوليو ١٩٨٥م .
جريدة عكاظ ـ العدد ٧٠٢٣ ـ ٢٥ ذي الحجة ١٤٠٥هـ / ١٠ سبتمبر ١٩٨٥م .

* أبودياك ، صالح محمد فياض .

٢١٧ـ التبادل الفكري بين المغرب والأندلس وشبه الجزيرة العربية ، مجلة الدارة ـ العدد ٢ ـ س ١٣ ـ ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .

* الزيلعي ، أحمد بن عمر .

٢١٨ـ نظام المشاركة في الحكم لدى الأشراف بمكة المكرمة ، مجلة الدارة ـ العدد ٣ ـ س ١٤ ـ ١٤٠٩هـ .

* عثمان ، شوقي عبدالقوي .

٢١٩ـ تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، مجلة عالم المعرفة ـ العدد ٥١ ـ ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

* عراقي ، فيصل .

٢٢٠ـ الأماكن المأثورة في مكة المكرمة ، مجلة المنهل ـ العدد ٤٧٥ ـ ج ٥١ ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

* العقيلي ، محمد بن أحمد .

٢٢١ـ قبيلة بني شعبة ، مجلة العرب ـ مجلد ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣٩٤هـ / ١٩٨٤م .

* العلي ، صالح .

٢٢٢ـ تحديد الحجاز عند المتقدمين ، مجلة العرب ـ ج ٣ ـ س ٣ ـ ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

* عنقاوي ، عبدالله عقيل .

٢٢٣ـ المؤرخ تقي الدين الفاسي وكتابه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
دراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الكتاب الأول ـ الجزء الثاني ـ جامعة الرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

* قلور ، عز الدين .

٢٢٤ـ الحاج إلى بيت الله الحرام ، وزارة الإعلام ـ المديرية العامة للصحافة ـ بدون ذكر سنة الطبع .

* مجنوب ، محمد .

٢٢٥ـ رسالة المسجد قديماً وحديثاً ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد المنعقد في ١٥ ـ ٢٠ رمضان ١٣٩٥هـ / ٢٠ ـ ٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م .

* نصر الله ، توفيق .

٢٢٦ـ الأغوات نسل منقطع النظير، مجلة اليمامة ـ العدد ١٩٢ ـ ١٤١٠هـ.

* المتوني ، محمد .

٢٢٧ـ الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية وما إليها ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ الكتاب الأول ـ الجزء الثاني ، جامعة الرياض ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

خامساً : الرسائل الجامعية :

* نجار ، ليلى أحمد .

٢٢٨ـ المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي ، رسالة دكتوراه ـ جامعة أم القرى ـ ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، إشراف الدكتور / أحمد سيد دراج .

* الهمزاني ، بندر بن رشيد .

٢٢٩ـ علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم ، رسالة ماجستير ـ جامعة أم القرى ـ ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م . إشراف الدكتور / فواز الدهاس .

الكتاب

هذا الكتاب عبارة عن دراسة تحليلية نقدية مقارنة للمعلومات التي أوردتها كتب الرحلات المغربية والأندلسية عن الحجاز خلال القرنين السابع والثامن للهجرة وتوثيقها مع ما جاء في بعض مصادر التاريخ العامة . وهي معلومات ذات قدر كبير من الأهمية على اعتبار أنها من أوفى المصادر وأوثقها وأشملها فيما يتعلق بالحجاز . حيث كان تاريخ الحجاز خلال الفترة الممتدة من القرن الثالث الهجري إلى الثامن الهجري مبعثراً بين طيات المصادر التاريخية .كما أن ما كتب عنه لا يوضح ما وقع فيه من أحداث ، ولا يتناول إلا الجانب السياسي في أغلب الأحيان . وأن خير من تتبع تاريخه من معظم جوانبه بصدق وعفوية هم الرحالة المغاربة والأندلسيون في رحلاتهم التي تعد مصدراً أساسيًا من مصادر تاريخ الحجاز والتي لم تنل ما تستحقه من الدراسة ؛ مما شجع المؤلفة لبحث هذا الموضوع خاصة بعد اطلاعها على بعض كتب الرحلات في تلك الفترة، وما وجدته من معلومات غزيرة تستوجب البحث والإخراج ، فكانت حصيلة عملها الدؤوب هذا الكتاب الذي وضعته بين يدي القارئ .

المؤلفة

عواطف بنت محمد يوسف نوّاب .

من مواليد مدينة جدة عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م .

حصلت على شهادة البكالوريوس في التاريخ الإسلامي من جامعة أم القرى عام ١٤٠٥هـ .

نالت الماجستير من جامعة أم القرى في التاريخ الإسلامي تحت عنوان (الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين).

حصلت على الدبلوم العام في التربية من جامعة أم القرى عام ١٤١٣هـ.

تحضّر لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ . عملت معلمة في المدرسة الابتدائية الخامسة والأربعون ، وفرغت للدراسة منذ عام ١٤١٥هـ.

ISBN 9960-00-071-0

ردمك ٠-٧١-٠٠-٩٩٦٠